سلسلة العصبية القبلية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس






عاصمة الثقافة العربية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين
في بلاد المغرب والأندلس



دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجـوال: 070 91.77.73

بوزياني، الدراجي
دول الخوارج والعلويين / بوزياني الدراجي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.-
الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 243ص؛ 23سم
ردمك: 978-9947-833-01-8
الإيداع القانوني:154-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 5-2007 دار الكتاب العربي



الإهـــداء

ـ إلى شهـداء الجزائـر الأبـرار الذيـن قدمـوا أرواحهـم مـن أجـل قيـام دولـة جزائريـة عزيـزة مستقلـة وموحـدة.

ـ إلى المجاهديـن المخلصيـن لهـذه البـلاد الطاهـرة؛ الذيـن حققـوا المعجـزة وحـرروا البـلاد والعبـاد.

ـ إلى شبـاب الجزائـر المستقلـة الذيـن يضحـون بكـل غـال ورخيـص في سبيـل وحـدة الجزائـر وازدهارهـا الثقـافي والاقتصـادي.

ـ إلى كـل امـرأة جزائريـة حافظـت عـلى قيـم شعبهـا وثوابـت أمتهـا.

ـ إلى كـل هـؤلاء جميعـا أهـدي كتـابي المتـواضـع هـذا؛ راجيـا مـن اللـه أن يكـون لبنـة جديـدة تضـاف إلى صـرح بـلادي الثقـافي.

المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت ـ في إعداد هذه الدراسات ـ بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون ـ بعد تأمل عميق وتجربة واسعة ـ أن ظاهرة العصبية في بلاد

المغـرب وقفـت في طريـق كـل المحـاولات الممهـدة لقيـام أي دولـة قويـة أو لاستقـرار أي تنظيـم مخالـف للتنظيـم القبـلي؛ ذلـك التنظيـم الـذي يفتقـر – بـدوره – للاستقـرار والانضبـاط. وعليـه فقـد وضـع نظريتـه ليساعـد الدارسيـن لتاريـخ هـذه الديـار عـلى فهـم السبـب الكامـن وراء التخلـف السائـد في بـلاد المغـرب؛ ذلـك التخلـف الـذي منـع كـل تطـور وتقـدم نحـو حيـاة جديـدة فاضلـة؛ كـان ابـن خلـدون قـد عرفهـا في بلـدان أخـرى. وإذا كـان هنـاك مـن يشكـك في موضوعيـة النظريـة الخلدونيـة وصحـة طرحهـا؛ فـإن قراءتنـا نحـن للأحـداث التاريخيـة والأوضـاع الاجتماعيـة والسياسيـة في بـلاد المغـرب تجعلنـا أكثـر قربـا مـن التسليـم بهـا وتصديـق معظـم مـا جـاء فيهـا.

وإذا كـان ابـن خلـدون يصـف ظاهـرة اجتماعيـة سلبيـة كانـت سائـدة في عصـره المظلـم؛ ذلـك العصـر الـذي تميـز بالتراجـع والانكمـاش في الميادين الحضاريـة كافـة مـن: فكـر وثقافـة، أو صناعـة وابتكـار، أو عمـران وبنـاء، أو سياسـة مدنيـة، أو اقتصـاد منظـم؛ فـإن تلـك الظاهـرة الاجتماعيـة السلبيـة مـا زالـت متحكمـة فينـا، ومهيمنـة علينـا حـتى في زمننـا هـذا؛ حيـث ظلـت الـروح القبليـة والنزعـة للعصبيـة في أوج قوتهـا وعنفوانهـا؛ عـلى الرغـم مـن انتسابنـا للقـرن الواحـد والعشريـن، وعـلى الرغـم مـن قربنـا مـن مراكـز الحضـارة الحديثـة، وعلاقاتنـا الوطيـدة مـع المجتمعـات المدنيـة المتحضـرة في العالـم المتقـدم.

ولما كان التاريخ ـ دوما ـ عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فأني وجدت من الضروري ـ هنا ـ معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم ـ أو على الأقل ـ التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين

والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها ـ مع كثرتها ـ تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد ـ بسهولة ـ من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام ديناً، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعاً إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها ـ في حقيقة الأمر ـ كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل

أمازيغية واستماتت في حمايتها؛ ثم الدولة الفاطمية التي نشأت بسواعد أبناء كتامة وصنهاجة. وعليه فلا شك في أن أي صراع حدث بين قبائل المغرب والدول القائمة في تلك الأثناء لا يعدو أن يكون محصورا في نطاق العصبية القبلية؛ كما لا يخرج عما ذكره ابن خلدون حول تطلع القبيلة ـ كل قبيلة ـ ورغبتها في الوصول إلى مرتبة الملك؛ كمرحلة طبيعية؛ تقتضي تطور السلطة في القبيلة من مرتبة الرئاسة إلى مرتبة أعلى وأسمى وهي الملك.

ولا تفوتني ـ قبل الختام ـ فرصة التنويه بالمجهود الكبير الذي بذل من طرف دار الكتاب العربي بالجزائر في نشر وطباعة هذا الكتاب ـ وغيره من الكتب التي أتممتها ـ بهذا الشكل الأنيق الجيد. وأخص بالذكر ـ هنا ـ مدير الدار السيد **محمد خير الجهماني**، ووالديه: **مهند الجهماني**، و**فراس الجهماني**؛ بالإضافة إلى الآنسة الفنانة **لويزة الحسين**؛ التي لم تبخل ـ في كل مرة ـ بما حباها الله من إحساس مرهف كي تمنح كتابي لوحات معبرة بريشتها الذهبية.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4. جوان. 2001م

مدخل

يتضح من عنوان هذا الكتاب؛ أن للموضوع شقين: أولهما يتعلق بنشأة الدولة وسقوطها؛ وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وأفولها؛ وذلك من خلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما. وستتم معالجة الشقين ــ ضمن هذا المجال ــ في سياق واحد؛ دون اللجوء إلى الفصل بينهما؛ لأنهما متكاملان، ويدوران ــ معا ــ في حلقة واحدة.

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة؛ سينساق الذهن ــ منذ الوهلة الأولى ــ نحو إيجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى عبر التاريخ؛ في المجتمعات الإنسانية عموما. ويبدو أن هذه الفكرة تحتل مكانة ذات إغراء وإثارة أكثر من مجرد الاكتفاء باستقراء وتتبع الطريقة التي قامت بها دولة ما؛ على أنقاض دولة أخرى. وعليه فبفضل هذه الدراسة، وما يليها ضمن هذه السلسلة؛ ستتضح الصورة عن الكيفية التي تنشأ أو تسقط بها الدولة. وهنا سيتحتم ــ في هذا السياق ــ الاعتماد على نظرية ابن خلدون؛ لكونه احتل مكانة مرموقة ومتقدمة بين المفسرين لنشأة الدولة بالمغرب الإسلامي بصورة خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة.

وكمـــا هـــو معـــروف فنشـــأة الدولـــة ــ عمومـــا ــ ليســـت ســـوى خطـــوة حدثـــت بيـــن خطـــوات عديـــدة سبقتهـــا؛ ضمـــن مسيـــرة الإنســـان الطويلـــة؛ عبـــر الفتـــرات التاريخيـــة المختلفـــة في سبيـــل تحقيـــق التمـــدن والتحضـــر. وهـــذا مـــا يمكـــن استنتاجـــه مـــن خـــلال الشواهـــد الـــتي تثبـــت مواكبـــة نشـــأة الدولـــة ــ في غالـــب الأحيـــان ــ للنشـــاط العمـــراني، والازدهـــار الحضـــاري. وبالمقابـــل فقـــد لوحـــظ أن سقـــوط الدولـــة ينجـــر عنـــه ــ في جـــل الحـــالات ــ انهيـــار عمـــراني، وتقهقـــر حضـــاري.

فالـــدارس لتاريـــخ بـــلاد المغـــرب سيلاحـــظ ــ حتمـــا ــ مـــا تعرضـــت لـــه هـــذه البـــلاد مـــن تقلبـــات؛ نتيجـــة لطغيـــان ظاهـــرة اجتماعيـــة مثيـــرة للجـــدل؛ تركـــت بصماتهـــا العميقـــة في المســـار التطـــوري للمجتمعـــات المغربيـــة، ومنعـــت كـــل نشـــاط يهـــدف إلى استقـــرار الـــدول في تلـــك الديـــار. وهـــذه الظاهـــرة تتمثـــل في كثـــرة القبائـــل وتباينهـــا، وتعـــدد العصبيـــات واختلافهـــا. ويبـــدو أن الـــذي اكتشـــف تأثيـــر هـــذه الظاهـــرة قبـــل غيـــره هـــو عبـــد الرحمـــن بـــن خلـــدون؛ ذلـــك النابغـــة الـــذي خصـــص فصـــلا مستقـــلا في مقدمتـــه يشيـــر فيـــه إليهـــا وهـــو: "**فصـــل في أن الأوطـــان الكثيـــرة القبائـــل والعصائـــب؛ قـــل أن تستحكـــم فيهـــا دولـــة**".[1]

---

[1] **المقدمـــة، ج: 2، ص: 646.**

وقد برهن على رأيه ـ في هذا السياق ـ ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها ـ آنئذ ـ كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل ـ بعد ذلك ـ شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 647.

فمـا يمكـن استنتاجـه هنـا.. هـو أن للعصبيـة أثـرا كبيـرا؛ علـى نشـأة الـدول وسقوطهـا في هـذه الديـار. والدليـل علـى ذلـك يظهـر مـن خـلال مـا واجـه المسلميـن مـن أحـداث؛ علـى الرغـم مـن قوتهـم، وتعـدد جيوشهـم، وصـدق دعوتهـم. حيـث واجهتهـم ــ في بـلاد المغـرب ــ صعوبـات كثيـرة؛ عرقلـت مساعيهـم؛ قصـد ترسيـخ سلطانهـم، وتثبيـت دعائـم الدولـة الإسلاميـة. وربمـا استعـصى عليهـم تحقيـق ذلـك الأمـر؛ ولـم يتمكنـوا مـن تمهيـد البـلاد إلا في عهـد مـوسى بـن نصيـر؛ كمـا ذكـر ابـن خلـدون. أمـا عبـد اللـه المالـكي، والرقيـق القيـرواني؛[1] فيجمعـان علـى استقامـة الأوضـاع بإفريقيـة في عهـد حسـان بـن النعمـان. ومـع هـذا يبـدو أن استتبـاب الأمـر لـم يـدم طويـلا؛ حيـث عـادت الفتـن، والحـروب مـن جديـد؛ ودون توقـف. ويرجـع السبـب في ذلـك إلى العصبيـة المهيمنـة، والطابـع القبـلي؛ الـذي يتميـز بهمـا المغـرب. هـذا بالإضافـة إلى ظاهـرة البـداوة؛ المتفشيـة في تلـك الربـوع؛ نظـرا لكـون الأمازيـغ يعتبـرون مـن أهـل العصبيـات والأنسـاب؛ كمـا يقـول ابـن خلـدون ضمـن "**فصـل في أن المـدن والأمصـار بإفريقيـة والمغـرب قليلـة**".[2]

---

[1] **ريـاض النفـوس، ج: 1، ص: 57. وتاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 64.**

[2] **((وأيضـا فالصنائـع بعيـدة عـن البربـر؛ لأنهـم أعـرق في البـداوة. والصنائـع مـن توابـع الحضـارة؛ وإنمـا تتـم المبـاني بهـا؛ فـلا بـد مـن الحـذق في تعلمهـا؛ فلمـا لـم يكـن للبربـر انتحـال لهـا لـم يكـن لهـم تشـوف إلى المبـاني؛ فضـلا عـن**

وإذا كانت للبيزنطيين أثار بارزة ــ لا ينبغي نكرانها ــ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال فتحهم لإفريقية والمغرب. فإن هذا لا ينفي ــ في الحقيقة ــ جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ ــ في تلك الفترة ــ لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كَسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب ــ أيضا ــ إلى عرب القيروان، والعرب

المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ــ 990.

المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

وهكذا.. كان المغرب ـ في تلك الفترة ـ تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية، وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد ابن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[2] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 ـ 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 ـ 144.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 ـ 101. 107 ـــ 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 ـ 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 ـــ 157.

والشيعة.[1] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم. فأضحى المغرب الإسلامي ـ نتيجة لذلك كله ـ مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ـ طبعا ـ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

---

[1] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ـ 138. 146 ـ 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 ـ 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 ـ 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 ـــ 209.

ومن هنا.. تتضح الكيفية التي انتقلت بها عدوى عصبية القيسيين واليمينيين؛ إلى إفريقية والمغرب.. إذ انطلقت هذه الظاهرة الخطيرة من مكمنها؛ بتحريك وإثارة من قمة الدولة الأموية نفسها. وذلك أنه إذا كان بعض الفاتحين موبوءا بها دون وعي بمخاطرها؛ فإن خلفاء بني أمية؛ مثل: يزيد بن عبد الملك – حكم من 101هـ(719م) إلى 105هـ(723م) – وهشام بن عبد الملك – حكم من 105هـ إلى 125هـ(742م). ساعدا على استفحال هذا الوباء؛ بتشجيعهما للعصبية، والتكتلات القبلية.

ولمَّا كان المغرب الإسلامي – منذ البداية – يعج بأهل اليمن؛ فقد أضحى القادمون الجدد؛ من أهل الشام، وشمال شبه الجزيرة؛ غير مرغوب فيهم. وبذلك تبادل الولاة – من الطرفين – اضطهاد الرعية التي لا تنحدر من سلسلة نسبهم؛ ولا تجمعهم وإياهم عصبية واحدة. وقد يكون بشر ابن صفوان الكلبي هو أول الولاة المنحازين إلى عصبيتهم. حيث أحاط نفسه بهم، وأبعد غيرهم. ولكنه عزل بعد موت يزيد بن عبد الملك. ولما تولى هشام بن عبد الملك الحكم؛ عين قيسيا متعصبا على إفريقية والمغرب، **(وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي)**. فاضطهد أهل اليمن؛ من الكلبيين؛ الأمر الذي جعل أبا الخطار حسام

ابــن ضــرار الكلــبي[1] يســارع في إرســال أبيــات شعريــة مــن نظمــه إلى الخليفــة هشــام؛ ذكــره فيهــا بمواقــف الكلبييــن مــن بــني أميــة. وفيهــا يقــول:[2]

أفأتــمْ بَــنِي مَــرْوَانَ قيــســاً دِمَاءَنَــا
وَفِي اللـــهِ إنْ لمْ تُنْصِفُــوا حَكَــمٌ عَــدْلُ
كَأنكــمْ لــمْ تشْــهَــدُوا مَــرْجَ رَاهِــطٍ
وَلَــمْ تَعلمُــوا مَنْ كَانَ ثمَّ لَــهُ الفَضْــلُ
تعَامَيتـــمُ عَنَـــا بِعَيْـــنٍ جَلِيـــةٍ
وَأنتــمْ كــذَا ما قدْ عَلِمْنَــا لنَا فِــعْــلُ

فاغتــاظ الخليفــة هشــام مــن الــوالي عبيــدة بــن عبــد الرحمــن؛ فعزلــه مــن منصبــه؛ ولكنــه عيــن قيسيــا آخــر؛ **(وهــو عبيــدة اللــه بــن الحبحــاب)**. فتمــادى ــ هــو الآخــرــ في لعبــة العصبيــة الخطيــرة؛ الــتي انجــر عنهــا ــ في عهــده ــ أحــداث خطيــرة للغايــة؛ إذ نشبــت ثــورة الخــوارج الكبــرى؛ الــتي قادهــا ميســرة المطغــري؛ تلــك الثــورة الــتي كــادت أن تطيــح الحكــم العــربي نهائيــا في بــلاد المغــرب؛ كــل ذلــك جــراء النزعــة المتطرفــة للعصبيــة، والنعــرة المتشــددة للقبليــة.

---

[1] أسنــدت إليــه فيمــا بعــد إمــارة الأندلــس؛ فأظهــر فيهــا تعصبــا شديــدا لأهــل عصبيتــه اليمنيــة. ممــا أودى بــه إلى التهلكــة؛ بعــد أن أشعــل بــلاد الأندلــس بالفتــن والحــروب.

[2] البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 50.

وهكـذا فمـن يحلـو لـه اللعـب بالنـار؛ يتعـرض للاحتـراق أحيانـا.. حيـث استفحلـت ظاهـرة العصبيـة القبليـة، وأخـذت تنخـر كيـان الدولـة الأمويـة نفسهـا. فانحـدرت بهـا تلـك الظاهـرة السلبيـة إلى مهـاوي السقـوط والاندثـار.[1] لأن خلفـاء تلـك الدولـة استهوتهـم اللعبـة، فغفلـوا عـن الأخطـار الـتي يمكـن للعصبيـة أن تفرزهـا، إذا مـا استهيـن بمفعولهـا العكـسي، وتأثيرهـا عـلى استقـرار دولتهـم وسلامتهـا؛ فلـم يكتشفـوا جوانبهـا السلبيـة؛ وانساقـوا خلـف إغرائهـا العابـر، وطمعـوا في بعـض الفوائـد الظرفيـة الزائفـة. وشـاءت الأقـدار أن تتسبـب ظاهـرة العصبيـة في تفكـك الدولـة؛ عندمـا تمـردت بعـض القبائـل، والعصبيـات؛ في الأطـراف النائيـة؛ حيـث أنشـأت دولا، وإمـارات خاصـة بهـا. مـن ذلـك مـا حـدث في المغـرب الإسـلامي مثـلا؛ إذ تمكـن زعمـاء بعـض القبائـل، والأحـزاب مـن إقامـة كيانـات، ودول مستقلـة؛ عـن الدولتيـن: الأمويـة، ثـم العباسيـة بعدهـا؛ وتبعـا لمـا تفرضـه المجتمعـات القبليـة؛ فقـد كانـت تلـك الكيانـات تستنـد ــ بدورهـا ــ إلى عصبيـة القبائـل الأمازيغيـة.

---

[1] المفصـل في تاريـخ العـرب قبـل الإسـلام، ج: 1، ص 495. والعصبيـة القبليـة وأثرهـا في الشعـر الأمـوي، ص: 243. وفجـر الأندلـس، ص: 142. والمغـرب الإسـلامي، ص: 119.

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات – منذ البداية – قصد تأليف دول وإمارات – هنا وهناك – ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلى مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ اللذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم – في هذه الحال – متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتحِ وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن

أهم عوامل فشلهما ـ على ما يبدو ـ هو العامل الديني؛ الذي كان في صف الفاتحين.

وفي هذا السياق تتولى نظرية ابن خلدون تعزيز هذا الاعتقاد؛ وذلك من خلال ما عرضه ضمن بعض الفصول من مقدمته مثل: "**فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية؛ من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم؛ من الدين على الجملة**". و"**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء؛ العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة؛ على قوة العصبية؛ التي كانت لها؛ من عددها**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] وعليه فقد فشلت تلك الكيانات جميعها؛ في إنشاء ملك مستقل وقاهر. وتوقف الحال بها كلها في طور المشيخة والرئاسة؛ ذات السلطات المحدودة. غير أنه حصل لبعض القبائل الأخرى أنها تمكنت من إقامة دول مستقلة عن الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. ويعود السبب في ذلك إلى ما أصاب عصبية بني أمية من وهن؛ أدى إلى تلاشي ظلها عن بلاد المغرب. كما أن توافر بعض الشروط الفعالة؛ ساعدت هي الأخرى القبائل على إقامة دول مستقلة. من بينها العامل الديني أو المذهبي؛ الذي تمكنت بعض

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 626. 636 ـ 642.

القبائل من تحقيقه؛ الأمر الذي ساعد على تعزيز دور العصبية التي تنتمي إليها.

ولما كانت الدولة العباسية قد ورثت الأوضاع المتردية في بلاد المغرب ـ بعد سقوط الدولة الأموية ـ فقد تعذر عليها إعادة الكرة؛ وإخضاع الدول التي استقلت عن الخلافة من قبل. وهذا ـ طبعا ـ يعود إلى حداثة الدولة العباسية، وبداية عهدها من جهة؛ وإلى شدة العصبية الفياضة؛ التي تتميز بها القبائل المغربية؛ تلك العصبية التي جعلت منها قوة لا يستهان بها. هذا بالإضافة إلى العامل الديني؛ الذي أضحى يشد أفراد القبائل بعضهم إلى بعض. كما أن للعامل الجغرافي كلمته التي لا شك فيها في هذا الباب.

****

دول الخـــوارج

هــذه التسميــة **(الخــوارج)** لــم يطلقهــا أصحابهــا عــلى أنفسهــم؛ بــل سماهــم بهــا خصومهــم. لذلــك نجــد الإباضييــن في بــلاد المغــرب يستنكــرون إطــلاق هــذه التسميــة عليهــم.[1] وتعــود بدايــة ظهــور المذهــب الخــارجي إلى عهــد عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه. وبالتحديــد أثنــاء وقعــة صفيــن؛ أي حيــن رفضــت فئــة مــن المتقاتليــن نتيجــة التحكيــم؛ فخرجــوا عــن صــف عــلي، وفارقــوا صفــوف أنصــاره؛ معلنيــن العصيــان، ثــم دعــوا النــاس إلى خلعــه هــو ومعاويــة معــا. فاعتبرهــم أهــل السنــة ــ بسبــب ذلــك ــ خارجيــن عــن الصــف؛ وأسموهــم الخــوارج.[2]

---

[1] أنظــر: كتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، للدرجيــني، ج: 2، الصفحــات: 201 ومــا يليهــا. وكتــاب مختصــر تاريــخ الإباضيــة لسليمــان البــاروني، ص ص: 17 ــ 33. وكتــاب الإباضيــة في موكــب التاريــخ، الحلقــة الثانيــة، ص ص: 21 ــ 23. وكتــاب تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 2، ص ص: 337 ــ 400.

[2] أمــا الشهرستــاني فيقــول: ((كــل مــن خــرج عــلى الإمــام الحــق الــذي اتفقــت الجماعــة عليــه يســمى خارجيــا؛ ســواء كــان الخــروج في أيــام الصحابــة عــلى الأئمــة الراشديــن، أو كــان بعدهــم عــلى التابعيــن بإحســان، والأئمــة في كــل زمــان... اعلــم أن أول مــن خــرج عــلى أميــر المؤمنيــن عــلي رضي الله عنــه جماعــة ممــن كــان معــه في حــرب صفيــن؛ وأشدهــم خروجــا عليــه ومروقــا في الديــن الأشعــث بــن قيــس الكنــدي، ومسعــر بــن فــدكي التميــمي، وزيــد بــن حصيــن الطــائي؛ حيــن قالــوا: "القــوم يدعوننــا إلى كتــاب اللــه، وأنــت تدعونــا إلى السيــف" حــتى قــال: "أنــا أعلــم مــا في كتــاب اللــه! انفــروا إلى بقيــة الأحــزاب! انفــروا إلى مــن يقــول: كــذب اللــه ورسولــه، وأنتــم تقولــون: صــدق اللــه

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: ((**الأئمة من قريش**))؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: ((**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**)). هذا وتباعدت ــ بمرور الوقت ــ الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتنتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها: الأزارقة؛

ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ــ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ــ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ــ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي آلفرد بل، ص ص: 140 ــ 150. وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ص: 256 ــ 265.

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ــ

نسبة إلى نافع بن الأزرق؛ وهم من غلاة الخوارج. ثم النجدات؛ أتباع نجدة بن عامر. ثم الإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض التميمي؛ وهم أقرب الفئات المذكورة من المذاهب السنية؛ فلم يكونوا متطرفين، ولا مغالين في أحكامهم تجاه المخالفين لمعتقدهم من المسلمين. ثم الصفرية؛ أصحاب زياد ابن الأصفر، ويقتربون من الإباضية في أحكامهم ومواقفهم.[1]

وترجع بداية ظهور المذهب الخارجي؛ في بلاد المغرب إلى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. حيث انتقل من المشرق بواسطة الخوارج الهاربين من قمع الأمويين بالمشرق؛ إذ وجدوا في ديار المغرب النائية ملجأ آمنا لهم؛ ومنهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ ذلك الداعية الإباضي اليمني الأصل.[2] وربما كان من أولئك الخوارج أيضا من كان مندسا في صفوف

فيما بعد ــ عن هذه الفرق الثمانية فرق أخرى كثيرة منها: العوفية (العونية)، الصلتية، الميمونية، الحمزية، الخلفية، الأطرافية، الشعيبية، الحازمية، الأخنسية، المعبدية، الرشيدية، الشيبانية، المكرمية، المعلومية والمجهولية، البدعية، الحفصية، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138.

[1] يبدو أن الصفرية في بلاد المغرب كانوا أشد تطرفا من صفرية المشرق. مع استثناء واحد يتمثل في دولة سجلماسة التي تميزت بالتسامح؛ وإن كان ذلك التسامح بدأت بوادره انطلاقا من حكم مدرار؛ الذي أخذ في التقرب من بني رستم ومذهبهم الإباضي.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 22. الفرق الإسلامية لآلفرد بل، ص: 170. تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 3.

جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن الحبحاب.[1] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[2] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[3] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح

---

[1] يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 114. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـ 299. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 58 ـ 59.

[2] ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:1، ص: 137. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: 3، ص: 265.

[3] قال المالكي: ((دخل عكرمة إفريقة وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: 1، ص: 146. وجاء في التعليق 8 من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((أورد الذهبي في تاريخ الإسلام (3: 160) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه أهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: 82 ـ 83.

من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن خلدون.[1] وكما هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان يبديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ــ منذ البداية ــ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة

---

[1] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: 149. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: 6، ص ص: 210. 267 ــ 268.

122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ــ بعد مقتل ميسرة ــ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا ــ منذ البداية ــ خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينها هشا وظرفيا؛ فاستظلوا ــ سطحيا ــ بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية ــ وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين ــ فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم ــ في ذلك الوقت ــ بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر

---

[1] أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 ــ 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 ــ 51.

الكافي؛ مما أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب.

وحتى يسهل تفسير تلك الأحداث؛ يستحسن مراجعة نظرية ابن خلدون؛ التي تقول بضرورة تحقيق شروط التركيب والمزج الصحيحين؛ لكي يتحقق الالتحام الفعال بين العصبيات المراد توحيدها؛ **((لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)).**[1] ولما كانت القبائل الأمازيغية المتحالفة متساوية في قوة العصبية؛ فقد تعذر عليهم تحقيق الوحدة والمزج والتلاحم؛ خاصة وأنهم لم يمتلكوا زمام الدعوة المذهبية على أفضل وجه. وطبعا هذا شرط آخر يضعه ابن خلدون في نظريته؛ إلى جانب شرط المزج والتركيب السابق الذكر.[2] وقد ثبت عجز تلك القبائل المتحالفة تحت

---

[1] المقدمة ، ج: 2، ص: 599.

[2] يقول ابن خلدون: ((أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية... واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف [أي يزيد] عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى [أي أشد بداوة]

قيادة خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[1] أما سبب تصنيفهما إلى صفرية وإباضية؛ فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية

من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ــ 638.

[1] **أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ــ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.**

الثائــرة إلى صفريــة وإباضيــة؛ تبعــا لملاحظــة سلــوك كــل فئــة في القتــال أمــام خصومهــم مــن المسلميــن؛ ومــدى مــا يحرمونــه عــلى أنفسهــم ومــا يحللونــه.

وهكــذا فبواسطــة هاتيــن الفرقتيــن انتشــرت ــ بعــد ذلــك ــ الثــورات الطاحنــة؛ عبــر بــلاد المغــرب كلهــا. ثــورات ظاهرهــا مذهــبي وديــني؛ أمــا مضمونهــا فيتميــز بالعصبيــة والنزعــة القبليــة. وقــد تمكــن المذهبــان المذكــوران مــن تقسيــم البــلاد بينهمــا تقريبــا؛ فانحــازت قبائــل: غمــارة ومكناســة وبرغواطــة وبنــو يفــرن ومغيلــة وورفجومــة، وبعــض بطــون صنهاجــة، وبطــون مــن زناتــة؛ إلى الصفريــة. أمــا: هــوارة ونفوســة ولمايــة ولواتــة، وبطــون أخــرى مــن زناتــة؛ فقــد انضمــت إلى المذهــب الإبــاضي.[1]

هــذا وقــد انجــر عــن تلــك الانتمــاءات المذهبيــة قيــام دول خارجيــة مستقلــة في أقــاصي البــلاد؛ ترتكــز عــلى النظــام القبــلي، والــروح المذهبيــة. منهــا: دولــة برغواطــة؛ الــتي نشــأت في بدايتهــا ضمــن الغطــاء المذهــبي الصفــري، ثــم دولــة بــني مــدرار الصفريــة، ثــم دولــة بــني رستــم الإباضيــة. وقــد استطاعــت هــذه الــدول الثــلاث البقــاء والصمــود؛ أمــام كــل الاضطرابــات الــتي اجتاحــت المغــرب الإســلامي آنــذاك؛ متحديــة ــ بذلــك ــ سطــوة الخلافــة الأمويــة، ثــم الخلافــة العباسيــة بعدهــا. كمــا استطاعــت أيضــا إضفــاء

---

[1] **العبــر، مج: 6، ص ص: 223 ــ 227. 246 ــ 248. 255 ــ 267. 286 ــ 287. 428 ــ 438.**

طابع مذهبي وديني على مؤسساتها؛ مع شيء من التفاوت فيما بينها.

غير أنه من الضروري ــ هنا ــ التذكير؛ بكون الدول الثلاث كان يغلب عليها الطابع القبلي؛ مصبوغا بسمات البداوة المحض؛ معززة بمبادئ مذهبية، وعقائدية؛ منحتها نفحة دينية متميزة. علما بأن دولة بني رستم تفوقت على أختيها؛ في نظمها وفي سيادتها وفي نفوذها. إذ كانت تتمتع باستقلالية أوسع منهما. حيث كانت دولة برغواطة تعلن ولاءها للدولة الأموية بالأندلس.[1] أما إمارة بني مدرار؛ فقد صرحت بالدعوة لخلفاء بني العباس ببغداد.[2] ومع هذا فقد ظل ذلك الولاء شكليا؛ لا يؤثر ولا يتأثر. فالهدف منه هو كسب نوع من الشرعية؛ قد تساعد على الثبات والاستقرار. والذي يحث على تخصيص فقرات للحديث عن تلك الدول؛ في هذا المجال؛ هو ما عرف عن منعتها، وتحديها للدول الكبرى آنئذ. غير أن المعلومات الضئيلة التي أوردها المؤرخون عنها لا تفي بالحاجة المطلوبة. وسيبقى أمرها مغلفا بالغموض؛ ما دامت النصوص التاريخية الكافية مفقودة.

---

[1] المغرب، 135. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص: 183. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 224. والعبر، مج: 6، ص: 130.

[2] العبر، مج: 6، ص: 268. وصبح الأعشى، ج: 5، ص: 165.

وجملة القول؛ فهذه الدول نشأت في أعقاب الفشل الذي لحق بالقبائل الصفرية والإباضية؛ أمام ولاة إفريقية والمغرب؛ طوال الفترة الزمنية الممتدة من عام 124هـ(741م) إلى عام 144هـ(761م)؛ حيث تفرقت – نتيجة لذلك الفشل – القبائل الأمازيغية (الصفرية والإباضية) في ربوع المغربين: الأقصى والأوسط؛ أين تحصنوا في المناطق النائية، وشيدوا دولهم الخاصة بهم.

****

1)ـ الدولـــة البرغواطيـــة:

أدى فشـــل الصفريـــة والإباضيـــة أمـــام الدولـــة الأمويـــة ببـــلاد المغـــرب؛ إلى قيـــام الدولـــة الصفريـــة الأولى في أقــصى البـــلاد؛ ممثلـــة ببرغواطـــة سنـــة 127هـــ (744م). وذلـــك عندمـــا لجـــأت فلولهـــم ــ مـــع طريـــف الصفـــري ــ إلى إقليـــم تامسنـــا (بمنطقـــة الـــدار البيضـــاء حاليـــا)؛ حيـــث تـــرأس بعـــض القبائـــل ــ هنـــاك ــ مـــن: مصمـــودة وزواغـــة وزناتـــة، وقبائـــل أخـــرى.[1] وبعـــد موتـــه خلفـــه ابنـــه صالـــح؛ الـــذي نسبـــت إليـــه النحلـــة البرغواطيـــة. وبذلـــك يكـــون طريـــف وابنـــه صالـــح قـــد وصـــلا إلى مرتبـــة الرئاســـة والســـؤدد في قبائـــل متعـــددة؛ مـــع أنهمـــا لا ينتميـــان إلى عصبيتهمـــا. فكيـــف حصـــل ذلـــك؟

الإجابـــة عـــلى هـــذا توجـــد عنـــد ابـــن خلـــدون؛ الـــذي ذكرهـــا ضمـــن: "**فصـــل في أنـــه يحـــدث لبعـــض أهـــل النصـــاب الملـــكي دولـــة؛ تستغـــني عـــن العصبيـــة**".[2]

---

[1] وكانـــوا أحيـــاء مـــن قبائـــل كثيـــرة؛ ذكرهـــم البكـــري بقولـــه: ((وأن قبائـــل برغواطـــة الذيـــن يدينـــون لهـــم؛ وهـــم عـــلى ملتهـــم: جـــراوة، وزواغـــة، والبرانـــس، وبنـــو أبي ناصـــر، ومنجصـــة، وبنـــو أبي نـــوح، وبنـــو واغمـــر، ومطغـــرة، وبنـــو يـــورغ، وبنـــو دمـــر، ومطماطـــة، وبنـــو وزكسينـــت؛ وعددهـــم ينتـــهي أزيـــد مـــن عشـــرة آلاف فـــارس. وممـــن يديـــن لهـــم مـــن المسلميـــن، وينضـــاف إلى مملكتهـــم زناتـــة الجبـــل، وبنـــو يليـــت، ونمالتـــة، وبنـــو واسينـــت، وبنـــو يفـــرن، وبنـــو وناغيـــت، وبنـــو النعمـــان، وبنـــو إفلوســـة، وبنـــو كونـــة، وبنـــو يسكـــر، وأصـــادة، وركانـــة، وإيزميـــن، ومنـــادة، وماسينـــة، ورصانـــة، وترارتـــة؛ ومبلـــغ عددهـــم اثـــني عشـــر ألـــف فـــارس)). المغـــرب، ص ص: 140 ــ 141.

[2] المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ــ أيضا ــ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

ــ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ــ المتواجدة بمنطقة تامسنا ــ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب جزيرة طريف ــ بالعدوة الأندلسية ــ إلى طريف هذا[2]. وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 181.

[2] المغرب، ص: 135.

[3] قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر؛ يسمى طريفا ويكنى أبا زُرَعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في

أبــرز القــادة والأمــراء الأمازيــغ. أضــف إلى ذلــك كلــه مــا للعامــل الديــني مــن أثــر عــلى الأوضــاع؛ حيــث كــان للمذهــب الصفــري دوره في تعزيــز اللحمــة وشحــن النفــوس بالغيــرة وروح التضحيــة. ذلــك لأن الديــن يزيــل خلــق التكبــر والحســد والتنافــس. وبمــرور الوقــت نسيــت قبائــل تامسنــا نســب طريــف الأول، وخفيــت عــن التابعيــن الكيفيــة الــتي وصــل بهــا إلى الحكــم. وهكــذا أصبــح منسوبــا إليهــم وفي عدادهــم.

هــذا مــن جهــة؛ ومــن جهــة أخــرى ثمــة مــن لا يضــع الدولــة البرغواطيــة في عــداد الــدول الصفريــة أصــلا؛ نظــرا لكونهــا انحرفــت عــن تعاليــم المذهــب الصفــري الخــارجي نفســه؛ بــل هنــاك مــن يتهــم أمراءهــا بالارتــداد عــن الديــن الإســلامي أيضــا؛ حيــث أجمعــت المصــادر التاريخيــة عــلى ذلــك تقريبــا؛ تبعــا لمــا يدعيــه البرغواطيــون مــن النبــوة، وزعمهــم بنــزول الــوحي عــلى رابــع أمرائهــم (يونــس)؛ الــذي يقــال أنــه ابتــدع النحلــة البرغواطيــة، وألــف مــا أسمــاه قرآنــا.[1] عــلى أن بعــض المؤرخيــن ينسبــون ادعــاء النبــوة إلى جــدّه صالــح؛ ويقولــون أنــه هــو الــذي ابتكــر هــذه

أربعــة مراكــب؛ حــتى نــزل في ساحــل البحــر بالأندلــس؛ فيمــا يحــاذي طنجــة؛ وهــو المعــروف اليــوم بجزيــرة طريــف؛ سميــت باسمــه لنزولــه هنالــك؛ فأغــار منهــا عــلى مــا يليهــا إلى جهــة الجزيــرة الخضــراء، وأصــاب سبيــا ومــالا كثيــرا؛ ورجــع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيــان المغــرب، ج: 2، ص: 5.

[1] المغــرب، ص ص: 134 ـــ 141. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 223 ـــ 227. وأعمــال الأعــلام، ق: 3، ص ص: 182 ـــ 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 ـــ 435.

النحلة. أما يونس فقد أظهرها للعلن؛ بعد أن كانت تمارس في الخفاء.[1] وهذا طبعا يخرجه – مع أتباعه – من صفوف المذهب الصفري الخارجي الإسلامي. غير أن نشأة الدولة البرغواطية في بداية عهدها الأول – كما تشير مصادر عديدة – كانت صفرية المذهب؛ ولم يظهر على أصحابها انحراف ما عن جوهر الدين الإسلامي؛ وما حدث من انحراف لم يتم إلا في عهد أمير الدولة الرابع. لذلك وجدت هذه الدولة مكانا لها في هذا المجال.

والذي يهم هنا؛ هو أنه لا سبيل إلى الشك في أن عامل العقيدة – الممثل بالمذهب الصفري – قد لعب دورا هاما في تعزيز التحالف القبلي، وفي التلاحم بين أعضائه في بداية الأمر؛ مما ساعد على تشييد إمارة برغواطة. لكن هذا لا ينفي ما للعصبية الأمازيغية أيضا من تأثير في تقوية اللحمة وتماسكها بين القبائل. بحيث انبثق الأمر على شكل من أشكال الرفض والمقاومة للعصبية العربية؛ الممثلة بالأمويين أولا، ثم العباسيين بعدهم. هذا كله حث بعض العشائر والقبائل الأمازيغية، وحفزها على التحالف فيما بينها؛ ضمن عصبية واحدة؛ لمواجهة التحدي الذي كانوا يعتقدون أنه يهددهم.

---

[1] **المغـرب، ص: 135.**

وظهـور النحلـة البرغواطيـة ــ فيمـا بعـد ــ بيـن قبائـل لا تعـرف مـن تعاليـم الإسـلام الصحيحـة إلا القليـل منهـا؛ ساعـد علـى تكتلهـا ضمـن عصبيـة موحـدة وقويـة؛ شحنـت بمفاهيـم خرافيـة وطقـوس مضللـة، خاطئـة. كمـا أن تلـك النحلـة ليسـت بريئـة مـن النزعـة الشعوبيـة؛ الـتي متنـت اللحمـة بيـن العشائـر الأمازيغيـة، وزادتهـا ارتباطـا. ودلائـل ذلـك؛ تتجـلى فيمـا ورد مـن نصـوص تخـص نحلتهـم؛ تلـك النصـوص والطقـوس الوثنيـة الناطقـة بالأمازيغيـة.[1] الأمـر الـذي كـان يمدهـم بشحنـات مـن الزهـو والافتخـار الشعـوبي. وبذلـك اشتـدت عصبيتهـم واستفحلـت؛ محققـة لدولتهـم البقـاء، والاستمـرار إلى عهـد المرابطيـن؛ المشكليـن مـن قبائـل لمتونـة ومسوفـة؛ الذيـن تمكنـوا مـن إسقـاط الدولـة البرغواطيـة تمامـا سنـة 450هـ(1058م)؛ بفضـل تفوقهـم وامتيازهـم في شـدة العصبيـة وتماسكهـا؛ إلى جانـب صـدق وعنفـوان التعاليـم الدينيـة المهيمنـة علـى النفـوس.

وثمـة بعـض الكتـاب والمؤرخيـن الأندلسييـن والمغاربـة ــ مثـل ابـن أبي زرع وابـن الخطيـب ــ ينسبـون طريفـا وابنـه صالحـا إلى أصـول يهوديـة؛ وتقـول مصادرهـم بـأن صالحـا ــ أو طريفـا وربمـا يونـس في أقـوال أخـرى ــ قـد قـدم إلى بـلاد المغـرب مـن بلـدة شذونـة؛ المتواجـدة بـوادي بربـاط بالجنـوب

---

[1] **أنظـر مـا أورده البكـري في كتابـه المغـرب، ص ص: 139 ــ 140. وابـن عـذاري في البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 226 ــ 227.**

الغــربي مــن بــلاد الأندلــس؛ وعــلى ذلــك فقــد ســمي كــل مــن اتبعــه ــ في بدايــة الأمــر ــ برباــطي؛ ومــع الوقــت حرفــت التسميــة تبعــا لنطــق النــاس آنــذاك؛ فقالــوا في كــل مــن أتبــع مذهــب صالــح الصفــري برغــواطي.[1] غيــر أن عــددا مــن المؤرخيــن يخالفــون

---

[1] وعــن صالــح ونحلتــه يقــول ابــن أبي زرع: ((وكــان أصلــه ــ لعنــه اللــه ــ مــن بَربــاط مــن عمــل شذونــة مــن بــلاد الأندلــس؛ فكــان يقــال مــن تبعــه ودخــل في ديانتــه برباــطي؛ فعربتــه العــرب، وقالــوا برغــواطي؛ فسمــوا برغواطــة. وكــان صالــح بــن طريــف الــذي ادعى فيهــم النبــوة رجــلا خبيثــا يهــودي الأصــل؛ مــن ولــد شمعــون بــن يعقــوب عليــه الســلام؛ نشــأ ببربــاط مــن بــلاد الأندلــس، ثــم رحــل إلى المشــرق؛ فقــرأ عــلى عبيــد اللــه المعتــزلي القــدَري، واشتغــل بالسحــر؛ فجمــع منــه فنونــا كثيــرة. وقــدم المغــرب فنــزل بــلاد تامسنــا؛ فوجــد بهــا قبائــل مــن البربــر هــالا؛ فأظهــر لهــم الإســلام والزهــد والــورع؛ فأخــذ بعقولهــم، واستمالهــم بسحــره ولسانــه؛ وأراهــم مــن نوارجــه [أي نميمتــه] وتمويهاتــه؛ فاستهواهــم بذلــك، وأقــروا بفضلــه، واعترفــوا بولايتــه؛ فقدمــوه عــلى أنفسهــم، وصــدروا عــن رأيــه في جميــع أمورهــم، ووقفــوا عنــد أمــره ونهيــه؛ فــادعى النبــوة، وتســمى بصالــح المؤمنيــن. وقــال لهــم أنــا صالــح المؤمنيــن الــذي ذكــره اللــه في كتابــه العزيــز الــذي أنزلــه عــلى محمــد e؛ وشــرع لهــم الديانــة الــتي أخذوهــا عنــه وذلــك في سنــة خمــس وعشريــن ومائــة... وأنهــم يصومــون شهــر رجــب، ويأكلــون شهــر رمضــان، وفــرض عليهــم عشــر صلــوات: خمســا بالليــل، وخمســا بالنهــار؛ وإن الأضحيــة واجبــة عــلى كــل مسلــم في الحــادي والعشريــن مــن المحــرم. وشــرع لهــم في الوضــوء غســل الســرة والخاصرتيــن. وصلاتهــم إيمــاء؛ لا سجــود فيهــا، ويسجــدون في آخــر ركعــة خمــس سجــدات. ويقولــون عنــد الطعــام والشــراب: باســم "ياكــس"؛ وزعــم أن تفسيــره باســم اللــه. وأمرهــم أن يخرجــوا العشــر مــن جميــع الثمــار. وأبــاح لهــم أن يتــزوج الرجــل مــن النســاء مــا شــاء؛ ولا يتــزوج مــن بنــات عمــه؛ ويطلقــون ويرجعــون ألــف مــرة في اليــوم. فــلا تحــرم عليهــم المــرأة بــشيء مــن ذلــك. وأمرهــم بقتــل الســارق حيــث وجــد؛ وزعــم أنــه لا يطهــره مــن ذنبــه إلا السيــف. وأمرهــم بالديــة مــن البقــر. وحــرم عليهــم رأس

هــذا الــرأي؛ مــن بينهــم عبــد الرحمــن بــن خلــدون الــذي يكــذب الأخبــار الــتي تنســب صالحــا هــذا إلى اليهــود، أو ترجــع موطنــه الأول إلى بلــدة بربــاط، أو تقــول أنــه ذهــب إلى المشــرق؛ أيــن تعلــم السحــر، أو تزعــم أنــه قــرأ عــلى عبيــد اللــه المعتــزلي؛ ثــم عودتــه إلى المغــرب؛ أيــن وجــد قومــا مــن زناتــة جهلــة... إلــخ. ثــم ينتــهي إلى القــول: ((**ذكــر ذلــك كلــه صاحــب كتــاب نظــم الجوهــر وغيــره مــن النسابيــن للبربــر. وهــو مــن الأغاليــط البينــة. وليــس القــوم مــن زناتــة؛ ويشهــد لذلــك كلــه موطنهــم وجوارهــم لإخوانهــم المصامــدة. وأمــا صالــح بــن طريــف فمعــروف منهــم؛ وليــس مــن غيرهــم؛ ولا يتــم التغلــب عــلى النــواحي والقبائــل لمنقطــع جذمــه، دخيــل في نسبــه. سنــة اللــه في عبــاده؛ وإنمــا الرجــل في برغواطــة؛ وهــم شعــب مــن شعــوب المصامــدة معــروف**)).[1] ومــع ذلــك فمــا قالــه ابــن خلــدون في هــذا الأمــر يحتــاج إلى تمحيــص وفحــص؛ فهــو عندمــا نســب برغواطــة إلى المصامــدة. وحيــن أرجــع مصــدر تلــك الأخبــار ــ المرفوضــة

كــل حيــوان؛ والدجاجــة مكــروه أكلهــا؛ وقــد وقتهــم في الأوقــات الديكــة؛ وحــرم عليهــم ذبحهــا وأكلهــا؛ ومــن ذبــح ديكــا وأكلــه أعتــق رقبــة... ووضــع لهــم قرآنــا يقرؤونــه في صلواتهــم)). الأنيــس المطــرب، ص: 83. كمــا تكلــم البكــري أيضــا عــن بعــض التفاصيــل الأخــرى تخــص هــذه النحلــة. المغــرب، ص ص: 135 ــ 140. وقــد أشــار إليهــا أيضــا ابــن عــذاري وابــن الخطيــب. البيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 225 ــ 227. أعمــال الأعــلام، ق: 3، ص ص : 182 ــ 183.

[1] العبــر، مج: 6، ص: 435.

لديه ــ إلى صاحب كتاب نظم الجوهر وآخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[1] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب ــ وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون ــ وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكرى.[2] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور ابن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى ابن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

---

[1] المغـرب، ص: 135.

[2] العبـر، مج: 6، ص ص: 428 ــ 432.

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[2] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ــ حسبما يبدو ــ جماعات من الصفرية الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.**

[2] **العبر، مج: 6، ص: 428.**

الـذي نسبـت إليـه النحلـة البرغواطيـة. ويقـول ابـن خلـدون أن أول ظهـور لـه كـان في عهـد هشـام بـن عبـد الملـك.

أمـا مـا راج مـن مزاعـم تنسـب طريفـا أو صالحـا إلى اليهـود؛ يظهـر أنهـا لـم تكـن سـوى شكـل مـن أشكـال النبـز والشتيمـة.. والـذي عـزز تلـك الافتراضـات ــ حسبمـا يظهـر ــ هي أسمـاء أجدادهمـا مثـل: شمعـون ويعقـوب وإسحـاق؛ ثـم بعـض الإشـارات الأخـرى الـتي تنبعـث مـن معتقداتهـم وأساطيرهـم؛ الـتي وردت في قرآنهـم المزعـوم. وحـتى إن صـح نسبهـم لليهـود؛ فقـد يكـون ذلـك حصـل قبـل الفتـح؛ إذ يحتمـل أن يكـون طريـف قـد انحـدر مـن أسـرة كانـت تعتنـق ديانـة يهوديـة؛ قبـل أن يدخـل الإسـلام إلى ديـار المغـرب. وهـذا أمـر كـان موجـودا في تلـك الربـوع؛ إذ ذكـرت مصـادر تاريخيـة عديـدة اعتنـاق بعـض القبائـل الأمازيغيـة للديانـة اليهوديـة، إلى جانـب المسيحيـة في بـلاد المغـرب قبـل الفتـح الإسـلامي. وطبعـا فمـا المانـع مـن التسليـم بدخـول مـن كـان يهوديـا أو نصرانيـا إلى الإسـلام؛ ضمـن الأفـواج الـتي دخلـت فيـه مـن أتبـاع الديانـات الأخـرى؟

ـ حكومـــة إليـــاس بـــن صالـــح البرغـــواطي:

وتقــول بعــض المصـــادر أن صالحـــا استخلــف ابنـــه إليـــاس، ثـــم سافـــر إلى المشـــرق سنـــة 128هــ(745م). وذلـــك بعـــد أن أوصــاه بإخفـــاء ديانتهـــم؛ حـــتى يقـــوى شأنهـــم؛ فيتســـنى لـــه ـ عندئـــذ ـ قتـــل المخالفيـــن. كمـــا أوصـــاه بـــأن يلتـــزم بمـــوالاة ملـــوك بـــني أميـــة في الأندلـــس. وتقــول بعــض الروايـــات أيضـــا أنـــه أخبـــره بموعـــد عودتـــه المقبلـــة؛ الـــتي حددهـــا بحلـــول عهـــد الملـــك السابـــع مـــن ملوكهـــم؛ حيـــث قـــال أنـــه سيظهـــر لهـــم في شخـــص المهـــدي؛ الـــذي يقتـــل الدجـــال، ويمـــلأ الأرض عـــدلا بعـــد أن تكـــون قـــد ملئـــت جـــورا. ثـــم قـــال لـــه: إن عيـــسى بـــن مريـــم عليـــه الســـلام سيكـــون مـــن بيـــن جنـــوده؛ إذ يصـــلي خلفـــه. ومـــن خـــلال مـــا جـــاء في بعـــض الروايـــات؛ تكـــون مـــدة حكـــم صالـــح قـــد دامـــت نحـــو ســـت سنيـــن. ولمـــا انتصـــب إليـــاس ملكـــا علـــى قبائـــل برغواطـــة عمـــل بوصيـــة والـــده؛ فلـــم يظهـــر شيئـــا مـــن نحلـــة برغواطـــة؛ وتقـــول المصـــادر أنـــه كتمهـــا ولـــم يخـــض في شأنهـــا؛ وبالمقابـــل كـــان يظهـــر الإســـلام، ويتحـــلى بالعفـــاف والصـــلاح. وبـــقي في الحكـــم مـــا يقـــارب الخمسيـــن سنـــة.

ـ حكومة يونس بن إلياس البرغواطي:

وبعد موت إلياس سنة 176هـ(792م) خلفه ولده يونس. فاتخذ **شالة** حاضرة لملكه. وهو أول من أظهر ديانتهم المزعومة؛ في أرجح الأقوال. وتم ذلك بعد عودته من رحلة الحج.[1] غير أن بعضهم ينسب إليه تأسيس النحلة دون جده صالح.[2] وكان يونس هذا شديدا وفاتكا؛ إذ أشعل تلك الجهات الغربية حربا وتدميرا وتشريدا للسكان؛ مجبرا

---

[1] قال ابن خلدون: ((ورحل يونس إلى المشرق وحج؛ ولم يحج أحد من أهل بيته قبله أو بعده؛ وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه)). العبر، مج: **6**، ص: **430**.

[2] نقل البكري قائلا: (("قال أبو العباس فضل بن مفضّل المذحجي؛ أن يونس القايم بدين برغواطة أصله من شذونة؛ من وادي بَربَط. وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح، ويزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوث بن سعيد التراري، وجدّ بني عبد الرزاق (ويعرفون ببني وكيل الصفرية)، ومناد صاحب المنادية (المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة)، وآخر ذهب عني اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدين؛ وادعى ثلاثة منهم النبوة؛ منهم يونس صاحب برغواطة". قال: "وكان يونس شرب دواء الحفظ؛ فلقن كل ما سمع وحفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجانّ، ونظر في الكلام والجدال؛ وأخذ ذلك عن غيلان؛ ثم انصرف يريد الأندلس؛ فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة؛ فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم. وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها؛ مما تدل عليه النجوم عندهم؛ فتكون على ما يقول أو قريبا منه؛ فعظم عندهم. فلما رأى ذلك منهم، وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته، ودعا إلى نبوته؛ وسمى من اتبعه بربطي؛ لما كان من بربط؛ ثم أحالوه بألسنتهم وردّوه إلى لغتهم؛ فقالوا برغواطي)). المغرب، ص ص: **137 ـ 138**.

الناس على إتباع نحلة جده.[1] ودام حكمه تسع وعشرة سنة؛ إذ توفي في عام 195هـ(810م). وهذا الرأي يخالف ما ذكره ابن خلدون؛ الذي يرى أنه حكم زهاء 44 سنة.

ـ حكومة أبي غفير معاذ بن يونس البرغواطي:

وبعد موت يونس تربعِ على سدة الحكم في دولة برغواطة ولده أبو غفيْر معاذ بن يونس؛ فكانت وطأته على الناس شديدة؛ حيث تابع نهج أبيه في إبادة الخارجين عن ديانة أجداده. وقد شن حملات إبادة جماعية على الخارجين عن سلطانه والرافضين لنحلته؛ وأهم تلك الوقائع والحملات: موقعة مدينة **تيمغيسن**؛ وكانت من كبريات المدن؛ فهجم عليها هجمة إبادة ذات أبعاد وحشية؛ دامت رحاها ثمانية أيام كاملة؛ حيث بدأت بيوم الخميس؛ ولم تتوقف إلا في الخميس الموالي؛ وجاء في الأخبار أن أزقة المدينة ودورها أضحت مليئة بالدماء. وشن أيضا حملة أخرى في موضع يقال

---

[1] وفي هذا يقول البكري: ((فتولى الأمر بعد أبيه؛ فاظهر ديانتهم، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها؛ حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة؛ حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه؛ وقتل منهم بموضع يقال له تَامْلُوكَافْ ـ وهو حجر نابت عالي في وسط السوق ـ سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا. وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد؛ ـ والوغد عندهم المنفرد الوحيد؛ الذي لا أخ له ولا ابن عم ـ)). المغرب، ص: 136.

لـه **بَهْـت**؛ فأحـدث فيـه مـن القتـل والتمثيـل مـا لا حصـر لـه. وكانـت لـه كذلـك حـروب عظيمـة مـع الأدارسـة؛[1] وقـد خسـر في تلـك الحـروب كثيـرا مـن أتباعـه وأراضيـه؛ حـتى **شالـة** ــ عاصمـة دولتـه نفسهـا ــ سقطـت في أيـدي إدريـس بـن إدريـس؛ بالإضافـة إلى مناطـق واسعـة مـن تامسنـا.[2]

---

[1] **أعمـال الأعـلام؛ ق: 3، ص: 186. دولـة الأدارسـة، ص: 280.**

[2] **وأبـو غُفَيـر هـذا هـو الـذي جـاء ذكـره في القصيـدة الـتي قالهـا سعيـد بـن هشـام المصمـودي؛ يهجـو فيهـا برغواطـة؛ منهـا:**

قِـفِي قَبْـل التَّفَـرق فَاخْبِرينَـا
وقـُولِي وَاخْبِـرِي خَبَراً مُبِينـَا
هُمُـومَ بَرَابِر خَسِـرُوا وَضَلـُّوا
وخَابُـوا لاَ سُقُوا مَـاءً مَعِينَـا
يَقُولُـونَ: النـَّبِيُّ أبـُو غَفِيـرٍ
فَأَخْـزَى اللَّـهُ أمَّ الكَاذِبِينَـا
ألَمْ تَسْمَـعْ ولَمْ تَـرَ يَوْمَ بَهْـتٍ
عَـلَى آثَـارِ خَيْلِهِـمُ رَنِينَـا
رَنِيـنَ البَاكِيَـاتِ بِهِـمْ ثُكَـالَى
وَعَاوِيَـةٍ وَمُسْقِطَـةٍ جَنِينَـا
هُنَالِـكَ يُونُـسُ وَبَنُـو أَبِيـهِ
يُوَالُـونَ البَـوَارَ مُعَظِّمِينَـا
فَلَيْـسَ اليَـوْمَ رِدَّتُكُـمْ ولَكِـنْ
لَيَـالِي كُنْتُـمُ مُسْتَيْسِرِينَـا

(يقصـد بكلمـة مستيسريـن أنهـم كانـوا مـن أتبـاع ميسـرة المطغـري)

وبقي أبو غفير في الحكم زهاء خمس وثلاثين سنة؛ إذ توفي في حدود عام 230هـ(844م) كما ذكر ابن الخطيب. أما ابن خلدون فيقول أنه حكم حوالي 29 سنة؛ إذ توفي في أواخر المائة الثالثة. وتقول الأخبار أن له أربع وأربعين زوجة؛ ومن البنين مثلهن وأزيد.[1]

ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبموت أبي غفير معاذ خلفه بعض الأمراء من بينهم: أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ هذا وقد أثنت المصادر التاريخية عليه، واعترفت بحسن سياسته، وابتعاده عن سفك الدماء. وتقول أنه لا يعتم إلا في وقت الحرب؛ وفي دولته لا يعتم إلا الغرباء؛ وكان لباسه الملاحف والسراويل؛ ولا يلبس القميص. ومن سياسته في الحرب؛ أنه

---

[1] من هنا بدأت أخبار المؤرخين عن برغواطة تغيب وتضطرب؛ فابن الخطيب هنا يقول: ((وولي بعده [أي بعد أبي غفير] ولده أبو حفص [عمر]. واستمرت دولة عمر بن معاذ إلى أن توفي؛ وولي ولده اليسع بن إسماعيل [هكذا يصبح عمر إسماعيلا]؛ فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح؛ إذ كان سابع الأمراء من بنيه. واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وظهر أمر اللمتونيين ودعوتهم إلى أساس من فقه ودين؛ فجعلوهم جهادا قريبا وغزاهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ فقتلهم قتلا ذريعا؛ حتى أسلموا إسلاما جديدا. وكان آخر ملوكهم عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ وانقرض ملكهم. وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف؛ لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 186 ـ 187.

يبدي ـ في كل عام ـ أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء

---

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي ـ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ـ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ـ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ـ المعروف بالحقير ـ ومغرور بن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ـ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ـ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبي صلى الله علية وسلم بماية عام سوا". قال:

البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما آخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر ابن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت. أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

"وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقرؤونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد عليه السلام في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حينئذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ـــ 136.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت ـ منذ نشأتها ـ إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو ـ بالطبع ـ شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي ـ في عهد المنصور بن أبي عامر ـ بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد.

وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

****

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ـ أو يونس ـ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان،

---

[1] **العبر، مج: 6، ص ص: 432 ـ 434.**

وسورة ياجوج وماجوج، وسورة نمرود؛ بالإضافة إلى ما كانوا يشتغلون به من طقوس سحرية، وما كانوا يجيدونه من تنجيم ومعرفة بالنجوم..[1] وقد أورد البكري نصا مترجما من السورة المسماة بسورة أيوب؛ وقال أنها استفتاح كتابهم؛ وهي طويلة. جاء فيها: ((**بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس؛ وهو الذي بين لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية أبى الله ليس يطيق إبليس؛ كما يعلم الله سل أي شيء؛ يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق. أنظر محمدا (وعبارة ذلك بلسانهم أيمني مامت؛ فمامت محمد). كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه؛ حتى مات ففسد الناس. كذب من يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله**)).[2] ومن خلال ما ورد من أسماء لتلك السور وما توحي إليه؛ يمكن استشفاف تأثير التراث اليهودي في ذلك كله. وقد يكون هذا من بين العوامل التي أثارت الشكوك في يهوديتهم؛ مع أن الأثير الإسلامي متوفر أيضاً.

---

[1] **المغرب، ص: 140. والعبر، مج: 6، ص: 429.**

[2] **المغرب، ص: 140.**

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ـ طيلة القرون التي عاشتها ـ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ـ من جهة أخرى ـ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: "**فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر**".

و"**فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها**".[1]

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ـ ولو بإيجاز ـ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي بها من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ـ بعض الشيء ـ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: ((**من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود**)).

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـ 589. 607 ـ 609.**

وهـذه العبـارة تـوحي للقـارئ باحتمـال اعتنـاق سقـوط للمذهـب الخـارجي. غيـر أن قـول ابـن حيـان هـذا قـد يكـون مـن قبيـل التشنيـع بسقـوط؛ وتذكيـر النـاس بأسلافـه الصفريـة. المهـم أن سقـوط وابنـه ـ حسبمـا جـاء في المصـادر ـ لا علاقـة لهمـا ببـدع الامـارات البرغواطيـة الأولى؛ وكـل مـا يربطهمـا ببرغواطـة هـو أنهمـا ينحـدران مـن أصـول عرقيـة برغواطيـة؛ كمـا أن جيشهمـا مكـون ـ في معظمـه ـ مـن شتـات قبيلـة برغواطـة.

ـ حكومـة سقـوط البرغـواطي:

تجمـع المصـادر عـلى أن هـذه الإمـارة نشـأت في سبتـة وطنجـة؛ بقيـادة سقـوط أو (سكـوت) بـن محمـد البرغـواطي، وبمساعـدة زميلـه أبي العطـاف رزق اللـه البرغـواطي أيضـا؛ والـذي كـان في طنجـة. وربمـا تكـون هـذه الإمـارة قـد بـدأت في الظهـور لأول مـرة؛ في شكـل ولايـة مـن ولايـات الدولـة الإدريسيـة الحموديـة الـتي كانـت قائمـة بمالقـة؛ ويرجـح أن ذلـك حصـل بعـد مقتـل الفـتى الصقلـبي نجـا في سنـة 434هـ(1042م)؛ الأمـر الـذي أبـقى سبتـة خاليـة مـن شخـص قـوي يتولاهـا. ولا يعـرف بالضبـط التاريـخ الـذي أصبـح فيـه سقـوط هـذا واليـا عليهـا.[1] وكـل مـا

---

[1] لقـد تضاربـت الأقـوال حـول التاريـخ الـذي ولي فيـه سقـوط بسبتـة. وقـد ذكـر ابـن بسـام أن يحـيى بـن عـلي بـن حمـود هـو الـذي ولى سقـوط عـلى سبتـة؛ (المجلـد الثـاني مـن القسـم الثـاني، ص: 657. أنظـر إلى مـا جـاء في التعليـق

عــرف هــو أن الــذي ولي عــلى سبتــة وطنجــة ــ بعــد إدريــس بــن عــلي بــن حمــود ــ هــو الحســن بــن يحــيى بــن عــلي؛ رفقــة الــوصي عليــه المســمى نجــا الصقلــبي. لــذا يمكــن إرجــاع بدايــة أمــر هذيــن البرغواطييــن إلى الفتــرة الزمنيــة الــتي تلــت مقتــل الفــتى نجــا؛ ذلــك المملــوك الصقلــبي الــذي طمــع في اغتصــاب عــرش الحموديــين؛ فاغتالــه بعــض جنــوده؛ الذيــن ينتمــون أصــلا إلى برغواطــة؛ وهــم كمــا قيــل: أخــوال الأميــر حســن بــن يحــيى بــن عــلي بــن حمــود.[1]

وحسبمــا يظهــر فمنــذ تلــك الحادثــة رجحــت كفــة سقــوط مــولى يحــيى بــن عــلى بــن حمــود؛ ذلــك المملــوك الــذي تركــه يحــيى في سبتــة لأمــر مــا؛ عندمــا قــرر التوجــه إلى مالقــة.[2] ومــرت فتــرة مــن

بالصفحــة المواليــة). بينمــا الخبــر المؤكــد الــذي ذكــره ابــن بســام نفســه؛ نقــلا عــن ابــن حيــان؛ واتفــق فيــه مــع كثيــر مــن المؤرخيــن (أنظــر المجلــد الأول مــن القســم الأول، ص: 481.) أن يحــيى المعتــلي أسنــد ولايــة سبتــة ــ عندمــا جــاز للأندلــس ــ إلى أخيــه إدريــس بــن عــلي؛ الــذي كــان ــ في عهــد أبيهمــا ــ واليــا عــلى مالقــة. ولمــا قتــل يحــيى بــن عــلي؛ خلفــه أخــوه إدريــس المتأيــد؛ الــذي ولى الحســن بــن يحــيى بسبتــة؛ تحــت وصايــة الفــتى نجــا. (الكامــل، ج: 7، ص: 288. والمعجــب، ص: 61). ولمــا تــولى الحســن بــن يحــيى مقاليــد الخلافــة بمالقــة؛ تــرك أمــر سبتــة في يــد الفــتى نجــا. (الكامــل، ج: 7، ص: 289. والمعجــب، ص: 63). وعليــه قــد يعــود ظهــور سقــوط إلى هــذه الفتــرة بالــذات؛ خاصــة بعــد مقتــل نجــا.

[1] البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقــول ابــن عــذاري: ((وكــان سوَّجَّــات [سقــوط] مــولى ليحــيى بــن عــلي بــن حمــود؛ اشتــراه مــن رجــل حــداد مــن ســبي برغواطــة وهــو دون البلــوغ؛ فحــظي عنــده؛ فلمــا ســار يحــيى إلى الأندلــس وخلــف سوَّجَّــات مــولاه بسبتــة؛ وجعــل معــه ناضــرا عليــه مــولاه رزق اللــه)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 250. وهــذا الخبــر

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة

يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ـــ المتقدم الذكر ـــ ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [أنظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطعمه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شئونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ إلى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس بن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق؛ وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى ـــ لأول وقته يومئذ ـ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 ـ 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر، مج: 4، ص: 334.

بالخصوص. والأمر المؤكد – بعد ذلك – أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك – بالفعل – سنة 453هـ(1061م)[2] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة

---

[1] **وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما في يده)). المقدمة، ج: 2، ص: 872.**

[2] **البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.**

الخضـــراء ضمـــن مملكتـــه؛ وقـــد تصاعـــد خلافهمـــا حـــتى وصـــل إلى الاقتتـــال في البحـــر ســـنة 457هــ(1064م).[1] وكـــان يشـــد أزره ابنـــه يحـــيى؛ الـــذي يقـــوم مقـــام وزيـــره، إذ هـــو المتصـــرف في شئـــون الدولـــة؛ خاصـــة بعـــد أن كبـــر سقـــوط، وبعـــد أن أثقلتـــه السنـــون. وظهـــر هـــذا مـــن خـــلال معارضتـــه لأبيـــه؛ حيـــن أراد مساعـــدة المرابطيـــن ضـــد قبائـــل غمـــارة [وعنـــد ابـــن بســـام زناتـــة]؛ فأقنعـــه بالعـــدول عـــن ذلـــك الأمـــر.[2] المهـــم أن

---

[1] قـــال ابـــن بســـام نقـــلا عـــن ابـــن حيـــان: ((كـــان سبـــب ذلـــك باعتقـــال عبـــاد لرجـــل مـــن تجـــار سبتـــة؛ في شـــيء حضـــره بحضرتـــه؛ فاعتـــدى عليـــه سقـــوت؛ فاعتقـــل لـــه عـــدة تجـــار؛ فنشـــأت لذلـــك بينهمـــا وحشـــة سنـــة سبـــع وخمسيـــن [وأربعمائـــة]؛ فامتطيـــا لهـــا ظهـــر اللجـــج؛ عـــلى مـــا بينهمـــا مـــن التطـــام اللجـــج؛ فتهافتـــا عـــلى القطيعـــة، واجتمعـــا عـــلى عقـــد البحـــر بينهمـــا؛ فتلفـــت فيـــه رؤوس وأمـــوال، وهلكـــت مـــن أجلهـــا نفـــوس رجـــال؛ يطـــول في صفتهـــا المقـــال؛ إلى أن أكمـــل عبـــاد مـــن أسطـــول أنشـــأه نحـــوا مـــن ثمانيـــن قطعـــة؛ فأجراهـــا إلى سبتـــة؛ فخـــرج عليهـــا أسطـــول لسقـــوت؛ فكـــان الظهـــور لابـــن عبـــاد؛ ثـــم افترقـــت الأساطيـــل؛ بعـــد حـــروب وسفـــك دمـــاء؛ وانقطـــع بحـــر الزقـــاق بينهمـــا مـــدة استهمـــا اجتـــرار منافعـــه فيهـــا. ثـــم يضيـــف ابـــن بســـام قائـــلا: ثـــم غلـــظ أمـــر سقـــوت؛ حـــتى أخـــاف القريـــب والنـــازح، واقتـــاد الحـــرون والجامـــح، وانبثـــت سرايـــاه في البحـــر والبـــر؛ فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ــ 660.

[2] يقـــول ابـــن بســـام ((ودارت النوبـــة عـــلى سقـــوت بـــن محمـــد؛ فتطـــرف أميـــر المسلميـــن ــ رحمـــه اللـــه ــ بلـــده للفـــراغ ممـــن شـــذ عنـــه مـــن زناتـــة؛ وقـــد التفـــوا بأحـــد محـــاش الفتنـــة، ووألـــوا إلى موضـــع يعـــرف بالدمنـــة؛ فنـــزل بساحتهـــم أميـــر المسلميـــن؛ سنـــة إحـــدى وسبعيـــن [وأربعمائـــة]؛ عـــلى مقربـــة مـــن بـــلاد سقـــوت؛ فهـــم بالانحيـــاش إليـــه؛ فقـــد كـــان آل وآيـــل عليـــه؛ فنهـــاه حزبـــه الذميـــم الســـعي، وثنـــاه ابنـــه الفائـــل الـــرأي)). الذخيـــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقـــال أحمـــد الناصـــري: ((إلى أن استقـــل [سقـــوط] بالأمـــر، واقتعـــد كـــرسي عملهـــم [عمـــل الحموديـــن] بطنجـــة وسبتـــة؛ وأطاعتـــه قبائـــل غمـــارة؛ واتصلـــت أيـــام ولايتـــه إلى أن

جيش لمتونة ــ بعد انتهائه من موقعة الدمنة ــ تحول إلى قتال سقوط؛ وذلك لما شعروا منه من بوادر العصيان، نظرا لرفضه الانضمام إليهم. ولما علم سقوط بزحف المرابطين إليه خرج وهو يقسم: **((ألاّ يسمع قرع طبله في ملكه))**.[1] وكان سقوط هذا قد امتد حكمه حتى بلغ من العمر عتيا؛ إذ ناهز التسعين سنة كما يقال. وقدر له أن تكون نهايته في سنة 471هـ(1078م)؛ خلال المعركة التي تقابل فيها مع جيش المرابطين الزاحف إلى طنجة؛ بقيادة صالح بن عمران. حيث ختمت الواقعة بمقتل سقوط؛ ودخول المرابطين إلى طنجة.

كانت دولة المرابطين؛ وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب؛ ونازل بلاد غمارة؛ فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم؛ فهم بالاجلاب معه، ومظاهرته على عدوه؛ ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة، وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت)).الاستقصاء، ج: 2، ص ص: 30 ــ 31.

[1] **مفاخر البربر، ص: 55. وقال أحمد الناصري أيضا: ((فلما قربوا [المرابطون] من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ــ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ــ وقال: "والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبدا". فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة؛ والتحم القتال؛ فقتل سكوت، وفضت جموعه، وسار المرابطون إلى طنجة؛ فدخلوها واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة؛ فاعتصم بها)). الاستقصاء، ج: 2، ص: 31.**

ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة ـ بعد مقتل سقوط ـ سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر ؛ فإنه أضرم لجه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها ـ أيضا ـ من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن يخسروا المعركة

---

[1] **الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 662. ومفاخر البربر، ص ص: 55 ــ 56.**

[2] **قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم**

في بداية الأمر؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة ـ مرة أخرى ـ بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت

به مردة عفاريتها رجما؛ ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول؛ طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان ـ لأول ذلك اليوم ـ ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت ـ يومئذ ـ أن بخل على آخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالإحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين ـ رحمه الله ـ إحدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى أطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نُفَيْرٍ من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فأعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها؛ وَوُجِدَ فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز بن أمير المسلمين ـ رحمهما الله ـ فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 ـ 664.

ليلـــة بكاملهـــا. ويقـــول صاحـــب مفاخـــر البربـــر: أنـــه لمـــا مثـــل أمـــام المعـــز بـــن يوســـف بـــن تاشفيـــن **((فطلـــب منـــه المـــال؛ فقـــال لـــه: "ألخـــازن أبيـــك كنـــت نجمـــع المـــال؟" فحللـــه الحســـام، وحكـــم فيـــه الحمـــام)).**[1] وانتـــهى بذلـــك أمـــر ضيـــاء الدولـــة العـــز بـــن سقـــوط؛ إذ قتـــل في ربيـــع الآخـــر مـــن سنـــة 477هــ(1084م). وبذلـــك انتهـــت دولـــة سقـــوط البرغـــواطي نهائيـــا.

****

---

[1] **مفاخـــر البربـــر، ص ص: 56 ــ 57.**

ــ **الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:**

يبــدو أن سبتـــة في عهــد سقــوط البرغــواطي لــم تكــن في مستــوى يؤهلهــا للقيــام بــدور ثقــافي معيــن بيــن سكانهــا. وعــلى الرغــم مــن أنهــا كانــت كرسيــا لحكــم بعــض الأدارســة مــن الحمودييــن؛ إلا أنهــا لــم تظهــر أي دور ثقــافي وعلــمي يستحــق التنويــه. وإن كــان البكــري ــ الــذي عاصــر سقوطــا ــ يقــول عــن سبتــة: **((ولــم تــزل دار علــم)).**[1] ومــع هــذا فــلا بــد أن يكــون للأندلــس بعــض الأثــر في الحركــة الثقافيــة بتلــك المدينــة، خاصــة في بعــض المنجــزات الحضاريــة والعمرانيــة كالمساجــد والحمامــات. غيــر أنــه سجــل في الزمــن الــذي تــلا عصــر سقــوط هــذا؛ ازدهــار علــمي ملحــوظ في سبتــة؛ تلــك المدينــة الــتي أضحــت مركــز علــم وثقــافــة مرمــوق في المغــرب والأندلــس.[2] أمــا عصــر سقــوط فيمكــن أن يعبــر عنــه خطابــه لابــن جهــور أميــر قرطبــة؛ الــذي يقــال أنــه طلــب فيــه منــه أن يرســل إليــه قارئــا للقــرآن. وربمــا دل هــذا عــلى نــدرة القــراء في سبتــة في تلــك الأثنــاء.[3] كمــا أن

---

[1] المغــرب، ص: 103.

[2] للتوســع في هــذا الأمــر يمكــن الرجــوع إلى كتــاب المقــري أزهــار الريــاض في أخبــار عيــاض؛ ففيــه مــا يفيــد.

[3] أورد ابــن عــذاري خبــرا قــال فيــه: ((وذكــر عــن أبي الوليــد بــن جهــور صاحــب قرطبــة أنــه قــال: "وردت عــلي مــن الكتــب في يــوم واحــد كتــاب مــن ابــن صمــادح صاحــب المريــة يطلــب جاريــة عــوادة، وكتــاب مــن ابــن عبــاد يطلــب جاريــة زامــرة، وكتــاب مــن سواجــات [سقــوط] صاحــب سبتــة يطلــب قارئــا يقــرأ القــرآن". فوجــه مــن طلبــة قرطبــة رجــلا يعــرف بعــون اللــه بــن نــوح. وعجــب أبــو الوليــد

الإشـــارة الساخـــرة الـــتي أطلقهـــا أبـــو الوليـــد الشقنـــدي في رسالتـــه الـــتي يفاخـــر فيهـــا ببـــلاد الأندلـــس والأندلسيـــن؛ تبـــرز صـــورة سقـــوط الـــتي كانـــت في ذهـــن المثقفيـــن آنئـــذ؛ وذلـــك حيـــن قـــال لأبي يحـــيى بـــن المعلـــم الطنـــجي: ((**وباللـــه إلا سميـــت لي بمـــن تفخـــرون قبـــل هـــذه الدعـــوة المهديـــة** [يقصـــد دعـــوة الموحديـــن] **أبسقـــوط الحاجـــب؟ أم بصالـــح البرغـــواطي؟**)).[1] ومـــع هـــذا لا سبيـــل إلى نكـــران أن بـــلاط ضيـــاء الدولـــة يحـــيى ابـــن سقـــوط بسبتـــة احتضـــن ـــ يومـــا مـــا ـــ شاعـــرا مثـــل عـــلي بـــن عبـــد الغـــني الحصـــري الضريـــر؛[2] صاحـــب القصيـــدة الذائعـــة الصيـــت الـــتي يقـــول فيهـــا:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ　　　أَقِيَـــامُ السَّاعَةِ مَوْعِـــدُهُ
رَقَدَ السُّمَّـــارُ فَأَرَّقَـــهُ　　　أَسَـــفٌ لِلبَيْـــنِ يُـــرَدِّدُهُ

وقـــد اتصـــل هـــذا الشاعـــر الفحـــل ـــ أثنـــاء مقامـــه بسبتـــة وطنجـــة ـــ بضيـــاء الدولـــة يحـــيى بـــن سقـــوط

مـــن ذلـــك وقـــال: "جاهـــل يطلـــب قارئـــا، وعلمـــاء يطلبـــون الأباطيـــل")). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 250.

[1] **نفـــح الطيـــب، ج: 3، ص: 191.**

[2] **ذكـــره ابـــن بشكـــوال فقـــال: ((ذكـــره الحميـــدي وقـــال: " شاعـــر أديـــب رخـّـم الشعـــر؛ دخـــل الأندلـــس ولـــقي ملوكهـــا؛ وشعـــره كثيـــر، وأدبـــه موفـــور. وكـــان عالمـــا بالقـــراءات وطرقهـــا؛ وأقـــرأ النـــاس بالقـــرآن بسبتـــة وغيرهـــا. أخبرنـــا عنـــه أبـــو القاســـم بـــن صـــواب بقصيدتـــه الـــتي نظمهـــا في قـــراء نافـــع؛ وهي مائتـــا بيـــت وتسعـــة أبيـــات. قـــال لقيتـــه بمرسيـــة سنـــة إحـــدى وثمانيـــن وأربعمائـــة. وتـــوفي بطنجـــة سنـــة ثمـــان وثمانيـــن وأربعمائـــة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ـــ 433.**

البرغـواطي؛ حيـث كانـت لـه حظـوة عنـده؛ وهـذا مـا سجلـه ابـن بسـام حيـن قـال: ((**وأفضـت الدولـة البرغواطيـة إلى الحاجـب المعـز ابنـه** [أي ابـن سقـوط] **شهـاب أفلاكهـا، وخيـرة أملاكهـا. هـبَّ الأدب ريحـا، ونفخـت دولتـه في أهلـه روحـا. أعـرض بـه الشعـراء وأطالـوا، ووجـدوا بـه السبيـل إلى المقـال فقالـوا. وممـن خيـم في ذراه، ونـال مـن الحـظ الجسيـم مـن دنيـاه؛ الحصـري الضريـر؛ فـإن لـه فيـه مـا اذهـل الناظـر عـن الرقـاد، وأغـنى المسافـر عـن الـزاد؛ والحاجـب يكحـل عينيـه بزينـة دنيـاه، ويفتـق لهاتـه بمواهبـه ولهـاه. وكـان** [يحـيى] **سهـل الجانـب للقصـاد، طلـق اليـد بالمواهـب الأفـراد))**.[1] لـذا فـلا يستبعـد أن يكـون بـلاط سقـوط ــ وخاصـة ابنـه ضيـاء الدولـة ــ قـد عـرف حركـة ثقافيـة ــ ولـو متواضعـة ــ إذ يكونـان قـد أرادا بذلـك تقليـد ملـوك الأندلـس والمغـرب.

****

---

[1] الذخيـرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 661 ــــ 662. أنظر أيضا مفاخـر البربـر، ص: 55.

2)ـ دولـــة بــني مـــدرار:

تنسـب هـذه الدولـة ـ أيضـا ـ إلى مدينـة سجلماسـة ذات الموقـع القريـب مـن مدينـة تافيلالـت الحاليـة. ويبـدو أن هـذه الدولـة نشـأت قبـل تشييـد مدينـة سجلماسـة[1] المنسوبـة إليهـا أصـلا؛ إذ كانـت عبـارة عـن إمـارة قبليـة؛ ذات طابـع بـدوي. وقـد سميـت ـ أيضـا ـ بدولـة بـني واسـول؛ وهـو أحـد أجـداد بـني مـدرار. هـذا وقـد تباينـت الأخبـار ـ بعـض الـشيء ـ حـول بـدء قيامهـا؛ غيـر أن المهـم ـ هنـا ـ هـو أن هـذه الدولـة تأسسـت في عـام 140هـ(757م)؛[2] بعـد أن تجمعـت فئـات مـن قبيلـة

---

[1] أنظـر رأي ابـن خلـدون في الكيفيـة الـتي يحـدث بهـا ذلـك النشـوء؛ ضمـن "فصـل في أن الـدول أقـدم مـن المـدن والأمصـار؛ وأنهـا إنمـا توجـد ثانيـة عـن الملـك" إذ يقـول: ((وبيانـه أن البنـاء واختطـاط المنـازل إنمـا هـو مـن منـازع الحضـارة التـي يدعـو إليهـا التـرف، والدعـة كمـا قدمنـاه؛ وذلـك متأخـر عـن البـداوة ومنازعهـا. وأيضـا فالمـدن والأمصـار ذات هياكـل وأجـرام عظيمـة، وبنـاء كبيـر؛ وهي موضوعـة للعمـوم، لا للخصـوص؛ فتحتـاج إلى اجتمـاع الأيـدي، وكثـرة التعـاون؛ وليسـت مـن الأمـور الضروريـة للنـاس الـتي تعـم بهـا البلـوى؛ حـتى يكـون نزوعهـم إليهـا اضطـرارا؛ بـل لا بـد مـن إكراههـم عـلى ذلـك، وسوقهـم إليـه مضطريـن بعصـا الملـك؛ أو مرغبيـن في الثـواب والأجـر؛ الـذي لا يـفي بكثرتـه إلا الملـك والدولـة. فـلا بـد في تمصيـر الأمصـار، واختطـاط المـدن مـن الدولـة والملـك)). المقدمـة، ج: 3، ص ص: 965 ـ 966.

[2] أمـا البكـري فقـال أنهـم شرعـوا في بنـاء سجلماسـة في عـام 104هـ؛ وهـذا لا يتطابـق مـع مـا أجمعـت عليـه بقيـة المصـادر. لـذا فالراجـح أن يكـون مـا ورد في المغـرب تحريفـا في النسـخ. المغـرب، ص: 149.

مكناسة البترية؛[1] في تلك الربوع؛ التي هي ـ في حقيقة الأمر ـ تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن سعد؛ المعروف بالأسود.[2] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شرّ قتلة.[3]

---

[1] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى بن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

[2] نسبه ابن الخطيب إلى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (أنظر، أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ـــ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج)). العبر، مج: 6، ص: 267.

[3] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم إن الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا إلى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد أن

وهكـذا نـرى كيـف يتكـرر بطـش الصفريـة بأمرائهـم؛ فبعـد قتـل أميـر الصفريـة الأول (ميسـرة)؛ بتدبيـر مـن أصحابـه؛ يقتـل أميـر ثـان ــ مـرة أخـرى ــ بواسطـة أتباعـه مـن الصفريـة بسلجماسـة.[1]

ــ حكومـة أبي القاسم سمغـون بن واسـول المكنـاسي:

وبعـد أن قتـل الصفريـة إمامهـم عيـسى بـن يزيـد؛ ولـوا عليهـم بـدلا منـه أبـا القاسـم سمغـون بـن واسـول بـن يـزلان بـن يـزول المكنـاسي.[2] ويقـول ابـن خلـدون أن أبـا القاسـم سمغـون[3] هـذا هـو الـذي حمـل

طلـوه بالعسـل، وتركـوه حـتى قتلتـه الزنابيـر والنحـل؛ فسـمي ذلـك الجبـل جبـل عيـسى؛ وولـوا بعـده أبا الخطاب الصفري)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140.

[1] للتوسـع في موضـوع دولـة مكناسـة بسجلماسـة يستحسـن الرجـوع إلى: كتـاب المغـرب، ص ص: 148 ـــ 152. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 156 ـــ 157. والعبـر، مج: 6، ص ص: 267 ـــ 273. وأعمال الأعـلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 149.

[2] وذكـر ابـن الخطيـب أن أبـا القاسـم هـذا هـو الملقـب بالمـدرار. دخـل جـده الأندلـس مـع طـارق ابـن زيـاد. كمـا قـال أنـه كـان حـدادا مـن أهـل الربـض بقرطبـة؛ فلجـأ إلى سجلماسـة؛ حيـث تقـرب مـن أبي الخطـاب الصفـري رئيـس الصفريـة فيهـا بسـلاح صنعـه بنفسـه؛ فاستحسنـه أبـو الخطـاب وقربـه وقدمـه عـلى غيـره. ولمـا تـوفي أبـو الخطـاب سنـة 191هـ ولي مكانـه.

[3] عـرف ابـن خلـدون بـأبي القاسـم هـذا بقولـه: ((واجتمعـوا بعـده [أي بعـد عيـسى ابـن يزيـد الأسـود] عـلى كبيرهـم أبي القاسـم سمغـون بـن مصـلات بـن أبي يـزول؛ كـان أبـوه سمغـون مـن حملـة العلـم؛ ارتحـل إلى المدينـة؛ فـأدرك التابعيـن؛ وأخـذ عـن عكرمـة مـولى بـن عبـاس؛ ذكـره عريـب بـن حميـد في تاريخـه. وكـان صاحـب ماشيـة؛ وهـو [أبـو القاسـم] الـذي بايـع لعيـسى بـن يزيـد؛ وحمـل قومـه عـلى طاعتـه؛ فبايعـوه مـن بعـده)). العبـر، مج: 6، ص ص: 267 ــ 268. أمـا البكـري فيـرى أن أبـا القاسـم هـو الـذي لـقي عكرمـة بإفريقيـة وسمـع منـه. المغـرب، ص: 149.

قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[1] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ــ بعد عيسى ابن يزيد ــ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[2] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[3] والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[4]

---

[1] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى إلى ما كانت عليه العصبية من شدة وتأثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون أن عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140.

[3] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بانفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فأول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في مجلس عيسى: "السودان كلهم سراق حتى هذا؛ وأشار إلى عيسى؛ فأخذوه، وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى إلى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: 149.

[4] الفرق الإسلامية، ص: 170.

المهم أن سمغون عندما تربع على سرير الحكم أعلن بالدعوة للمنصور والمهدي العباسيَّيْن؛ مع أنه صفري المذهب. وقد بقي أبو القاسم في الحكم حتى توفي أثناء صلاة العشاء، وفي آخر ركعة منها؛ وذلك سنة 168هـ(784م). أما ابن الخطيب فيقول بأنه توفي في آخر ذي القعدة سنة 199هـ(814م). كما قال أنه هو الذي أمر ببناء السور الذي يحيط بمزارع النخيل.

ـ حكومة أبي المنتصر اليسع بن سمغون المكناسي:

ولما توفي أبو القاسم سمغون خلفه ولده أبو الوزير إلياس؛ ولكن حكمه لم يدم طويلا؛ إذ قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع؛ فخلعه وانتصب في مكانه سنة 174هـ(790م) في رواية، أو سنة 200هـ(815م) في رواية أخرى. وكان حكم أبي المنتصر اليسع متميزا عما سبقه؛ ذلك أن هذا الأمير اتصف بشدة الوطأة، وبميل إلى العناد، وحدة الطبع، والحرص على ملكه؛ وكان شغوفا بالضبط والقهر، جبارا في سلوكه. فتمكن بحزمه وعزمه من فرض الخمس على معادن درعة، وفتك بمن حوله من القبائل الأمازيغية.

ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

ـ حكومة مدرار بن اليسع المنتصر المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللذين يسمى

---

[1] **وعن هذا الأمير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان إباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها آخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء، وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.**

كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التميز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد ـ للمرة الثانية ـ إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه.

هــذا ولا يعــرف ــ بالضبــط ــ سبــب ذلــك الخــلاف بيــن الأخويــن. كمــا لا يعــرف إن كــان ميــل الرعيــة إلى ابــن تقيــة مبعثــه إلى صلاحــه وتقــواه، أم إلى سبــب آخــر؛ ربمــا تعلــق بالعصبيــة القبليــة الــتي تــرى في أروى بنــت عبــد الرحمــن بــن رستــم أنهــا مــن أســرة ليســت مكناسيــة منهــم. هــذا ولــم يطــل الزمــن بمــدرار بعــد تلــك الأحــداث حــتى مــات سنــة 253هــ(866م)؛ وقــد دام ملكــه كلــه زهــاء خمــس وأربعيــن سنــة. أمــا ولــده ميمــون بــن تقيــة فقــد بــقي في الحكــم حــتى تــوفي سنــة 263هــ(876م).

ــ حكومــة محمــد بــن ميمــون المكنــاسي:

وبمــوت ميمــون بــن تقيــة تــولى الحكــم مــن بعــده ولــده محمــد الــذي ــ كمــا قــال ابــن خلــدون ــ كــان متمذهبــا بالإباضيــة. وهنــا تبــرز إشــارة لمــا يمكــن أنــه حــدث مــن تحــول مذهــبي في عهــد الأميــر مــدرار. ويقــول ابــن الخطيــب أن محمــدا هــذا غــزا أرض القبلــة ــ أي الجنــوب ــ حيــث تغلــب عــلى "**تافلبالــت**" [ربمــا كانــت تابلبالــت الحاليــة القريبــة مــن بشــار]. هــذا وقــد تــوفي محمــد بــن ميمــون في سنــة 270هــ(883م). ومــع ذلــك فقــد كانــت أخبــار عهــد محمــد هــذا شحيحــة، وغيــر كافيــة لتحديــد صــورة واضحــة لهــا.

ـ حكومـــة اليســـع بـــن مـــدرار المنتصـــر المكنـــاسي:

وبعــد محمــد تــولى مهــام الحكــم عمــه اليســع بــن مــدرار المنتصــر. وفي عهــده ظهــر عبيــد اللــه الشيــعي؛ حيــث لجــأ ـ مــع ابنــه أبي القاســم ـ إلى سجلماســة. ولمــا تدخــل الخليفــة العبــاسي المعتضــد لــدى اليســع ـ الــذي كــان معلنــا بطاعــة العباسيين مثــل آبائــه ـ فقــد لــبى طلــب المعتضــد وقبــض عليهمــا وحبسهمــا. وكــان هــذا التصــرف هــو الحافــز المباشــر للداعيــة الفاطــمي أبي عبــد اللــه الشيــعي لــكي يقــوم بغــزو سجلماســة، قصــد إنقــاذ سيــده مــن محبســه؛ فتــم لــه ذلــك؛ بعــد أن أطــاح بحكــم اليســع وقتلــه؛ وذلــك في سنــة 296هــ(908م). وقــد دام حكــم اليســع زهــاء سبــع وعشريــن سنــة. وعــلى الرغــم مــن طــول مــدة حكــم اليســع؛ فــإن عهــده ـ بــدوره ـ يكتنفــه غمــوض كثيــف.

ـ حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبــل أن يخــرج عبيــد اللــه المهــدي مــن سجلماســة نصــب عليهــا واليــا مــن قبلــه؛ وهــو إبراهيــم ابــن غالــب المــزاتي؛ فظــل مــدة خمسيــن يومــا ثــم ثــار عليــه سكــان سجلماســة سنــة 298هــ(910م)؛ وقتلــوه هــو ومــن معــه مــن قبيلــة كتامــة. وبعدهــا نصبــوا الفتــح بــن ميمــون الأميــر بــن مــدرار؛ وميمــون هــذا كمــا يعتقد ابــن خلــدون: ليــس هــو ابــن تقيــة المشــار إليــه سابقــا. وكــان يلقــب بواســول؛

وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة.

وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من** قومه)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

ـ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية والانتماء؛ وذلك أنه ـ قبل عودته إلى إفريقية ـ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسَّاور أو (ساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: **((واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة**

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ــ 642.**

[2] **نفسه، ص: 638.**

رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم؛ فولى عليها المعتز بن محمد)).[1] وحتى إن كان هذا التعليل صحيحا؛ فلا يمنع أن اختيار مكناسيا؛ من البيت المالك في سجلماسة يكون قد أراحه نفسيا. هذا وقد بقي المعتز في الحكم إلى أن توفي في عام 321هـ(933م). ثم تلاه بعد مماته ولده محمد بن المعتز الذي توفي بدوره في سنة 331هـ(942م). ثم خلفه ولده الصبي المنتصر سمغون؛ فتولت جدته تدبير شئونه؛ ولكن ابن عمه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر ثار ضده، وأخرجه من سجلماسة سنة 332هـ(943م).

ـ حكومة الشاكر محمد بن الفتح المكناسي:

انتقل محمد الشاكر ـ هذا ـ نقلة مخالفة تماما لما كان عليه أسلافه؛ إذ دعا إلى نفسه في المنابر؛ ثم تسمى بالشاكر، وتلقب بأمير المؤمنين؛ ثم سك سكة عرفت بالدراهم الشاكرية. ومع هذا فقد أبقى على الدعوة لبني العباس بغرض التمويه؛ كما يعتقد ابن خلدون؛ وأهم نقلة انتقلها هي تخليه عن المذهب الخارجي؛ حيث أخذ بالمذهب المالكي السني.[2] وتجمع المصادر أنه عرف بالعدل والصلاح؛ وذكر ابن حزم أنه:

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 146.

[2] المغرب، ص: 151. والعبر، مج: 6، ص: 270. أنظر كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ((رسائل ابن حزم الأندلسي) ج: 2، ص: 85.

((كان غاية في إظهار العدل، وتسمى الشاكر لله، وإليه تنسب المثاقيل الشاكرية)).[1] ويعتبر موقف الشاكر هذا كافيا لاستثارة الفاطميين؛ الذين شغلتهم ـ في البداية ـ فتن بني أبي العافية، وأبي يزيد مخلد ابن كيداد. ولما استتب الأمر للدولة أرسل المعز لدين الله الفاطمي جيشا من كتامة وصنهاجة إلى سجلماسة؛ ووضع على رأس ذلك الجيش جوهر الكاتب (الصقلي)؛ فتغلب عليها. وقد تمكن الشاكر ـ في بداية الأمر ـ من الإفلات واللجوء إلى حصن قريب من سجلماسة يسمى تاسكرات؛ ولكن سوء حظه أوقعه في قبضة الفاطميين؛ عندما دخل سجلماسة متنكرا؛ فعرفه رجل من قبيلة مطغرة؛ فأخبر الفاطميين عنه؛ الأمر الذي سهل القبض عليه؛ حيث نقله جوهر معه إلى القيروان في سنة 347هـ(958م). أين حبس في رقادة حتى مات في سجنه سنة 354هـ(965م). أما سجلماسة فقد أسند جوهر الكاتب ولايتها إلى مبادر بن زيري.

---

[1] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.

ـ **حكومــة ولــدي الشاكــر: المنتصــر والمعتــز:**

ولمـا ضعـف حـال الفاطميين بالمغـرب الأوسـط، ومالـت الكفـة إلى فائـدة بـني أميـة؛ ثـار في سجلماسـة أحـد أبنـاء الشاكـر؛ وتلقـب بالمنتصـر باللـه؛ ولكـن أخـاه أبـا محمـد لـم يمهلـه طويـلا؛ إذ انتفـض عليـه وقتلـه سنـة 352هـ(963م)؛ ثـم استـولى عـلى الحكـم وتلقـب بالمعتـز باللـه.[1] وبـقي في الحكـم مـدة مـن الزمـن؛ حـتى زحـف إليـه أميـر مغـراوة الزناتيـة خـزرون بـن فلفـول سنـة 366هـ(976م)؛ تبعـا لتطـور الأوضـاع الـتي استفحـل فيهـا أمـر زناتـة في المغربيـن الأوسـط والأقـصى؛ بحكـم مـا أصبحـت عليـه هـذه القبيلـة مـن قـوة ونفـوذ؛ بعـد حلفهـا مـع الدولـة الأمويـة بالأندلـس. وانتهـت المعركـة الـتي دارت أمـام سجلماسـة بيـن صاحبهـا المعتـز وخـزرون المغـراوي بمقتـل الأول واحتـلال البلـدة مـن طـرف المغراوييـن؛ وبذلـك سقطـت دولـة بـني مـدرار نهائيـا؛ وغـدت

---

[1] يختتـم ابـن خلـدون حديثـه عـن دولـة مكناسـة بسجلماسـة فيقـول: ((وأقـام عـلى ذلـك مـدة [يقصـد بقولـه هـذا أبـا محمـد المعتـز آخـر أمـرائهـم] وأمـر مكناسـة يومئـذ قـد تـداعى إلى الانحـلال؛ وأمـر زناتـة قـد استفحـل بالمغـرب عليهـم؛ إلى أن زحـف خـزرون بـن فلفـول؛ مـن ملـوك مغـراوة إلى سجلماسـة سنـة 366 هـ؛ وبـرز إليـه أبـو محمـد المعتـز؛ فهزمـه خـزرون، وقتلـه، واستـولى عـلى بلـده وذخيرتـه؛ وبعـث برأسـه إلى قرطبـة مـع كتـاب الفتـح... وعقـد لخـزرون عـلى سجلماسـة؛ فأقـام دعـوة هشـام بأنحائهـا؛ فكـانـت أول دعـوة أقيمـت لهـم بالأمصـار في المغـرب الأقـصى. وانقـرض أمـر بـني مـدرار ومكناسـة مـن المغـرب أجمـع؛ وأديـل منهـم بمغـراوة وبـني يفـرن)). العبـر، مج: 6، ص ص: 271 ـــ 272.

سجلماسة تحت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملة القول؛ فالشيخوخة بدأت تغزو دولة سجلماسة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعد فساد عصبية مكناسة في تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهذا السلوك مفعوله الخطير؛ الذي أضعف الدولة، وجعلها عرضة للاعتداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولة المكناسية الصفرية. ثم جاءت الضربة الثانية من قبل أبناء العم؛ أي من قوم ينتمون إلى مكناسة نفسها؛ ولكنهم في خدمة الشيعة الكتاميين؛ فزحفوا معهم إلى مركز عصبيتهم بسجلماسة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالة بن حبوس المكناسي؛ وذلك سنة 309هـ(921م). وهنا ظهر التفكك الذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانب كتامة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحاب سجلماسة.

ومع هذا فثمة بعض الإيجابيات لهذه الدولة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ــ قبل هرمها ــ تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكم تواجدها في الطريق التجاري الرابط بين غانة وشمال المغرب؛ نظرا لتوغلها جنوبا في الصحراء. وعلى الرغم من كونها صفرية المذهب، خارجية النزعة؛ فإنها ــ كسابقتها دولة برغواطة ــ كانت دولة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمراء الدولة؛ الذين كانوا يخطبون على منابرهم لبني العباس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ــ أيضا ــ لمبادئ الصفرية، والخوارج بصفة عامة.

ــ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ــ بعنفوانها ــ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة

الصفريـــة؛ تمكنـــت فعـــلا مـــن تحقيـــق بعـــض الازدهـــار الاقتصـــادي؛ ولكنهـــا بقيـــت دولـــة بدويـــة؛ ذات حضـــارة محـــدودة. وربمـــا وقـــف نظامهـــا القبـــلي حجـــر عثـــرة أمـــام تطورهـــا الحضـــاري.

ومـــع هـــذا لا تخلـــو هـــذه الدولـــة مـــن بعـــض السمـــات؛ الـــتي يمكـــن وضعهـــا في سيـــاق الحركـــة الحضاريـــة والثقافيـــة. فمثـــلا كـــان لهـــا طابعهـــا العمـــراني المتأثـــر بالـــذوق البـــدوي. وقـــد ذكـــر البكـــري أن البناءيـــن بسجلماســـة كانـــوا مـــن اليهـــود.[1] ولمـــا توطـــدت العلاقـــات بيـــن هـــذه الدولـــة الصفريـــة والدولـــة الرستميـــة ــ بـــدءا بعهـــد مـــدرار ــ أضـــحى المظهـــر الحضـــاري والثقـــافي في سجلماســـة أكثـــر شبهـــا وقربـــا مـــن تلـــك الدولـــة الإباضيـــة القائمـــة في تيهـــرت. كمـــا شـــرع بعـــض العلمـــاء والأدبـــاء الإباضييـــن يتـــرددون عـــلى سجلماســـة؛ بغـــرض نشـــر العلـــم، وبـــث الدعـــوة الإباضيـــة. وإلى جانـــب ذلـــك كـــان بعـــض الطلبـــة ــ المتعطشيـــن للعلـــم ــ ينتقلـــون مـــن إفريقيـــة إلى سجلماســـة للتعلـــم فيهـــا عـــلى مشاهيـــر العلمـــاء الإباضييـــن المقيميـــن بهـــا.[2]

---

[1] المغـــرب، ص ص: 149 ـــ 150.

[2] أنظـــر كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم لأبي زكريـــاء، ص: 193 ومـــا بعدهـــا. وكتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب للدرجيـــني، ج: 1، ص ص: 109 ـــ 113. ج: 2، ص: 502.

من ذلك ما أشار إليه أبو زكرياء حين ترجم لأبي الربيع سليمان بن زرقون؛ فقال أنه تعلم ـ مع أبي يزيد ابن كيداد ـ في سجلماسة؛ على عالم مشرقي اسمه ابن الجمع؛ قال عنه أنه من أهل الدعوة، وينتحل جميع الفرق؛ ويتمتع بعلم غزير ومعرفة وافرة. وقال أنه قدم إلى بلاد المغرب كتاجر؛ فلازمه ابن زرقون؛ الذي رافقه في رحلته إلى سجلماسة؛ وبقي معه حتى مات؛ فأوصى بكتبه إلى ابن زرقون.[1] ويدل خبر كهذا ـ طبعا ـ على وجود حركة علمية في سجلماسة؛ استقطبت بعض طلاب العلم من بعض جهات بالمغرب.

****

3)ـ الدولة الرستمية:

تأسست هذه الدولة في أعقاب الاضطرابات التي حدثت بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة؛ وبين ولاة القيروان من جهة أخرى. حيث التأمت القبائل الصفرية، والإباضية متجمعة؛ ضمن حلف واحد. ولكنها تفرقت ـ بعد ذلك ـ تبعا لتناقض المصالح القبلية الضيقة. فأخذت كل فرقة منها تعمل منفردة؛ ساعية لإقامة كيان ما؛ في

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 193. أنظر الخبر نفسه ـ أيضا ـ في طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 109 ـ 110.

شكل دولة أو إمارة صغيرة. وهذا ما سعت إليه القبائل الصفرية؛ بالمغرب الأقصى والأوسط؛ كبني يفرن بتلمسان، وبرغواطة بتامسنا، ومكناسة بسجلماسة. أما القبائل الإباضية؛ كـ: هوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولماية ومزاتة؛ فقد تمكنت هي الأخرى من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140هـ(757م)؛ لكنها سقطت عام 144هـ(761م)؛ تحت ضربات الجيش العباسي؛ بقيادة محمد بن الأشعث. والعلة التي عجلت بسقوط هذه الإمارة؛ هي العصبية القبلية بتناقضاتها؛ أي بعد نشوب خلافات بين قبيلتي: هوارة وزناتة. حيث اتهمت هذه الأخيرة الأمير أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة؛ فانسحب الزناتيون من الميدان.[1] وهكذا سقطت تلك الإمارة الفتية؛ نتيجة لقوة أعدائها؛ من جهة، وعبث العصبية، والنخوة القبلية؛ من جهة أخرى.

[1] البيان المغرب، ج: ، 1، ص: 72.

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[1] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[2] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى

---

[1] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين ومائة هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو عيصة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لاشعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الدّف؛ شبهوه بالدّف لتربيعه)). المغرب، ص: **68**.

[2] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حَوْلَ تيهرت بساتينُ من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار. وهي شديدة البَرْدِ، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: "كم الشِّتَاءُ عندكم من شهر في السنة؟" قال: "ثلاثة عشر شهرا!". وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدة أولها (طويل):

فَرَاغُ الهَوَى شُغْلٌ وَمَحْيَا الهَوَى قَتْلُ
وَيَوْمُ الهَوَى حَوْلٌ وَبَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ وَرِسْلُ الهَوَى عَدَى
وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدٌ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ
سَقَى اللَّهُ تِيهَرْتَ المُنَا وَسُوَيْقَةً
بِسَاحَتِهَا غَيْثاً يَطِيبُ بِهِ المَحْلُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّارُ جَامِعَةٌ لَنَا
وَلَم يَجْتَمِعْ وَصْلٌ لَنَا لاَ وَلاَ شَمْلُ

تقع إلى الغرب منها؛ وتعرف بتاقدمت؛ ويفسر هذا الاسم الصفة التي كان عليه موقعها الجغرافي؛ الذي يظهر في شكل مربع. وقد يكون بناؤها ـ حسب بعض الروايات ـ بدأ بعد قيام الدولة الرستمية.[1] حيث ترعرعت الدولة الرستمية الإباضية ونمت شيئا فشيئا داخلها. وقد كانت هذه الإمارة هي الدولة المستقلة الأولى في ربوع المغرب الأوسط. غير أنها لم تظهر في ثوبها الكامل سوى في سنة

فَلَمَّا تَمَادَى العَيْشُ وَانْشَقَّتِ العَصَى
تَدَاعَتْ أَهَاضِيبُ النَّوَى وَهْيَ تَنْهَلُّ
سَلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ نُطِقْ يَوْمَ بَيْنِنَا
سَلاَماً وَلَكِنْ فَارَقَتْ وَبِهَا ثُكْلُ
وَمَا هِيَ آمَاقٌ تَفِيضُ دُمُوعُهَا
وَلَكِنَّهَا الأَرْوَاحُ تَجْرِي وَتَنْسَلُّ)).

البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 198 ــ 199.

[1] ويصف البكري هذه المدينة بقوله: ((ومدينة تيهرت مسورة؛ لها ثلاثة أبواب: باب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها [عدَّ أربعة أبواب بدلا من ثلاثة]. وهي في سفح جبل يقال له جزُّول؛ ولها قصبة مشرفة على السوق؛ تسمى المعصومة؛ وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة؛ يسمى مينا؛ وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتُش؛ ومن تاتش شُرب أهلها، وبساتينها؛ وهو في شرقيها. وفيها جميع الثمار؛ وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما مشما؛ وسفرجلها يسمى بالفارس. وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج... ونظر رجل من أهل تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز؛ فقال احرقي ما شئت؛ فوالله أنك بتاهرت لذليلة. وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تاهرت القديمة؛ وهي حصن لبرقجانة؛ وهو في شرقي الحديثة... وبقبليها لواتة وهوارة في قرارات، وبغربيها زواغة، وبجوفها مطماطة وزناتة ومكناسة؛ وقد ذكرنا أن بشرقيها حصن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب، ص ص: 66 ـ 67.

160هـ(776م).[1] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ـ ولو شكلية ـ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام. وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ـ بعد أن مات بعلها في الحج ـ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الآباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ـ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ـ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[2]

---

[1] **ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة 161هـ تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب ابن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة154هـ. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 29 ـ 30.**

[2] **المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـ 968.**

ومن الضروري التنبيه – هنا – إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها**".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 – 638.**

لمـــا كانـــوا يعرفونــــه عـــن نسبـــه وفضلـــه؛ فدخـــل ــ بهـــذا الاعتبـــار ــ في إطـــار أصحـــاب النصـــاب الملـــكي؛ لأنـــه منســـوب إلى الأكاســـرة، وكـــان عامـــلا لأبي الخطـــاب عـــلى القيـــروان في الدولـــة الإباضيـــة الأولى. كمـــا أن القبائـــل المتعـــددة العصبيـــات ــ الـــتي شاركـــت في تشييـــد هـــذه الدولـــة ــ تكـــون قـــد اختارتـــه؛ لـــكي تتجنـــب الصراع عـــلى السلطـــة فيمـــا بينهـــا؛ وخوفـــا مـــن تأثيـــر النـــزوات الهوجـــاء للعصبيـــة الغاشمـــة. هـــذا بالإضافـــة إلى تأثيـــر المذهـــب الإبـــاضي؛ الـــذي يستوجـــب اختيـــار الأميـــر مـــن أهـــل الصـــلاح والفضيلـــة؛ دون اعتبـــار لعروبتـــه أو قريشيتـــه.[1] وبذلـــك يمكـــن القـــول أن دولـــة بـــني رستـــم تأسســـت بفضـــل العصبيـــة الـــتي تمثلهـــا قبائـــل: لمايـــة ولواتـــة ومزاتـــة وهـــوارة وزناتـــة؛ تلـــك القبائـــل الـــتي تحالفـــت، وعـــززت عصبيتهـــا بالتعاليـــم الدينيـــة؛ الـــتي ألفـــت بيـــن القلـــوب، وأنارت العقـــول، ووحـــدت الصفـــوف، وأزالـــت علـــة التنافـــس، والحســـد

---

[1] ويمكـــن استشفـــاف ذلـــك كلـــه مـــن خـــلال النـــص الـــذي سجلـــه أحـــد علمائهـــم وهـــو أبـــو زكريـــاء يحـــيى بـــن أبي بكـــر؛ في كتابـــه سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم؛ إذ قـــال: ((أن جماعـــة مـــن المسلميـــن ــ مـــن أهـــل النظـــر منهـــم ــ وجـــدوا في أنفسهـــم قـــوة، وأنســـوا طاقـــة؛ فـــأرادوا التوليـــة؛ فنظـــروا في عامـــة القبائـــل؛ فوجـــدوا في كـــل قبيلـــة رأســـا أو رأسيـــن؛ كـــل يصلـــح للإمـــارة؛ فاشتـــوروا فيمـــا بينهـــم. فقـــال بعضهـــم: "إن عبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم الفـــارسي رضي الله عنـــه؛ ممـــن لا تجهلـــون فضلـــه، وهـــو أحـــد الخمســـة الحامليـــن للعلـــم، وعامـــل الإمـــام أبي الخطـــاب رضي الله عنـــه. وقـــد عـــرض عليـــه المسلمـــون الإمامـــة؛ قبـــل توليـــة أبي الخطـــاب؛ فأعـــرض عنهـــا، ودفعهـــا عـــن نفســـه، ولـــم يردهـــا؛ ولا سيمـــا وأنـــه ليســـت لـــه قبيلـــة تمنعـــه إذا تغيـــر وتبـــدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقـــات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.

بين الناس؛ فهذبت بذلك طيش العصبية، وكبحت جموحها؛ فامتلكت قوة وقدرة؛ حققت بهما استقلالها، وضمنت امتداد رقعتها، واكتسبت هيبة واحترام خصومها.

كان إمام الإباضيين عبد الرحمن بن رستم في غاية الصلاح والزهد وفي قمة المعرفة والعلم. وله بعض المؤلفات منها: تفسير للقرآن الكريم، وديوان خطب، ورسائل إخوانيات. ومن علامات زهده وفضله وتواضعه؛ أنه كان يقوم ببناء داره بنفسه، وبمعونة عبد له. كما أوردت المصادر أنه لما وصلته ــ في بداية الدولة ــ ثلاثة أحمال من المال؛ بعث بها الإباضيون في المشرق؛ استشار أصحابه في أمرها؛ فأشاروا بقبولها؛ لحاجة الدولة والرعية إليها أنئذ. فعمل بمشورتهم وقبلها، ثم فرقها أمام الوفد المشرقي على فقراء المسلمين، وفي شراء الأسلحة الضرورية. ولما وصلته عشرة أحمال أخرى من المال ــ بعد فترة ــ مع وفد آخر؛ شاور أصحابه أيضا؛ فتركوا القرار له. عندها أرجع الأحمال إلى أصحابها؛ بحجة أن أصحابها أحوج إليها من الدولة؛ نظرا لاستغنائها وما وصلت إليه من قوة.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 83 ــ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، ثم عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**، وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ على العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فندين اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا.

وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر ـ في الأول ـ بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فندين من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: **((هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا)).**[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فندين بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

ـ حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة، والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل

---

[1] السير، ص: **86**. والطبقات، ج: **1**، ص: **47**.

[2] السير، ص: **86**. والطبقات، ج:، **1**، ص ص: **46 ـ 47**.

بأنها دامت نحو أربعين سنة؛ أي أنه تولى الحكم سنة 168هـ(784م) ومات سنة 208هـ(823م)، وقائل أنها لم تتجاوز التسعة عشر سنة. غير أن سليمان الباروني يقول أنه حكم من عام 171هـ إلى عام 190هـ(805م) سنة وفاته.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب بدأت **العصبية** تتململ وتتحرك؛ استجابة لمقتضى طبيعتها المتصفة بالأنانية والغضب. وعلى الرغم من انتماء أم عبد الوهاب إلى القبيلة بني يفرن الزناتية؛ تلك القبيلة القوية النافذة؛ فإنه لم يستطع كسب ولاء كل عشائرها؛ إذ وقف في طريقه يزيد بن فندين اليفرني؛ ذلك الخصم العنيد، المتعصب لنفسه ولقبيلته. ونتيجة لهذا حدث ما يعرف لدى الإباضيين بالافتراق الأول بين الإباضيين. وقد تطور الخلاف بين الطرفين حتى وصل إلى استعمال السلاح، وسفك الدماء. وتكررت الفتن بينهما حتى اختتمت بمقتل يزيد بن فندين؛ في موقعة قتل فيها ما لا يقل عن اثني عشر ألفا.

وعرفـت الجماعـة المخالفـة بعـدة ألقـاب منهـا: العمريـة أو العمرانيـة؛ نسبـة إلى عيـسى بـن عميـر، والنجويـة؛ لأنهـم كانـوا يتناجـون بالإثـم والعـدوان، والنكـارة؛ لإنكارهـم إمامـة عبـد الوهـاب، والشغبيـة؛ بسبـب شغبهـم، والملحـدة؛ لإلحادهـم في أسمـاء اللـه الحسـنى، والنكـاث؛ لنكثهـم البيعـة بغيـر حجـة شرعيـة.[1]

ولـم تكـن هـذه هي الثـورة الوحيـدة في عهـد الإمـام عبـد الوهـاب؛ بـل ثـارت عليـه أيضـا فئـة أخـرى مـن قبيلـة زناتـة. وعـلى الرغـم مـن تبعيتهـم للدولـة الإباضيـة؛ إلا أنهـم كانـوا يتمذهبـون بالواصليـة (وهـم أتبـاع طائفـة مـن المعتزلـة؛ ممـن اعتنـق مذهـب واصـل بـن عطـاء الغـزال).[2] كمـا وضـع أبـو زكريـاء في كتابـه فصـلا خصصـه لهـذه الفرقـة؛ ولدورهـا في إثـارة الفتنـة وسـط دولـة بـني رستـم؛ وسـرد الكيفيـة الـتي استطاعـت بهـا هـذه الفئـة مـن زناتـة الـزج بالدولـة في دوامـة مـن الاضطرابـات والفتـن ــ مـدة طويلـة ــ قبـل أن تتمكـن مـن التغلـب

---

[1] السيـر، ص ص: 88 ــ 100. والطبقـات، ج: 1 ص ص: 47 ــ 56.

[2] وقـد أشـار البكـري لهـذه الفئـة مـن الواصليـة؛ المتواجـدة بالقـرب مـن تيهـرت فقـال: ((وكـان مجمـع الواصليـة قريبـا مـن تاهـرت؛ وكـان عددهـم نحـو ثلاثيـن ألفـا؛ في بيـوت كبيـوت الأعـراب؛ يحملونهـا)). المغـرب، ص: 67. أنظـر أيضـا معجـم البلـدان لياقـوت الحمـوي، مـادة تاهـرت: 2، ص: 8.

عليهم؛ بمساعدة جماعة من نفوسة.[1] والقصة طويلة؛ ولكن خلاصتها في النهاية؛ انتهت بهزيمة الواصلية في مجالات الحرب، والمجادلات الكلامية. وعندها اختار أصحابها مهادنة الدولة. وثمة من يعتقد بأن محرك هذه الجماعة هو شيخ أوربة بأوليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي؛ المبايع لإدريس بن عبد الله؛ وكان ــ كما قال البكري ــ معتزليا. ومن جهة أخرى فقد ذكر الشهرستاني ــ في فصل الواصلية ــ أن فئة منهم

---

[1] وعن هذا يقول أبو زكرياء: ((وهم قوم من البربر؛ أكثرهم من قبائل زناتة؛ وذلك حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية؛ وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة؛ فبلغ الإمام ذلك؛ فاعتذر إليهم مرة بعد مرة؛ وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع، عظيم، بطل لا يقاوم له شيء؛ وهو ابن سيدهم، وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة؛ يذب من مذهبه؛ وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة؛ وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية، واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب؛ فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا جبالها؛ وهم أصحاب العمود؛ وأظهروا مخالفة الإمام ــ رضي الله عنه ــ فاعتذر إليهم؛ وخرج إليهم بعساكر كثيرة؛ فقاتلهم مرة بعد مرة. وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة؛ لا يدرك أحدا إلا قتله... فلما رأى الإمام ــ رضي الله عنه ــ ذلك، وأن حربهم جد؛ أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم؛ أن يبعثوا إليه جيشا نجيبا؛ يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة... واتفق رأيهم على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي [النفوسي الويغوي]، والآخر أيوب بن عباس، والثالث محمد بن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه؛ وقد قيل أن اسمه أبو محمد فارس...)). السير، ص:102.

متواجــدة في بلــد إدريــس بــن عبــد اللـــه الحســـني.[1] وإذا صــح هـــذا فمعنـــاه أن الواصليـــة تكـــون قـــد انتشـــرت انتشـــارا واسعـــا في المغـــرب الأوســـط؛ ووصلـــت إلى أجـــزاء مـــن المغـــرب الأقـــصى.

ولـــم تكـــن هزيمـــة ابـــن فنديـــن اليفـــرني والزناتييـــن التابعيـــن للواصليـــة ــ مـــن بعـــده ــ هي خاتمـــة الثـــورات؛ بـــل انتفضـــت قبيلـــة هـــوارة إثرهمـــا؛ بفعـــل الغيـــرة والنخـــوة وتأثيـــر العصبيـــة؛ إذ استفزهـــم تصـــرف الإمـــام عبـــد الوهـــاب؛ مـــن أجـــل ابنـــة شيـــخ قبيلـــة لواتـــة؛ الـــتي تقـــدم إلى خطبتهـــا أحـــد شيـــوخ هـــوارة؛ فخـــاف الإمـــام عبـــد الوهـــاب عاقبـــة تمتيـــن أواصـــر القـــربى بيـــن القبيلتيـــن: (هـــوارة ولواتـــة) فســـارع إلى مزاحمـــة شيـــخ هـــوارة؛ وعـــرض نفســـه بديـــلا وخطيبـــا منافســـا.[2] وبالطبـــع دخلـــت في الاعتبـــار المغريـــات الماليـــة، والوعـــود الملوكيـــة؛ فانتهـــت المنافســـة بـــزواج الأميـــر عبـــد الوهـــاب مـــن الفتـــاة. وكـــان هـــذا بمثابـــة إعـــلان حـــرب بيـــن هـــوارة والإمـــام عبـــد الوهـــاب. وحدثـــت أيضـــا في عهـــد هـــذا الإمـــام فتـــن أخـــرى؛ قامـــت بهـــا بعـــض العشائـــر البدويـــة مـــن مزاتـــة وسدراتـــة وعشائـــر أخـــرى.

---

[1] **الملـــل والنحـــل، ج: 1، ص: 46.**

[2] **سيـــرة الأئمـــة الرستمييـــن، ص: 22. الأزهـــار الرياضيـــة، ج: 2، ص: 137. وتاريـــخ الجزائـــر في القديـــم والحديـــث، ص: 457. وتاريـــخ الجزائـــر العـــام، ج: 1، ص: 169. وتاريـــخ المغـــرب الكبيـــر، ج: 3، ص ص: 420 ـــ 421. 430 ـــ 431. 491. والعلاقـــات الخارجية للدولـــة الرستميـــة، ص: 56.**

والسبب ـ على ما يبدو ـ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ـ في قصة طويلة ـ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[1]

ـ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح ابن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ـ كما يبدو ـ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو 208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛

---

[1] **تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـ 421. 431. 491 ـ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.**

فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية ـ بدقة ـ عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد.

ومع هذا فقد نشبت في عهد الإمام أفلح بعض التيارات المعارضة؛ مثل: الحركة التي سماها الإباضيون بالافتراق الثالث؛ وهي ـ في الحقيقة ـ معارضة مذهبية سلمية؛ قادها نفاث ابن نصر النفوسي؛ وإن كانت المصادر الإباضية ترجع أسبابها إلى عوامل سياسية؛ وإلى الغيرة والحسد نتيجة لاستحواذ بعضهم على المناصب في الدولة دون الآخرين.[1]

ـ حكومة أبي بكر بن أفلح:

وبعد وفاة الإمام أفلح سنة 140هـ تولى ولده أبو بكر الإمامة. وكانت مدة ولايته قصيرة جدا؛ إذ لم يكمل حكمه السنتين. وفي عهد هذا الإمام عرفت دولة بني رستم تحولا ملحوظا في مسارها السياسي. إذ أصبحت الدولة في قمة الثراء والازدهار؛ مما ساق أصحابها إلى الدخول في عهد جديد يتميز بالترف الفائض والنعيم الواسع. ومن الأمثلة على ذلك الثراء الذي كان متفشيا بين رعايا الدولة أن أحدهم؛ وهو يبيب بن زغلين المزاتي كان يمتلك من الإبل ثلاثين ألفا، ومن الغنم ثلاثمائة ألفا، ومن الحمير اثني عشر ألفا. أما ثروة الإمام أبي بكر بن أفلح فلا حصر لها.

---

[1] **سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 138 ـ 146. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 77 ـ 82.**

وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: "**فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون**". و"**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[1]

---

[1] ففي المثال الأول يقول ابن خلدون: ((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسْوَة قومه في

وهذا هو الذي حصل للرستميين؛ إذ وصل مؤسس دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى إقامة دولته بالكدِّ والجهد والمطالبة المضنية؛ فاقتصر ــ في حياته إذ ذاك ــ على الضروري من العيش. ولم يهنأ له بال، ولا استسلم للراحة ولا للدعة أو السكينة؛ حتى حقق أهدافه. ولما خلفه ابنه عبد الوهاب ضبط أمره، وحافظ على توازن ملكه؛ على الرغم من الثراء الذي بدأ يظهر عليه؛ ونظرا لكونه قد عاش في عهد والده؛ وعرف قيمة الجهود التي بذلها أبوه للوصول إلى ما هم عليه؛ فقد توازنت حياته، ولم يترك لنفسه العنان.

اكتساب المجد، وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية... الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته...الطور الثالث: طور الفراغ والدَّعَةِ؛ لتحصيل ثمرات الملك؛ مما تَنْزِع طباع البشر إليه؛ من تحصل المال، وتخليد الآثار، وبعد الصيت... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بَنَى أوَّلُوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أوَّلُوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم، ويستولي عليها المرض المزمن؛ الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرْءٌ؛ إلى أن تنقرض)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ــ 666.

ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ـ هو في ذاته ـ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ـ نتيجة لذلك ـ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه ترك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم.

ويبدو أنه تم ـ وفي عهد أبي بكر هذا ـ إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية ـ في أواخرها ـ نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية ـ بدءا بعهد أبي بكر هذا ـ في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

---

[1] **وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين، ص: 26.**

ـ حكومة أبي اليقظان محمد بن أفلح:

بويع أبو اليقظان بالإمامة سنة 241هـ خارج تيهرت؛ أثناء الفتنة التي تسبب فيها أخوه أبو بكر. حدث ذلك بعد لجوئه إلى حصن لواتة المحاذي لتسلونت؛ أين ينبع نهر مينا. ولما ولي شئون الدولة عمل من فوره إلى إخماد الفتنة، وعقد صلحا مع بني مسالة الهواريين الذين تغلبوا على تيهرت. هذا وقد لعبت نفوسة دورا هاما في إعادة المياه إلى مجاريها، وتمهيد الأمر لعودة الدولة بقيادة أبي اليقظان. وبالفعل دخل إمام الإباضية من جديد إلى تيهرت؛ بغرض إصلاح ما تصدع، وعلاج ما أفسده الدهر والعباد.

ومع ذلك لم تجد إصلاحات أبي اليقظان في إنعاش هذه الدولة؛ لأن الداء أصبح مزمنا والعلاج مستحيلا. خاصة عندما اتضح أن العامل الديني ـ هو بدوره ـ أخذ مفعوله يتلاشى ويضعف في حياة تلك الدولة. كما أصبحت عصبية البيت المالك فاقدة لتلاحمها وفاعليتها. عندئذ برز الوجه الآخر للعصبية؛ كاشفا عن العيوب، والسلبيات التي كبحها الدين وضبط مفعولها ومؤثراتها من قبل. غير أن بوادر هذا الأمر السلبي بدأت ـ في الحقيقة ـ تظهر منذ عهد الأمير الثاني؛ ولكن الدولة كانت مازالت قوية بعصبيتها، وبمذهبها الديني. ولما حل عهد أبي بكر أخذ التنافس، والتحاسد يهيمنان على كيان التحالف القبلي المساند للدولة.

وهكذا؛ أضحت الخلافات والمؤامرات تحجب ضوء الشمس؛ في سماء الدولة الرستمية؛ وشرع أفراد العائلة المالكة في حبك المؤامرات ضد بعضهم بعضا. ووصل بهم الحال إلى سفك دماء قرابتهم وأهاليهم. وبذلك كتب لهذه الدولة صك فنائها واندثارها.

ـ حكومة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان:

لما توفي أبو اليقظان سنة 281هـ(894م) ولي بعده في منصب الإمامة ولده أبو حاتم يوسف. وكان ـ حين توفي والده ـ خارج تيهرت في مهمة أسندت إليه مع جماعة من قبيلة زناتة؛ تهدف إلى حماية القوافل التجارية. وعلى الرغم من غيابه فقد خرجت العامة في شوارع تيهرت هاتفة باسمه؛ نظرا لما تخصه به من حب وإجلال. ولكنه لم يبق في منصبه أكثر من عام حتى بدأت المصاعب تظهر بوجهها القبيح؛ إذ تحركت بعض المؤامرات التي حاكها جماعة من أصحاب المصالح؛ حيث حرضوا عليه عمه يعقوب بن أفلح. فأغروه بالملك وواعدوه بالوقوف إلى جانبه إن هو ثار على ابن أخيه. وبالفعل تحرك يعقوب محاولا الاستيلاء على سدة الحكم. وظل الصراع بينهما يتصاعد؛ وكان النجاح سجالا بينهما؛ إلى أن قتل أبي حاتم غيلة بأيدي طرف ثالث في الأسرة المالكة؛ وهم أبناء اليقظان أخيه من الأب في سنة

294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ـ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ـ 45. 47 ـ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ـ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

هذا عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة أما بخصوص إنجازاتها الحضارية والثقافية؛ فهي ـ خلافا للدولتين السابقتين ـ قد تميزت بالمآثر الحضارية، والإنجازات الثقافية والعمرانية؛ التي عرفت تطورا ملحوظا؛ بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي. وقد نافست تيهرت ـ في عهدها ـ حاضرة القيروان؛ في ميدان العلوم والعمران. حيث كانت ـ في ذلك الوقت ـ مركز إشعاع ثقافي، وحضاري انتشر نوره في ربوع المغرب كلها. ووصل أثره إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى؛ كبغداد، وقرطبة.[1]

---

[1] وفي هذا يقول ألفرد بل: ((وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية؛ وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في مسائل العقيدة والشريعة؛ وربما راود هؤلاء الأخيرين الأمل في أن يقنعوا علماء أهل السنة باعتناق نحلة الإباضية. ومن هذه الناحية كانت تاهرت ـ شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة ـ مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات. وأخذ شيوخ البربر في تلقي العلم بحماسة، وأسسوا مدرسة هم بدورهم. هنالك صارت تيهرت ـ بفضل حسن موقعها من الناحية الاقتصادية، وبفضل تسامح أئمتها ـ مدينة مزدهرة. وبفضل الزراعة، والتبادل التجاري خصوصا؛ صارت من أكبر أسواق المغرب... ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم؛ لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم؛ وهو ابن رستم وأهملوا العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم. ولهذا انهارت

وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله ابن محمد التميمي التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: **((كان غاية**

هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ــ 150.

في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا ابن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها

وغصن شبابي في الغصون نضير

فقلـــت كمـــا قـــال النـــواسي قبلهـــا

((عزيـــز علينـــا أن نـــراك تســـيـــر))

فقلـــت جفـــاني يوســـف بن محمـــد

فطـــال عـــلي الليـــل وهـــو قـــصيـــر

أبا حاتـــم ما كان ما كـــان بغضـــة

ولكـــن أتـــت بعـــد الأمـــور أمـــــور

فأكرهـــني قـــوم خشيـــت عقابـــهـــم

فداريتهـــم، والدائـــرات تـــــدور

وأكـــرم عفـــو يؤثـــر الناس أمـــره

إذا مـــا عفـــا الإنســـان وهـــو قديـــر

كمـــا قـــال لـــه لمـــا مثـــل بيـــن يديـــه:

مـــاذَا يُدَبِـــرُ رَبنـــا فِي أمْـــرِهِ

سبُحانـــهُ فِي أرْضـــهِ وَسمائِـــهِ

رَدَّ المُلـــوكَ إلَى مَحـــلِّ قرَارِهِـــمْ

مُستَبْشِرِيـــنَ بِفضلِـــهِ وَعَطائِـــهِ

فتبَـــارَكَ اللـــهُ اللطِيـــفُ بِصنُعِـــهِ

مَا أغفـــلَ الثقليْـــنِ عَـــنْ نِعمَائِـــهِ

رَفَـــعَ السمـــاءَ بـــلاَ عِمَـــادٍ بَيِـــنٍ

وَالبَحـــر أمْسَكـــهُ عَلَى أرْجائـــهِ

لـــوْلاَهُ فاضَ عَلَى العِبَـــادِ بمَوْجِـــهِ

وَعَلى الجبَـــالِ الرَّاسِيَاتِ   بمَائـــهِ

أخَـــذَ البـــلاَدَ بِسَيْفِـــهِ فاسْتَسْلَمَـــتْ

وَبعَدْلِـــهِ وَبفضْلِـــهِ وَسَخائـــــهِ

ومـــن شعـــر أبي عبـــد الرحمـــن بكـــر بـــن حمـــاد الزنـــاتي في وصـــف البـــرد بتاهـــرت قولـــه:

مَـــا أخْشَـــنَ البَـــرْدَ وَرَيعَانـــهُ

وَأطـــرَفَ الشمْـــــسَ بتاهَـــرْتِ

تَبـــــدُو مِنَ الغيـــمِ إذا مَا بَـــدَتْ

كأنهَـــا تنشَـــــرُ مِـــن تخـــــتِ

نَحْـــنُ فِي بَحْـــرٍ بَـــلاَ لجَّـــــةٍ

تَجْـــرِي بِنَا الرِّيـــحُ عَلَى السَّمْـــتِ

نفـــرَحُ بِالشَّمْـــسِ إذا مَـــا بَـــدَتْ

كفرْحَـــةِ الـــذمِّي بِالسَّـــبْـــــتِ

ويقــول في تيهــرت بعــد تخريبهــا مــن طــرف الفاطميــين سنـــة 296هــ(908م)؛ وهي السنـــة نفسهـــا الـــتي تـــوفي فيهـــا ابـــن حمـــاد. فقـــال:

زُرنـــا مَنـــازِلَ قـــوْمٍ لمْ يَزُورُونـــا
إنـــا لـــفِي غفلـــةٍ عَمـــا يُقاسونـــا

لو يَنطِقــونَ لقالوا: الزَّاد وَيحَكــمُ
حَلَّ الرَّحِيلُ فمَا يَرْجُــو المُقِيمِينـــا

الموْتُ أجْحَــفَ بِالدُّنيـــا فخرَّبهَـــا
وَفعَلنـــا فِعْـــلَ قـــوْمٍ لاَ يَمُوتونـــا

فالآنَ فابكوا فقدْ حَقَّ البُكـــاءُ لكـــمْ
فالحامِلونَ لِعَــرشِ اللـــهِ باكونـــــا

مَاذَا عَسَى تنفـــعُ الدُّنيـــا مُجَمِّعِهَـــا
لوْ كانَ جَمـــعَ فِيهَا كنـــزَ قارُونـــا

ثــم ولــده أبــو زيــد عبــد الرحمــن بــن بكــر بــن حمـــاد؛ قـــال فيـــه ابـــن الفـــرضي: ((**عبـــد الرحمـــن بـــن بكـــر بـــن حمـــاد التيهـــرتي الشاعـــر؛ مـــن أهـــل القيـــروان؛ يكـــنى أبـــا زيـــد؛ قـــدم الأندلـــس. حـــدث عـــن أبيـــه، وكتـــب عنـــه غيـــر واحـــد مـــن شعـــر أبيـــه وحديثـــه**)).[1] ويقـــول ابـــن الفـــرضي أنـــه تـــوفي بقرطبـــة؛

---

[1] **تاريـــخ علمـــاء الأندلـــس، ص: 268.**

بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَكيْتُ عَلَى الأحِبةِ إذْ توَلوْا
وَلوْ أنِّي هَلَكتُ بَكوْا عَليا
فيا نسْلي بَقاؤُكَ كانَ ذُخراً
وَفقدِكَ قدْ كوَى الأكبادَ كيا
كفَى حُزناً بِأننِي مِنكَ خلوٌ
وَأنكَ ميتٌ وَبقيتُ حيا
وَلمْ أكُ آيساً فيئسْتُ لمَّا
رَميتُ الترَابَ فوقكَ مِنْ يَدَيا
فليْتَ الخلقُ إذَ خلِقوا أطاعُوا
وَليتكَ لمْ تكُ يَا بَكرُ شيا
تسرُّ بِأشهرٍ تمْضِي سرِاعاً
وَتطوَي فِي لياليهنَّ طيا
فلاَ تفرَحْ بدنيا ليسَ تبقَى
وَلاَ تأسفْ عَليهَا يَا بُنيا
فقدْ قطعَ البَقاءَ غرُوبَ شمسٍ
وَمَطلعها عَلِيٌّ يَا أخيا

وَليــسَ الهــمُّ يجلــوهُ نهـــارٌ
تــدُورُ لــهُ الفرَاقــدُ وَالثرَيـــا

ورثـاه بقصيـدة أخـرى أيضـا فقـال:

وَهــوَّنَ وَجــدِي أننِي بكَ لاَحِــقٌ
وَأنَّ بَقــائِي فِي الحيــاةِ قليــلُ
وَأنْ ليــسَ يَبــقَى لِلحَبيبُ حَبيبــهُ
وَليــسَ ببــاقٍ لِلخلِيــلُ خلِيــلُ
وَلوْ أنَّ طولَ الحــزْنِ مِما يَــرُدُّهُ
للاَزَمــنِي حــزْنٌ عليــهِ طوِيــلُ
بلى رُبما دَارَتْ عَلَى القلبِ لوْعَــة
فيرجعُهــا صَبَــرٌ هنــاكَ جمِيــلٌ
تبــدَّدَ مَا قدْ كــانَ مِنــكَ مُجمعــاً
وَجللــهُ رَمــلٌ عليــك مهيـــلُ
فــلاَ عَلــمٌ يُنبيــكَ أيــنَ مَحلــهُ
وَلاَ جَــدَثٌ يُشــفَى عليــهِ غلِيــلُ
خلاَ أعْظَــمٍ قدْ بــدِّدَتْ وَمَفاصِــلٍ
تمِيــلُ بها الأرْيَــاحُ حَيثُ تمِيــلُ

وممن ينسب – أيضا – إلى تيهرت من العلماء والأدباء: أبو العباس الفضل بن نصر التاهرتي؛ وكان من علماء الشافعية؛ وتوفي بالقيروان سنة 344هـ(955م)؛ وهو من الشعراء كذلك؛ ومن شعره:

بلـغَ الوُشـاةُ عَـلَيَّ حَيـثُ أرَادُوا
وَاللـهُ يَسْألهـمْ وَمَـا قـدْ كـادُوا
وَاللـهُ يَعلـمُ أنـنِي مَا قلـتُ مَـا
قـالَ الوُشـاةُ تأفكـاً وَأعـادُوا
فهـبِ الوُشـاةُ أتـوْا بأمـرٍ بَيـنٍ
أيـنَ الكِـرَامُ أبدَّلـوا أمْ بـادُوا
عفوُ الملـوكِ عَنِ الذُّنوبِ مدَائـحٌ
مَدَحـوا نفوسَهـمُ بهـا فأجـادُوا

ولما وصل إليه خبر – غير مؤكد – بوفاة ابنه في جزيرة شقر؛ قال:

فلـوْ كَافتقـادِ الناسِ قبـلِي بَيْنهـمْ
أتِيـحَ لهُ مُـوْتٌ وَأضمَـرَهُ قبـرُ

إذَنْ لصَبَرْتُ النفــسَ ثمَّ احتسبتــهُ
لِيعظــمَ لِي مِنْ بَعدِ ميتتِــهِ الأجــرُ
ولَكِنْ طــوَتْ عنِّي المَقادِيرُ أمــرَهُ
فمالِي بهِ مِنذُ انتــآى شخصُهُ خبــرُ
فرَحْمتــكَ اللهــمَّ قــدْ بلَــغَ الأسَى
نِهاية مَجهودِي وقَدْ غلِــبَ الصَّبــرُ

كمــا كــان جــل أئمــة الدولــة ـ أنفسهــم ـ مــن العلمــاء والأدبــاء. فمؤســس الدولــة عبــد الرحمــن بــن رستــم؛ يعتبــر مــن كبــار علمــاء الإباضيــة، كمــا كــان ولوعــا بأشغــال العمــارة، ويباشرهــا بنفســه؛ وإن اعتبــر مــا ينجــزه منهــا بسيــط المظهــر. أمــا ولــده عبــد الوهــاب فقــد عــرف بتبحــره في العلــوم، وولعــه الشديــد بالكتــب؛ إذ تقــول المصــادر أنــه بعــث إلى المشــرق ألــف دينــار لشــراء الكتــب؛ فأرسلــت إليــه الكتــب الــتي قــدرت بأربعيــن حمــلا. ويقــال أنــه كــان ضليعــا في العلــوم الشرعيــة وعلــم الفرائــض والتنجيــم. أمــا ولــده الإمــام أبــو سعيــد أفلــح فكــان ـ بــدوره ـ عالمــا جليــلا في علــوم وفنــون شــتى؛ ومــن شعــره قصيــدة في مــدح العلــم تصــل أبياتهــا إلى الأربعيــن؛ منهــا:

العلــم أبقى لأهــل العلــم آثــارا

يريـــك أشخاصهم روحا وأبكـــارا

حي وإن مات ذو علــم وذو ورع

ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

وذو حيـــاة على جهل ومنقصــــة

كمَيِّت قد ثوى في الرمس أعصارا

للـــه عصبة أهل العلــم إن لهــم

فضلا على الناس غيابا وحضـــارا

وتقــول المصـــادر أنـــه كـــان بتيهــرت الرستميـــة مكتبـــة أسمهـــا المعصومـــة؛ تشتمـــل عـــلى أزيـــد مـــن ثلاثمائـــة ألـــف مجلـــد؛ انتـــهى مصيرهـــا إلى النـــار الـــتي أشعلهـــا في معظـــم مجلداتهـــا عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ عندمـــا افتتـــح تيهـــرت؛ ولـــم يأخـــذ منهـــا ســـوى مـــا يناســـب مذهبـــه؛ ومـــا وجـــد بهـــا مـــن كتـــب الرياضـــة والصنائـــع والفنـــون.[1]ولـــو بقيـــت هـــذه المكتبـــة لقدمـــت للباحثيـــن معلومـــات وافيـــة عـــن هـــذه الدولـــة الإباضيـــة.

---

[1] وعـــن الآثـــار العمرانيـــة لـــدى الرستمييـــن؛ يقـــول شـــارل أندريـــه جوليـــان: ((واقتصـــر الباحثـــون ــ زمنـــا طويـــلا عنـــد تقييـــم فـــن بـــني رستـــم المعمـــاري ــ عـــلى آثـــار سدراتـــة (قـــرب ورقلـــة) وهي المدينـــة الـــتي التجـــأ إليهـــا أهـــل تاهـــرت عندمـــا استـــولى الفاطميـــون عـــلى عاصمتهـــم سنـــة **911**م. وتدلنـــا هـــذه الآثـــار عـــلى أن فنهـــا المعمـــاري متصـــل بفـــن إفريقيـــة، وأن زخرفهـــا ينتســـب إلى زخـــرف أديـــرة الأقبـــاط، وان لهـــا عناصـــر معماريـــة متأثـــرة بالمبـــاني المصريـــة المعاصـــرة لهـــا؛

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ــ حسبما يبدو ــ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما:

ــ أولا: **إمارة بني دمر**: وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ــ في الحقيقة ــ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة **هاز** وفي الجنوب الشرقي من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا

وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة 1941م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على آثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: 1835 و 1841م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار؛ كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 2، ص ص: 43 ــ 44.

يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ـ مذهبياً ـ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بموروور في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ـ كما يبدو ـ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة.
أما الإمارة الإباضية الثانية:

ـ فهي **إمارة بني مسالة الهواريين**: وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ـ أيضا ـ عند الحديث عن الفتنة التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ـ بالقرب من بلدة **يلل ـ بقلعة هوارة**. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛

بينما ساعدتهم الظروف على إقامتها ببلاد الأندلس؛ خلال الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية.

****

4)ـ دولة بني برزال:

قامت هذه الدولة في بلاد الأندلس؛ وذلك بعد أن أعلن البرزاليون قيامها في بلدة **قرمونة**؛ التي اتخذوها عاصمة لهم. هذا وقد نشأت هذه الإمارة الأمازيغية ـ ذات المذهب الخارجي ـ بعد انهيار الدولة الأموية، وانقسام بلاد الأندلس بين شلة من الأمراء، وبعض القبائل العربية والأمازيغية، وجماعات مختلفة من المولي والمماليك؛ وذلك في الفترة المعروفة بعصر الطوائف. وكانت هذه الدولة إباضية المذهب؛ حسبما ذكر كل من: ابن حيان وابن الخطيب.

ويرجع وجود بني برزال في بلاد الأندلس إلى عهد المستنصر الحكم بن عبد الرحمن الأموي ـ تولى من عام 350هـ (961م) إلى عام 366هـ(976م) ـ . وحدث ذلك بسبب وساطة قام بها حليفهم؛ عامل الفاطميين على المسيلة جعفر ابن علي بن حمدون؛ بعد تمرده وهروبه إلى الأندلس؛ فاستأذن لهم من الخليفة الأموي في الانتقال إلى الأندلس؛ فأذن لهم مرحبا بمقدمهم؛

بغـرض الاستعانـة بهـم في حروبـه. ويبـدو أن السبـب الرئيـس في ترحيـب المستنصـر بهـم؛ هـو مـا عـرف عنهـم مـن عـداوة وبغضـاء يكنانهمـا للشيعـة الفاطمييـن. وكمـا هـو معـروف؛ فهـؤلاء الفاطمييـن هـم أخطـر المنافسيـن وأشدهـم شراسـة للدولـة الأموية في تلـك الأنحـاء. ومنـذ ذلـك التاريـخ أضـحى البرزاليـون جنـدا في خدمـة الدولـة الأمويـة. بـل أصبحـوا مـن أقـرب المقربيـن إلى الخليفـة؛ إذ كانـت لهـم حظـوة خاصـة، نظـرا للثقـة الـتي خصهـم بهـا. ولمـا استبـد المنصـور ابـن أبي عامـر عـلى الخليفـة هشـام؛ بالـغ في تكريـم البرزالييـن مـع الوافديـن مـن أمـراء القبائـل الأمازيغيـة الأخـرى؛ إذ قربهـم إليـه وخصهـم بالإقطاعيـات والقيـادات.[1]

---

[1] يقـول ابـن خلـدون: ((ولمـا أراد المنصـور بـن أبي عامـر الاستبـداد عـلى الخليفـة هشـام؛ وتوقـع النكيـر مـن رجـالات الدولـة، ومـوالي الحكـم؛ استكثـر ببـني بـرزال وغيرهـم مـن البربـر، وأفـاض عليهـم الإحسـان؛ فاعتـز أمـره واشتـد أزره؛ حـتى أسقـط رجـال الدولـة، ومحـا رسومهـا، وأثبـت أركـان سلطانـه... فأضحـوا لـه عصبـة؛ وكـان يستعملهـم في الولايـات النبيهـة والأعمـال الرفيعـة وكـان مـن أعيـان بـني بـرزال هـؤلاء إسحـاق بـن...؛ فـولاه قرمونـة وأعمالهـا؛ فلـم يـزل واليـا عليهـا أيـام بـني أبي عامـر. وجـدد لـه العقـد عليهـا المستعيـن في فتنـة البرابـرة؛ ووليهـا مـن بعـده ابنـه عبـد اللـه)). العبـر، مج: 7 ص: 112.

وفي هذه الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[1] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون – بعدئذ – محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة

---

[1] **ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان ابن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202 .203 . 206. 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 – 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 – 113.**

من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[1] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول أخر؛ هو تثبيته والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ـ منذ تلك الفترة ـ قيام إمارتهم في كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: كـ: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي بن حمود على سبتة، والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

هـذا حـال بـني بـرزال يـوم ظهورهـم بالأندلـس. أمـا فيمـا يخـص أصولهـم؛ فالمصـادر تتفـق كلهـا عـلى أنهـم بطـن مـن بطـون بـني دمـر الزناتيـن. وكانـت مواطنهـم الأولى في جبـل سـالات؛ بجهـات المسيلـة حاضـرة الـزاب آنئـذ. وكانـت أعدادهـم وافـرة، وسطوتهـم قاطعـة؛ ونفوذهـم واسعـا في تلـك الجهـات. كمـا كانـوا ــ كمـا يقـول ابـن خلـدون ــ نكاريـة مـن الخـوارج. ومـن أتبـاع أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد؛ حيـث ناصـروه وحمـوه حيـن ثـار عـلى الدولـة الفاطميـة. ولمـا ضاقـت بـه الحـال هـرب إليهـم في جبـل سـالات؛ فوفـروا لـه المـأوى والحمايـة بعـض الوقـت. ولكنهـم عـادوا إلى طاعـة الدولـة الفاطميـة عندمـا فشلـت مقاومتهـم، ويئسـوا مـن جـدوى المدافعـة؛ خاصـة بعـد مـوت أبـي يزيـد. ومنـذ ذلـك التاريـخ أضحـوا في خدمـة جعفـر بـن عـلي والي المسيلـة. ولمـا سـاءت علاقـة جعفـر بالدولـة الفاطميـة سنـة 360هـ(970م) انحـاز بنـو بـرزال إليـه وحالفـوه. لذلـك تكلـم في أمرهـم إلى الحكـم المستنصـر؛ فوافـق عـلى استدعائهـم إلى بـلاد الأندلـس؛ أيـن ألحقهـم بجنـده؛ مثلهـم مثـل بقيـة القبائـل الأمازيغيـة الـتي التحقـت بالدولـة الأمويـة.

وقـد اشتهـر مـن أمـراء دولـة بـني بـرزال بالأندلـس محمـد بـن عبـد اللـه الوردسـني البـرزالي.[1] ثـم خلفـه ــ في بعـض الأقـوال ــ ابنـه إسحـاق؛ الـذي يقـال أنـه كـان عظيـم الشـأن، عزيـز الجانـب، شديـد الدهـاء، حـاد الذكـاء.[2] أمـا تاريـخ نشـأة هـذه الإمـارة واستبـداد أمرائهـا ــ بصفـة نهائيـة ــ فيعـود حسـب جـل المصـادر إلى سنـة 404هــ(1013م)؛ إذ تـم ذلـك بفضـل العزيمـة الـتي كـان يتحـلى بهـا كـل فـرد مـن

---

[1] وفيـه أقـوال كمـا سبـق ذكـره. أمـا ابـن الخطيـب فيقـوا: ((وكـان هـذا الرئيـس يـلي باديـس ــ مـن ملـوك البرابـرة ــ في جلالـة الشـأن، وقـوة السلطـان؛ بقيـة أمـراء البرابـر المسلطيـن في هـذه الفتنـة، وأعظـم شأنـا في الدهـاء والرجولـة، وأبصرهـم بتدبيـر العساكـر، وأربطهـم جاشـا عـلى الخطـوب المقلقـة. وكـان مشهـورا بذخيـرة عتيـدة مـن صامـت المـال؛ لـم يـزل يجمعهـا؛ حائطـا لهـا بالبخـل الشديـد، واستظهـارا بهـا عـلى الخطـب العتيـد... وتـوفي رئيسهـم [رئيـس بـني بـرزال] محمـد بـن عبـد اللـه عـن جمـع ضخـم مـن قبيـل نجيـب، وخزيـن مـن الطعـام؛ لـم يجمعـه أميـر قبلـه في الفتنـة. وصـار أمـره إلى ولـده إسحـاق)). أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 236 ــ 237.

[2] وهـو كمـا يقـول ابـن الخطيـب نقـلا عـن ابـن حيـان: ((ورأس إسحـاق بعـد مهلـك أبيـه؛ وهـو في حـد الكهولـة. كـان مشهـورا بالحـزم والكفايـة والبـأس والفروسيـة؛ يتحـلى بشعبـة مـن شعـب الكتابـة، ويضبـط شيئـا مـن الحسـاب، ويقـرأ الدفاتـر القريبـة. وهـو دون أبيـه محمـد في القسـوة والفظاظـة، وأذهـَبُ منـه في فـرط العصبيـة. وكلاهمـا عـلى ذلـك موصـوف بالعفـة والنزاهـة، والبعـد عـن آفـات الملـوك الشائنـة؛ مـع اشتهارهمـا بالنكـوب عـن الجماعـة، واعتقادهمـا بمذهـب النكاريـين مـن فـرق الإباضيـة الخـوارج؛ يستأثـران بذلـك همـا وقومهمـا مـن بـني بـرزال؛ أعمالهـم وأقوالهـم في ذلـك معروفـة)). أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 237. وللتوسـع أنظـر أيضـا البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 237 ــ 239. ودول الطوائـف، ص ص: 146 ــ 149.

قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ـ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ـ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[1] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[2]

---

[1] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

[2] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور، والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ـ 238.

وثمـــة قـــول آخـــر يقولـــون فيـــه أنـــه تتـــازل عـــن قرمونـــة إلى ابـــن عبـــاد نفســـه.[1]ومـــن ذلـــك التاريـــخ المحـــدد بـــ459 هـــ(1066م)؛ انقـــرض ملـــك بـــني بـــرزال مـــن الأندلـــس. كمـــا زال ذكرهـــم ــ كقبيلـــة ــ نهائيـــا في المغـــرب الأوســـط. وبذلـــك يكـــون سقـــوط هـــذه الإمـــارة قـــد تـــم بفعـــل التطاحـــن بيـــن القبائـــل، والطوائـــف المتكالبـــة عـــلى السلطـــان والملـــك في بـــلاد الأندلـــس. حيـــث ظـــل أمـــراء هـــذه الدولـــة في حـــروب وفتـــن؛ دارت بينهـــم وبيـــن أبنـــاء عمومتهـــم الأمازيـــغ وغيرهـــم؛ مـــن المنافسيـــن والطامعيـــن؛ كـــ: بـــني دمـــر في مـــورور، وبـــني عبـــاد بإشبيليـــة؛ وبـــني حمـــود بمالقـــة، وبـــني الأفطـــس ببطليـــوس.

وجملـــة القـــول فقـــد جـــاءت نهايـــة الدولـــة البرزاليـــة؛ كمـــا تحـــل نهايـــة أي كيـــان اعتمـــد في حياتـــه عـــلى المغامـــرات، والفتـــن، والمؤامـــرات. وهكـــذا انتهـــت بعـــد حـــروب ومعانـــاة وتقلبـــات. هـــذا وقـــد اندثـــرت تلـــك الإمـــارة دون أن تخلـــف وراءهـــا أيـــة مآثـــر حضاريـــة تذكـــر؛ ولـــم تتـــرك مـــن التـــراث الثقـــافي مـــا يمكـــن نقلـــه أو الحديـــث عنـــه. وعـــلى الرغـــم مـــن وجـــود هـــذه الإمـــارة في بيئـــة تزخـــر بالمآثـــر الثقافيـــة، والإنجـــازات الحضاريـــة؛ فقـــد شحـــت تربتهـــا مـــن ثمـــرات الحضـــارة. لأنهـــا لـــم تكـــن ســـوى إمـــارة قبليـــة؛ ذات طابـــع

---

[1] العبـــر، مج: 7، ص: 113.

عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق – هنا – إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة – في إيجاز – للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى مستوى الدولة ذات المؤسسات. وإن كانت تشكل شكلا من أشكال الإمارات ذات طابع القبلي حربي.

****

أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بد من الإشارة ــ في هذا المجال؛ ولو باقتضاب ــ إلى الكيانات الصفرية التي ترأسها بعض القادة الصفرية الثائرين؛ منهم: ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الهتوري الزناتي، وعكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى، وأبو قرة اليفرني، وعاصم بن جميل الورفجومي، وثابت بن وزيدون الصنهاجي، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي؛ وغيرهم. ثم الحديث ــ أيضا ــ عن الكيانات الإباضية برئاسة: عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وإسماعيل بن زياد النفوسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، وأبي حاتم الملزوزي وآخرون. بالإضافة إلى الكيان الذي تزعمه أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ المنحرف عن المذهب الإباضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛ الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية – بعض الوقت – بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها – كما يبدو – لم تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا – بالضرورة – من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد

سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ــ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: **((من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد))**[2] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ــ يزيد بن عبد الملك ــ بُدّا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[3]

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر، مج: 4، ص: 403.

[2] قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ــ واليا عليها ــ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ أسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ــ أعني حرسه ــ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: "جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ــ لصلاة الصبح ــ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ــ 100.

[3] قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ــ فيما ذكر ــ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم إلى قراهم

ونتيجة لذلك استقام الحال ـ بعض الوقت ـ وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت ـ بعد ذاك ـ ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم الأمويين ـ نهائيا ـ في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب ـ الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) ـ حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان

ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تآمروا في أمره؛ فأجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على إفريقية")). تاريخ الأمم والملوك، ج: 8، ص: 167.

المغـــرب مـــن شحنـــات مدمـــرة.[1] ويبـــدو أن الأوضـــاع العامـــة كانـــت جاهـــزة للانفجـــار؛ ولـــم يبـــق ســـوى الشـــرارة الـــتي ستشعـــل الفتيـــل.[2]

ونتيجـــة لهـــذا فقـــد دخلـــت بـــلاد المغـــرب عهـــدا جديـــدا قاتمـــا؛ ســـادت فيـــه الثـــورات، الـــتي تسببـــت في تقلـــص نفـــوذ الخلافـــة الأمويـــة، وتراجعـــه. وأصبحـــت البـــلاد ــ منـــذ ذلـــك التاريـــخ ــ مقسمـــة بيـــن القبائـــل الأمازيغيـــة المختلفـــة؛ الـــتي استطاعـــت ــ في ظـــل الوضـــع المتـــردي ــ الخـــروج عـــن نفـــوذ الدولـــة الأم؛

---

[1] وفيـــه يقـــول ابـــن عـــذاري: ((ثـــم إن عمـــر بـــن عبـــد اللـــه المـــرادي ــ عامـــل طنجـــة ومـــا والاهـــا ــ أســـاء السيـــرة، وتعـــدى في الصدقـــات والعشـــر؛ وأراد تخميـــس البربـــر. وزعـــم أنهـــم فيء المسلميـــن؛ وذلـــك مـــا لـــم يرتكبـــه عامـــل قبلـــه؛ وإنمـــا كـــان الـــولاة يخمســـون مـــن لـــم يجـــب للإســـلام. فكـــان فعلـــه الذميـــم هـــذا سببـــا لنقـــض البـــلاد، ووقـــوع الفتـــن العظيمـــة المؤديـــة إلى كثيـــر القتـــل في العبـــاد. نعـــوذ باللـــه مـــن الظلـــم؛ الـــذي هـــو وبـــال عـــلى أهلـــه)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 51 ــ 52. أنظـــر عـــن هـــذا ــ أيضـــا ـــ تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 100. والكامـــل لابـــن الأثيـــر، ج: 4، ص: 222. والعبـــر، مج: 4، ص: 405.

[2] وقـــد أشـــار ابـــن خلـــدون إلى بعـــض الأسبـــاب الـــتي شحنـــت النفـــوس، وأغضبـــت النـــاس مـــن ولاة الدولـــة الأمويـــة؛ إذ قـــال: ((ولمـــا ولي عبيـــد اللـــه بـــن الحبحـــاب عـــلى إفريقيـــة؛ مـــن قبـــل هشـــام بـــن عبـــد الملـــك... استعمـــل عمـــر بـــن عبـــد اللـــه المـــرادي عـــلى طنجـــة والمغـــرب الأقـــصى، وابنـــه إسماعيـــل عـــلى الســـوس ومـــا وراءه. واتصـــل أمـــر ولايتهـــم، وســـاءت سيرتهـــم في البربـــر، ونقمـــوا عليهـــم أحوالهـــم، ومـــا كانـــوا يطالبونهـــم بـــه مـــن الوصائـــف البربريـــات، والأفريـــة العسليـــة الألـــوان، وأنـــواع طُـــرف المغـــرب؛ فكانـــوا يتغالـــون في جمعهـــم ذلـــك وانتحالـــه. حـــتى كانـــت الصرمـــة مـــن الغنـــم تستهلـــك في الذبـــح؛ لاتخـــاذ الجلـــود العسليـــة مـــن سخالهـــا؛ ولا يوجـــد فيهـــا مـــع ذلـــك إلا الواحـــد ومـــا قـــرب منـــه. فكثـــر عيثهـــم بذلـــك في أمـــوال البربـــر وجورهـــم عليهـــم)). العبـــر، مج: 6، ص ص: 239 ــ 240.

وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته ــ مجازا ــ إمارة مثل:

ــ **إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري**: يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر ابن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة ــ بعد

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير، وتكلف لهم ــ أو كلفوه ــ أكثر مما كان. فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

ذلك ـ إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. وكانت الفكرة السائدة التي فجرت هذه الثورة مستمدة من عقيدة خارجية، وصفرية بالذات كما يقال.

وانتصب ميسرة المطغري الصفري قائدا للقبائل الأمازيغية الثائرة؛ بل يقال أنه بويع بالخلافة؛ ولكن أنصاره انتفضوا عليه، ثم قتلوه بعد فترة قصيرة؛ ربما حدث له ذلك العزل، ثم القتل؛ بسبب خروجه عن الضوابط المتفق عليها في تسيير شئونهم؛ أو لعجزه وضعف كفاءته الحربية؛ خاصة وأن انسحابه أمام جيش القيروان بالقرب من طنجة؛ دون سبب مقنع؛ قد يجيز ما تعرض له من عزل. أما ما تذكره المصادر التاريخية ـ دون تفسير أيضا ـ عن قتل الصفرية لميسرة؛ فربما حدث ذلك بسبب رفضه ترك منصب القيادة. ويبدو أن ضعف موقفه ـ أيضا ـ جاء من كون قبيلته مطغرة؛ لم تكن تمثل القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الحلف القبلي الصفري. وهذا يتفق مع نظرية ابن خلدون التي فسرها ضمن: "**فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية**".[1]

---

[1] ويقول فيها: ((أعلم أن كل حي أو بطن من القبائل ـ وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام لهم ـ ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم... والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها وتتم

ـ إمارة خالد بن حميد الهتوري الزناتي الصفري:

وبعد أن قتل ثوار الصفرية قائدهم ميسرة المطغري في سنة 122هـ(739م)؛ أسندوا قيادتهم إلى خالد بن حميد الزناتي؛ الذي ينتمي إلى بطن من زناتة يسمى هتورة. فتولى أمرهم بجدارة واقتدار؛ إذ قادهم في معارك ضد الأمويين؛ برهن فيها على قدرات عسكرية كبيرة. افتتح انتصاراته بالهزيمة التي ألحقها بجيش الأمويين في الموقعة المسماة غزوة الأشراف.[1] وكانت تلك الهزيمة ضربة شديدة المفعول؛ بحيث هزت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأغضبته إلى أبعد الحدود؛ فلم يتمالك نفسه حين قال بعصبية عربية واضحة: **((والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشا**

الرياسة لأهلها... ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه؛ لما قلناه من سر الغلب؛ لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.

[1] قال ابن الأثير في ذلك: ((ثم التقى خالد بن حميد [الزناتي] ـ ومعه البربر ـ خالد بن حبيب [الفهري] ـ ومعه العرب وعسكر هشام ـ وكان بينهم قتال شديد صبرت فيه العرب؛ وظهر عليهم كمين من البربر؛ فانهزموا؛ وكره خالد بن حبيب [الفهري] أن ينهزم من البربر؛ فصبروا معه؛ فقتلوا جميعهم؛ وقتل في هذه الوقعة حماة العرب وفرسانها؛ فسميت وقعة الأشراف؛ فانتقضت البلاد، ومرج أمر الناس؛ وبلغ أهل الأندلس الخبر؛ فثاروا بأميرهم عقبة بن الحجاج؛ فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن؛ فاختلطت الأمور على ابن الحبحاب)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب للقيرواني، ص ص: 100 ــ 101.

أولـــه عندهـــم وآخـــره عنـــدي. ثـــم لا تركـــت حصـــنَ بربـــري إلا جعلـــت إلى جانبـــه خيمـــة قيـــسي أو تميـــمي)).[1]
وهكـــذا لا تخلـــو قولتـــه هـــذه ـــ طبعـــا مـــن عاطفـــة ونزعـــة مفعمـــة برواســـب العصبيـــة العربيـــة المعهـــودة في بـــني أميـــة:

وكانـــت معركـــة الأشـــراف إشـــارة خطيـــرة لبـــني أميـــة؛ كـــان مـــن المفـــروض تداركهـــا بعـــلاج سليـــم يسمـــح بـــلأم الجـــراح وشفـــاء النفـــوس العليلـــة؛ ولكـــن غضـــب الخليفـــة لـــم يتـــرك لـــه مجـــالا لإصـــلاح مـــا فســـد. وعليـــه فيمكـــن اعتبـــار ردود أفعـــال الخليفـــة هشـــام بمثابـــة الخطـــوة الخطيـــرة؛ الـــتي أدت إلى خـــروج مناطـــق كثيـــرة مـــن بـــلاد المغـــرب ـــ الأقـــصى والأوســـط ـــ عـــن النفـــوذ الأمـــوي نهائيـــا. هـــذا بالإضافـــة إلى مـــا حـــدث مـــن عصيـــان في بـــلاد الأندلـــس. تلـــك الديـــار الـــتي ثـــار بهـــا ـــ أيضـــا ـــ جمـــع مـــن الأمازيـــغ ومـــن العـــرب كذلـــك؛ أولئـــك العـــرب الذيـــن كانـــت تتقاذفهـــم الصراعـــات القبليـــة؛ بيـــن يمنيـــة وقيسيـــة. الأمـــر الـــذي حـــال دون أن تتمكـــن أي عصبيـــة مـــن التغلـــب عـــلى العصبيـــات والقبائـــل الأخـــرى المنتشـــرة في ربـــوع الأندلـــس الواسعـــة.

---

[1] **تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 111. والكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 223. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 54.**

وهــذا يؤكــد مــا فســره ابــن خلــدون في الفقــرات السابقــة؛ الــتي تتكلــم عــن ضــرورة تغلــب أحــد العناصـــر عــلى بقيـــة العناصـــر لـــكي يتحقـــق المـــزاج في المتكـــون.[1]

وحـــتى الجيـــش الـــذي بعـــث بـــه الخليفـــة الأمـــوي هشـــام بـــن عبـــد الملـــك ــ بقيـــادة كلثـــوم بـــن عيـــاض القشيـــري ــ سنـــة 123هــ (740م)؛ بهـــدف تأديـــب الأمازيـــغ؛ أضـــحى ــ في حـــد ذاتـــه ــ عامـــل فرقـــة لصفـــوف العـــرب؛ أكثـــر مـــن أن يكـــون عامـــل وحـــدة والتحـــام. إذ بمجـــرد وصـــول طليعـــة ذلـــك الجيـــش العـــربي ــ الـــتي كـــان عـــلى رأسهـــا بلـــج بـــن بشـــر القشيـــري (ابـــن عـــم الوالي الجديـــد كلثـــوم بـــن عيـــاض القشيـــري) ــ إلى القيـــروان؛ حـــتى انقســـم النـــاس بيـــن عـــرب استوطنـــوا القيـــروان مـــن قبـــل؛ وعـــرب وفـــدوا إليهـــا حديثـــا. فهـــا هـــو بلـــج بـــن بشـــر يستفـــز النـــاس بعنجهيتـــه، وبعصبيتـــه القيسيـــة الحمقـــاء؛ حيـــن أراد ــ بكـــل صفاقـــة وغـــرور ــ إنـــزال عساكـــره في منـــازل أهـــل المدينـــة. حيـــث تفـــوه بكـــلام أغضبهـــم ــ كمـــا جـــاء في المصـــادر ــ فبعثـــوا شكواهـــم إلى حبيـــب بـــن أبي عبيـــدة بـــن عقبـــة بـــن نافـــع الفهـــري؛ الـــذي كـــان مرابطـــا في مواجهـــة الأمازيـــغ بتلمســـان. فكتـــب إلى كلثـــوم بـــن عيـــاض يقـــول لـــه: ((**إن ابـــن عمـــك السفيـــه قـــال كـــذا وكـــذا. فارحـــل بعسكـــرك عنهـــم؛ وإلا حولنـــا**

[1] أنظـــر المقدمـــة، ج: 2، ص ص: **598 ــ 599**.

أعنـــة الخيـــل إليـــك)).[1] فســـارع كلثـــوم بـــن عيـــاض إلى الاعتـــذار لحبيـــب؛ وضـــرب لـــه موعـــدا في شلـــف. غيـــر أن كلثـــوم بـــن عيـــاض تمـــادى في سلوكـــه الخـــاطئ؛ إذ أن سكوتـــه عـــن حماقـــة بلـــج؛ شجعـــه عـــلى معـــاودة تهـــوره؛ حيـــن اشتبـــك ــ أيضـــا ــ مـــع حبيـــب عنـــد التقائهمـــا بشلـــف.[2] هـــذه هي العصبيـــة عندمـــا تصبـــح قاتلـــة ومدمـــرة. إذ انتـــهى الحـــال بالعـــرب إلى هزيمـــة أفظـــع مـــن الأولى؛ حيـــث كـــان الخـــلاف بينهـــم شديـــدا، والشنـــآن يقســـم صفوفهـــم؛ فـــلا يتفقـــون عـــل خطـــة، ولا يجتمعـــون عـــلى رأي سليـــم.[3]

---

[1] البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 54. أنظـــر أيضـــا الكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 123. والعبـــر، مج: 4، ص: 406.

[2] وقـــد أورد ابـــن عـــذاري نصـــا مهمـــا يشـــرح مـــا دار بيـــن الطرفيـــن. وهـــذا النـــص التاريـــخي يفســـر الحـــال المزريـــة؛ الـــتي أضـــحى عليهـــا العـــرب في ديـــار المغـــرب. فممـــا قالـــه: ((فاستخلـــف كلثـــوم عـــلى القيـــروان عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري؛ وســـار حـــتى وصـــل عسكـــر حبيـــب فرفضـــه، واستهـــان بـــه؛ وســـب بلـــج بـــن بشـــر لحبيـــب وتنقصـــه؛ وقـــال: "هـــذا الـــذي يحـــول أعنـــة الخيـــل إلينـــا"؛ فقـــام إليـــه عبـــد الرحمـــن بـــن حبيـــب؛ وقـــال: "يـــا بلـــج! هـــذا حبيـــب! فـــإذا شئـــت؛ فأعـــرض لـــه للمقابلـــة!" وصـــاح النـــاس: "الســـلاح! الســـلاح!" فمـــال أهـــل إفريقيـــة إلى ناحيـــة، ومعهـــم أهـــل مصـــر. ثـــم ســـعى بينهـــم في الصلـــح. فكـــان هـــذا الاختـــلاف سبـــب هلاكهـــم؛ مـــع ســـوء رأي كلثـــوم وبلـــج)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 54 ــ 55. أنظـــر أيضـــا تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 113.

[3] شـــرح ابـــن الأثيـــر مـــا جـــرى بقولـــه: ((وتقـــدم إليهـــم البربـــر مـــن طنجـــة؛ فقـــال لهـــم حبيـــب: "اجعلـــوا الرجالـــة للرجالـــة، والخيالـــة للخيالـــة؛ فلـــم يقبلـــوا منـــه؛ وتقـــدم كلثـــوم بالخيـــل؛ فقاتلـــه رجالـــة البربـــر فهزمـــوه؛ فعـــاد كلثـــوم منهزمـــا؛ ووهـــن النـــاس ذلـــك؛ ونشـــب القتـــال، وانكشفـــت خيالـــة البربـــر، وثبتـــت رجالتهـــا؛ واشتـــد القتـــال، وكثـــر البربـــر عليهـــم؛ فقتـــل كلثـــوم بـــن عيـــاض، وحبيـــب بـــن أبي عبيـــدة،

وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج ابن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ـ بعد ذاك ـ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ـ في الشام ثم بغداد بعدئذ ـ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ـ منذئذ ـ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ـ من صفرية وإباضية ـ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة

ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر، وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

الأخيرة؛ التي لحقت بالجيش العربي؛ وانكشف للناس ما أضحى عليه العرب من ضعف وتفكك بسبب العصبية الهوجاء. كما ظهرت لهم عيوب الوالي الجديد كلثوم بن عياض؛ الذي لا رأي له ولا حكمة. وعليه فقد وجدوا أنفسهم ــ فجأة ــ بدون قائد عام؛ ينسق بين القيادات، ويرعى شئون العامة.

ــ إمارة عكاشة بن أيوب الفزاري الصفري:
ينتسب هذا الثائر الصفري إلى قبيلة عربية[1] ــ كما يظهر من اسمه ــ وهي قبيلة فزارة العدنانية القيسية. وكان في البداية أحد القادة الفرسان في جيش عبيد الله بن الحبحاب؛ إذ قدم معه إلى المغرب؛ ضمن جند الشام.[2] ولكنه انضم ــ رفقة أخيه ــ إلى الصفرية، ولا يعرف حتى الآن متى اعتنق مذهبهم؛ هل حدث ذلك بعد وصوله إلى إفريقية؛ أم جاء من المشرق بقناعاته الخارجية. المهم أنه أصبح بسهولة ــ في ظروف غامضة ــ قائدا وزعيما لفئة من الثوار الأمازيغ الصفرية. ومع هذا يبدو أنه كان أضعف من بقية الثوار الأمازيغ.

---

[1] **أخطأ كثير من المؤرخين المحدثين حين نسبوه إلى زناتة؛ نظرا لقيادته لجماعة من زناتة.**

[2] **أنظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص: 114.**

وربمـــا رجـــع السبـــب إلى مـــا تفرضـــه سنـــن العصبيـــة؛ الـــتي لا يستهويهـــا ســـوى الانتســـاب المطلـــق إليهـــا؛[1] ولمـــا كـــان عكاشـــة مـــن المنتسبيـــن إلى العـــرب فقـــد قـــل أنصـــاره، وضعفـــت شوكتـــه. غيـــر أن عامـــلي: الديـــن والمذهـــب ساعـــداه ـــ شيئـــا مـــا ـــ في جمـــع بعـــض الفئـــات الزناتيـــة الساخطـــة عـــلى الحكـــم الأمـــوي. ومـــع ذلـــك لا يكـــفي العامـــل الديـــني والمذهـــبي وحـــده؛ إذ لا بـــد مـــن توفـــر شـــرط العصبيـــة؛ كمـــا قـــال ابـــن خلـــدون ضمـــن: "**فصـــل في أن الدعـــوة الدينيـــة مـــن غيـــر عصبيـــة لا تتـــم**".[2] المهـــم أنـــه انطلـــق بثورتـــه في جهـــات قابـــس؛ منتهـــزا فرصـــة خـــروج كلثـــوم بـــن عيـــاض بالجنـــد إلى طنجـــة. وكـــان كلثـــوم قـــد استخلـــف عـــلى القيـــروان عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري، وعقـــد لمسلمـــة بـــن ســـوادة القـــرشي لـــواء الحـــرب فيهـــا. فبـــدأ عكاشـــة حركتـــه بإرســـال أخيـــه إلى (صبـــرة) قصـــد تعبئـــة عشائـــر زناتـــة ـــ في تلـــك الجهـــات ـــ والعمـــل عـــلى التغلـــب عليهـــا.

---

[1] **يقـــول ابـــن خلـــدون ضمـــن: "فصـــل في أن الرياســـة عـــلى أهـــل العصبيـــة لا تكـــون في غيـــر نسبهـــم" ((والساقـــط في نسبهـــم بالجملـــة لا تكـــون لـــه عصبيـــة فيهـــم بالنســـب؛ إنمـــا هـــو ملصـــق لزيـــق؛ وغايـــة التعصـــب لـــه بالـــولاء والحلـــف؛ وذلـــك لا يوجـــب لـــه غلبـــا عليهـــم ألبتـــه)). المقدمـــة، ج: 2، ص: 599.**

[2] **أنظـــر المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 638 ـــ 642.**

وبالفعل تمكن أخو عكاشة من جمع أعداد كبيرة من الزناتيين؛ الذين حاصر **(صبرة)** بهم؛ إلا أن عامل طرابلس صفوان بن مالك تفطن للخطر المداهم؛ فسارع إلى الخروج إليه؛ أين تمكن من التغلب عليه؛ وأجبره على الانهزام إلى حيث أخيه في جهات قابس. وكرد فعل غير مدروس خرج مسلمة بن سوادة في جيش من القيروان؛ قصد تأديب عكاشة الفزاري في قابس؛ ولما التقى الجمعان حلت الهزيمة بمسلمة بن سوادة؛ حيث قتل من أتباعه عدد كبير؛ فعاد إلى القيروان منهزما؛ وهناك عزله عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وكلف بدلا منه سعيد بن بجرة الغساني؛ فاختاروا التحصن خلف أسوار القيروان خوفا من عكاشة.[1]

وبقيت الحال ـ بين عكاشة وعمال الدولة الأموية في القيروان وطرابلس ـ متشنجة ومضطربة؛ اضطر فيها عكاشة إلى شن حرب عصابات عليهم ـ انتصر فيها حينا وانهزم حينا آخر ـ ومن نتائجها قتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ الذي وجهه لقتال عكاشة والي إفريقية الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي؛ الذي قدم إليها في سنة 124هـ(741م).[2]

---

[1] **فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـــ 295.**

[2] **نفسه، ص: 298.**

وكان حنظلة بن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر ــ في الأفق ــ قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد ابن يزيد الهواري ــ سيأتي الحديث عنه لاحقا ــ حيث اتفق معه عكاشة على التعاون والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه.

---

[1] قال في هذا ابن عبد الحكم: ((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد؛ فأخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة، ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 ــ 299.

وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد ــ حنظلة بن صفوان ــ في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فرّ؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[1] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

---

[1] اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: **1**، ص: **58**. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: **116**. والكامل، ج: **4**، ص: **223**.

ـ إمــارة عبــد الواحــد بــن يزيــد الهــواري الصفــري:
كــان ظهــوره الأول في شــرق طرابلــس؛ حيــث استنجــد بــه عكاشــة؛ في قتالــه ضــد عبــد الرحمــن بــن عقبــة. ولمــا انتصــرا في الموقعــة الــتي قتــل فيهــا عبــد الرحمــن؛ اتفــق الاثنــان عــلى الذهــاب إلى المغــرب الأوســط؛ لــكي يبحثــا عــن أنصــار جــدد، ويحرضــا الصفريــة فيــه عــلى احتــلال مركــز الولايــة الأمويــة بالقيــروان. وبالفعــل تمكــن الاثنــان مــن جمــع أعــداد كبيــرة مــن المتحمسيــن للقضــاء عــلى الحكــم الأمــوي وإزالتــه مــن ديــار المغــرب. وقبــل انطــلاق المتحالفيــن مــن منطلقهــم في ناحيــة مــن نــواحي الــزاب؛ وضعــوا خطــة محكمــة؛ ربمــا كانــت كفيلــة بنجــاح مسعاهــم ــ لــو طبقــت بدقــة ــ إذ تقتــضي الخطــة أن يزحــف جيشــان إلى القيــروان: الأول بقيــادة عكاشــة؛ مــن جهــة الجنــوب؛ والثــاني بقيــادة عبــد الواحــد؛ مــن الشمــال؛ عــلى أن يلتقيــا في وقــت واحــد حــول القيــروان؛ وبذلــك يكونــان كماشــة تنقــض عــلى عدوهمــا؛ فيعجــز عــن المقاومــة ويسقــط فريســة بيــن أيديهــم.

وبالفعــل انطلــق عكاشــة عبــر السهــول الممتــدة جنــوب الأوراس؛ في اتجــاه تبســة وباجــة ثــم القيــروان. أمــا عبــد الواحــد فقــد زحــف مــن الشمــال؛ عبــر المناطــق الجبليــة[1] الصعبــة؛ الــتي كانــت كفيلــة بتعطيــل حركتــه؛ كمــا أنــه ــ بسعيــه لجمــع متطوعيــن جــدد

---

[1] تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 116. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص: 58.

مـــن القبائـــل الأمازيغيـــة ــ زاد في ثقـــل حركتـــه وبـــطء سيـــره. ولكنه استفـــاد إذ حقـــق نجاحـــات معتبـــرة؛ عندمـــا التحـــق بـــه عـــدد كبيـــر مـــن أبنـــاء تلـــك القبائـــل. وقـــد ــ تمكـــن في خـــط سيـــره ــ مـــن احتـــلال مدينـــة باجـــة؛ أيـــن اشتبـــك ــ هنـــاك ــ مـــع جيـــش القيـــروان مـــرات عديـــدة؛ حالـــف النصـــر فيهـــا عبـــد الواحـــد. وبعدهـــا انتقـــل عبـــد الواحـــد إلى تونـــس فدخلهـــا منتصـــرا. وفي الأخيـــر زحـــف إلى القيـــروان؛ حيـــث وصلـــه خبـــر هزيمـــة حليفـــه عكاشـــة؛ بعـــد أن خالـــف الخطـــة المتفـــق عليهـــا؛ إذ انتهـــز فرصـــة تعطـــل عبـــد الواحـــد؛ فسولـــت لـــه نفســـه الانفـــراد باحتـــلال القيـــروان؛ الأمـــر الـــذي سيساعـــده عـــلى التفـــوق عليـــه؛ وبذلـــك يمكنـــه تعديـــل الكفـــة؛ الـــتي مالـــت إلى صالـــح حليفـــه ومنافســـه عبـــد الواحـــد؛ بحكـــم امتلاكـــه لعامـــل العصبيـــة الأمازيغيـــة؛ تلـــك العصبيـــة الـــتي يفتقـــر إليهـــا عكاشـــة.

وبعـــد سمـــاع عبـــد الواحـــد بهزيمـــة عكاشـــة، والتأكـــد مـــن مقتلـــه؛ اضطـــر إلى خـــوض المعركـــة بجيشـــه منفـــردا. وبالفعـــل حدثـــت المعركـــة الكبـــرى الفاصلـــة؛ في موضـــع يبعـــد عـــن القيـــروان بثلاثـــة أميـــال تقريبـــا؛ يســـمى (الأصنـــام). وكانـــت معركـــة مهولـــة؛ حالـــف النصـــر فيهـــا حنظلـــة بـــن صفـــوان؛ حيـــث تمكـــن جيشـــه مـــن قتـــل آلاف مـــن الصفريـــة؛ بمـــا فيهـــم عبـــد الواحـــد بـــن يزيـــد نفســـه؛ وذلـــك في سنـــة 125هـــ(742م).

هــذا وتجــدر الإشـــارة أن أهــل القيــروان تمكنــوا مــن النصــر؛ بفضــل شعورهــم بوحــدة المصيــر، وبفضـــل المجهــودات الـــتي بذلهـــا علمـــاء المدينـــة؛ حيـــث كثفــوا نشاطهــم في الدعــوة إلى القتـــال، وحـــث النـــاس عـــلى المقاومـــة، إذ حذروهــم مــن مغبــة الفرقــة أو التهـــاون والخـــذلان؛ كمـــا ذكروهــم بمـــا قـــد يلحـــق بهــم وبنسائهــم مــن طــرف الصفريـــة؛ الذيـــن يستحلــون ســبي المسلمـــات، ويجيـــزون استعبـــاد الأبنـــاء؛ كمـــا يبيحـــون سفـــك دمـــاء المسلميـــن مـــن أطفـــال وشيـــوخ. وبالفعـــل حققــت دعوتهــم نجاحـــات كبيـــرة؛ إذ حميــت همــم النـــاس؛ فكســـروا أجفـــان سيوفهــم؛ وخرجــوا للقتـــال ومعهــم نساؤهــم يحرضـــنهــم ويشحـــذن هممهــم. ونتيجـــة لتلـــك العوامـــل النفسيـــة؛ تمكنـــوا[1] مـــن التغلـــب عـــلى الصفريـــة؛ وفتكـــوا بهــم فتكـــا عظيمـــا؛ عـــلى الرغــم مـــن قلـــة عددهــم؛ وكثـــرة أعـــداد أعدائهــم.

ــ **إمـــارة ثابـــت بـــن وازيـــدون الصنهـــاجي الصفـــري**: لا يعــرف عــن هــذا الرجــل مـــا يمكــن بـــه تكويــن فكـــرة واضحـــة عنـــه؛ إذ يكتنـــف أخبـــاره غمـــوض كثيـــف؛ ويبـــدو أنـــه كـــان مـــن أتبـــاع عبـــد الواحـــد بـــن يزيـــد الهـــواري الصفـــري؛ ولـــم تذكـــر المصـــادر التاريخيـــة عنـــه ســـوى خبـــر ثورتـــه في باجـــة، وتغلبـــه عليهـــا سنـــة 130هــ(747م)؛ في أيـــام عبـــد الرحمـــن بـــن حبيـــب

[1] **تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 119 ــ 122.**

الفهـري ـ الـذي عـزل حنظلـة وافتـك منـه القيـروان ـ وبعدهـا صمتـت المصـادر ـ نهائيـا ـ عـن الحديـث في شـأن ثابـت الصنهـاجي هـذا؛ ولـم تشـر إن كـان قـد فـر حيـا أم قتـل.

ـ إمـارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهـاصي الصفـري:
لقـد تـرك هـذا الرجـل ـ وأخـوه المدعـو مكـرم ـ أثـرا سيئـا في تاريـخ إفريقيـة والمغـرب؛ نتيجـة للفظائـع وللوحشيـة الـتي ارتكبهـا هـو وأتباعـه مـن صفريـة ورفجومـة في القيـروان سنـة 138هـ(755م). ويقـول فيـه ابـن الأثيـر: **((وكـان مقـدم ورفجومـة رجـلا اسمـه عاصـم بـن جميـل؛ وكـان قـد ادعى النبـوة والكهانـة؛ فبـدل الديـن، وزاد الصـلاة، وأسقـط ذكـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلـم مـن الأذان... ودخـل عاصـم ومـن معـه القيـروان. فاستحلـت ورفجومـة المحرمـات؛ وسبـوا النسـاء والصبيـان؛ وربطـوا دوابهـم في الجامـع وأفسـدوا فيـه)).**[1] وذكـر ابـن خلـدون؛ اسـم رجـل آخـر كـان بيـن المرافقيـن لعاصـم بـن جميـل ـ في

---

[1] **الكامـل في التاريـخ، ج: 4، ص: 280. أمـا القيـرواني فيقـول: ((ودخلـت ورفجومـة القيـروان؛ فاستحلـوا المحـارم، وارتكبـوا العظائـم؛ نـزل عاصـم ـ بعسكـره ـ في الموضـع الـذي يسـمى (مصـلى روح) واستخلـف عـلى القيـروان عبـد الملـك بـن أبي الجعـد النفـزي... ولمـا حكمـت ورفجومـة عـلى القيـروان؛ قتلـوا مـن كـان بهـا مـن قريـش، وساموهـم العـذاب؛ وربطـوا دوابهـم في المسجـد الجامـع)). تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 141.**

زحفه إلى القيروان. وقال أنه: يزيد بن سكوم الولهاصي.

ـ أمير ولهاصة يزيد بن سكوم الولهاصي النفزاوي. ولا يوجد ما يفيد عن هذا الرجل؛ سوى ما ذكره ابن خلدون؛ إذ قال أنه كان يرافق رئيس ورفجومة عاصم بن جميل؛ حين غزا القيروان سنة 138هـ.

ـ إمارة عبد الملك بن أبي الجعد النفزي الصفري: قدم هذا الرجل مع عاصم بن جميل إلى القيروان أيضا في سنة 138هـ؛ حيث ولاه عليها؛ عند خروجه لمطاردة أعدائه. ولما قتل عاصم أصبح أمر ورفجومة بين يدي عبد الملك بن أبي الجعد؛ فحكم القيروان بيد من نار وحديد؛ وسار على نهج عاصم في العيث والفساد وارتكاب المحرمات. وكانت نهايته بواسطة أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي؛ الذي استاء مما سمعه عن عيث ورفجومة؛ وما قامت به من فساد في القيروان؛ فزحف إليها، حيث تغلب على القيروان، وأخرج ورفجومة منها؛ بعد أن قتل عبد الملك بن الجعد، وفتك بأتباعه؛ من تلك الفئة الباغية سنة 140هـ(757م).

ـ إمـارة عبـد الملـك بن سكرديـد الصنهـاجي الصفـري: هكـذا سمـاه ابـن عـذاري؛ ولا يعـرف عـن هـذا القائـد الصفـري؛ سـوى أنـه كـان يقـود ألفيـن مـن الصفريـة؛ خـلال حصارهـم ـ ضمـن الحلـف الصفـري الإبـاضي ـ لعمـر بـن حفـص بـن قبيصـة والي إفريقيـة؛ بمدينـة طبنـة حاضـرة الـزاب في سنـة 153هـ(770م). غيـر أن ابـن خلـدون سمـاه عبـد اللـه بـن سكرديـد؛ وقـال أنـه أحـد أمـراء الصفريـة الصنهاجيين؛ ومـن أتبـاع ثابـت ابـن وازيـدون الصنهـاجي المذكـور آنفـا.

ـ إمـارة أبي قـرة بـن دونـاس اليفـرني الصفـري: ينسبـه بعضهـم إلى مغيلـة؛ غيـر أن المحققيـن مـن المؤرخيـن ينسبونـه إلى بـني يفـرن.[1] وكـان أول ظهـور لهـذا الرجـل ـ في مسـرح الأحـداث بشكـل واضـح ـ أثنـاء زحـف عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـوري إلى القيـروان؛ حيـث ذكـرت الأخبـار أن عبـد الواحـد جعلـه عـلى رأس مقدمـة جيشـه.[2] وإن كـان ـ في الحقيقـة ـ مـن بيـن زعمـاء الصفريـة؛ المتحالفيـن في السابـق مـع ميسـرة المطغـري؛ إلا أنـه لـم يلفـت نظـر المؤرخيـن.

---

[1] **العبـر، مج: 7، ص: 24.**

[2] **فتـوح مصـر والمغـرب، ص: 299. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 58.**

ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري ــ مع عكاشة ــ إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب ــ مرة أخرى ــ دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد ــ عند ذلك ــ عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة ــ أو الخلافة ــ من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس ــ بجيشه المقدر بأربعين ألفا ــ مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص بن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص ــ بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي ــ مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه ــ أبي قرة ــ بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[2]

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143. والعبر، مج: 6، ص: 226. ومج: 7، ص: 25. ثم الكامل في التاريخ، م: 5، ص: 32. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

[2] إذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين ــ بالطبيعة الإنسانية ــ يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سؤدد وصاحبه متبوع؛ وليس له

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ــ أيضا ــ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ــ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ــ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[1] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة بشيء؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[2] ــ ثم نقلها عنه ابن عذاري ــ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما

عليهم قهر في أحكامه؛ ،وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة، ج: 2، ص 609.

[1] **إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فأرسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"تصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143.**

[2] **حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عادٍ [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ــ قبل ذلك ــ بالخلافة أربعين يوما. [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه])). تاريخ الأمم والملوك، ج: 9، ص: 284.**

حـــدث في حصـــار طبنـــة؛ ومـــا يمكـــن أن يكـــون حصـــل في القيـــروان. لأن أبـــا قـــرة ــ كمـــا يبـــدو ــ قـــد اضطرتـــه الظـــروف للعـــودة إلى نـــواحي تلمســـان؛ بعـــد حصـــار طبنـــة.

ــ إمـــارة جريـــر بـــن مسعـــود المديـــوني الصفـــري:[1]
كـــان ظهـــوره الأول في سنـــة 153هــ(770م)؛ أثنـــاء الحصـــار المضـــروب عـــلى عمـــر بـــن حفـــص بطبنـــة. ولمـــا انفضـــت الجيـــوش المحاصـــرة لطبنـــة؛ انضـــم إلى صفـــوف أبي حاتـــم الملـــزوزي؛ في حربـــه ضـــد والي إفريقيـــة بالقيـــروان. وعـــلى هـــذا ظهـــر مـــن جديـــد في أيـــام أبي حاتـــم الملـــزوزي الإبـــاضي؛ حيـــث استعـــان بـــه هـــذا الأخيـــر في مطـــاردة بعـــض القـــادة الثائريـــن ضـــد الإباضييـــن المتغلبيـــن عـــلى القيـــروان؛ منهـــم: عمـــر بـــن عثمـــان والمخـــارق بـــن غفـــار الطـــائي. وكـــان أولئـــك الهاربـــون قـــد التحقـــوا بجيجـــل؛ حيـــث احتمـــوا ببعـــض العشائـــر مـــن كتامـــة. فانتصـــروا لهـــم؛ وتصـــدوا لجريـــر ابـــن مسعـــود الصفـــري؛ فهزمـــوه وقتلـــوه في سنـــة 154هــ(770م).

---

[1] سمـــاه الرقيـــق القيـــرواني: حريـــز بـــن مسعـــود المديـــوني. تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 148. أمـــا ابـــن الأثيـــر فسمـــاه: مسعـــود الزنـــاتي الإبـــاضي. الكامـــل في التاريـــخ، ج" 5، ص: 32. أمـــا ابـــن خلـــدون فسمـــاه جريـــر بـــن مسعـــود؛ العبـــر، مج: 6، ص: 226. وفي موضـــع آخـــر قـــال: ((وكـــان مـــن رجالاتهـــم المذكوريـــن جريـــر بـــن مسعـــود؛ كـــان أميـــرا عليهـــم؛ وكـــان مـــع أبي حاتـــم وأبي قـــرة في فتنتهـــم)). العبـــر، مج: 6، ص ص: 256.

ــ إمــارة أبــو زرجونـــة الورفجــومي الصفــري:
ظهــر في عهــد والي إفرقيـــة يزيــد بـــن حاتــم بـــن المهلــب؛ حيـــث ثـــار مـــع عشيرتــه ورفجومـــة ضـــد السلطـــة المركزيـــة؛ فأرســـل إليهــم يزيــد بـــن حاتـــم ــ والي إفريقيـــة ــ قـــوة بقيـــادة ابـــن مجـــزأ المهلـــبي؛ ففشـــل في مواجهتهـــم؛ وقتـــل في المعركـــة عـــدد مـــن جنـــد القيـــروان. فعـــاود يزيـــد بـــن المهلـــب ــ في سنـــة 156هــ(772م) ــ إرســـال قـــوة أخـــرى؛ عـــلى رأسهـــا ولـــده المهلـــب، ويزيـــد بـــن العـــلاء بـــن سعيـــد بـــن مـــروان المهلـــبي؛ فتغلـــب عـــلى ورفجومـــة واجتثهـــم، وطـــارد مقاتليهـــم في كـــل جهـــة.[1] هـــذا ولـــم يعـــرف مصيـــر أبي زرجونـــة الورفجـــومي بعـــد هـــذه الموقعـــة.

ــ إمــارة عبــد الــرزاق الفهــري الخــارجي الصفــري:
ظهـــر هـــذا الرجـــل في جبـــال ويـــلان بعمالـــة فـــاس؛ في العقـــد الأخيـــر مـــن القـــرن الثالـــث للهجـــرة. وبذلـــك تكـــون الصفريـــة قـــد حولـــت ثوراتهـــا وحروبهـــا مـــن إفريقيـــة والقيـــروان؛ إلى ديـــار المغـــرب الأقـــصى؛ حيـــث توجـــد الدولـــة الإدريسيـــة. ولـــم تـــأت المصـــادر بمـــا يفيـــد عـــن هـــذا الثائـــر شيئـــا كافيـــا؛ أكثـــر مـــن اسمـــه المقتضـــب، ومنطلـــق ثورتـــه. حيـــث اكتفـــت معظـــم المصـــادر بالقـــول عنهـــا: أنهـــا انطلقـــت مـــن جبـــل

---

[1] تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص ص: 161 ـــ 162.

مديونة.[1] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه ــ ولو باحتشام ــ هو على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري ــ الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء ــ ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياثة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ــ بنواحي مديونة ــ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ــ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ــ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة

---

[1] **أنظر المغرب، ص: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص:47 ــ 48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 ــ 209. والعبر، مج: 4، ص: 30.**

الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ ـ بعد ذلك ـ انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: **1**، ص: **212**.

استطاعوا ــ باعتدالهم وثباتهم ــ استقطاب عدد كبير من الأتباع والأنصار؛ المنتمين إلى مختلف القبائل في تلك الجهات. الأمر الذي ساعدهم على تحقيق شروط الاستمرار والدوام؛ بفضل بساطة مذهبهم الديني والسياسي، وبفضل ما يدعوا إليه من مساواة بين الناس كافة؛ سواء كانوا من العرب أو من الأمازيغ أو أجناس أخرى. وعليه فقد أضحت المناطق الجنوبية من إفريقية والمغرب الأوسط؛ مناطق نفوذ للإباضيين؛ حيث خضعت ــ فيما بعد ــ لنفوذ الدولة الإباضية التي قامت بتيهرت؛ نتيجة لثورات الإباضيين المتتالية. وقد تحقق ذلك كله بجهود متواصلة شارك فيها عدد من القادة الإباضيين، ومن رؤسائهم الثوار. وتم ذلك خلال فترة زمنية بدأت بالعقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وحتى سنة 160هـ(776م) سنة قيام الدولة الرستمية.

***

ــ إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي:
ظهر ــ لأول مرة ــ اسم هذا الرجل في مسرح الأحداث بالمغرب؛ خلال الفترة التي اغتصب فيها عبد الرحمن بن حبيب ولاية القيروان؛ بعد انقلابه على والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة

126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[2] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[3] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه

---

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: **301**.

[2] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم، كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما أشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[3] الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: **33**.

الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

ــ إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:[1]

أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[2] أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون

---

[1] يكتفي ابن الأثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.

[2] إذ يقول: ((وكان على الإباضية ــ حين اجتمعت ــ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: **301**. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: **33**. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ــ القسم الأول)، ص: **34**. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا الحارث؛ فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي، ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير، ج: **2**، ص: **411**.

فيفهم من رواياتهم أن الحارث وعبد الجبار كانا يحكمان الناس حكما جماعيا. ومع هذا فهم يقدمون اسم الحارث على اسم عبد الجبار؛ إذ يكتبون في سياق الحديث: ((**الحارث وعبد الجبار**)).

أما نسبهما فيكتنفه بعض الغموض أيضا؛ لأن كلمتي: حضرمي، ومرادي؛ لا تعنيان ـ بالضرورة ـ الانتساب إلى حضرموت أو لقبيلة مراد اليمنية؛ إذ ربما كانت الكلمتان ترميان إلى الانتماء بالولاء لقبيلة من قبائل حضرموت أو لقبيلة مراد. المهم أن القيرواني يصرح بأنهما من الأمازيغ؛[1] ويسايره في ذلك ابن خلدون الذي يقول أنهما من هوارة.[2] أما سليمان الباروني فيقول: ((**والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه. وهما إخوان لأم أو أبنا خالة؛ وقبيلتهما هوارة**)).[3]

---

[1] **يقول القيرواني: ((وخرج بناحية طرابلس رجلان؛ يقال لأحدهما عبد الجبار، والآخر الحارث؛ وهما من البربر؛ يدينان بدين الخوارج)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 128.**

[2] **يقول: ((وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث؛ من هوارة؛ وكانا يدينان برأي الإباضية... ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين [ومائة] فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). العبر، مج: 6، ص: 223.**

[3] **مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.**

ويتفــق ــ أيضــا ــ القيــرواني وابــن خلــدون حــول روايــة مقتلهمــا؛ إذ يقــولان أن عبــد الرحمــن بــن حبيــب هــو الــذي قتلهمــا في سنــة 131هــ(748م)؛ دون شــرح للكيفيــة الــتي تــم بهــا القتــل.[1] وهــذا الــرأي يخالــف روايــة ابــن عبــد الحكــم الــذي يــرى أنهمــا اقتتــلا؛ فقتــل بعضهمــا بعضــا؛ بعــد الفتنــة الــتي نشبــت بينهمــا.[2] أمــا بعــض المراجــع الإباضيــة؛ فتشيــر إلى دسيســة؛ قــد يكــون حبكهــا عبــد الرحمــن بــن حبيــب؛ فنجــح فيهــا بتمكنــه مــن قتــل الأميريــن غيلــة.[3]ويبــدو أن هــذا الــرأي يمكــن تأييــده؛ خاصــة إذا اعتمــد عــلى مــا أورده ابــن عبــد الحكــم؛ حيــن ذكــر أن عبــد الرحمــن بــن حبيــب أرســل مجاهــد بــن مسلــم الهــواري إلى قبيلــة هــوارة؛ لكســب أنصــار في القبيلــة الــتي

---

[1] تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص ص: **128 ـــ 129**. والعبــر، مج: **6**، ص: **223**.

[2] يقــوا ابــن عبــد الحكــم: ((واستفحــل أمــر عبــد الجبــار والحــارث؛ ثــم اختلــف أمرهمــا؛ وتفاقــم مــا بينهمــا؛ فاقتتــلا؛ فقتــل عبــد الجبــار والحــارث جميعــا)). فتــوح مصــر والمغــرب، ص: **302**. أنظــر أيضــا كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: **57**. ومختصــر تاريــخ الإباضيــة، ص: **33**.

[3] إذ يقــول محمــد عــلي دبــوز: ((وكانــت العصابــة الــتي دسهــا عبــد الرحمــن بــن حبيــب في طرابلــس ترقــب الحــارث وعبــد الجبــار، وتتحيــن الفرصــة فيهمــا؛ حــتى كانــا ذات يــوم وحدهمــا في دار النــدوة والحكــم؛ والمكــان خــال؛ فتظاهــروا بأنهــم مــن ذوي الحاجــات؛ فدخلــوا عليهمــا فقتلوهمــا؛ ثــم أدخلــوا في كــل واحــد منهمــا سيفــا، وجعلــوا مقبضــه إلى جهــة الآخــر؛ ليتوهــم النــاس أنهمــا تنازعــا فتقاتــلا؛ فقتــل كــل منهمــا صاحبــه)). تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: **2**، ص: **413**. وقــد أورد الروايــة نفسهــا صاحــب كتــاب الإباضيــة في موكــب التاريــخ، (الحلقــة: **2**، القســم: **1**). ص ص: **46 ــ 47**.

ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ـ كما يقول ابن عبد الحكم ـ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر ابن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دَغُوغَا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[1]

ـ إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي:

ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ـ هي الأخرى ـ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك

---

[1] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: 301 ـ 302.

يكمــن في قصــر الفتــرة الزمنيــة الــتي تــولى فيهــا. المهــم فقــد ولي الإمامــة في سنــة 132هــ(749م)؛ أي بعــد مقتــل الحــارث وعبــد الجبــار. ولــم يمهلــه عبــد الرحمــن بــن حبيــب؛ حيــث زحــف نحــوه؛ فالتقيــا بجهــات قابــس؛ أيــن جــرت موقعــة بيــن إسماعيــل بــن زيــاد النفــوسي؛ وجيــش القيــروان بقيــادة شعيــب بــن عثمــان؛[1] وانتهــت المعركــة بمقتــل إسماعيــل وهزيمــة أنصــاره الإباضييــن. كــان ذلــك في سنــة 132هــ؛ حيــث لــم تتجــاوز فتــرة حكــم إسماعيــل بــن زيــاد النفــوسي أشهــرا قليلــة. وبعــد ذلــك تحــول عبــد الرحمــن بــن حبيــب نحــو سكــان طرابلــس؛ ففتــك بهــم، وسلــط عليهــم آلــة القتــل والانتقــام بشكــل فظيــع.[2]

---

[1] قــال ابــن عبــد الحكــم أن عبــد الرحمــن بــقي في المعسكــر ولــم يشهــد الموقعــة. فتــوح مصــر والمغــرب، ص: 302.

[2] وفي ذلــك يقــول ابــن خلــدون: ((وثــار إسماعيــل بــن زيــاد فيمــن معــه مــن نفوســة؛ وتغلــب عــلى قابــس. ثــم زحــف إليهــم عبــد الرحمــن بــن حبيــب سنــه إحــدى وثلاثيــن؛ فقتــل عبــد الجبــار والحــارث، وأوعــب في قتــل البربــر، وأثخــن فيهــم)). أمــا القيــرواني فتكلــم عــن فتــك عبــد الرحمــن بالخــوارج دون ذكــر إسماعيــل بــن زيــاد؛ حيــث قــال: ((وأوعــب عبــد الرحمــن في قتــل البربــر؛ وامتحــن النــاس بهــم وابتلاهــم بقتــل الرجــال صبــرا: يــؤتى بالأسيــر مــن البربــر؛ فيأمــر مــن يتهمــه بتحريــم دمــه بقتلــه. فابتــلى جماعــة مــن النــاس؛ فمــا سلــم منهــم غيــر عبــد الرحمــن بــن زيــاد بــن أنعــم؛ أبى ذلــك؛ وعصمــه اللــه منــه)). تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 129. وقــد أشــار ابــن عــذاري لهــذه المجــزرة؛ بأسلــوب القيــرواني نفســه، البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 61.

ـ إمـــارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافـــري الإبـــاضي: ينســـب هـــذا الرجـــل إلى قبيلـــة معافـــر الكهلانيـــة اليمنيـــة. نشـــأ في المشـــرق وكـــان مـــن دعـــاة الإباضيـــة بالشـــام قبـــل مجيئـــه إلى المغـــرب.[1] وقـــد كـــان مـــن بيـــن طلبـــة العلـــم الخمســـة؛ الذيـــن بعثـــوا في سنـــة 132هــ(749م)؛ مـــن طـــرف الإباضييـــن في بـــلاد المغـــرب؛ بغـــرض تلـــقي العلـــم في البصـــرة؛ عـــلى يـــد شيـــخ الإباضيـــة في المشـــرق أبي عبيـــدة مسلـــم بـــن أبي كريمـــة.[2] ولمـــا عـــادوا في سنـــة 139هــ(756م)؛ محمليـــن بعلـــوم المذهـــب الإبـــاضي؛ بـــادروا بإنشـــاء دولتهـــم الإباضيـــة؛ حيـــث بايعـــوا أبـــا الخطـــاب عبـــد الأعـــلى إمامـــا عـــلى الإباضييـــن في ديـــار المغـــرب. وكـــان الإعـــلان عـــن هـــذه الدولـــة في سنـــة 140هــ(757م)؛ خـــارج طرابلـــس ــ في بدايـــة الأمـــر ــ[3] في موضـــع غـــربي طرابلـــس يقـــال لـــه (صيـــاد). وقـــد أشاعـــوا أنهـــم ينظـــرون في خـــلاف بيـــن جماعتيـــن عـــلى قطعـــة أرض. ويبـــدو ــ مـــن كـــلام الرقيـــق القيـــرواني وابـــن الأثيـــر ــ أن منشـــأ هـــذه الدولـــة تـــم أيـــام احتـــلال ورفجومـــة للقيـــروان.[4]

---

[1] سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 57. والفـــرق الإسلاميـــة لآلفـــرد بـــل، ص: 170.

[2] طلبـــة العلـــم الخمســـة هـــم: أبـــو الخطـــاب عبـــد الأعـــلى بـــن السمـــح المعافـــري، وعبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم الفـــارسي، وعاصـــم الســـدراتي، وإسماعيـــل بـــن درار الغدامـــسي، وأبـــو داود القبـــلي النفـــزاوي.

[3] أنظـــر كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 57. وكتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج:، 1، ص ص: 22 ـــ 23. ومختصـــر تاريـــخ الإباضيـــة، ص: 33.

[4] وقـــد كـــان نـــص ابـــن الأثيـــر أكثـــر وضوحـــا إذ قـــال: ((فاتفـــق أن رجـــلا مـــن الإباضيـــة دخـــل القيـــروان؛ لحاجـــة لـــه؛ فـــرأى ناســـا مـــن الورفجومييـــن قـــد أخـــذوا

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

امرأة قهرا ـ والناس ينظرون ـ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير إليهم عبد الملك ـ مقدم ورفجومة ـ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

ومــع هــذا لــم يهنــأ بــشيء مــن الاستقــرار والأمــن؛ إذ تعــرض مــرارا عديــدة لهجمــات العباسييــن القادميــن مــن مصــر. وكــان النصــر حليفــه في كــل مــرة؛ حــتى حلــول عــام 144هــ(761م)؛ العــام الــذي اشتبــك فيــه مــع جيــش العباسييــن بقيــادة محمــد بــن الأشعــث الخــزاعي. وكانــت هــذه المعركــة هي الفاصلــة؛ حيــث تمكــن ابــن الأشعــث ــ بفضــل خدعــة بارعــة ــ مــن إيهــام الإباضييــن بأنــه امتثــل لأمــر الخليفــة العبــاسي بالعــودة إلى مصــر؛ فعــاد؛ ولكنــه بــقي عــلى مسافــة أيــام؛ ثــم رجــع مسرعــا إلى جيــش أبي الخطــاب؛ الــذي تفــرق عنــه عــدد كبيــر مــن أنصــاره. وكانــت المعركــة النهائيــة في صالــح العباسييــن؛ حيــث قتــل فيهــا أميــر الإباضييــن أبــو الخطــاب، وانكســر جيشــه، وتشــت أنصــاره.

حــدث ذلــك جــراء العقليــة القبليــة البدويــة، وتبعــا لسلبيــات العصبيــة القبليــة المميتــة؛ إذ تقــول المصــادر أن فئــة كبيــرة مــن جيــش أبي الخطــاب تفرقــت عنــه قبــل وصــول ابــن الأشعــث إلى برقــة؛ وذلــك عندمــا حــل وقــت حصــاد الــزرع؛ إذ فضــل هــؤلاء المقاتلــون حصــاد زرعهــم عــلى البقــاء في الميــدان؛ منتظريــن موعــد المعركــة.[1] وثمــة فئــة أخــرى انفضــت وانسحبــت

---

[1] يقــول الدرجيــني: ((فلمــا وصلــت عيــون أبي الخطــاب إليــه مــن عسكــر ابــن الأشعــث تخبــره برجوعــه ــ وقــد اجتمــع عــلى أبي الخطــاب زهــاء تسعيــن ألفــا ــ ابتــدرت النــاس إلى مواطنهــم؛ وذلــك في زمــان الحصــاد؛ فقــال لهــم أبــو الخطــاب: يــا قــوم إن العــرب أهــل مكــر وغــدر؛ فــلا تتفرقــوا عــن ملككــم؛ حــتى تستيقنــوا

من الميدان بفعل النعرة الهوجاء والعصبية القبلية؛ وذلك عندما اختلفت قبيلة زناتة مع قبيلة هوارة؛ بسبب قتيل سقط بينهما. فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لهوارة؛ فانفضوا عنه. ولم يبق مع أبي الخطاب العدد الكافي من المقاتلين؛ كي يتصدى بهم للجيش العباسي؛ فكانت الهزيمة الكبرى التي أسقطت إمارة الإباضيين بطرابلس والقيروان نهائيا.[1]

برجوع القوم؛ وغلبت عليه العامة؛ فأذن لهم باللحاق بأهليهم؛ فساروا وتفرقوا عنه)). طبقات علماء المغرب، ج: **1**، ص: **33**. أنظر ــ أيضا ــ كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: **68**.

[1] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيرهم محمد بن الأشعث الخزاعي ــ أمير مصر للمنصور ــ إلى طرابلس؛ لقتال أبي الخطاب؛ وعليهم أبو الأحوص عمر بن الأحوص العجلي؛ فخرج إليهم أبو الخطاب، وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين وأربعين؛ فعادوا إلى مصر؛ واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسير إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميرا على إفريقية؛ فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين؛ فوصل إليها في خمسين ألفا؛ ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي. وبلغ أبا الخطاب مسيره؛ فجمع أصحابه من كل ناحية؛ فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه؛ فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة؛ فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم؛ ففارقه جماعة منهم؛ فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيرا رويدا؛ ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيرا بطيئا؛ فوصلت عيون أبي الخطاب؛ وأخبرته بعوده؛ فتفرق عنه كثير من أصحابه، وأمن الباقون؛ فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدا؛ فصبح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب؛ فوضعوا السيف في الخوارج؛ واشتد القتال؛ فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: **4**، ص: **281**. ويتفق ابن عذاري مع ابن الأثير في هذه الرواية، أنظر البيان المغرب، ج: **1**، ص ص: **71 ــ 73**.

ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن رستم ــ وهو بالقيروان ــ سارع إلى الخروج؛ طلبا للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

ــ **إمارة عاصم السدراتي الإباضي**: وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى ابن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما

---

[1] **تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الأشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.**

[2] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.**

ذكرتـــه تلـــك المصـــادر صحيحـــا؛ فكيـــف ــ إذن ــ يكـــون مـــن بيـــن قـــادة الإباضيـــة الذيـــن حاصـــروا عمـــر بـــن حفـــص سنـــة 153هــ(770م)؟[1]

ــ **إمـــارة أبي هريـــرة الزنـــاتي الإبـــاضي**: هكـــذا ورد اسمـــه دون تفصيـــل. ويبـــدو أنـــه كـــان زعيمـــا لبطـــن مـــن بطـــون زناتـــة في جهـــات طرابلـــس؛ ولمـــا قتـــل أبي الخطـــاب؛ انتهـــز غفلـــة مـــن ابـــن الأشعـــث؛ وهجـــم عليـــه؛ في ستـــة عشـــر ألفـــا؛ ولكـــن ابـــن الأشعـــث تـــدارك الأمـــر؛ وتمكـــن مـــن صـــد هـــذه القـــوة، وقتـــل قائدهـــا أبي هريـــرة الزنـــاتي. وتـــم ذلـــك في السنـــة الـــتي قتـــل فيهـــا أبي الخطـــاب؛ وهي سنـــة 144هــ(761م). والـــذي يلفـــت النظـــر ــ هنـــا ــ أن المصـــادر الإباضيـــة أغفلـــت ذكـــر أخبـــار أبي هريـــرة؛ ولـــم يشـــر إليـــه ســـوى محمـــد عـــلى دبـــوز في جملـــة مقتضبـــة.[2] وكذلـــك الحـــال بالنسبـــة للمؤرخيـــن السنييـــن؛ إذ تجاهـــل ذكـــره أكثرهـــم؛ ولـــم يتكلـــم عنـــه ســـوى: ابـــن الأثيـــر، وابـــن عـــذاري؛

---

[1] **قـــال أبـــو زكريـــاء يحـــيى بـــن أبي بكـــر: ((ثـــم إن عاصمـــا السـدراتي مـــرض مرضـــا شديـــدا؛ وكـــان مـــن خيـــار العسكـــر؛ وهـــو أحـــد الخمســـة الحملـــة للعلـــم؛ وأشـــد شوكـــة عـــلى أهـــل القيـــروان. فسمـــع أهـــل القيـــروان بمرضـــه؛ وأنـــه اشتـــهى قثـــاة؛ فبعـــث أهـــل القيـــروان رجـــلا بياعـــا يبيـــع القثـــاء؛ فسمـــوا منهـــا قثـــاة، وأمـــروه أن لا يبيعهـــا إلا لعاصـــم السـدراتي... واشتـــرى لعاصـــم أصحابـــه القثـــاة المسمومـــة وأتـــوه بهـــا فأكلهـــا؛ فقطعـــه السـم فمـــات،؛ وهـــرب البيـــاع حيـــن باعهـــا لهـــم)). كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 62.**

[2] **تاريـــخ المغـــرب الكبيـــر، ج: 3، ص: 19.**

في جملـــة قصيـــرة أيضـــا.[1]وقـــد يكـــون هـــذا القائـــد مـــن بيـــن الزناتييـــن الذيـــن انسحبـــوا غاضبيـــن عـــلى أبي الخطـــاب مـــن قبـــل؛ ولمـــا سمعـــوا بهجـــوم أبي الأشعـــث عـــادوا إلى المعركـــة؛ فوجـــدوا أن المبـــادرة خرجـــت مـــن أيديهـــم.

ـ إمـــارة عبـــد اللـــه بـــن حيـــان الزويـــلي الإبـــاضي: وهـــو ـ كمـــا يبـــدو ـ هـــواري النســـب. وكـــان في زمـــن أبي الخطـــاب رئيســـا في زويلـــة؛ فبعـــث ابـــن الأشعـــث جيشـــا إلى تلـــك الجهـــات سنـــة 145هـ(762م)؛ حيـــث افتتـــح ودان وزويلـــة؛ أيـــن قتـــل مـــن بهمـــا مـــن الإباضييـــن؛ ومـــن جملتهـــم عبـــد اللـــه بـــن حيـــان هـــذا.

ـ إمـــارة المســـور بـــن هـــانئ الزنـــاتي الإبـــاضي[2]: ذكـــره بعـــض المؤرخيـــن ضمـــن جيـــوش الصفريـــة والإباضيـــة؛ الذيـــن كانـــوا محاصريـــن لعمـــر بـــن حفـــص بطبنـــة في سنـــة 153هـ(770م)؛ إذ قالـــوا أنـــه كـــان يقـــود عشـــرة آلاف مقاتـــل مـــن زناتـــة؛ قدمـــوا معـــه مـــن شمـــال تيهـــرت. ومـــا عـــدا هـــذا؛ لا يوجـــد مـــا يمكـــن إضافتـــه مـــن أخبـــاره.

---

[1] الكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 281. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 72.

[2] سمـــاه ابـــن عـــذاري: المصـــور ـ بالصـــاد ـ الزنـــاتي؛ دون الإشـــارة إلى مذهبـــه هـــل هـــو صفـــري أم إبـــاضي. البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 75. أمـــا ابـــن خلـــدون فقـــد سمـــاه المســـور ـ بالسيـــن ـ الزنـــاتي؛ ثـــم ذكـــر أنـــه إبـــاضي المذهـــب. العبـــر، مج: 4، ص: 413. أمـــا في مج: 4، ص: 226؛ فسمـــاه المســـور بـــن هـــانئ.

ـ إمـــارة أبي حاتـــم يعقـــوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفـــت الملزوزي المغيـــلي المعروف بأبي قـــادم:[1]

هكـــذا سمـــاه ابـــن خلـــدون؛ إذ نسبـــه إلى قبيلـــة ملـــزوزة المنحـــدرة عـــن قبيلـــة مغيلـــة. أمـــا المصـــادر الأخـــرى فقـــد اكتفـــت بالقليـــل عنـــد ســـرد اسمـــه؛ عـــلى أن بعضهـــم ينسبـــه ـ بالـــولاء ـ إلى قبيلـــة كنـــدة العربيـــة.[2] ويقـــول محمـــد عـــلي دبـــوز أن أبـــاه ـ أو أحـــد أجـــداده ـ انتقـــل إلى طرابلـــس؛ فانتســـب إلى قبيلـــة هـــوارة بالالتحـــاق. المهـــم أن بعـــض الآراء تقـــول أن أبـــا حاتـــم هـــذا تـــولى أمـــر الإباضيين في سنـــة 145هـ(762م).[3] أي بعـــد فتـــرة مـــن مقتـــل أبي الخطـــاب. إذ كـــان يجمـــع الصدقـــات، ويبعـــث بهـــا إلى عبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم؛ قبـــل أن يتـــولى ولايـــة الظهـــور؛ أي الولايـــة المعلنـــة للمـــلأ. وهـــذا يبعـــث عـــلى الاعتقـــاد أنـــه قـــد ولي أمـــر الإباضيين ســـرا في سنـــة 151هـ(768م) أو قبلهـــا.

---

[1] سمـــاه أبـــو زكريـــاء يحـــيى بـــن أبي بكـــر: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن لبيـــب الملـــزوزي. كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 73. أمـــا الدرجيـــني فسمـــاه: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن لبيـــب الملـــزوزي الهـــواري، ج: 1، ص: 36. أمـــا سليمـــان البـــاروني فسمـــاه: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن حبيـــب، مختصر تاريخ الإباضيـــة، ص: 34.

[2] الكامـــل في التاريـــخ، ج: 5، ص: 32. والعبـــر، مج: 4، ص: 412.

[3] كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 73. وفي كتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب: ولي سنـــة 154هـ. وفي مختصـــر تاريـــخ الإباضيـــة في سنـــة 154هـ.

هــذا وقــد ســمى أبــو زكريــاء ولايــة أبي حاتــم بولايــة الدفــاع. وذكــر أنــه بويــع خــارج طرابلــس؛ بالطريقــة السريــة ذاتهــا؛ الــتي تمــت في بيعــة أبــي الخطــاب مــن قبــل. إذ تظاهــروا أنهــم مجتمعــون مــن أجــل إصــلاح بيــن زوج وامرأتــه؛ بينمــا هــم ــ في الحقيقــة ــ يأتمــرون فيمــا بينهــم لإعــلان الإمامــة، والبيعــة للإمــام. ولكــن عيــون عامــل طرابلــس كشفــت أمرهــم؛ فحــاول إفســاد مــا اجتمعــوا عليــه؛ عندهــا لــم يجــدوا أمامهــم بــدا مــن إعــلان العصيــان؛ وانطلقــوا إلى طرابلــس فاحتلوهــا وقتلــوا مــن بهــا مــن الجنــد. ثــم أمــر أبــو حاتــم أتباعــه بالزحــف نحــو إفريقيــة؛ وفي الطريــق التقــوا بجيــش القيــروان؛ زاحفــا في اتجاههــم؛ فاشتبكــوا معــه وهزمــوه.

وحســب مــا يبــدو فهــذا الأمــر يكــون قــد تــم بعــد سنــوات مــن التاريــخ الــذي اتفــق فيــه الإباضيــون عــلى إمامــة أبي حاتــم. لأن ظهــوره بشكــل علــني ربمــا حــدث في سنــة 153هــ(770م)؛ وهي السنــة الــتي تحــرك فيهــا لحصــار القيــروان؛ منتهــزا فرصــة غيــاب الجنــد عنهــا؛ أي عندمــا لاحــظ أنهــم خرجــوا مــع والي إفريقيــة عمــر بــن حفــص؛ بهــدف بنــاء وتحصيــن عاصمــة الــزاب طبنــة.

ويظهر أن الفترة الزمنية الفاصلة بين مقتل أبي الخطاب، ومقتل أبي حاتم يكتنفها غموض كثيف. وهذا ما جعل المؤرخين يخلطون في السنوات التي تؤرخ للأحداث. وقد اعترف ابن عذاري بالخلل الحاصل في التحقق من الأحداث.[1]

والواقع أن الفترة الممتدة من 144هـ (761م) إلى 154هـ (770م)؛ كلها تحمل أخبارا مضطربة ومتناقضة. فهذا على سبيل المثال صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ـ حين تكلم عن بدء ولاية أبي حاتم ـ يقول أنها تمت في رجب من سنة 145هـ (762م)؛ ثم يضيف أن أبا حاتم بقي في طرابلس أربع سنين؛ وبعدها سكت عن ذكر التواريخ؛ حتى أن مقتل أبي حاتم لم يذكر تاريخه. أما صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب فقد اختلف مع أبي زكرياء في تاريخ بدء الولاية؛ الذي قال أنها تمت في رجب من سنة 154هـ(770م). أما باقي الأخبار فيبدو أنه نقلها عنه؛ دون إضافة شيء جديد. أما سليمان الباروني فيجعل تاريخ بدء الولاية في سنة 154هـ؛ ثم يحدد وفاة أبي حاتم بسنة 155هـ(771م).

---

[1] **إذ قال: ((ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151 إلى 153 بعدها سنة سنة: فأجملت أمرها هنا إجمالا مختصرا؛ يغني عن إعادتها في كل واحدة منها)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 76.**

ولكنه يعود فيشكك في صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ــ أيضا ــ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

---

[1] **إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المؤرخين فضلا ــ عن ذلك ــ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الألوف من الفرسان. ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ــ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالأمر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).**

[2] **أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ــ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ــ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ــ 413. ومج: 6، ص: 226.**

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في حلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح

---

[1] ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ــ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ــ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ــ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ــ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرائها شيء من الطعام؛

عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد ابن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ (770م).

ـ إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي: ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[1] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري سكت عن الحديث في

فدام الحصار ثمانية أشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 32.

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فاتوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.

مصيــر هــذا الثائــر الإبــاضي؛ ولــم يذكــر إن كــان قتــل أم لا. وحــتى ابــن الأثيــر لــم يشــر إلى مصيــره النهــائي.

ـ إمــارة صالــح بــن نصيــر النفــزي الإبــاضي:[1]
وكــان مــن رؤســاء نفــزاوة الإباضييــن؛ إذ ثــار مــع قبيلتــه سنــة 161هــ (777م) عــلى والي إفريقيــة بالقيــروان؛ داود بــن يزيــد بــن حاتــم ـ في حيــاة والــده يزيــد الــذي أقعــده المــرض ـ فأرســل داود إليهــم قــوة لتأديبهــم؛ بقيــادة سليمــان بــن الصمــة بــن يزيــد بــن حبيــب بــن المهلــب؛ في عشــرة آلاف مــن الجنــد؛ ففتــك بهــم، وفــرق جمعهــم؛ غيــر أن صالــح بــن نصيــر ـ كمــا يبــدو ـ استطــاع الإفــلات؛[2] ولــم يعــرف مصيــره بعدئــذ.

ـ إمــارة أيــوب الهــواري: أورد خبــره ـ باقتضــاب شديــد ـ ابــن الأثيــر؛ إذ قــال أنــه ثــار مــع قبيلــة ورفجومــة في الــزاب سنــة 164هــ(780م)؛ خــلال عهــد يزيــد بــن حاتــم؛ الــذي سيــر إليهــم عسكــرا كثيــرا؛ بقيــادة يزيــد بــن مجــزأ المهلــبي؛ حيــث قتــل في تلــك الأحــداث، وانهــزم جيشــه؛ كمــا قتــل فيهــا أيضــا المخــارق عامــل الــزاب. فاسنــد يزيــد بــن المهلــب القيــادة إلى العــلا بــن سعيــد المهلــبي؛ فتمكــن مــن دحــر

---

[1] سمــاه ابــن عــذاري: نصيــر بــن صالــح الإبــاضي. البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 83.
[2] أنظــر تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 169. والعبــر مج: 6، ص: 228.

ورفجومة واستلحمهم؛ حيث تتبعهم في كل مكان؛ حتى قضى عليهم[1]. ولم يذكر ابن الأثير مذهب هذا الرجل؛ هل هو صفري أم إباضي.؟ وكالعادة بقي مصير هذا القائد الثائر غير معروف.

وخلاصة القول ـ هنا ـ أنه حصل ـ كما يبدو ـ بعض الالتباس؛ إذ أورد هذه الرواية ـ الرقيق القيروان ـ الذي نسب أفعالها إلى ثائر صفري يسمى أبا زرجونة الورفجومي؛ على أن الأحداث وقعت في سنة 156هـ(772م).[2] ولا يعرف إن كانت ثورة أبي أيوب ـ هذه ـ هي ثورة أبي زرجونة نفسه؛ أم يتعلق الأمر بثورتين مختلفتين؛ قادهما شخصان متباينان.

وبحلول الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة؛ أصبح الوضع السياسي في بلاد المغرب غير ما كان عليه في السابق. حيث شهدت هذه الربوع بعض التحولات الجوهرية؛ صبغت ثورات الخوارج ضد حكم العباسيين بالمغرب؛ بمفاهيم جديدة أعطت شرعية لشكل من أشكال الاستقلال للخوارج؛ حيث قامت دولة للصفرية في أقصى المغرب، ودولة للإباضية في المغرب الأوسط. (بالإضافة إلى دولة برغواطة المنحرفة).

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 33.**

[2] **تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ـــ 162.**

وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة – من جديد – في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

***

ـ إمارة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الملقب بصاحب الحمار: ظهر هذا الرجل في بلاد قسطيلية بالنواحي الجنوبية من إفريقية؛ بعد سقوط الدولة الرستمية الإباضية؛ وبعد أن التهمها الفاطميون. وتتلمذ هذا الثائر الخارجي ـ في صغره ببلاد قسطيلية ـ على بعض النكارية؛ منهم عبد الحميد بن عبد الله الحميدي الحجري؛ الملقب بأبي عمار الأعمى؛ الذي قال عنه محمد الصنهاجي أنه كان مقدما في الإباضية، وقال فيه ابن خلدون أنه رأس النكارية.[1] كما تذكر مصادر الإباضيين أنه درس على بعض العلماء في سجلماسة. ونظرا لفقر أبي يزيد، وشدة حاجته؛ فقد عمل في تعليم القرآن للصبيان؛ فكانت فرصة له؛ كي يبث فيهم مذهب النكارية.

وتقول المصادر التاريخية أنه ذهب إلى الحج، وعاد في سنة 325هـ(926م)؛ حيث أخذ ـ بعد عودته ـ في التشويش والمشاغبة وتأليب العامة على الحكام. فقبض عليه ابن فركان ـ مقدم توزر ـ وأودعه السجن؛ بتهمة ما كان يدعو إليه من تكفير المسلمين، وسبِّ على كرم الله وجهه؛ وما كان يصرح به من وجوب الخروج عن السلطان. على أن أبا يزيد استطاع التخلص من سجنه؛ إما بتقديم بعض الأعذار؛ كما جاء في قول؛ وإما

---

[1] **أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30. والعبر، مج: 7، ص: 27.**

بالقـــوة والتمـــرد؛ حيـــن تمكـــن مـــن الهـــرب مـــن سجنــــه؛ بمساعـــدة شيخــــه أبي عمــــار؛ وجماعــــة مـــن قبيلـــة زناتـــة؛ في قـــول آخـــر ذكـــره ابـــن خلـــدون.[1] عندهـــا اتجـــه أبـــو يزيـــد ــ أولا ــ إلى وركـــلا، ثـــم التجـــأ ــ بعـــد ذلـــك ــ إلى جبـــل أوراس عنـــد عشيـــرة بـــني كمـــلان وهـــم مـــن هـــوارة؛ وكانـــوا عـــلى مذهبـــه.[2] ومنهـــا أخـــذ يتـــردد مـــرة عـــلى بـــني بـــرزال جنـــوب المسيلـــة، ومـــرة أخـــرى عـــلى بـــني زنـــداك المغراويين. وفي تلـــك الأثنـــاء أخـــذ لـــه أبـــو عمـــار البيعـــة مـــن القبائـــل المنضويـــة تحـــت طاعتـــه؛ فتلقـــب بشيـــخ المؤمنيـــن.[3]

ولمـــا أحـــس بقـــوة أنصـــاره وصـــدق طاعتهـــم وانصياعهـــم لأوامـــره؛ أعلـــن الثـــورة عـــلى الفاطميـــين؛ في عهـــد ثـــاني ملوكهـــم أبـــي القاســـم محمـــد بـــن عبيـــد اللـــه. وتمكـــن ــ في البدايـــة ــ مـــن جمـــع كتلـــة قبليـــة هامـــة حولـــه؛ وقـــد تمكـــن مـــن تحقيـــق ذلـــك نظـــرا لمـــا كـــان يظهـــره ــ في البدايـــة ــ مـــن تديـــن وورع وانسجـــام مـــع المذاهـــب الأخـــرى ــ سنيـــة أم خارجيـــة ــ تلـــك المذاهـــب المعاديـــة للمذهـــب الفاطـــمي.[4] ومـــن جهـــة

---

[1] **العبـــر، مج: 7، ص: 27.**

[2] **أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص: 30.**

[3] **البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 217. والعبـــر، مج: 7، ص: 28.**

[4] **قـــال ابـــن عـــذاري: ((قـــال ابـــن سعـــدون: "فبعـــث اللـــه عـــلى أبي القاســـم الشيـــعي مخلـــد بـــن كيـــداد الخـــارجي؛ فقهـــره، وقتـــل جنـــده؛ وقـــام المسلمـــون معـــه. وخـــرج الفقهـــاء والعبـــاد مـــع أبي يزيـــد لحربـــه"؛ وسماهـــم ابـــن سعـــدون في كتابـــه رَجُـــلاً رَجُـــلاً. "فركبـــوا معـــه؛ ونهضـــوا إلى القيـــروان؛ فدخلوهـــا في صفـــر العـــام، [يقصـــد عـــام 332هـــ] وأظهـــر لأهلهـــا خيـــرا؛ وترحـــم عـــلى أبي بكـــر وعمـــر ــ رضي اللـــه**

أخـــرى فقـــد استغـــل كراهيـــة فئـــة عريضـــة مـــن القبائـــل والعشائـــر في بـــلاد المغـــرب لحكـــام الدولـــة الفاطميـــة. أضـــف إلى ذلـــك كلـــه؛ أن علمـــاء المذاهـــب السنيـــة في هـــذه الديـــار أشاعـــوا عـــلى الفاطميـــين صفـــات كريهـــة؛ وضعتهـــم في مصـــاف المخالفيـــن لشـــرع اللـــه، واتهمتهـــم بانتحـــال البـــدع والأكاذيـــب؛ بـــل اتهمتهـــم بالكفـــر أحيانـــا؛ كمـــا كذبـــوا روايـــة انتسابهـــم إلى فاطمـــة البتـــول رضي اللـــه عنهـــا.[1]

عنهمـــا ــ ودعـــا النـــاس إلى جهـــاد الشيعـــة؛ وأمرهـــم بقـــراءة مذهـــب مالـــك. فخـــرج الفقهـــاء والصلحـــاء في الأســـواق بالصـــلاة عـــلى النـــبي صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم وعـــلى أصحابـــه وأزواجـــه؛ حـــتى ركـــزوا بنودهـــم عنـــد الجامـــع؛ فلمـــا كـــان يـــوم الجمعـــة؛ اجتمعـــوا بالمسجـــد الجامـــع، وركبـــوا مـــع أبي يزيـــد بالســـلاح؛ ومعهـــم البنـــود والطبـــول... فلمـــا اجتمـــع النـــاس، وحضـــر الإمـــام، وطلـــع إلى المنبـــر؛ خطـــب خطبـــة أبلـــغ فيهـــا، وحـــرض النـــاس عـــلى جهـــاد الشيعـــة، وأعلمهـــم بمـــا لهـــم فيـــه مـــن الثـــواب؛ ثـــم لعـــن عبيـــد اللـــه الشيـــعي وابنـــه؛ ثـــم نـــزل فخـــرج، وخـــرج النـــاس معـــه لقتـــال الشيعـــة الفجـــار؛ فلـــم يـــزل قاهـــرا لهـــم، غالبـــا عليهـــم، قاتـــلا لجنودهـــم؛ حـــتى لـــم يبـــق لهـــم مـــن بـــلاد إفريقيـــة إلا اليسيـــر)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 217 ــ 218.

[1] أورد ابـــن عـــذاري بعـــض التهـــم الـــتي وجهـــت إلى الفاطميـــن؛ منهـــا نحلـــة التشريـــق الإلحاديـــة؛ الـــتي زعـــم أعداؤهـــم أنهـــا صـــدرت عنهـــم وعـــن أنصارهـــم. وأورد أيضـــا موجـــزا لمـــا خطـــه محمـــد بـــن سعـــدون بـــن عـــلي في كتابـــه "تعزيـــة أهـــل القيـــروان بمـــا جـــرى عـــلى البلـــدان؛ مـــن هيجـــان الفتـــن، وتقلـــب الأزمـــان" وكـــان هـــذا الكتـــاب مشحونـــا بالتهـــم والأوصـــاف الكريهـــة للفاطميـــن؛ الذيـــن يسميهـــم العبيدييـــن؛ وينكـــر نسبهـــم للرســـول محمـــد صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم. أنظـــر البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 185 . 281 ــ 287.

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى – بحكم أنها قبيلته التي انحدر منها أبوه – بالإضافة إلى هوارة – وهي قبيلة أمه – ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا – بعد فترة – حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[1] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل

---

[1] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي الربيع: (("يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع أبو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: **195**.

الملــة، ويستبيــح الغنائــم والســبي فيهــم.[1] وعليــه فقــد أعتبــره الإباضيــون الوهبيــون نكاريــا ومخالفــا لمذهبهــم.[2] وصنفــوه ضمــن فئــات الخــوارج المتطرفيــن. ومــع هــذا فقــد كــان يــرى في نفســه الــوارث الشــرعي للــدعــوة الإباضيــة؛ بعــد سقــوط الدولــة الرستميــة. لــذا فقــد حــاول استعــادة مجــد الإباضييــن، والنهــوض بدولتهــم مــن جديــد؛ ولكنــه فشــل في الأخيــر.[3] وانتهــت حركتــه

---

[1] أجمعــت المصــادر التاريخيــة كلهــا عــلى سمــاح أبي يزيــد بسفــك دمــاء المسلميــن المنتميــن لغيــر مذهبــه؛ كمــا أجمعــت عــلى استباحتــه للمحرمــات، وتحريضــه عــلى سلــب أمــوال المسلميــن، وســبي نسائهــم واستعبــاد أطفالهــم. وهــذا نــص ـــ كعينــة ـــ كتبــه أبــو زكريــاء ـــ وهــو أحــد العلمــاء الإباضييــن ـــ يصــف فيــه أبا يزيــد بصفــات تضعــه في مصــاف الكفــرة؛ إذ قــال: ((ثــم إن عــدو اللــه [يقصــد أبــا يزيــد] ســار بريــد القاســم بالقيــروان؛ وكــل قريــة ومدينــة مــر بهــا ـــ في طريقــه ـــ خربهــا، وسبــا ذريتهــا، وغنــم أموالهــا؛ كفعــل نافــع بــن الأزرق وغــيــره مــن الخــوارج؛ بــل قــد زاد عليهــم وأربى... وذكــروا أنــه بــلــغ عـــدة مــا خـــرب عــلى يــــده ـــ في إفريقيــة ـــ ثلاثــون ألــف قريــة؛ لــم تعمــر إلى يومنــا هــذا. وفعــل في إفريقيــة مــن الفســوق والمعــاصي والفجــور مــا لــم يبلغنــا مثلــه عــن الفراعنــة والأكاســرة والقياصــرة والجبابــرة... وبلغنــا أنــه نــزل بالساحــل؛ فاخــذ أهــل عسكــره صبيتيــن؛ فجاءتــه أمهمــا تشــكو إليــه؛ فقالــت لــه: "يــا شيــخ؛ إن العزابــة سبــوا لي ابنتيــن؛ وهمــا حرتــان؛ وغصبوهمــا"؛ فلــم يجبهــا عــدو اللــه بجــواب؛ غيــر أنــه قــال: "هــل في إفريقيــة حــرة". فخافــت المــرأة عــلى نفسهــا؛ فهربــت ونجــت بنفسهــا)). كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص ص: **180** ـــ **182**.

[2] أنظــر كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص ص: **175** ـــ **187**. وكتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، ج: **1**، ص ص: **96** ـــ **104**. فكلهــا تتبــرأ منــه، وتخرجــه مــن المذهــب الإبــاضي الوهــبي.

[3] وهــذا مــا جعــل أبــا القاســم بــن عبيــد اللــه يقــول: ((لقــد فتــح فيهــم [أي في الإباضييــن] بابــا؛ إلا أنه لم يحســن السيــرة)). كتاب سير الأئمــة وأخبارهــم؛ ص: **181**.

بانتهاء حياته؛ إذ قتل مسلوخا، وممثلا به في سنة 335هـ(949م) بالمهدية.

وقد تمكن هذا الثائر الخارجي من زعزعة أركان الدولة الفاطمية ــ بعض الوقت ــ حيث شغلها بالفتن مدة من الزمن؛ وكاد أن يطيح بأركانها ويسقطها نهائيا؛ لولا معاكسة الأقدار له.[1] وقد استند أبو يزيد ــ في بدية أمره ــ إلى روح العصبية الموغلة في نفوس أبناء القبائل الزناتية؛ ذات الطابع البدوي. كما استطاع ــ بواسطة الدعوة الدينية ــ أن يحقق التلاحم بين القبائل السائرة خلفه؛ تبعا للقاعدة التي تنص على تزايد قوة العصبية؛ عندما تعتمد على الدعوة الدينية.[2]

---

[1] **أنظر قصة أبي يزيد في كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ــ 187. وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 29 ــ 47. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 302 ــ 311. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. وكتاب البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. وكتاب العبر، مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 109 ــ 125.**

[2] **يقول ابن خلدون في هذا: ((إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية؛ وتُفرِدْ الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها ــ وإن كانوا أضعافهم ــ فأغراضهم متباينة بالباطل؛ وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم؛ وإن كانوا أكثر منهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 337.**

غيـر أنـه عجـز عـن المحافظـة عـلى مكتسباتـه؛ بسبب ما كـان يصـدر عنـه مـن نـزوات؛ لـم يتمكـن مـن كبتهـا.[1] حيـث أدى الشـك في صـدق دعوتـه إلى نكسـة؛ أثـرت عـلى حركتـه؛ فأخـذ العامـل الديـني يتـلاشى؛ بفعـل الشكـوك الـتي غـزت بعـض أنصاره؛ فضعـف تماسكهـم، وانحلـت وحدتهـم؛ بفسـاد العصبيـة المناصـرة لـه وتفككهـا[2]، وافتـراق القبائـل المتحالفـة

---

[1] فممـا قالـه محمـد الصنهـاجي: ((وكـان أبـو يزيـد في أول أمـره يلبـس خشـن الثيـاب، ويمسـك العصـا، ويسـمى شيـخ المسلميـن؛ ثـم انتقـل عـن ذلـك، وركـب عتـاق الخيـل، ولبـس الديبـاج؛ وكـان يـرى الجمـع بيـن الأختيـن بملـك اليميـن، ويستبيـح نسـاء المسلميـن ممـن خالفـه، ويسفـك الدمـاء. وكـان أصحابـه البربـر يقتلـون كـل مـن ظفـروا بـه مـن النـاس؛ كائنـا مـن كـان؛ عيثـا وعبثـا؛ خاصـة مـن خـرج مـن المهديـة عنـد حصارهـم إياهـا؛ فـرارا مـن الجـوع والحصـار؛ ويشقـون بطونهـم أحيانـا فتشـا عـن المـال؛ توهمـا منهـم أنهـم ابتلعـوه)). أخبـار ملـوك بـني عبيـد، ص: **31**. وقـال أيضـا ابـن خلـدون: ((واستخـف أبـو يزيـد بالنـاس؛ بعـد قتـل ميسـور؛ فلبـس الحريـر، وركـب الفـاره؛ ونكـر عليـه أصحابـه ذلـك، وكاتبـه بـه رؤساؤهـم مـن البـلاد... وعذلـه أبـو عمـار فيمـا أتـاه مـن الاستكثـار مـن الدنيـا؛ فتـاب وأقلـع؛ وعـاود لبـس الصـوف والتقشـف)). العبـر، مج: **7**، ص ص: **30 ـ 31**.

[2] ويشـرح ابـن خلـدون الكيفيـة الـتي تنكسـر فيهـا العصبيـة؛ تبعـا لضعـف الصبغـة الدينيـة؛ يقولـه: ((واعتبـر ذلـك إذا حالـت صبغـة الديـن وفسدت؛ كيـف ينتقـض الأمـر، ويصيـر الغلـب عـلى نسبـة العصبيـة وحدهـا؛ دون زيـادة الديـن؛ فيغلـب الدولـة مـن كـان تحـت يدهـا مـن العصائـب المكافئـة لهـا أو الزائـدة القـوة عليهـا؛ الذيـن غلبتهـم بمضاعفـة الديـن لقوتهـا؛ ولـو كانـوا أكثـر عصبيـة منهـا وأشـد بـداوة)). المقدمـة، ج: **2**، ص: **638**.

معـــه؛ حيـــث عـــادت إلى سابـــق عهدهـــا؛ عصبيات عديـــدة؛ تفرقهـــا الأهـــواء والأطمـــاع.[1]

وهنـــا تظهـــر الحاجـــة إلى العصبيـــة، والدعـــوة الدينيـــة معـــا. فغيـــاب إحداهمـــا؛ يخـــل باستقـــرار الأخـــرى. وهكـــذا أخمـــدت ثـــورة أبي يزيـــد؛ بواسطـــة عصبيـــة أقـــوى مـــن عصبيتـــه؛ كانـــت هي الأخـــرى معـــززة بدعـــوة دينيـــة تتمتـــع بفعاليـــة وقـــدرة عـــلى تحقيـــق أهدافهـــا. وربمـــا عـــاد سبـــب فشلـــه ــ في تحقيـــق هدفـــه ــ إلى مـــا لاقـــاه مـــن خـــذلان، وتنكـــر مـــن قبـــل حلفائـــه قبائـــل زناتـــة؛ وذلـــك بعـــد تخليهـــم عـــن مناصرتـــه ومساندتـــه؛ في أشـــد الظـــروف الـــتي مـــرت بـــه؛ حيـــث تركـــوه فريســـة سهلـــة؛ بيـــن براثـــن أعدائـــه. هـــذه هي العصبيـــة القبليـــة؛ حيـــن تظهـــر في زيهـــا السلـــبي البشـــع.

فثـــورة أبي يزيـــد كانـــت ــ فـــي الظاهـــرــ ثـــورة خارجيـــة المذهـــب؛ نشبـــت ــ بضـــراوة ــ ضـــد دولـــة شيعيـــة المذهـــب؛ ومـــع هـــذا فتلـــك الثـــورة لا تخلـــو مـــن نفحـــات العصبيـــة القبليـــة ونزواتهـــا؛ حيـــث كانـــت تلـــك الثورة تتغـــذى بشحنـــات مـــن العصبيـــة الأمازيغيـــة الزناتيـــة والهواريـــة؛ تلـــك العصبيـــة المناهضـــة لتسلـــط قبائـــل كتامـــة، وقبائـــل صنهاجـــة؛ الـــتي تستتـــر تحـــت ستـــار المذهـــب الشيـــعي. لأن الفكـــرة المذهبيـــة ــ في الحقيقـــة ــ

---

[1] **أنظـــر أخبـــار بـــني عبيـــد وسيرتهـــم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ــ 41. والكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص ص: 309 ــ 310. واتعـــاظ الحنفـــا، ص ص: 115. 116. والعبـــر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ــــ 33**

أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل ــ كقبيلة هوارة ــ في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ (953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم ــ في الظاهر ــ بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف ــ أيضا ــ بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تنكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز ــ بالمقابل ــ موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية.

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: **48 ــ 49**. والعبر، مج: **4**، ص: **95**. واتعاظ الحنفا، ص: **134**.

وهكـذا تبـددت أحـلام زناتـة؛ في إنشـاء دولـة قويـة وموحـدة بالمغـرب الإسـلامي؛ بزعامـة أبي يزيـد. وبهـذا بـقي الحديـث عـن ثـورة أبي يزيـد في حـدود الكيـان الثائـر، المتمـرد؛ الـذي لـم يصـل إلى مرتبـة الدولـة؛ لأنـه ــ حتى وإن كـاد أبـو يزيـد أن يقـضي عـلى الدولـة الفاطميـة ــ لا يمكـن وضـع كيانـه في مصـاف الـدول؛ إذ لـم يكـن سـوى ثائـر؛ حالفـه الحـظ أحيانـا، وخانـه أحيانـا أخـرى.

ــ إمـارة أبي خزر يغـلي بن زلتـاف الوسيـاني الإبـاضي: وهـو مـن علمـاء الإباضيـة الوهبيـن المعتدليـن. وقـد قـام هـذا الرجـل ــ مـع رفيقـه وصنـوه في العلـم ــ **أبـي نـوح سعيـد بـن زنغيـل الوسيـاني** ــ بثـورة مضـادة للـدولـة الفاطميـة؛ وذلـك في بـلاد قسطيليـة أيضـا سنـة 358هـ(968م). أي بعـد ثـلاث وعشريـن سنـة ــ تقريبـا ــ مـن مقتـل أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد. وتقـول المصـادر أن السبـب في تلـك الثـورة كـان بدافـع الثـأر؛ وليـس بحافـز عقائـدي أو سيـاسي. وحـدث ذلـك بعـد إعـدام أحـد علمـاء الإباضيـة الأعيـان ــ ظلمـا كمـا يقـال ــ مـن طـرف سلطـان الدولـة الفاطميـة ــ آنـذاك ــ المعـز لديـن اللـه تميـم ابـن إسماعيـل.

وهــذه الحركــة الإباضيــة ــ في الحقيقــة ــ لــم تصــل إلى درجــة الثــورة العارمــة؛ إذ كانــت عبــارة عــن عصيــان وسخــط عــلى سلطــان الدولــة الفاطميــة؛ الــذي قتــل ــ كمــا يعتقــدون ــ ظلمــا أحــد علمائهــم؛ وهــو أبــو القاســم يزيــد بــن مخلــد الوسيــاني.[1]

والجديــر بالملاحظــة هنــا؛ أن جــل المصــادر التاريخيــة السنيــة صمتــت عــن هــذه الحركــة، ولــم تشــر إليهــا؛ وقــد يكــون ذلــك بسبــب عــدم أهميتهــا، ونظــرا لقلــة تأثيرهــا عــلى الدولــة الفاطميــة. ولــم تتكلــم عنهــا ســوى المصــادر الإباضيــة؛ الــتي أضفــت عليهــا ــ بدورهــا ــ صفــة العصيــان القبــلي؛ احتجاجــا عــلى قتــل أحــد الأعيــان المبجليــن في: قسطيليــة، وبــلاد ريــغ، ومنطقــة الــزاب. لــذا فقــد نهــض الساخطــون في تلــك الجهــات؛ وطالبــوا بالثــأر لأبي القاســم. ويقــال أن الذيــن اجتمعــوا للقتــال؛ مــن مزاتــة وحدهــا اثنــا عشــر ألــف فــارس؛ باستثنــاء الراجليــن؛ الذيــن كــان عددهــم أكثــر

[1] يقــول أبــو زكريــاء في هــذا الموضــوع: ((ذكــر أبــو الربيــع سليمــان بــن يخلــف رضي الله عنــه ؛ أن أبــا القاســم رضي الله عنــه تحــدث مــع يهــودي؛ فجــرى بينهمــا كــلام في أمــر أبي تميــم [المعــز لديــن اللــه] فقــال لــه أبــو القاســم رضي الله عنــه ليــس بيننــا وبينــه إلا يسيــرا؛ فنقــوم عليــه؛ ونخرجــه مــن تلــك المدينــة ــ إن شــاء اللــه ــ يعــني مدينــة القيــروان. فلمــا افترقــا قــام اليهــودي مبــادرا؛ فبلــغ قولــه لأبي تميــم. وبلــغ المشائــخ ما قالــه أبــو القاســم لليهــودي؛ فأتــوه وعاتبــوه عــلى ذلــك ولامــوه. وقالــوا لــه: "لــو كنــت عــلى ذلــك؛ فمثلــك لا يفــشي ســره، ولا يهتــك ستــره؛ أحســن اللــه عزاءنــا فيــك")). سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص ص: **210 ــ 211**. وذكــر الدرجيــني الروايــة نفسهــا في طبقــات المشائــخ بالمغــرب؛ ج: **1**، ص: **124**.

مـــن ذلـــك.[1] ويقـــول أبـــو زكريـــاء أن جمـــوع الثائريـــن عقـــدوا لأبي خـــزر ولايـــة الدفـــاع؛ بهـــدف المطالبـــة بـــدم أبي القاســـم. عـــلى أن يعقـــدوا لـــه ــ بعـــد تحقيـــق هدفهـــم الأول ــ ولايـــة الظهـــور؛[2] أي الولايـــة المعلنـــة صراحـــة.

ويبـــدو أن أبـــا خـــزر لـــم يكـــن عـــلى درجـــة مـــن الحنكـــة العسكريـــة. ذلـــك لأنـــه تســـرع في زحفـــه نحـــو باغـــاي. ويقـــول أبـــو زكريـــاء أنـــه لـــم ينتظـــر إمـــدادات أصحابـــه كلهـــم؛ الممثليـــن في جمـــوع أهـــل الـــزاب وورجـــلان.[3] وعليـــه فلـــم يكـــن في وسعـــه الصمـــود أمـــام قـــوة الأعـــداء؛ إذ أنـــه بعـــد أن حاصـــر باغـــاي ــ بعـــض الوقـــت ــ بقـــوة مـــن قبيلـــة مزاتـــة؛ تلـــك القـــوة الـــتي كانـــت في معظمهـــا تتشكـــل مـــن طلبـــة العلـــم؛ انتـــهى الأمـــر بهـــم جميعـــا إلى الهزيمـــة والهـــرب.

---

[1] **سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 216. وطبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج: 1، ص: 124.**

[2] **قـــال أبـــو زكريـــاء: ((ثـــم إن الشيـــخ أبـــا خـــزر (رضي الله عنـــه) عقـــدوا لـــه الولايـــة عـــلى الدفـــاع والطلـــب بحـــق الشيـــخ رضي الله عنـــه فـــإن أدركـــوا حاجتهـــم عقـــدوا لـــه ولايـــة الظهـــور)). سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 216.**

[3] **يقـــول أبـــو زكريـــاء: ((لمـــا استنفـــر أهـــل الـــزاب وأريـــغ وورجـــلان؛ خرجـــوا في جمـــوع عظيمـــة؛ فخـــرج خـــزرون بـــن فلفـــول؛ فلمـــا وصـــل خـــزرون ــ ومـــن معـــه ــ إلى الموضـــع الـــذي يقـــال لـــه أفـــودان تطـــلا (أو أفـــوداد لكـــلا)؛ كـــان بينـــه وبيـــن باغـــاي مسافـــة قصيـــرة ــ فيمـــا قيـــل واللـــه أعلـــم ــ سمـــع بخبـــر الهزيمـــة فرجـــع)). سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 218.**

على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة — التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان — أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار.

وبذلك انبثقت في وسطهم — فجأة — علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت — بفعل عواملها السلبية — في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في الآفاق.[1] عندها لم يجد قائد الثورة أبو خزر وصاحبه أبو نوح أمامهما من وسيلة؛ إلا الهرب والاختفاء ؛ متنكرين في الصحراء وجبل نفوسة؛ انتظارا وطمعا في عفو السلطان؛ الذي عفا عنهما فيما بعد.

---

[1] قال أبو زكرياء واصفا ما جرى في باغاي: ((وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاتة؛ يقال لهم بنو يليان؛ على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة — فكان بينهم وبين (بدنة) [أو يدبة] ضغائن ودحول [أي مخادعات] وثارات — فلما التحم القتال؛ تنحت بنو يليان، وانحازوا إلى ناحية، وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلفت لهم لتستولي على أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيائهم؛ وجعلوا في أنفسهم الهزيمة؛ وانهزم العسكر)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 217. وقد أورد القصة الدرجيني بأسلوب واضح ومفصل، أنظر طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 129 — 130.

وبهذا القدر من المعلومات – حول دور العصبية القبلية في تشييد دول الخوارج، وتحريك كياناتهم الثائرة ببلاد المغرب والأندلس – يمكن إنهاء هذا الفصل؛ على أن يتبعه – لاحقا – فصل آخر، يعالج موضوع نشأة الدول العلوية بتأثير العصبية القبلية بهذه الديار أيضا.

****

الـــدول العلـويــة

المقصــــود بالــــدول العلويـــة هي تلـــك الـــدول الـــتي أنشأهـــا أحفـــاد عـــلي بـــن أبي طالـــب كـــرم اللـــه وجهـــه، أو المنتسبـــون إليـــه مـــن أهـــل الشيعـــة. وقـــد يحـــدث أن تكـــون الدولـــة علويـــة النســـب؛ ولكنهـــا سنيـــة المذهـــب. وهـــذا هـــو الخـــط الفاصـــل بينهـــا وبيـــن الدولـــة الشيعيـــة؛ ذات المذهـــب المخالـــف للمذاهـــب السنيـــة؛ في الجوانـــب الكلاميـــة والفقهيـــة. أمـــا الجانـــب السيـــاسي؛ الـــذي ينـــص عـــلى وجـــوب إسنـــاد الإمامـــة إلى عائلـــة عـــلي بـــن أبي طالـــب كـــرم اللـــه وجهـــه؛ فهـــو متفـــق عليـــه؛ بيـــن أنصـــار النموذجيـــن مـــن هـــذه الـــدول. ولا يدخـــل في هـــذا المجـــال الـــدول الشيعيـــة الـــتي يحكمهـــا أمـــراء مـــن غيـــر العلوييـــن؛ مثـــل: بـــني زيـــري أمـــراء إفريقيـــة والمغـــرب، وبـــني أبي الحسيـــن أمـــراء صقليـــة.

بـــدأت الخلافـــات السياسيـــة تظهـــر، وتنمـــو بيـــن المسلميـــن؛ منـــذ اليـــوم الأول لوفـــاة رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم. وكـــان منطلقهـــا؛ اختلافهـــم في اختيـــار خليفـــة لـــه. فأهـــل يثـــرب قالـــوا بأنهـــم أجـــدر النـــاس بمنصـــب الخلافـــة؛ لكونهـــم أنصـــار محمـــد عليـــه الصـــلاة والســـلام. ولكـــن المهاجريـــن تصـــدوا لهـــم؛ وأعطـــوا لأنفسهـــم الحـــق في الخلافـــة؛ كونهـــم أهـــل رســـول اللـــه، وأسبـــق الخلـــق إسلامـــا.

ولمــا توصــل الطرفــان إلى الاتفــاق؛ عــلى أن تكــون الخلافــة في قريــش؛ ظهــر فريــق ثالــث ينــادي بأحقيــة عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه بمنصــب الخلافــة؛ نظــرا لكونــه ابــن عــم الرســول، وزوج ابنتــه فاطمــة، ووالــد الحســن والحسيــن. ثــم شرعــت كــل جماعــة في نشــر آرائهــا خفيــة وجهــارا. وانجــر عــن ذلــك كلــه حــدوث بعــض الفتــن بيــن المسلميــن؛ بــدءا بالفتنــة الــتي قتــل خلالهــا عثمــان بــن عفــان رضي اللــه عنــه؛ ثــم الفتــن الداميــة الأخــرى؛ المشتعلــة بيــن عــلي بــن أبي طالــب وخصومــه؛ في وقعــة الجمــل، ووقعــة صفيــن وغيرهمــا.

وبعــد تمــام الغلبــة للأموييــن؛ لــم يستسلــم العلويــون، ولا شيعتهــم؛ بــل ظلــوا في صــف المعارضــة؛ حــتى سقــوط الدولــة الأمويــة؛ تحــت ضربــات الهاشمييــن، وحلفائهــم. ولكــن خلافــا جديــدا ظهــر بيــن أهــل البيــت؛ وذلــك عندمــا استبــد بنــو العبــاس بالسلطــة، وانفــردوا بهــا دون بقيــة الهاشمييــن؛ مــن أبنــاء عــلى بــن أبي طالــب. وعليــه فقــد ثــار ــ نتيجــة لذلــك ــ العلويــون وشيعتهــم ــ مــرات عديــدة ــ بسبــب إحساسهــم بالظلــم والغبــن.[1]

---

[1] وقــد فســر ابــن خلــدون هــذا الأمــر في مقدمتــه؛ طبقــا لنظــريتــه عــن العصبيــة؛ فقــال: ((وكــان أمــر بــني أميــة نافــذا في جميــع العــرب؛ بعصبيــة بــني عبــد منــاف... ثــم تلاشــت عصبيــة بــني أميــة؛ بمــا أصابهــم مــن التــرف؛ فانقرضــوا. وجــاء بنــو العبــاس؛ فغضــوا أعِنــَّة بــني هاشــم، وقتلــوا الطالبييــن، وشردوهــم؛ فانحلــت عصبيــة عبــد منــاف وتلاشــت، وتجاســر العــرب عليهــم؛ فاستبــد عليهــم

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب ــ من شتات وتشرد في الآفاق ــ أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت ــ بإصرار أصحابها، وبصبرهم ــ مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

****

أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعانًا للعصبية التي لهم، وأمنًا أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة المقدمة، ج: 2، ص: 865.

1)ـ الدولة الإدريسية:

نشأت الدولة الإدريسية بواسطة إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي كرم الله وجهه.[1] وذلك سنة 172هـ (788م) ببلدة وليلي في المغرب الأقصى؛ حيث تم ذلك في حماية قبيلة أوربة البرنسية. ولما كان إدريس من أهل النصاب الملكي؛ فقد انقادت إليه هذه القبيلة الأمازيغية بسهولة ويسر؛ وذلك حينما قبل أعضاؤها بتوليه الحكم فيهم؛ ملكا وإماما. وقد تعزز انقيادهم وتحقق قبولهم به نظرا لأنه حفيد لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وهكذا تحقق ـ أيضا ـ ما قرره ابن خلدون؛ من أنه يحدث لأهل النصاب الملكي؛ أن يقيم أحدهم دولة؛ بفضل عصبية أخرى؛ غريبة عنه؛ فتغنيه عن الحاجة إلى عصبيته الخاصة.[2] وهكذا.. فقيام الدولة الإدريسية ببلاد المغرب جاء ـ إذن ـ كنتيجة طبيعية لما وصلت إليه عصبية بني هاشم

---

[1] أنظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص: 49.

[2] وذلك بقوله: ((لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية، وابتعدوا عن مقر الخلافة، وسَمَوْا إلى طلبها من أيدي بني العباس؛ بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف. لبني أمية أولا، ثم لبني هاشم؛ من بعدهم. فخرجوا بقاصية المغرب، ودَعَوْا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة؛ مرة بعد أخرى؛ فأوربة، ومغيلة؛ للأدارسة. وكتامة، وصنهاجة، وهوارة؛ للعبيديين. فشيدوا دولهم، ومهدوا بعصائبهم أمرهم. واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله، ثم إفريقية)). المقدمة، ج: 2، ص: 635.

المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهنِ والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر ــ هنا ــ بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون ــ في تلك الجهات ــ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بمؤازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث ــ بالفعل ــ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ــ رضهم ــ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ــ في خلافة الرشيد ــ وهبط على الأمان، ثم سُم ومات. وأما إدريس ففر إلى المغرب؛ ودخل إليه ــ في أيامه ــ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة 170هـ؛ واستوطن وليلي ــ وكانت أزلية ــ

ــ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ــ عندما نزل عليهم ــ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[1] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه لهذا المذهب.[2] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر من: زناتة وزواغة ولواتة ولماية وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود،

وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[1] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب إليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو أن ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين أشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2، ص: 8.

[2] المغرب، ص: 118.

وبايعته طوعا؛ على السمع والطاعة؛ اعترافا منها بفضله ونبله، وتبركا بنسبه الشريف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أنها وجدت فيه عاملا هاما؛ يساعدها في كبح أطماع ولاة القيروان.

هذا ولم يبق إدريس في موقف المنتظر بعد إعلان البيعة له؛ بل نهض إلى الغزو والجهاد بمجرد إحساسه باكتمال قوته. فزحف على بقايا اليهود والنصارى والوثنيين؛ في: قندلاوة وبهلوانة وفازاز وتامسنا وشالة وتادلة. ولما أخضع تلك الديار بقبائلها؛ اتجه شرقا؛ حيث فتح تلمسان صلحا؛ بعد أن خرج إليه محمد بن خزر بن صولات المغراوي؛ طالبا الأمان، ومقدما بيعته، وبيعة أعيان قبيله، ووجوه تلمسان.[1]

وهكذا أصبحت الدولة الإدريسية قوة يحسب حسابها. فأحس الخليفة العباسي ــ هارون الرشيد ــ بالخطر الذي يمثله إدريس؛ بوجوده على رأس تلك الدولة النائية؛ والتي تزداد قوة وثراء كلما مر الزمن. كما تشتد صلابة وحصانة مع مرور الأيام؛ بفضل تلك القبائل الأمازيغية الملتفة حولها، والحارسة على أمنها وأمن عدوه. ولما شعر بهول الموقف؛ قرر من فوره اللجوء إلى الأسلوب المتاح لديه؛ والأكثر أمانا له ولجيوشه. ويتمثل ذلك الأسلوب في الخديعة والاغتيال.

---

[1] **الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 7 ــ 8. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ــ 192. والعبر، مج: 4، ص: 24.**

لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ـ منذ أيام الدولة الأموية ـ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ـ بمعاونة مساعديه ـ قصد وضع خطة لقتل إدريس ابن عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان بن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الأنس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ـ عن نفسه وعن الخليفة ـ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: "إنما جيتك وحملت

وتـــم ــ بالفعــل ــ مـــا خطـــط لـــه يحـــيى بـــن خالـــد؛ إذ قـــام حريـــز الجـــزري هـــذا ــ بفضـــل مـــا كـــان يتمتـــع بـــه مـــن دهـــاء ومكـــر ــ بتنفيـــذ الخطـــة بدقـــة

نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ــ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ــ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ــ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ــ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان بن حريز؛ فركب في طلبه ــ في جماعة من أصحابه ــ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: 120 ــ 121. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: 8 ــ 10. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 192 ــ 194.

ودهاء؛ حيث سافر إلى أقصى المغرب؛ ومثل أمام إديس في وليلي؛ مقدما نفسه كنصير للعلويين، ومظهرا تشيعه لأهل البيت. ولما كان إدريس ـ كما تقول بعض المصادر ـ يعرف عنه بعض الأخبار التي تفيد بأنه زيدي المذهب؛ فقد سهل أمر اقترابه منه؛ دون حذر أو شك فيه. وبذلك تمكن من اغتيال إدريس بن عبد الله؛ بعد أن كسب ثقته التامة. إذ يقال أنه ناوله سما؛ زعم أنه دواء ناجع لألم الأسنان. وربما يكون ما قدمه إليه هي زجاجة من الطيب المسموم؛ كما جاء في رواية ثانية. وثمة أيضا أقوال كثيرة أخرى لا تهم هنا. والخلاصة هي أن وفاة إدريس الأول حدثت بوليلي سنة 175هـ (791م)؛ بعد أن حكم الدولة ثلاثة أعوام ونصف. ولما مات إدريس؛ نصب رؤساء القبائل الفاعلة في الدولة راشدا وصيا على العرش. في انتظار اليوم الذي تلد فيه زوجة إدريس التي كانت حاملا آنئذ؛ حيث سيعرف عندئذ جنس المولود المنتظر؛ وعندها يقررون مصير الدولة بصفة نهائية.[1]

---

[1] في هذا يقول ابن زرع: ((لم يكن لإدريس ـ حين وفاته ـ ولد؛ إلا وليدة تركها حبلى. ـ قال عبد الملك بن محمود الوراق ـ في كتاب المقباس ـ والبكري، والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة: " أن الإمام إدريس بن عبد الله ـ لما توفي ـ لم يترك ولدا مولودا؛ إلا أنه ترك جارية له ـ مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة ـ حاملا منه؛ في الشهر السابع من حملها. فجمع راشد رؤساء القبائل، ووجوه الناس ـ بعد فراغه

ـ حكومة إدريس الثاني:

هذا ولم يحقق هارون الرشيد هدفه الأساسي؛ على الرغم من كل ما حشده؛ من تحرشات ومؤامرات؛ بغرض القضاء على الدولة الإدريسية، والإطاحة بها؛ خاصة بعد مقتل أميرها ومؤسسها إدريس بن عبد الله. إذ أنها تمكنت من البقاء والاستمرار في الوجود؛ خاصة بعد ميلاد ولي العهد الذي سمي ــ أيضا ــ إدريسا؛ تيمنا بأبيه وإحياء لذكراه. بل ظهر ــ كذلك ــ أن هذه الدولة تعزز شأنها، وشاع ذكرها، وقوي ملكها، واستفحل أمرها في عهد إدريس بن إدريس؛ خاصة عندما أضحى عاهل الدولة ــ هذه المرة ــ يجمع بين عصبيتين: الهاشمية والأمازيغية. إذ أصبح له فضل أبيه؛ بنسبه الشريف، إلى جانب ما له من لحمة وانتساب للأمازيغ؛ بحكم نسب أمه؛ التي ينسبها بعضهم إلى قبيلة نفزة البترية؛ أو قبيلة أوربة البرنسية كما يرى آخرون. هذا وقد سهر الوصي على إدريس

من دفن إدريس ـ فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولدا؛ إلا حملا بجاريته كنزة؛ وهي في الشهر السابع من حملها؛ فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها؛ فإن كان ذكرا ربيناه؛ فإذا بلغ مبلغ الرجال؛ بايعناه تبركا بأهل البيت، وذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإن كانت جارية؛ نظرتم لأنفسكم من ترونه أهلا لذلك. فقالوا له: " أيها الشيخ المبارك؛ مالنا رأي إلا ما رأيت؛ فإنك عندنا عوض من إدريس... حتى تضع هذه الجارية)). الأنيس المطرب، ص: 10. أنظر أيضا: المغرب، ص: 122. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 195.

وعلى ملكه – مولاه راشد – في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها – ولاة القيروان – والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائياً ـ بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد ـ شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي ـ أيضا ـ إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا ـ مرة أخرى ـ يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم.

[1] **وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها إلى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:**

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْدِ أَرْدَيْتُ رَاشِداً
وَإِنِّي بِأُخْرَى لابْنِ إِدْرِيسَ رَاصِدُ
تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ
بِمَحْتُومَةٍ قَدْ هَيَّأَتْهَا المَكَايِدُ
وَتَاهَ أَخُو عَكٍّ بِمَهْلَكِ رَاشِدٍ
وَقَدْ كُنْتُ فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ

وعليه فقد توصل ابن الأغلب ـ والي العباسيين على القيروان ـ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ـ بعد فترة سيأتي ذكرها ـ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ـ مع مرور الوقت ـ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[1] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ـ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ـ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب، والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[2]

---

[1] **كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فأنزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الأنيس المطرب، ص: 29.**

[2] **فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ـ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ـ فسر إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر؛ فاعتز بهم؛ لأنه**

غيـــر أن هـــذا السلـــوك أغضـــب شيـــخ قبيلـــة أوربـــة إسحـــاق بـــن محمـــد بـــن عبـــد الحميـــد؛ فطفـــح كيلـــه في هـــذه المـــرة؛ وتململـــت عصبيتـــه؛ خاصـــة أنـــه سبـــق أن استـــاء مـــن تصـــرف إدريـــس الثـــاني؛ بعـــد أن رأى قبيلتـــه وأهـــل عصبيتـــه يفقـــدون ــ يومـــا بعـــد يـــوم ــ مواقعهـــم المتميـــزة؛ وأخـــذت حظوتهـــم السابقـــة في البـــلاط تتـــلاشى.

وذلـــك أنـــه بعـــد اتســـاع نفـــوذ الدولـــة، وانضمـــام قبائـــل أمازيغيـــة عديـــدة (بتريـــة وبرنسيـــة) إليهـــا؛ نـــال بعضهـــم حظـــوة عظيمـــة، وقربـــا ملحوظـــا في بـــلاط الإمـــام إدريـــس. فلـــم يستســـغ شيـــخ أوربـــة هـــذا الأمـــر؛ ولكنـــه سكـــت عـــلى مضـــض. غيـــر أنـــه رأى ــ مـــرة أخـــرى ــ تماديـــا؛ في ذلـــك السلـــوك الـــذي اعتبـــره مجحفـــا ومثيـــرا. فلـــم يتقبـــل مـــا شاهـــده مـــن حظـــوة وعنايـــة تلاقيهمـــا وفـــود العـــرب؛ تلـــك الحظـــوة الـــتي كانـــت في السابـــق موقوفـــة عليـــه، وعـــلى قومـــه لا غيـــر. نظـــرا لكونهـــم أصحـــاب الفضـــل الأول في قيـــام الدولـــة.

كـــان فريـــدا بيـــن البربـــر؛ ليـــس معـــه عـــربي؛ فاستـــوزر عميـــر بـــن مصعـــب الأزدي؛ وكـــان مـــن فرســـان العـــرب وساداتهـــم؛ ولأبيـــه مصعـــب مأثـــرة عظيمـــة بإفريقيـــة والأندلـــس، ومشاهـــد في غـــزو الـــروم كثيـــرة. واستقـــضـــا منهـــم عامـــر بـــن محمـــد ابـــن سعيـــد القيـــسي ــ مـــن قيـــس غيـــلان ــ وكـــان رجـــلا صالحـــا ورعـــا فقيهـــا؛ سمـــع مالكـــا وسفيـــان الثـــوري، وروى عنهـــم[ا] كثيـــرا؛ ثـــم خـــرج إلى الأندلـــس برســـم الجهـــاد؛ ثـــم جـــاز إلى العـــدوة؛ فوفـــد بهـــا عـــلى إدريـــس؛ فيمـــن وفـــد عليـــه مـــن العـــرب)). الأنيـــس المطـــرب، ص: 13.

وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان مصير شيخ أوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان – الثاني في الدولة – لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد – بنفسه – الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[2]

---

[1] **المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.**

[2] **حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية**

وبعد هذا تفاقمت عزلة أوربة، وازداد نفوذها ضعفا وفتورا. حدث ذلك ـ على الخصوص ـ بعد انتقال عاصمة الدولة من وليلي إلى مدينة فاس ـ الحاضرة الجديدة للدولة ـ وهي التي أنشأها إدريس الثاني لهذا الغرض؛ حتى تستوعب القبائل التابعة للدولة جميعها؛ خاصة وأن من القبائل ـ التي التحقت بخدمة الدولة الإدريسية ـ ما يفوق قبيلة أوربة عددا وعدة. فتعزز بهم مركز مدينة فاس، وازدهر العمران بها، وأينعت حضارتها، فغدت مصدر إشعاع حضاري وثقافي عظيم بالمغرب. وقد ساعدها مركزها المتميز، وموقعها الجيد، وثرواتها: المائية والفلاحية والمعدنية؛ على مضاهاة كبريات الحواضر الإسلامية آنئذ.[1]

بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب؛ لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد؛ فيركب صعبا من الأمر)). المقدمة، ج: 2، ص: 664.

[1] أنظر الأنيس المطرب؛ ففيه عرض وافي لمدينة فاس.

وعندمـــا يئـــس الأغالبـــة مـــن تفكيـــك وحـــدة القبائـــل المناصـــرة للأدارســـة؛ وأحســـوا بالعجـــز في القضـــاء عـــلى دولتهـــم؛ تحولـــوا إلى استعمـــال ســـلاح آخـــر؛ وهـــو ســـلاح الإشاعـــة، والحـــرب النفسيـــة؛ إذ عملـــوا عـــلى بـــث الشـــك في انتســـاب إدريـــس الثـــاني إلى الهاشميـــين؛ وذلـــك بنشـــر إشاعـــة مفادهـــا أنـــه ابـــن راشـــد الـــوصي؛ ولكـــن سعيهـــم هـــذا بـــاء بالفشـــل أيضـــا.[1]

هـــذا وتـــوفي إدريـــس بـــن إدريـــس بوليـــلي سنـــة 213هــ (828م) مختنقـــا بحبـــة عنـــب؛ تسربـــت في مجـــرى الهـــواء بحلقومـــه.[2] وأولاد إدريـــس الثـــاني هـــم: إدريـــس، ومحمـــد، وأحمـــد، وعبـــد اللـــه، وعبيـــد اللـــه، وداود،

---

[1] **وممـــا يدخـــل في سيـــاق هـــذه الإشاعـــة الواهيـــة؛ قـــول أحدهـــم؛ ويسمـــى محمـــد بـــن السمهـــري؛ يهجـــو القاســـم بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس أميـــر بصـــرة وطنجـــة ونواحيهمـــا:**

قُـلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيـمِ طَنجَةَ عِـشْ بِهَـا
لاَ يَحْسدَنَّــكَ فِي بِـلاَدِكَ حَاسِـــدُ
مَنَّتْـكَ نَفْسُـكَ أنْ تَكـُونَ خَلِيفـَةً
هَيْهَـاتَ هَـــذا مِــنْ حَدِيثِـكَ بَـارِدُ
لَمَّـا رَأَيْتُـكَ لِلِّئَـامِ مُصَافِيـاً
أيْقَنْـتُ حَقـًّا أنْ جَـدَّكَ رَاشِـــدُ

وفي هـــذا السيـــاق يقـــول ابـــن خلـــدون: ((وعجـــز الأغالبـــة مـــن بعـــد ذلـــك عـــن مدافعـــة هـــؤلاء الأدارســـة؛ ودافعـــوا خلفـــاء بـــني العبـــاس بالمعاذيـــر؛ بالغـــض مـــن إدريـــس، والقـــدح في نسبـــه إلى أبيـــه إدريـــس؛ بمـــا هـــو أوهـــن مـــن خيـــوط العناكـــب)). العبـــر ، مج: 4، ص: 27.

[2] **المغـــرب، ص: 123.**

ويحيى، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم.[1]

ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:

ولما توفي إدريس الثاني خلفه ولده محمد؛ الذي قام بتقسيم مقاطعات الدولة بين اخوته؛ تبعا لوصية جدته كنزة أم إدريس. إذ أبقى لنفسه حاضرة الدولة (مدينة فاس)؛ بينما خص أخاه القاسم بطنجة وبصرة ونواحيهما، أما صنهاجة وغمارة فكانتا من نصيب أخيه عمر، وبلاد هوارة وتسول وتازي لأخيه داود، وأغمات ونفيس والمصامدة ولمطة والسوس الأقصى لعبد الله، وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة ليحيى، وشالة وسلا وأزمور وتامسنا لعيسى، ووليلي وأعمالها لحمزة.[2] أما تلمسان وبعض الجهات من المغرب الأوسط فكانت من نصيب بني عمه سليمان بن

---

[1] الجمهرة، ص: 49. أما البكري وابن أبي زرع فأسقطا اسمي الحسن والحسين؛ وذكرا البقية؛ وكان عددهم اثني عشر ولدا ذكرا هم: محمد وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر. المغرب، ص ص: 123 ـ 124. الأنيس المطرب، ص: 27. وحتى ابن الخطيب ذكر أن عددهم اثنا عشرة؛ ولكنه لم يسمهم. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 202.

[2] أنظر المغرب، ص: 124. والأنيس المطرب، ص: 28. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 202 ـ 205.

والعبر، مج: 4، ص ص: 27 ـ 28.

عبد الله.[1] وقد نتج عن هذا التصرف بعض المشاكل؛ إذ شجع بعض اخوته على المطالبة بالمزيد، ومحاولة الاستبداد بما تحت أيديهم. فأعلنوا العصيان والثورة عليه. عندها نشبت الفتن بينهم؛ غير أن أخاه عمر بقي وفيا له؛ فكلفه بمحاربة إخوانه العصاة؛ فنفذ له أمره؛ ولما حقق له ما أراد؛ جازاه خير الجزاء؛ إذ ضم إليه ولايات اخوته العاصين. وعمر هذا هو جد ملوك بني حمود؛ الذين امتلكوا الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وكانت وفاة عمر في عام 220هـ (835م) ودفن بفاس. فأسند محمد أعمال أخيه عمر لولده علي ابن عمر؛ ولم تطل الحياة بمحمد هو الآخر؛ إذ التحق بأخيه عمر سنة 221هـ. وذكر ابن الخطيب من أولاد محمد بن إدريس ثلاثة هم: علي وإدريس وعبد الله.[2] أضف إليهم الأمير يحيى الذي خلف أخاه عليا فيما بعد.

---

[1] **العبر، مج: 4، ص: 28. غير أن ابن الخطيب يقول أن الذي ولي تلمسان هو حمزة. والراجح أنه أخطأ. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 205.**

[2] **أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 207. يبدو أن هناك أسماء أخرى لم يذكرها ابن الخطيب؛ وإلا فكيف نفسر تولي من يدعى يحيى بن محمد بعد أخيه علي؟**

ـ حكومة ابني محمد: علي ويحيى:

وخلف محمدا ـ بعد وفاته ـ ابنه عليٌّ؛ وكان يلقب بحيدرة؛ تيمنا بجد العلويين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ونسبت المصادر لعلي هذا ـ على الرغم من صغر سنه؛ إذ كان سنة عند توليه تسعة سنوات وأربعة أشهر ـ النباهة والفطنة والذكاء؛ كما يقال أن أيام حكمه مرت في هدوء وسكينة وهناء.[1] ويرجح أن السمعة الحسنة التي أضفيت على عهده؛ ترجع في الأساس إلى سهر القائمين على تسيير دولته؛ من رجال بلاط أبيه. هذا وتولى ـ بعد موته سنة 234هـ (848م) ـ أمر الدولة أخوه يحيى بن محمد.[2] فقام بشئون الدولة على أحسن وجه؛ إذ تجلت عظمة الدولة

---

[1] قال فيه ابن خلدون: ((بعد أن استخلف ولده عليا ـ في مرضه ـ وهو ابن تسع سنين؛ فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعا؛ وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته وطاعته؛ فكانت أيامه خير أيام)). العبر، مج: 4، ص: 29.

[2] هنا يختلف المؤرخون حول من تولى الحكم بعد علي بن محمد. فالبكري وابن الخطيب يقولان بان الذي خلف علي هو ابن أخيه يحيى بن يحيي ابن محمد. أما ابن أبي زرع وابن خلدون فيريان أن الذي تولي الحكم هو يحيى بن محمد نفسه. ومن جهة أخرى فقد تجاهل ابن عذاري تماما ولاية علي بن محمد؛ إذ انتقل مباشرة إلى أخيه يحيى. وبذلك تعتبر الفترة التي تلت موت محمد بن إدريس سنة 221هـ؛ وحتى قيام حكومة يحيى ابن إدريس بن عمر بن إدريس سنة 292هـ شديدة الغموض والإبهام. أنظر: المغرب، ص: 124. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 211. والأنيس المطرب، ص: 29. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. والعبر، 29.

الإدريسية في عهده كما قيل.[1] حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحيى بن محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: ((**وهلك يحيى هذا سنة....**)).[2]

---

[1] **يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ـــ 30.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 30.**

كما أن المصادر كلها خلت المصادر من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة – حسب قولهم – من عهد الدولة الإدريسية.

– حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى ابن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم – بعد ذلك – والد زوجته، وابن عمه عليٌّ بن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

ـ حكومة علي بن عمر بن إدريس:

كان هذا الأمير يحكم بلاد الريف؛ ولما ثار سكان فاس على أميرهم يحيى؛ استدعى أعيان الدولة عليا هذا ليتولى الحكم بفاس؛ فقدم إليها في ظروف غامضة؛ حيث بويع من طرف أهل الحل والعقد. ولم تشر المصادر المتوفرة إلى تاريخ ولايته، ولا تاريخ سقوط حكمه. وكل ما ذكر هو أن الدولة في عهده مرت بمراحل حرجة ـ نتيجة لظروف خارجية وداخلية ـ سادت فيها الاضطرابات والفتن بين الأمير علي وبعض الثوار من الصفرية؛ بقيادة عبد الرزاق الفهري الخارجي؛[1] الذي كان متمركزا بجبال ويلان بمديونة؛ جنوب فاس. فتغلب هذا الثائر الصفري على علي بن عمر، وأخرجه من فاس؛ ثم اضطره للفرار إلى بلاد أوربة. هذا ولم يتمكن عبد الرزاق الصفري من الاستيلاء على عدوة القيروانيين؛ فاكتفى بعدوة الأندلسيين؛[2] حيث بقي فيها إلى أن ظهر الأمير يحيى بن القاسم. وهو كما يظهر من اسمه يتبع الفرع الثالث من أبناء إدريس؛ أي فرع القاسم ابن إدريس.

---

[1] سبق الحديث عنه عند التطرق للأمراء الثائرين من الخوارج؛ في الفصل السابق.

[2] تبقى الفترة الزمنية الفاصلة ما بين موت علي بن محمد؛ وتولي يحيى ابن إدريس بن عمر غامضة وغير واضحة المعالم. والمصادر التاريخية كلها تتخلص من الموضوع بجمل خاطفة لا تفيد.

ـ حكومـــة يحـــيى بـــن القاســـم بـــن إدريـــس:

ولمـــا انهـــزم عـــلي بـــن عمـــر أمـــام عبـــد الـــرزاق الصفـــري؛ ودخـــول هـــذا الأخيـــر عـــدوة الأندلسييـــن؛ أرســـل أهـــل العـــدوة الأخـــرى في طلـــب يحـــيى بـــن القاســـم بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس الملقـــب بالمقـــدام أو العـــدام؛[1] وقـــد تمكـــن هـــذا الأميـــر الحـــازم مـــن استرجـــاع عـــدوة الأندلسييـــن؛ بعـــد أن طـــرد منهـــا الخـــوارج. وشـــدد ـ مـــن هنـــاك ـ الضغـــط عـــلى أولئـــك الثـــوار الصفريـــة، ولاحقهـــم في معاقلهـــم، وكانـــت لـــه معهـــم وقائـــع هامـــة؛ ولكنـــه لـــم يهنـــأ طويـــلا؛ إذ اغتالـــه شخـــص سمتـــه المصـــادر ـ دون توضيـــح يذكـــر ـ بالربيـــع بـــن سليمـــان سنـــة 292هـ (904م). وبموتـــه عـــاد عـــرش الدولـــة إلى أســـرة عمـــر بـــن إدريـــس مـــرة أخـــرى؛ مـــن خـــلال الأميـــر يحـــيى بـــن إدريـــس بـــن عمـــر. وعـــلى الرغـــم مـــن الأحـــداث الكبـــرى الـــتي عرفتهـــا هـــذه الفتـــرة ـ ولـــو كانـــت قصيـــرة ـ فـــإن المصـــادر التاريخيـــة وقفـــت عاجـــزة عـــن تقديـــم شـــيء مهـــم للقـــارئ.

---

[1] يقـــول البكـــري وابـــن الخطيـــب: أنـــه عـــرف باســـم العـــدام، أمـــا ابـــن أبي زرع وابـــن عـــذاري فيسميانـــه العـــوام، أمـــا ابـــن خلـــدون فيسميـــه الصـــرام. ويبـــدو أن الاســـم تعـــرض للتحريـــف.

ـ حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس:

وهكذا رجع الحكم في فاس ـ من جديد ـ إلى أسرة عمر بن إدريس؛ وذلك بعد أن انتصب يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس صاحب الريف على عرش فاس سنة 292هـ (904م). فقام هذا الأمير بأمر الدولة خير قيام.[1] وأعلنت الخطبة بطاعته في بلاد المغرب الأقصى بكاملها. وتعتبر المصادر الأمير يحيى هذا أفضل بني إدريس شأنا، وأوسعهم ملكا، وأهمهم ذكرا، وأعلاهم قدرا، وأزكاهم عدلا؛ نظرا لسعة علمه، وفضل أدبه، وسداد فقهه، وفصاحة لسانه، وصواب حفظه للحديث الشريف.[2] ومع هذا لم يسعفه الحظ

---

[1] وفيه يقول ابن خلدون نقلا عن ابن زرع بتصرف: ((فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا؛ وكان فقيها، عارفا بالحديث؛ ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة. وفي أثناء ذلك كله خلص الملك للشيعة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية، واختطوا المهدية ـ كما نذكره في دولة كتامة ـ ثم طمحوا إلى ملك المغرب؛ وعقدوا لمصالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة؛ فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة؛ وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة، وسائر البرابرة والموالي؛ فالتقوا على مكناسة، وكانت الدبرة على يحيى وقومه؛ ورجع إلى فاس)). العبر، مج: 4، ص: 31. الأنيس المطرب، ص: 48.

[2] كتب البكري: ((قال علي النوفلي: "كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء؛ وكان أبو احمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم؛ وكان ينسخ له عدة الوراقين، وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها؛ فيحسن إلى جميعهم، وينصرفون عنه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة ابن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى إفريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثَرَتْ سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

---

[1] **يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسي بن أبي العافية ـ صاحب تسول وبلاد تازا ـ قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد**

وهكذا ظهر أنه كما قامت الدولة الإدريسية بواسطة عصبية قبيلة أوربة البرنسية؛ شاءت لها الأقدار أن تتفكك، وتنهار بواسطة عصبية قبيلة أخرى منافسة؛ وهي قبيلة مكناسة؛ التي انضمت إلى حلف: كتامة وصنهاجة؛ المسخر لخدمة الدولة الفاطمية. تم ذلك حين أرسل عبيد الله المهدي قائد جيوشه؛ مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي إلى فاس؛ بغرض إخضاعها. فتمكن من الانتصار على الأدارسة ــ كما سبق ذكره ــ حيث انتزع بيعتهم للمهدي سنة 305هـ (917م). ولكن أضاف بعض الأشياء التي أوحت بها إليه عصبيته المكناسية؛ إذ استهوته فكرة تقسيم النفوذ والسلطان ــ في تلك الديار ــ بين الأدارسة وأهل عصبيته الممثلين في قبيلة مكناسة. فبادر ــ من فوره ــ إلى منح شيخ مكناسة ــ موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل بن أبي الضحاك المكناسي ــ

الظهور بالمغرب والاستبداد فيه؛ غمره يحيى بن إدريس الحسني؛ بشرفه وكرمه ودينه وعدله؛ وقطع به على كل ما يريد؛ فكان على قلبه منه حملا ثقيلا. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية؛ وذلك في سنة تسع وثلاث مائة؛ سعى موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده؛ حتى وغر صدره عليه؛ فعزم مصالة على القبض عليه. فلما قرب من مدينة فاس؛ خرج إليه الأمير يحيى بن إدريس ليسلم عليه ــ في قوم من وجوه عسكره ــ فقبض عليهم مصالة؛ وقيد يحيى بالحديد. ودخل مصالة مدينة فاس؛ ويحيى بن إدريس بين يديه مقيدا على جمل؛ فعذبه بأنواع من العذاب؛ حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره. فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا)). الأنيس المطرب، ص ص: 48 ــ 49.

ما طلبه من نفوذ واسع خارج أسوار فاس. وفي المقابل حصر نفوذ الدولة الإدريسية داخل تلك الأسوار. وهنا اشتعل الصراع بين القبيلة الفتية؛ المتطلعة إلى الملك، وبين الدولة التي تسرب إليها الوهن والانحلال. فكان هذا الإجراء ـ المتخذ من طرف مصالة ـ يعتبر بمثابة الضوء الأخضر؛ الذي أطلق يد ابن عمه موسى بن العافية؛ لكي يتحرش بيحيى بن إدريس أمير الأدارسة. وعليه فقد وجد ابن أبي العافية فرصة مواتية لمواصلة استفزازه وتحرشه بالأدارسة. وذلك لأنه لم يقتنع بما حصل عليه من نفوذ وسلطات ورئاسة؛ إذ كان ـ في الحقيقة ـ يطلب مرتبة الملك نفسه؛ ذلك الملك الذي تسعى إليه كل عصبية تحس في ذاتها القدرة على الوصول إليه. فالعصبية المكناسية في هذه الحال ينطبق عليها ما جاء في مقدمة ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1]

---

[1] حيث يقول: ((ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها؛ طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإذا كافأتها، ومانعتها كانوا أقتالا وأنظارا؛ ولكل واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها الدولة. فإن أدركت الدولة في هَرَمِهَا ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجْمَعُ لها. وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل

وهكذا استمر موسى بن العافية في إلحاحه على ابن عمه مصالة؛ حتى حقق له مآربه كلها. حدث ذلك عندما قدم في المرة الثانية إلى غرب البلاد؛ أين قبض على أمير الدولة الإدريسية يحيى بن إدريس؛ في سنة 309هـ (921م)؛ بخديعة دبرها وأحكمها؛ ثم سلط عليه صنوفا من العذاب والإهانة. كما سلبه ذخائره وممتلكاته؛ وبعدها نفاه إلى أصيلا؛ حيث ساءت حاله؛ واشتدت عزلته؛ وتعاظمت حاجته، وازداد فقره؛ فخرج منها إلى الريف في رعاية بني عمه الأدارسة هناك؛ ولكنه قرر بعد ذلك التوجه إلى إفريقية؛ طمعا في استعطاف السلطان الفاطمي؛ فاعترض طريقه موسى ابن العافية؛ وسجنه عنده زهاء عشر سنين، ثم أطلق سراحه؛ فسار إلى المهدية ـ التي كانت آنئذ محاصرة من قبل أبي يزيد صاحب الحمار ـ فمات بها جوعا وكمدا سنة 332هـ (943م).[1] أما فاس فقد ولى مصالة عليها ريحان بن علي الكتامي؛ إلى أن قام عليه أمير آخر من أسرة الأدارسة.

العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها؛ تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها)). المقدمة، ج: 2، ص: 610.

[1] **المغرب، ص: 126. والأنيس المطرب، ص: 49. والعبر، مج: 4، ص: 32.**

ـ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي آخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[1] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاَّه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[2] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِيتُ حَجَّاماً وَلسْتُ بحَاجِمٍ

وَلَكنْ لِضَرْبِي فِي مكانِ المَحَاجِمِ

---

[1] **يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.**

[2] **أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.**

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى بن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد ابن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام.

[1] الأنيس المطرب، ص: **50**. والبيان المغرب، ج: **1**، ص: **213**. والعبر، مج: **4**، ص: **32**.

ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فرّ منه.[1]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد بن حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[2] وذكر ابن حزم من ذرية

---

[1] المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.

[2] رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الأدارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد ابن القاسم ــ أخي الحسن ــ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر

الحسن الحجام: **((القاسم بن محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري)).**[1]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسن الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تُجْدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: **((وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض)).**[2]

ابن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ـــ 33.

[1] الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.

[2] المقدمة، ج: 2، ص: 666.

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ ــ وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع ــ إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن ــ كما سبق ذكره ــ وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص**".[1] وفي النهاية، وبعد مد

---

[1] حيث يقول: ((أما أعمار الدول ــ أيضا ــ وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة ــ في الغالب ــ لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من آية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو ــ في الغالب ــ ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم ــ بالملك والترفه ــ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون

وجــزر؛ خلــص الأمــر إلى سقــوط مــا بــقي مــن قــلاع للصمــود في الدولــة الإدريسيــة؛ تحــت ثقــل الدولــة الأمويــة بالأندلــس سنــة 365هــ (975م). ولكــن كيــف حــدث كــل ذلــك..؟

****

ــ عصــر التفكــك والشتــات:

أخــذت الدولــة الإدريسيــة في التفكــك إلى أجــزاء صغيــرة، وأطــراف منفصلــة؛ اعتبــارا مــن تاريــخ سقــوط حكومــة الحســن الحجــام؛ أي في بدايــة العقــد الثــاني مــن القــرن الرابــع الهجــري ــ حيــث غــدت تشبــه قطــرة مــن زئبــق سقطــت عــلى مسطــح؛ فتفتتــت إلى جزيئــات؛ تناثــرت في كــل الجهــات. ومــع هــذا فقــد بقيــت خلايــا تلــك الدولــة تنبــض بالحيــاة؛ وإن تفككــت

عــلى رجــاء مــن مراجعــة الأحــوال الــتي كانــت للجيــل الأول؛ أو عــلى ظــن مــن وجودهــا فيهــم. وأمــا الجيــل الثالــث فينســون عهــد البــداوة والخشونــة كــأن لــم تكــن، ويفقــدون حــلاوة العــز والعصبيــة؛ بمــا هــم فيــه مــن ملكــة القهــر؛ ويبلــغ فيهــم التــرف غايتــه؛ بمــا تفنقــوه [أي تنعمــوا] مــن النعيــم، وغضــارة [أي النعمــة والسعــة] العيــش؛ فيصيــرون عيــالا عــلى الدولــة؛ ومــن جملــة النســاء والولــدان المحتاجيــن للمدافعــة عنهــم؛ وتسقــط العصبيــة بالجملــة... وهــذه الأجيــال الثلاثــة عمرهــا مائــة سنــة عــلى مــا مــر. ولا تعــدو الــدول ــ في الغالــب ــ هــذا العمــر؛ بتقريــب قبلــه أو بعــده؛ إلا إذا عــرض لهــا عــارض آخــر؛ مــن فقــدان المطالــب؛ فيكــون الهــرم حاصــلا مستوليــا؛ والطالــب لــم يحضرهــا؛ ولــو قــد جــاء الطالــب؛ لمــا وجــد مدافعــا. "فــإذا جــاء أجلهــم لا يستأخــرون ساعــة ولا يستقدمــون" [مــن الآيــة 61 مــن ســورة النحــل])). المقدمــة، ج: 2، ص ص: 655 ـــ 657.

لحمتهـا، وانشطـرت كتلتهـا، وتناثـرت أجـزاء وأطرافـا. وأضحـت عبـارة عـن مجموعـة مـن الكيانـات الـتي تحكـم المـدن.. وإمـارات مجهريـة ذات طابـع قبلـي؛ موزعـة عبـر التـراب المغـربي كلـه؛ وكانـت كلهـا تحـظى بحمايـة ورعايـة عجيبـة مـن طـرف القبائـل المغربيـة المختلفـة. وحـدث ذلـك خاصـة في مناطـق الساحـل الشمـالي للمغـرب، وبـلاد الريـف، وجبـال غمـارة.

غيـر أنـه بـرز مـن بيـن تلـك الإمـارات إمارتـان إدريسيتـان منفصلتـان ومتنافستـان: الأولى إمـارة بـني محمـد بـن القاسـم بـن إدريـس بـن إدريـس؛[1] وكانـت تحـت قيـادة إبراهيـم بـن محمـد بـن القاسـم بـن إدريـس بـن إدريـس. وهـو الـذي بـنى قلعـة منيعـة ليتحصـن فيهـا مـع أسرتـه وبـني عمومتـه؛ وتسـمى حجـر النسـر؛ وذلـك في سنـة 317هـ (929م)؛[2] وكانـت هـذه القلعـة تربـض عـلى ذروة جبـل شاهـق صعـب

---

[1] ذكـر البكـري أنهـم: ((حسـن وجنـون [واسمـه الحقيـقي أحمـد. ومعـنى جنـون بالأمازيغيـة القمـر] وإبراهيـم؛ بنـو محمـد بـن القاسـم. وكـان محمـد متخلفـا في إخوتـه وعشيرتـه؛ لا قـدر لـه؛ ثـم صـارت النباهـة والقـدر لبنيـه. وإبراهيـم بـن محمـد هـو المعـروف بالرهـوني. وكـان الـذي يلـزم صخـرة النسـر منهـم جنـون وحنـون ابنـا إبراهيـم. واسـم جنـون [قنـون] القاسـم [وهـو غيـر جنـون الأول ابـن محمـد بـن القاسـم بـن إدريـس؛ الـذي يسـمى أحمـد])). المغـرب، ص ص: 128 ــ 129. أنظـر أيضـا الجمهـرة، ص: 49.

[2] المغـرب، ص: 127. واضطـرب ابـن خلـدون في هـذا الخبـر؛ حيـث ذكـر ــ مـرة ــ أن بـاني القلعـة هـو إبراهيـم بـن محمـد؛ ــ ومـرة أخـرى ــ قـال أن الـذي بناهـا هـو محمـد بـن إبراهيـم بـن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

المنال؛ في نواحي الريف بجبال غمارة. أما الإمارة الثانية فهي لبني عمر بن إدريس بن إدريس؛ بقيادة أبي العيش[1] بن إدريس بن عمر بن إدريس؛[2] وقامت في جهات تيقيساس (تيكيساز) وسبتة وطنجة من بلاد غمارة. وعلى هذا تكون قبيلة غمارة قد برهنت على أنها من أخلص قبائل المغرب لبني إدريس؛ حيث احتضنوهم، وآووهم في بلادهم، وأخلصوا الطاعة لهم جميعا؛ سواء كانوا من بنى إبراهيم بن محمد بن القاسم، أو من بني عمر بن إدريس.[3]

---

[1] منعا لكل التباس؛ من الواجب التنبيه إلى أن اسم أبي العيش مستعمل في عائلتي الأدارسة وبني سليمان. وثمة عدد من الأشخاص يسمون بهذا الاسم.

[2] يقول البكرى: ((وأما إدريس بن عمر بن إدريس فهو لباب ولد عمر ابن إدريس؛ وبولده تكرر الأمر؛ إلى أن أكثرهم بنو محمد بن القاسم. ومحمد بن إدريس بن عمر هو المعروف بابن ميالة؛ يكنى أبا العيش؛ ولم يزل مواليا للناصر عبد الرحمن رحمه الله... وكان لإدريس بن عمر خمسة من الولد الذكور غير هذين [يقصد أبا العيش محمدا ويحيى الذي تولى الملك بفاس]؛ ولهم عقب كثير)). ثم يضيف: ((وأما أبو العيش بن عبيد الله فولد حمودا ويحيى. فأما يحيى فله بنون بتازغدرا. وأما حمود فولد القاسم وعليا وفاطمة. فأما علي فولي الخلافة بالأندلس سنة سبع وأربعمائة)). المغرب، ص ص: 132 ــ 133.

[3] يقول ابن خلدون في هذا: ((واستولى ابن أبي العافية على فاس، وأعمال المغرب؛ وأجلى الأدارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر؛ وتحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف. وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات؛ واستجدوا بتلك الناحية ملكا؛ توزعوه قطعا. كان أعظمها لبني محمد هؤلاء، ولبني عمر بتيفيساس ونكور وبلاد الريف)). العبر، مج: 6، ص: 448.

غير أن موسى بن أبي العافية لم يكتف بما افتكه من أيدي الأدارسة؛ بل شحن عليهم بسعيه في مطاردتهم عبر البلاد المغربية كلها؛ إذ عمل جاهدا لتصفيتهم نهائيا، وإزالة وجودهم من تلك الديار؛ سواء كان ذلك بالقتل، أو بالنفي الأبدي.[1] حدث ذلك بعد أن تغلب موسى بن أبي العافية على معظم المغرب الأقصى؛ وبعض والأجزاء الغربية من المغرب الأوسط. وطارد الحسنيين في كل مكان؛ حتى أوشك أن يقضي على وجودهم نهائيا من تلك البلاد. ولم يفلت من مخالبه أو يتقي سطوته إلا الذين انحازوا إلى الريف؛ متحصنين بقلعة حجر النسر المنيعة؛ كما سبق قوله. وحتى هؤلاء حاول استئصالهم نهائيا لولا المعارضة التي واجهه بها أصحابه.[2]

---

[1] **وصفت بعض المصادر والمراجع ما أحدثه ابن أبي العافية من مجازر في بلاد المغرب؛ كان الأدارسة من ضحاياها. وقال إسماعيل العربي؛ دون أن يشير إلى مصدره: ((وعقب ذلك؛ بدأ ابن أبي العافية في مطاردة الأدارسة وتقتيلهم جماعات وأفرادا؛ حتى أطلق على نهر فاس اسم النهر الأحمر؛ لغزارة الدماء ــ دماء الأدارسة خصوصا ــ التي سالت فيه)). كتاب دولة الأدارسة، ص: 154.**

[2] **قال في هذا ابن أبي زرع: ((واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب؛ وبايعه القبائل والأشياخ؛ فأجلا جميع الأدارسة من بلادهم، وأخرجهم من ديارهم، وملك مدينة أصيلا، ومدينة شالة وغيرها من بلادهم. وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر؛ مقهورين، مغلوبين؛ فانحصروا بها؛ وهي حصن منيع؛ بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس؛ طلع في عنان السحاب. فنزل عليهم ابن أبي العافية؛ واشتد عليهم الحصار؛ وأراد استيصالهم،**

وذلك أنه لما حاصرهم في قلعتهم، وتمادى في التضييق عليهم قصد استئصالهم نهائيا؛ اعترض عليه أصحابه؛ ومنعوه من تحقيق رغبته في القضاء ـ نهائيا ـ على الأدارسة. فعاد إلى فاس؛ بعد أن ترك حامية تقدر بألف فارس لمراقبتهم والتضييق عليهم. ولما عاد إلى مركز إمارته بفاس؛ طور زحفه نحو إمارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. تلك الإمارة التي كان يقودها الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحسني.[1] وقد كان هذا الأمير ـ في تلك

وقطع دابرهم؛ فعدله على ذلك رؤساء المغرب، وأكابر أهل دولته؛ وقالوا له: "أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين. هذا شيء لا نوافقك عليه، ولا نتركك له"؛ فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس؛ وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي [في المغرب والبيان المغرب سمي أبا قمح] في ألف فارس؛ يمنعهم من التصرف؛ وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة)). الأنيس المطرب: ص: 51. أنظر أيضا المغرب، ص:128. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 214.

[1] وهو من أبناء سليمان؛ كما هو واضح من اسمه؛ وبذلك تكون يد ابن أبي العافية قد امتدت حتى إلى أبناء سليمان. وكان أبو العيش عيسى هو الذي شيد مدينة جراوة. وحول هذا يقول لكري: ((عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ هو الذي بنا جراوة؛ وكان أميرها؛ وبها توفي)). المغرب، ص: 77. ويضيف ابن عذاري: ((أسسها أبو العيش في سنة 257هـ؛ ووليها بعده ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 291هـ؛ وخرج منها إلى حصن المنصورة في سنة 319هـ؛ ثم عاد إليها في سنة 323هـ؛ ثم انتقل منها إلى تلمسان في سنة 325هـ)). ثم يكمل في موضع لاحق: ((فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة؛ وتجمع إليه كثير من قبائل البربر؛ وتغلب على مدينة جراوة؛ وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس

الأثنـــاء ــ داخـــلا في طاعـــة الفاطميـيـــن؛ فحاصـــره ابـــن أبي العافيـــة، وأخرجـــه مـــن تلمســـان، ومـــن جـــراوة في سنـــة 319هـــ (931م)؛ واضطـــره للالتحـــاق بمدينـــة مليلـــة؛ حيـــث تحصـــن بهـــا؛ إلى أن تحيـــن الفرصـــة المواتيـــة. وبعـــد ذلـــك توجـــه ابـــن أبي العافيـــة إلى مدينـــة نكـــور؛ فاحتلهـــا هي الأخـــرى سنـــة 320هـــ (932م). وكـــان في هـــذه الأثنـــاء؛ قـــد نقـــل بيعتـــه مـــن الفاطميـيـــن بإفريقيـــة، إلى عبـــد الرحمـــن الناصـــر لديـــن اللـــه الأمـــوي بالأندلـــس.

وتعتبـــر هـــذه الخطـــوة الـــتي قـــام بهـــا ابـــن أبي العافيـــة هي بدايـــة نهايتـــه؛ إذ أرســـل عبيـــد اللـــه الشيـــعي جيشـــا فاطميـــا ــ في البدايـــة ــ بقيـــادة حميـــد بـــن يصليتـــن أو يصـــلي (عمـــه هـــو مصالـــة). فتمكـــن مـــن طـــرد مـــوسى مـــن فـــاس، وإجبـــاره عـــلى التحصـــن في نـــواحي تســـول. ولمـــا لـــم تكـــن حملـــة يصـــلي حاسمـــة فقـــد جـــرد عبيـــد اللـــه الشيـــعي جيشـــا آخـــر بقيـــادة

العلـــوي. ودارت بينهمـــا محاربـــات ومواقعـــات. وبـــنى الحســـن بـــن أبي العيـــش حصنـــا منيعـــا؛ بجبـــل بينـــه وبيـــن جـــراوة أربعـــة أميـــال؛ وحولـــه قـــرى لمدغـــرة وبـــني يفـــرن وغيرهـــم مـــن القبائـــل. وكـــان لأبي العيـــش أيضـــا وبنيـــه مدينـــة تلمســـان ومـــا والاهـــا؛ يسكنهـــا مثـــل زواغـــة ونفـــزة وغيـــر ذلـــك. وفي ذلـــك يقـــول بكـــر بـــن حمـــاد [كامـــل]:

سَائِـــلْ زُواغَـــة عن طعان سُيوفِـــه ... وَرماحـــه في العَـــارِضِ المُتَهَلِـــل
وديـــار نَفـــزة كَيـــفَ دَاسَ حَرِيمَهـــا ... والخيـــلُ تمـــرغ في الوشيج الذبَّـــل
وغـــشَّى مَغيلـــة بالسيـــوف مُذِلـــةً ... وسقىَ جَـــراوة من نَقِيـــع الحنظـــل)).

وجـــراوة في البيـــت الأخيـــر؛ تعـــني القبيلـــة؛ وليســـت المدينـــة. أنظـــر البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 ــ 200.

ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك ــ على الأخص ــ انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس ــ بفرعيهم ــ حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس.

---

[1] **اختلفت الأقوال ــ أيضا ــ حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، وآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.**

فكانــوا بذلــك يترصــدون الأحــداث، ويتربصــون حلــول الفــرص المناسبــة ــ مــن تلــك المواقــع المنيعــة ــ للانقضــاض عــلى أعدائهــم. وقــد اضطــروا أحيانــا؛ إلى عقــد أحــلاف، وعهــود مــع خصومهــم السابقيــن؛ مــن أجــل تحقيــق أهدافهــم الأساسيــة؛ الــتي تتمثــل: في القضــاء عــلى عدوهــم الرئيــسي مــوسى بــن أبي العافيــة؛ ثــم العــودة إلى فــاس؛ الأمــر الــذي يحقــق لهــم تطهيــر أراضيهــم بعــد ذلــك نهائيــا مــن الدخــلاء والمحتليــن؛ ســواء كانــوا مــن الفاطمييــن الشيعــة، أم مــن الأموييــن.[1]

وبالفعــل فقــد سارعــوا إلى عقــد حلــف مــع الفاطمييــن ــ وإن كــان ذلــك لبعــض الوقــت ــ حينمــا كانــت جيــوش الشيعــة تطــارد مــوسى بــن أبي العافيــة؛ الأمــر الــذي مكنهــم مــن استرجــاع معظــم أملاكهــم بالمغــرب.[2] كمــا سعــوا إلى مصانعــة، الأموييــن

---

[1] كانــوا ينــاورون بيــن الأموييــن والفاطمييــن. أنظــر: المغــرب، ص ص: 128 ــ 134. وروض القرطــاس، ص ص: 53 ــ 59. والعبــر، مج: 6، ص ص: 448 ــ 454.

[2] وممــا قالــه عنهــم البكــري: ((ثــم قــدم ميســور الفــتى إلى المغــرب في سنــة ثــلاث وعشريــن وثــلاث مايــة... حاصــر مــوسى بــن أبي العافيــة؛ وتــولى معاظــم تلــك الحــروب بنــو إدريــس؛ حــتى جــلى مــوسى بــن أبي العافيــة إلى الصحــراء؛ وصــار مــا كــان بيــده إلى آل إدريــس؛ والرياســة منهــم في بــني محمــد بــن القاســم بــن إدريــس بــن إدريــس؛ وهــم: حســن وجنــون [كنــون] وإبراهيــم؛ بنــو محمــد بــن القاســم؛ وكــان محمــد متخلفــا في اخوتــه وعشيرتــه؛ لا قــدر لــه؛ ثــم صــارت النباهــة والقــدر لبنيــه؛ وإبراهيــم بــن محمــد هــو المعــروف بالرهــوني. وكــان الــذي يلــزم صخــرة النســر منهــم جنــون [كنــون] وحنــون ابنــا إبراهيــم؛ واســم جنــون [كنــون] القاســم... وكــان أعــلى بــني محمــد كلهــم أيــدا أبــو العيــش بــن جنــون [كنــون] بــن محمــد؛ وكــان لــه مــن البلــد مــا بيــن أجاجــن؛ وهــو بقــبلي حجــر

بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ــ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ــ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولمّ شملهم. غير أن ذلك ــ كما يبدو ــ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[1]

النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرَّ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128ــ 130.

[1] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع بأخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد. دولة الأدارسة، ص ص: 156 ــ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نأمن سلطان بني عمنا ــ بني محمد ــ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبعته، والكراهية لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل

وهكذا فما أن خلصوا من أطماع موسى بن أبي العافية والشيعة؛ حتى تورطوا في أطماع أخرى أشد وأكثر شراهة ونفاذا؛ تلك هي أطماع عبد الرحمن الناصر حاكم الأندلس؛ الذي وضع كل ما في حوزته من قوة ودهاء؛ لكي يمنع وصول الفاطميين إلى حدود مملكته. إذ أن خوفه من امتداد نفوذ الفاطميين الأقوياء إلى حدود دولته الجنوبية؛ في الطرف المقابل من العدوة؛ ألزمه وحتم عليه العمل الجاد؛ لكي يحول بين الفاطميين وبين تحقيق أهدافهم البعيدة المدى. تلك الأهداف التي ترمي إلى الانفراد بالخلافة الإسلامية غربا وشرقا؛ بحكم أنهم يرون في أنفسهم أحق الناس بها؛ لأنهم من أبناء فاطمة الزهراء؛ التي تجعلهم خير من يمثل أهل البيت.

إليه، والاعتراف بحقه)). دولة الأدارسة، ص: 158. هذه حال بني إدريس؛ بعد أن غزت الشيخوخة دولتهم، وبعد فساد عصبيتهم. وعليه فقد وجد الخليفة الأموي الأرضية صالحة لاكتساح بلادهم وضم أراضيهم وأملاكهم إليه.

وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ــ بعد ذلك ــ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ــ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ــ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ــ بسهولة ــ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ــ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ــ فإن ابنه الحكم

تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

---

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: المغرب، ص ص: 115 ــ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ــ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: 210 ــ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ــ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ــ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ــ في الأيام الأخيرة ــ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم؛ أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر؛ فانجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الأمر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الأدارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم

ـ حكومة أبي العيش أحمد بن القاسم (قنون):

وبهذا العرض يتضح أن الدولة الإدريسية الأولى بفاس؛ قد انقطعت في حدود سنة 311هـ (923م) تقريبا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الزمنية التي كان فيها الأدارسة يناضلون من أجل استعادة دولتهم؛ وذلك انطلاقا من مواقعهم المنيعة في بلاد الريف وغمارة؛ تكون دولة الأدارسة الثانية قد أخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه من قبل؛ حيث تقلص نفوذ أصحابها؛ بل أضحوا تابعين لغيرهم. كما اتخذت الدولة الإدريسية الجديدة عاصمة أخرى لها غير مدينة فاس. وقد تم ذلك ـ في البداية ـ بقلعة صخرة النسر؛ وأخيرا بمدينة البصرة.[1] إذ بدأت ـ في تلك النواحي ـ تتبلور صورة دولتهم الجديدة؛ تلك الدولة التي برز فيها

تغلب عليهم المروانيون، وأثخنوهم إلى الأندلس ثم أجازوهم إلى الإسكندرية. وبعث العزيز العبيدي ابن كنون منهم لطلب ملكهم بالمغرب؛ فغلبه عليه المنصور بن أبي عامر، وقتله. وعليه كان انقراض أمرهم، وانقراض سلطان أوربة من المغرب. وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة؛ فكانوا الدائلين من ملوك الأموية بالأندلس. وذلك أن الأدارسة لما انقرض سلطانهم؛ صاروا إلى بلاد غمارة، واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس؛ وكانت للبربر إليهم ـ بسبب ذلك ـ طاعة، وخاصة. وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ حين أجازوا في مظاهرة المستعين. ثم غلبوه ـ بعد ذلك ـ على الأمر، وصار لهم ملك الأندلس)).العبر، مج: 4، ص ص: 33 ـ 34.

[1] هذا طبعا بالنسبة إلى فرع القاسم بن إدريس؛ لأنهم هم الذين يمثلون صمود الأسرة الإدريسية.

الحسن بن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ـ بمساعدة الفاطميين ـ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا ـ بعد أن خلف والده ـ إلى قطع الدعوة عن

---

[1] تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.

[2] أنظر المغرب، ص ص: 127 ـ 128.

الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش – في الوهلة الأولى – بذلك الشطط والغلو الذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع – في الأخير – نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيميين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه – في حقيقة الأمر – لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع – بعد مدة – أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد

المغــرب؛ وانقيــاد القبائــل الأمازيغيــة إليــه؛ بعــث إليــه يستأذنــه في الانتقــال إلى الأندلــس بهــدف الجهــاد في الثغــور. فلــبى عبــد الرحمــن طلبــه؛ مبديــا فرحــه وســروره.[1] وتقــول المصــادر أن حيــاة أبي العيــش انتهــت باستشهــاده في ميــدان الجهــاد بالأندلــس سنــة 347هـــ (958م).[2] وكــان أبــو العيــش قــد استخلــف في أعمالــه ــ عنــد مسيــره للأندلــس ــ أخــاه الحســن بــن قنــون (كنــون). وهــذا الأخيــر هــو صاحــب الدولــة الإدريسيــة الثانيــة بالبصــرة وفــاس. كمــا يعتبــر آخــر ملــوك هــذه الدولــة في المغــرب الأقــصى. وهنــا لا بــد مــن عــرض الكيفيــة الــتي وقعــت بهــا تلــك الأحــداث.

---

[1] **يقــول في هــذا ابــن أبي زرع: ((فلمــا رأى أبــو العيــش غلبــة الناصــر عــلى بــلاد العــدوة؛ كتــب إليــه ــ إلى قرطبــة ــ يستأذنــه في الجهــاد؛ فــأذن لــه؛ وأمــر أن يبــنى لــه في كــل منــزل ينزلــه قصــرا؛ مــن الجزيــرة الخضــراء إلى الثغــر؛ وأن يجــرى لــه فيــه ألــف دينــار في كــل يــوم ضيافــة؛ ومــن الفــرش والأثــاث والطعــام والشــراب مــا يقــوم بالقصــر. فلــم يــزل في ذلــك حــتى وصــل إلى الثغــر. فكانــت منازلــه في رحلتــه مــن الجزيــرة ثلاثيــن منــزلا)). الأنيــس المطــرب، ص: 54. أنظــر أيضــا المغــرب، ص: 120. وأعمــال الأعــلام، ق: 3، ص ص: 218 ـــ 219.**

[2] **اختلفــت الأقــوال حــول تاريــخ وفاتــه؛ فابــن أبي زرع وابــن خلــدون يقــولان أنهــا حدثــت في سنــة 343هــ؛ بينمــا يــرى ابــن الخطيــب أنهــا وقعــت في سنــة 346هــ؛ بينمــا يخــطئ البكــري حيــن يقــول أنهــا حصلــت في سنــة 332هــ. أمــا إسماعيــل العــربي فيجــزم بأنهــا حدثــت في سنــة347هــ. الأنيــس المطــرب، ص: 54. وأعمــال الأعــلام؛ ق: 3، ص: 219. والعبــر، مج: 6، ص: 450. ودولــة الأدارســة، ص: 179.**

ـ **حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:**

فلما تولى الحسن بن قنون شئون الحكم؛ بعد أخيه أبي العيش ظل ـ في بداية عهده ـ محافظا على المواثيق المتفق عليها مع الدولة الأموية؛ إذ واصل إعلان الدعوة لخلفائها. ولكنه اضطر إلى تغيير موقفه المعلن ـ على ما يبدو أو تظاهر بذلك ـ عند قدوم الجيش الفاطمي من إفريقية سنة 348هـ (959م)؛ بقيادة جوهر الصقلي ـ إذ لم يكن أمامه سوى مسايرة مقتضى الحال؛ حيث أنه بتغير الأوضاع؛ تغيرت مواقف الحسن بن قنون كذلك. وعليه فقد بادر حالا إلى نقل ولائه من الأمير الأموي إلى الخليفة الفاطمي؛ لأنه ـ كما يبدو ـ رأى في الفاطميين مزايا؛ لم يجدها لدى الأمويين؛ إذ يبدو أنه اعتقد أنهم الأقوى عددا وعدة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رأى أن مصلحته تقتضي التعامل مع دولة بعيدة ـ جغرافيا ـ عنه؛ أفضل من التعامل مع دولة قوية وقريبة من أرضه؛ لأن هذه الميزة تمكنه من الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه ـ من مخرج ـ سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم ـ طبعا ـ بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ تتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري ابن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة ـ على جميع بلاد المغرب ـ لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن بن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ـ بعد هذا ـ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ـ كما يبدو ـ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ـ تماما ـ بمملكته في الأندلس. غير أنه ـ كما يبدو ـ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ـ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ـ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م).

صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ـ محمد بن القاسم ـ في جيش كثيف إلى قتال الحسن بن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ــ بعد ذلك ــ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

ــ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ــ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ــ آنئذ ــ إذ لا تسند إليه ــ في العادة ــ إلا المهمات الصعبة

---

[1] المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: 96.

والخطيــرة. ووصفــه ابــن خلــدون بقولــه: ((**البعيــد الصيــت، المعــروف بالشهامــة**)).[1]

ـ ثانيـا: إعـداد خطـة محكمـة لقتـال الحسـن بـن قنـون. لأنـه مـن خـلال تجربـة الوقائـع الأولى؛ ثبـت عـدم صلاحيـة الخطـط المتبعـة فيهـا؛ بسبـب مـا شابهـا مـن ارتجـال واستخفـاف بالعـدو. لذلـك فقـد أخـذ الخليفـة الحكـم بعـض الوقـت لنفسـه؛ بهـدف التفكيـر والتشـاور وضبـط الخطـة القتاليـة الـتي ستتبـع؛ قبـل أن يغامـر مـرة أخـرى. وحـتى قواتـه الـتي مازالـت متمركـزة في بـلاد العـدوة؛ فقـد أرسـل لهـم أمـرا باجتنـاب الاشتبـاك مـع قـوات حسـن بـن قنـون؛ وأن ينتظـروا الأوامـر الجديـدة.[2] ولمـا كـان الحسـن بـن قنـون قـد اعتمـد حـرب الكـر والفـر؛ الـتي تعـرف الآن بحـرب العصابـات؛ فقـد كـان علـى المستنصـر ومعاونيـه أن يبلـوروا خطـة عسكريـة فعالـة؛ حـتى يتمكنـوا مـن كسـر عنفـوان وشـدة الهجمـات؛ الـتي اعتـاد الحسـن بـن قنـون شنهـا علـى حيـن غـرة.

---

[1] العبـر، مج: 6، ص: 451. أمـا ابـن أبي زرع فيقـول: ((فبعـث إليهـم قائـد عسكره وصاحـب حروبـه غالبـا مـولاه. وكـان غالـب علـى غايـة مـن الحـزم والنجـدة والدهـاء والإقـدام)). الأنيـس المطـرب، ص: 57.

[2] في هـذا يقـول ابـن حيـان: ((فتضمـن الجـواب إليهـم [أي جـواب الخليفـة المستنصـر إلى قـواده في بـر العـدوة] أن الـرأي؛ تـرك الحركـة إليـه [أي إلى الحسـن] والتعـرض لحربـه؛ حـتى يلحـق بهـم الوزيـر القائـد الأعـلى غالـب بالقـوة إن شـاء اللـه)). المقتبـس في أخبـار بلـد الأندلـس؛ تحقيـق: عبـد الرحمـن علـي الحـجي، ص: 103.

ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة. لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ــ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ــ هذه المرة ــ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير ــ لهذه الحملة ــ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد

---

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن الأسطـــول ـــ بجيشـــه ـــ متجهـــا إلى طنجـــة.[1] ومـــع ذلـــك لـــم يتوقـــف مـــدد المستنصـــر لجيـــش غالـــب بالعساكـــر والمـــال والعتـــاد الحـــربي؛ بـــل استمـــر ذلـــك الخليفـــة الحـــازم في إرســـال التعزيـــزات وراء التعزيـــزات؛ دون تحفـــظ أو تـــردد.[2]

---

[1] قـــال ابـــن حيـــان: ((وفي جمـــادى الآخـــرة احتـــل الوزيـــر القائـــد الأعـــلى غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن بمحلـــة فحـــص الســـرادق ـــ شـــرقي قرطبـــة ـــ مستـــدعىً مـــن مـــولاه الخليفـــة الحكـــم؛ مهيبـــا بـــه لحـــرب الغـــوي حســـن بـــن قنـــون؛ المنـــازع لـــه عملـــه بـــأرض العـــدوة؛ عندمـــا تفاقـــم أمـــره، وأعيـــا مراســـه، وأثخـــن في قتـــل الجنـــد، وانتحـــل ولايـــة الـــدعي الشيـــعي معـــد. فاضطـــرب غالـــب بمحلتـــه تلـــك ـــ يومئـــذ ـــ في يوميـــن في الدَّهـــم [أي العـــدد الكثيـــر] الذيـــن أمـــر باستنفارهـــم؛ مـــن حشـــد الثغـــر الأعـــلى إلى مـــن استنهضهـــم مـــن جيـــش السلطـــان لديـــه؛ ثـــم تقـــدم بهـــم في اليـــوم الثالـــث إلى الزهـــراء وطـــن الخليفـــة مـــولاه؛ مشتقـــا قرطبـــة؛ واجتهـــر أهلهـــا مـــن احتفـــال جيشـــه، واكتمـــال عـــدده واطـــراد ترتيبـــه مـــا امتـــلأت بـــه قلوبهـــم فرحـــا،= =وشمخـــت لـــه أنوفهـــم عـــزا. وأقـــام بقرطبـــة أيامـــا؛ اتصـــل فيهـــا عمـــل السلطـــان ورجالـــه في تجهيـــزه، وإزاحـــة عللـــه، وتقويـــة أيـــده؛ إلى أن بلـــغ منـــه مـــا ارتضـــاه؛ ففصـــل عنـــد ذلـــك في جموعـــه يـــوم الثلاثـــاء لتســـع خلـــون مـــن رجـــب منهـــا)). ((وفي هـــذا الوقـــت [أي شهـــر رمضـــان] ورد الخبـــر بركـــوب الوزيـــر القائـــد الأعـــلى غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن البحـــر في الأسطـــول؛ مـــن مدينـــة الجزيـــرة؛ فرضـــة المجـــاز إلى بلـــد الأندلـــس؛ بعـــد طـــول مقامـــه فيهـــا؛ بعـــد أن استكمـــل أهبتـــه فيهـــا؛ وقـــدم إجـــازة الأجنـــاد والخيـــل والأثقـــال وآلات الحـــروب؛ فتوافـــت إلى هنـــاك كاملـــة؛ وإن ركوبـــه مـــن الجزيـــرة كـــان في يـــوم الأحـــد لاحـــدى عشـــرة ليلـــة خلـــت مـــن شهـــر رمضـــان منهـــا؛ وأقلـــع رافعـــا إلى جهـــة طنجـــة مـــن أرض العـــدوة)). المقتبـــس في أخبـــار بلـــد الأندلـــس، ص ص: 102. 115.

[2] وهاتـــان عينتـــان لذلـــك: ((وورد كتـــاب صاحـــب الشرطـــة وقائـــد البحـــر عبـــد الرحمـــن بـــن رماحـــس؛ يذكـــر حركتـــه بالأسطـــول إلى أصيـــلا؛ لمـــا في القـــرب مـــن الوزيـــر القائـــد الأعـــلى واجتمـــاع الأسطوليـــن مـــن صـــواب التدبيـــر، والأخـــذ بالحـــزم... وأرسلـــت إليـــه [إلى غالـــب] كـــسي فخمـــة، وســـرج وألجـــم محـــلاة؛ ففضهـــا فيمـــن

ـ رابعا: تخصيص أكبر قدر من الأموال؛ لصرفها على جيش الخلافة، أو الاستعانة بها في حملة واسعة؛ قررت لاستمالة وكسب ولاء القبائل الأمازيغية المتعاطفة مع الحسن بن قنون. ومن يتصفح كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان؛ سيلاحظ ـ بلا شك ـ ما كان يبعث به المستنصر ـ بدون تحفظ ـ من أموال ضخمة وتحف ثمينة، وعتاد حربي، إلى غالب بن عبد الرحمن؛ لكي يعزز بها قوته العسكرية، ويستميل بها القبائل المناصرة للحسن بن قنون.[1]

جاءه من الرؤساء)). المقتبس، 116. ((فلما كان يوم الإثنين لسبع منه [من ذي القعدة] خرج الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم من قرطبة؛ نافذا إلى العدوة؛ خروجا ظاهرا؛ بين يديه التعبئة الكاملة، والترتيب المنظوم؛ وخرج بخروجه اخوته المتقدمة تسميتهم، وبنو عمه التجيبيون؛ في عسكر ضخم؛ ممن ضم إليه من طبقات الأجناد؛ وفيهم قطع من العبيد الرماة، ومن الرماة الأحرار، وغيرهم من جند المملكة؛ راق إبصارهم النظارة؛ فاحتل يومه ذلك على نهر شوش. وخرج بخروجه الخازن أحمد بن محمد بن حاجب؛ وبين يديه ستة عشر حملا من المال العين، وعدة أحمال من الكسي الفخمة، والسيوف الحالية المرسلة إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن لفضها فيمن يستأمن إليه من أكابر البرابرة)). المقتبس، ص129.

[1] أنظر المقتبس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

ـ خامساً: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[1]

ـ سادساً: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن بن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[2]

---

[1] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ـ أهلكه الله ـ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: **97**. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن بن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزَّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فانملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر المتقرب، وبما ينوي؛ فأزعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ـ من فارس وراجل ـ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: **140**.

[2] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى،

أمـــا الجانـــب الإعـــلامي فقـــد تـــولاه ــ في غالـــب الأحيـــان ــ الشعـــراء، وأئمـــة المساجـــد. ويتجـــلى ذلـــك مـــن خـــلال القصائـــد الكثيـــرة الـــتي قيلـــت في المناسبـــات كلهـــا، وكانـــت مليئـــة بالهجـــاء والسخريـــة مـــن الحســـن ابـــن قنـــون.[1] كمـــا أن إضافـــة كلمـــة (ملحـــد) إلى اســـم الحســـن ــ كلمـــا ذكـــر ــ يـــدل عـــلى مـــا كـــان يستهدفـــه أعـــداءه مـــن بـــث الكراهيـــة لـــه بيـــن عامـــة النـــاس.

وهكـــذا فقـــد حظيـــت هـــذه الحملـــة الحربيـــة المنظمـــة بنجـــاح كبيـــر؛ إذ حققـــت أهدافهـــا المسطـــرة لهـــا. وتمكـــن غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن مـــن عـــزل الحســـن بـــن قنـــون، وشـــل حركتـــه نهائيـــا؛ ممـــا اضطـــره إلى الإذعـــان والاستســـلام والقبـــول بشـــروط الأمويـيـــن. وعليـــه فقـــد سلـــم نفســـه في سنـــة 363هـــ (973م).[2] حيـــث تـــم نقلـــه ــ

البديعـــة الصنعـــة؛ الـــتي أمـــر باتخاذهـــا لـــه عـــلى حـــدِّه، ووصفـــه كيمـــا يرفعـــه وســـط محلتـــه، ويكـــون نزولـــه وقعـــوده فيهـــا؛ إسمـــاء لقـــدره، ورغمـــا لقلـــب عـــدوه؛ وكانـــت غريبـــة الابتـــداع، عجيبـــة الاختـــراع، لهـــا منظـــر رائـــق، ومـــرأى فائـــق؛ جـــرى في اتخاذهـــا كـــلام كثيـــر)). المقتبـــس ص: 116.

[1] يدخـــل في هـــذا السيـــاق مـــا ذكـــره ابـــن حيـــان عـــن طلـــب غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن مـــن الخليفـــة المستنصـــر إمـــداده بالشاعـــر محمـــد بـــن حسيـــن التميـــمي المعـــروف بالطبـــني؛ لـــكي يستعيـــن بـــه في حربـــه الإعلاميـــة ضـــد عـــدوه. وبالفعـــل لم يتردد الخليفـــة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. أنظر المقتبس، ص ص: 108 ــ 109.

[2] قـــال ابـــن أبي زرع: ((وأخـــرج غالـــب الأمـــوال؛ فبعـــث بهـــا إلى رؤســـاء البربـــر الذيـــن مـــع الحســـن بـــن كنـــون؛ ووعدهـــم، وأمنهـــم؛ ففـــروا عـــن الحســـن وأسلمـــوه؛ حـــتى لـــم يبـــق معـــه إلا خاصتـــه ورجالـــه؛ فلمـــا رأى ذلـــك ســـار إلى حصـــن حجـــر النســـر؛ فتحصـــن فيـــه؛ وأتبعـــه غالـــب فحاصـــره بـــه، ونـــزل بجميـــع جيوشـــه عليـــه، وقطـــع عنـــه المـــواد؛ وأمـــده الحكـــم بالعـــرب الذيـــن ببـــلاد الأندلـــس كافـــة، ورجـــال الثغـــور؛ فوصـــل المـــدد إلى غالـــب غـــرة محـــرم سنـــة ثـــلاث وستيـــن وثلاثمائـــة؛

مـــع أهلـــه وحاشيتـــه ــ إلى قرطبـــة؛ أيـــن بـــقي فيهـــا إلى سنـــة 365هــ (975م)؛ سنـــة إجلائـــه ــ مـــع أهلـــه أيضـــا ــ إلى مصـــر؛ نظـــرا لمـــا حـــدث بينـــه وبيـــن المستنصـــر مـــن جفـــاء؛ بسبـــب قطعـــة مـــن العنبـــر؛ رفـــض الحســـن بـــن قنـــون التنـــازل عنهـــا للحكـــم؛ الـــذي يقـــال أنهـــا أعجبتـــه وطمـــع فيهـــا. فكـــان رد فعـــل المستنصـــر عنيفـــا؛ إذ استـــولى عليهـــا وعـــلى أمـــوال الحســـن وأهلـــه بالقـــوة؛ ثـــم أجلاهـــم جميعـــا إلى مصـــر.[1]

فاشتـد الحصـار عـلى الحسـن بـن كنـون؛ فطلـب مـن غالـب الأمـان عـلى نفسـه وأهلـه ومالـه ورجالـه؛ وينـزل إليـه؛ فيسيـر معـه إلى قرطبـة؛ فيكـون بهـا؛ فأجابـه غالـب إلى ذلـك، وعاهـده عليـه. فنـزل الحسـن بأهلـه ومالـه ورجالـه؛ وأسلـم الحصـن إلى غالـب فملكـه؛ واستنـزل غالـب جميـع العلوييـن الذيـن بـأرض العـدوة مـن معاقلهـم، وأخرجهـم عـن أوطانهـم؛ ولـم يتـرك في العـدوة رئيسـا منهـم)). الأنيـس المطـرب، ص: 57.

[1] يقـول ابـن أبي زرع: ((وكـان لـه [أي الحسـن بـن قنـون] قطعـة عنبـر غريبـة الشكـل، كثيـرة الجـرم؛ ظفـر بهـا في بعـض سواحلـه مـن بـلاد العـدوة أيـام ملكـه بهـا؛ فسواهـا منشـورة يتوسـد بهـا؛ فبلـغ أميـر المؤمنيـن الحكـم خبرهـا؛ فسألـه حملهـا إليـه، وضمهـا إلى ذخائـره؛ عـلى أن يرضيـه عنهـا بحكمـه؛ فامتنـع مـن ذلـك، وأبى أن يسلمهـا إليـه؛ فنكبـه عليهـا؛ وأخـذ أموالـه، وسلبـه مـن جميعهـا، وأخـذ القطعـة؛ فبقيـت في خزائنـه إلى أن ظهـر عـلي بـن حمـود الحسـني ــ عـلى ملـك الأندلـس ــ ودخـل قرطبـة، وسكـن القصـر، وظفـر ببـني أميـة؛ فأصـاب تلـك العنبـرة متـاع ابـن عمـه الحسـن في الخزانـة؛ قـد أعفتهـا الأيـام؛ حـتى صـارت إلى أيـدي العلويـة أربابهـا. ولمـا نكـب الحكـم الحسـن بـن كنـون، وأخـذ أموالـه؛ أمـر بـه وبالعلويـة؛ فأخرجوهـم عـن قرطبـة، وأجلاهـم إلى المشـرق؛ فجـازوا مـن المريـة إلى تونـس؛ ليستريـح مـن نفقاتهـم؛ وذلـك في سنـة خمـس وستيـن وثلاثمائـة؛ فسـار الحسـن وبنـو عمـه إلى مصـر؛ فنزلـوا عـلى نـزار بـن معـد؛ وبالـغ في إكرامهـم، ووعـد للحسـن النصـرة)). الأنيـس المطـرب، ص: **58**.

ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه ـ كما يقال ـ أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

ـ حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) ـ مع توصية ـ إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر ـ حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ـ سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون.

ولم يقف الحاجب المنصور عند هذا الحد؛ بل أرسل أيضا ولده عبد الملك في جيش كثيف أيضا؛ بهدف دعم المجهود الحربي، وتعزيز صفوف الوزير عمر. ولما تكاثرت الجيوش على الحسن بن قنون؛ وضاقت به السبل؛ طلب من الوزير عمر الأمان؛ على أن يذهب إلى الأندلس؛ ولما أعلم المنصور بذلك؛ تظاهر بالمصادقة على الأمان الذي أعطاه الوزير عمر؛ وطلب منه الإسراع بإرسال الحسن إلى قرطبة. وفي طريقه إليها بعث من اغتاله؛ في جمادى الأولى من سنة 375هـ(985م). وبذلك طويت صفحة الدولة الإدريسية المستقلة نهائيا ببلاد المغرب؛ على أنها ظهرت في ثوب جديد ببلاد الأندلس؛ بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي حال مقابلة الدولة الإدريسية بالدولة الفاطمية؛ سيتجلى ضعف الدولة الإدريسية، وقصورها، وانكماش نفوذها. ويرجع ذلك إلى عجزها عن تحقيق بعض الشروط؛ التي تمكنت الدولة الفاطمية من تحقيقها. أهمها: قوة العصبية، وكثرة الأتباع، وفعالية الدعوة الدينية. فعصبية الأدارسة كانت ضعيفة أمام عصبية الفاطميين. وأتباع الأدارسة أيضا قليلون. كما أنهم يفتقرون إلى دعاة أكفاء، وتعاليم مذهبية تشكل قاعدة فكرية، ذات شحنات نفسية؛ تنمي الحماس وتشحذ الهمم؛ في سبيل تحقيق أهداف الدولة. فالدولة تحتاج ـ لتعزيز

قوتهــا ــ إلى قــدرة نافــذة، وتحكــم دقيــق في سيــر سياســة الدعــوة والدعــاة. فبفضــل ذلــك توفــر الدولــة الأنصــار الأوفيــاء، وتحقــق التزامهــم المستميــت بأهدافهــا، وتفانيهــم في خدمتهــا وحمايــة مؤسساتهــا. وهــذه العوامــل كلهــا توفــرت للفاطمييــن؛ وافتقــر إليهــا الأدارســة؛ وبذلــك عظمــت دولــة الأوليــن؛ بــل امتــد نفوذهــا حــتى شمــل الأدارســة أنفسهــم.

* * * *

ــ الحضــارة والنشــاط الثقــافي:

أمــا إنجــازات الدولــة الإدريسيــة: العمرانيــة منهــا والثقافيــة؛ فيبــدو أنهــا كانــت بالمغــرب ــ هي الأخــرى ــ قاصــرة ومحــدودة أمــام إنجــازات الدولــة الفاطميــة. إذ أن أبــرز أعمــال الأدارســة تتجــلى في مدينــة فــاس؛ تلــك المدينــة الــتي أضحــت ــ في عهدهــم ــ مركــزا هامــا؛ يستقطــب نشاطــات عديــدة منهــا: مــا هــو عمــراني، ومــا هــو ثقــافي؛ بالإضافــة إلى الــدور الاقتصــادي الهــام؛ الــذي أضحــت تتميــز بــه مدينــة فــاس في تلــك الربــوع.[1] وقــد تضمنــت الكتــب التاليــة: ــ المغــرب

---

[1] يقــول ابــن خلــدون واصفــا عهــد الأميــر يحــيى بــن محمــد بــن إدريــس في فــاس: ((وعظمــت دولتــه، وحسنــت آثــار أيامــه، واستجــدت فــاس في العمــران، وبنيــت بهــا الحمامــات، والفنــادق للتجــار، وبنيــت الأربــاض، ورحــل إليهــا النــاس مــن الثغــور القاصيــة. واتفــق أن نزلتهــا امــرأة مــن أهــل القيــروان تســمى أم البنيــن؛ بنــت محمــد الفهــري ــ وقــال ابــن أبي زرع اسمهــا فاطمــة، وأنهــا مــن

للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ودولة الأدارسة لإسماعيل العربي، ـ معلومات لا بأس بها؛ تخص الإنجازات العمرانية ـ الدينية منها والثقافية ـ التي تمت في عهد الأدارسة بفاس. ويظهر أن تحولا كبيرا حدث في المظهر الحضاري والثقافي لهذه الدولة؛ بدءا بتوافد عدد من المهاجرين العرب؛ ذوي الثقافة الرفيعة، والصناعة المحكمة، والإبداع والابتكار غير المسبوقين في تلك البلاد؛ قدم أولئك العلماء والمثقفون والفقهاء من القيروان، ومن قرطبة بعد حادثة الربض فيها. حيث تمركز القيروانيون

هوارة ـ وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير؛ فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين؛ أصغر ما كان سنة خمس وأربعين [ومائتين]؛ في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئراً شراباً للناس؛ فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها؛ ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس؛ لضيق محلته، وجوار بيته)). العبر، مج: 4، ص: 29. ومما قاله أيضا ابن أبي زرع عن فاس: ((وهي قاعدة بلاد المغرب، وقطرها ومركزها، وقطبها؛ وهي ملك الأدارسة الحسنيين؛ الذين اختطوها... وبها منازل مونقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة)). ((وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة؛ وأكثرهم ينتحل الحراث والفلاحة؛ وأهل عدوة القرويين أهل رفاهة، ونخوة في البناء، واللباس، والفرش والمطعم، والمشرب؛ وأكثرهم صناع وتجار)). ((فأقامت مدينتيْ فاس [عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين] على ما بناه [أي إدريس] طول مدته، وأيام ولده من بعده؛ إلى أيام زناتة؛ فكثرت العمارات بها، وبنيت الأرباض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة؛ فبنيت بها الفناديق، والحمامات، والأرحا، والمساجد والأسواق؛ من باب إفريقية إلى عين إيصيلن)). الأنيس المطرب، ص ص: 15 ـ 16. 23. 25.

في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا ـ آنئذ ـ بالعدوتين؛ هما المسجدان الذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيروانيين في سنة 245هـ(859م)؛ أي في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ ـ أيضا ـ أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما ـ قبل ذلك العهد ـ إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين ـ الذي بنته فاطمة الفهرية ـ أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول ـ مع الأيام ـ إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

وما يمكن الاستشهاد به من نصوص أدبية؛ ترجع إلى الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الإدريسية؛ ليس بالشيء الكثير؛ من حيث الكيف والكم. من ذلك ـ مثلا ـ ما ورد في بعض المصادر من نصوص شعرية ونثرية نسبت إلى الملوك الأدارسة؛ وإلى الأدباء المقيمين أو الوافدين إلى بلاط الدولة الإدريسية. فهذا ـ على سبيل المثال ـ نص قصير جدا من خطبة قالها إدريس الأول عندما بويع بالإمامة؛ قال فيها: **((بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا؛ فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا))**.[1] أما إدريس بن إدريس؛ فيختلف حاله بعض الشيء؛ إذ وصلت إلينا بعض النصوص المنسوبة إليه؛ فإن صح ذلك؛ فذاك شاهد على مكانته الشخصية في ميدان الأدب؛ وإن لم تصح نسبتها إليه فهي بدون شك تعطي صورة لما كان عليه بلاط الدولة الإدريسية في هذا المجال. ومن خلال تلك النصوص يمكن تحديد فكرة ـ ولو متواضعة ـ على المستوى الأدبي لهذا الملك من جهة، والمستوى الذي كان عليه الأدباء في تلك الدولة أو القادمين إليها من جهات أخرى.

[1] العبر، مج: 4، ص: 24.

ومـــن الشعـــر المنســـوب إلى إدريـــس الثـــاني هـــذه المقاطـــع:[1]

لَوْ مَـــالَ صَبَري بصَبَرِ الناسِ كُلِّهُــمُ
لَضَلَّ في رَوْعَتِي أوْ ضَلَّ في جَزَعِي
وَمَـــا أرِيـــعُ إلـَــى يَـــأسٍ لِيسْليــنِي
ألا [..........] يَـــأس إلى طمــــعِ
وكَيفَ يَصبْـــرُ مَطْــوِيٌّ هَضَائِمَـــهُ
عَلى وَسْــوَاسِ هَـــمٍّ غَيـــر مُنقطِـــعِ
إذا الهُمُـــومُ توَافَـــتْ بَعْـــدَ هَجْعَتِـــهِ
كَـــرَّتْ عَلَيهِ بِكأسٍ مُـــرَّة الجُـــرَعِ
بَـــانَ الأحِبـــة واستَبْدَلْـــت بُعْدَهُـــمُ
هَماً مُقِيمـــاً وَشَمْـــلاً غَـــيْرَ مُجْتَمِـــعِ
كَأنِّي حِيـــنَ يُجـــرِي الهَـــمُّ ذِكرَهُـــمُ
عَلى ضَمِيرِي مَخْبُـــولٌ مِنَ الفَـــزَعِ

[1] قـد يشـك بعضهـم في صحـة إسنـاد هـذه النصـوص إلى إدريـس؛ غيـر أن المهـم هنـا هـو تقديـم عينـة مـن النصـوص الأدبيـة الـتي قيلـت في ذلـك الوقـت؛ ولا يهـم ـ في هـذه الحـال ـ إن كـان قائلهـا هـو إدريـس نفسـه، أو قيلـت نيابـة عنـه؛ مـن طـرف أدبـاء كانـوا في بـلاط دولتـه.

تأوِي هُمــومِي إذْ حَرَّكــت ذِكرَهــمُ

إلَى جَوَانِــحِ جسْــمٍ دَائِــمِ الوَلَــعِ

كمـا بعـث بأبيـات ـ نسبتهـا المصـادر إليـه ـ محـذرا شيـخ قبيلـة مطغـرة بهلـول بـن عبـد الواحـد مـن مغبـة انسياقـه في المؤامـرة الـتي يحـوك خيوطهـا إبراهيـم بـن الأغلـب؛ فقـال:

أَبَهْلُـولُ قدْ شَمَّمْتَ نفسَـكَ خُطَـة

تبَدَّلـتَ مِنهَـا ضَلَـة برَشَـادِ

أضَلَـكَ إبرَاهِيـمُ مِـنْ بعْـدِ دَارِهِ

فأصْبَحْـتَ مُنقـاداً بغيـرِ قِيَـادِ

كَأنكَ لمْ تَسْمَـعْ بِمَكـرِ ابْنِ أغلـبٍ

وَقدْمـاً رَمَى بالكيـدِ كـلَّ بـلاَدِ

وَمِنْ دُونِ مَا مَنتـكَ نفسُـكَ خَاليـاً

وَمَنـاكَ إبرَاهيـمُ شـوْكَ قتـادِ

وثمـة أبيـات أخـرى نسبـت إليـه أيضـا؛ وهي موجهـة إلى ابـن الأغلـب؛ يقـول فيهـا:

أذَكـرُ إبْرَاهِيـمَ حـقَّ مُحَمَّـدٍ

وَعِترَتِـهِ وَالحَـقٌّ خيْـرَ مَقـولِ

وَأَدْعوهُ لِلأمْــرِ الذِي فِيهِ رُشْــدُهُ
وَمَــا هوَ لــوْلاَ رَأيــهُ بِجهــولِ
فــإنْ آثــرَ الدُّنيــا فــإِنَّ أمامَــهُ
زَلاَزِلُ يــوْمٍ لِلعقــابِ طوِيــلِ

وممـا نسـب إليـه مـن نثـر؛ هـذه الخطبـة الـتي ألقاهـا يـوم بيعتـه في سنـة 188هـ (803هـ)؛ وجـاء فيهـا: ((**الحمـد اللـه، أحمـده وأستغفـره، وأستعيـن بـه، وأتوكـل عليـه، وأعـوذ بـه مـن شـرّ نفـسي، ومـن شـر كـل ذي شـر، وأشهـد أن لا إلـه إلا اللـه، وأنّ محمـداً عبـده ورسولـه المبعـوث إلى الثقليـن بشيـراً ونذيـراً، وداعيـا إلى اللـه بإذنـه، وسراجـا منيـرا، صـلى اللـه عليـه وعـلى آل بيتـه الطاهريـن الذيـن أذهـب اللـه عنهـم الرجـس، وطهرهـم تطهيـراً. أيهـا النـاس: إنـا قـد ولِّينـا هـذا الأمـر الـذي يضاعـف فيـه للمحسـن الأجـر، وعـلى المسـيء الـوزر، ونحـن والحمـد للـه عـلى قصـد جميـل، فـلا تمـدوا الأعنـاق إلى غيرنـا، فـإن الـذي تطلبونـه مـن إقامـة الحـق إنمـا تجدونـه عندنـا**)).[1]

[1] الأدب المغـربي، ص ص: 121 ـ 122. وكمـا يظهـر فقـد اقتبـس هـذه العبـارة الأخيـرة مـن خطبـة أبيـه. راجـع مـا سبـق.

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم بن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأتـرُكُ لِلرَاغِـبِ الغرْبَ نَهبـاً
وَإنْ كنتُ فِي الغَرْبِ قيـلاً وَندْبـا
وَأسْمـو إلَى الشـرقِ فِي هِمـةٍ
يعِـزٌّ بهـا رُتبـاً مَـنْ أحَبَّـا
وَأتـرُكُ عِيـسَى عَـلَى رَأيـهِ
يُعَالـجُ فِي الغـرْبِ هَمًّا وَكرْبـا
وَلـوْ كـانَ قلـبِي عَـن قلبـهِ
لكنـتُ لـهُ فِي القرَابـةِ قلبَـا
وَإنْ أحـدَثَ الدَّهـرُ مِـنْ رَيبـهِ
شِقاقـاً عَليْنـا وَأحـدَثَ حَرْبـا
فـإنِّي أرَى البُعْـدَ سِتـراً لنـا
يُجَـدِّدُ شَوقـاً لدَينـا وَحبـا
وَلـمْ نَجْـنِ قطعـاً لأرْحامنـا
نـلاَقِي بـهِ آخِـرَ الدَّهـرِ عَتبَـا

وَتبْــقَى العَــدَاوَة فِي عَقبنـــــا

وَأكـــرِمْ بـــهِ حِينَ نعْقِــبُ عَقبَـــا

وَأوفــقُ مِنْ ذَاكَ جَـــوْبُ الفـــلاَةِ

وَقطـــعِ المَخارِمِ نقبـــاَ فنقبَـــــا

هـذا عـن ملـوك وأمـراء الدولـة الإدريسيـة؛ أمـا الأدبـاء والشعـراء مـن عامـة النـاس؛ فالمعلومـات عنهـم ـ هي الأخـرى ـ شحيحـة للغايـة؛ ومـع هـذا يمكـن الاستشهـاد ببعـض العينـات المتناثـرة في عـدد مـن المصـادر والمراجـع. وكمثـال عـلى ذلـك يـأتي: أحمـد ابـن القاسـم بـن إدريـس وأبـو العيـش عيـسى بـن إبراهيـم بـن القاسـم بـن إدريـس أميـرا البَصْـرة (أو كـرت كمـا تسـمى أيضـا) في مقدمـة الذيـن يهتمـون بـالأدب والشعـر؛ إذ كانـا يستقبـلان في مجالسهمـا الشعـراء مـن كـل الأقطـار؛ ويقصدهمـا الشعـراء والأدبـاء مـن ربـوع المغـرب والأندلـس كلهـا؛ حيـث كانـوا يتوافـدون إلى مجالسهمـا الثريـة الزاهيـة. ويفهـم مـن بعـض المصـادر أن بكـر بـن حمـاد الزنـاتي التاهـرتي كـان يراسـل أحمـد بـن القاسـم ـ إن لـم يكـن قـد زاره في بلاطـه ببصـرة ـ ويمدحـه بقصائـد كثيـرة؛ لـم يصلنـا منهـا إلا هـذه القطعـة الـتي يقـول فيهـا:

إنَّ السَّمَاحــة وَالمُــرُوءَة وَالنــدَى

جُمِعــوا لأحْمَــدَ مِنْ بَنِي القاسِــمِ

وَإذَا تفاخــرَتِ القبَائِــلُ وَانتمَــت

فَافخــرْ بِفضــلِ مُحمَّــدٍ وَبِفَاطِــمِ

وَبِجَعْفــرِ الطيــارِ فِي دُرَجِ العُــلَى

وَعَلِيٍّ العَضبِ الحُسَــامِ الصــارِمِ

إنِّي لمشتـــاقٌ إليـــكَ وَإنمَـــا

يَسموا العقــابُ إذَا سَمَــا بِقــوَادِمِ

فابعــثْ إلَيَّ بِمركــبٍ أسْمــو بــهِ

عَــلي أكــونُ عليــكَ أوَّلَ قــادِمِ

وَاعْلَــمْ بِأنــكَ لــنْ تنــالَ مَحبــة

إلاَّ ببعــضِ ملاَبــسٍ وَدَرَاهـــمِ

وقــال ابــن عــذاري هنــا: ((**فبعــث إليــه ببغلــة سنيــة، وصلــة جزلــة. وكــان لــه فيــه أمــداح كثيــرة**)).[1] ويفهــم مــن البيتيــن الأخيريــن أنــه ربمــا يكــون زار بــلاط أحمــد بــن القاســم. ومــن بيــن الشعــراء الذيــن وفــدوا عــلى أبي العيــش عيــسى الشاعــر التاهــرتي أحمــد بــن الفتــح؛ حيــث مدحــه بقصيــدة استهلهــا

[1] البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 236

ــ كعــادة العــرب ــ بالنسيــب ووصــف جمــال نســاء البصــرة؛ فقــال:

قبَّــحَ الإلــهُ اللهْــوَ إلاَّ قيْنــةٌ

بصْرِيّــة فِي حمْــرَةٍ وَبيــاضِ[1]

الخمْــرُ فِي لَحَظاتِهَــا وَالوَرْدُ فِي

وَجَنَاتِهَــا، وَالكشْحُ غيْرُ مُفــاضِ

فِي شَكلِ مَرْجِى، وَنسْــكِ مُهَاجِــرِ

وَعفــافُ سُنِيّ وَسَمْــتِ إبــاضِ

تاهــرْتُ أنــتِ خليَّــة وَبرِيــة

عَوَضْتُ مِنكِ ببَصْــرَة فاعْتــاضِ

لاَ عُــذرَ لِلحَمَرَاءِ فِي كلــفِي بِهَــا[2]

أوْ تَسْتفِيــضَ بِأبحُــرٍ وَحيــاضِ

مَا عُذرُها وَالبَحْرُ عيــسَى رَبهَــا

مَلِكُ المُلوكِ وَرَايــضُ الــرُّوَاضِ

---

[1] جــاء هــذا البيــت في الأدب المغــربي هكــذا:

مَا حَــازَ كُلُّ الحُسْــنِ إلاَّ قَيْنَــةَ بِصْرِيَّة في حُمْرَةٍ وَبيَــاضِ، ص: **109**.

[2] الحمــراء هنــا هــي بصــرة؛ إتســمى بهــذا الاســم أيضــا، كمــا تســمى بصــرة الكتــاب، وبصــرة الذبــان. المغــرب، ص: **110**.

وهـذا مقطـع قالـه شاعـر آخـر عـاش في القـرن الرابـع الهجـري اسمـه إبراهيـم بـن محمـد الأصيـلي؛ وهـو في مـدح حيّ مـن هـوارة يعـرف ببـني زيـاد؛ كانـوا ساكنيـن حـول مدينـة أصيـلا:

سَقَى غـرْبِيَّ أرْضِ بَـنِي زِيَـادٍ
سَحَائِـبُ مَا يَجـفُّ لهَـا غـرُوبُ
وَلاَ زَالَ النعِيـمُ يَعُـمُّ قوْمـاً
إزَاؤُهـمْ مِـنَ الشـرقِ الكثِيـبُ

ومـن شعـراء ذلـك الزمـن الشاعـر محمـد بـن إسحـاق المعـروف بالبجيـلي أو النحيـلي؛ وهـو القائـل في عـدوة القروييـن بفـاس:

يا عـدْوَة القرَوِييـنَ التِي كرِّمـتْ
لاَزَالَ جانِبُكِ المَحْبُـورِ مَسْطـورَا
وَلاَ سَرَى اللـهُ عنكِ ثوْبَ نِعْمتِـهِ
أرْضٌ تَجنبَـتِ الآثـامَ وَالـزُّورَا

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمَّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها القاسم جنون ابن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أتـــرَى سِلاَحك إذْ كدَدْتَ قَصِيـــدَتِي
يَنفِيهِ سَيْلٌ قـــدْ طمَـــا مِـــنْ سَفسَـــدِ

إلى قولـــه:

أبَـــنِي مُحَمَّـــدَ الزَّنيـــمِ لأنتـــمُ
شَـــرُّ الورَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيغتـــدِ
إنْ كانَ جَنـــونُ مِنْ آلِ محَمَـــدٍ
فأنـــا كفـــورٌ بِالنـــبِيِّ محَمَـــدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخلتُ فاســـاً وَلِي شَوقٌ إلَى فـــاسِ
وَالجُبْـــنُ يَأخـــذُ بِالعَيْنينِ وَالـــرَّأسِ
فلَسْـــتُ أدْخلُ فاساً لوْ حبيتُ وَلَـــوْ
أعطِيـــتُ فاساً بمَا فِيهَا مِنَ النـــاسِ

ومـمـــن هجـــا فاســـا ــ في ذلـــك الزمـــن أيضـــا ــ قـــاضي تاهـــرت أحمـــد بـــن فتـــح بقولـــه:

أسْلَـــخْ عَلى كلِّ فاسِيٍّ مَـــرَرْتَ بـــهِ

فِي العُدْوَتيْـــنِ مَعاً لاَ تبقِيـــنَ أحَـــدَا

قومٌ غـــذُّوُا اللـــؤْمَ حَتَّى قالَ قائِلِهـــمْ

مَنْ لاَ يكونُ لئيمـــاً لمْ يَعِـــشْ رَغَـــدَا

ومـــن الشعـــراء الذيـــن عاشـــوا في تلـــك الفتـــرة أيضـــا محمـــد بـــن السمهـــري الـــذي هجـــا القاســـم بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس صاحـــب طنجـــة بقولـــه:

قـــُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَةَ عِشْ بهَـــا

لاَ يَحْسدَنـــكَ فِي بـــلاَدِكَ حَاسِـــدُ

مَنتـــكَ نَفْســـُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفـــَة

هَيْهـــاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِـــكَ بَـــارِدُ

لَمـــا رَأَيْتـــكَ لِلئـــامِ مُصَافِيـــاً

أيْقَنـــتُ حَقـــا أنْ جَـــدَّكَ رَاشِـــدُ

****

2)ـ دولــة بــني حمــود بقرطبــة:

تعتبــر هــذه الدولــة بمثابــة امتــداد وتواصــل للدولــة الإدريسيــة في بــلاد المغــرب. وقيامهــا في بــلاد الأندلــس حــدث نتيجــة لتحــول ساحــة الصــراع بيــن الأدارســة والأمويــين إلى أرض الأندلــس؛ بسبــب مــا حصــل مــن نقــل أفــراد الأســرة الإدريسيــة بكاملهــم إلى تلــك الديــار؛ مــن طــرف الخليفــة الأمــوي المستنصــر باللــه؛ خاصــة في سنــتي: 365هــ (975م) و375هــ(985م). هــذا وينتــمي الملــوك الأول مــن الأدارســة ــ في الأندلــس ــ إلى فــرع عمــر بــن إدريــس. وقــد كانــوا منافسيــن لبــني عمومتهــم: أبنــاء القاســم بــن إدريــس؛ الذيــن يعتبــرون آخــر مــن تــولى ملــك الأدارســة في المغــرب. ويبــدو أن تلــك المنافســة كانــت سببــا في تغــاضي الخليفــة الأمــوي المستنصــر عــن محاولــة نفيهــم ــ هــم الآخريــن ــ مــع الحســن بــن قنــون إلى مصــر.

هــذا ولــم تشــر جــل المصــادر ــ بوضــوح ــ إلى مكــان إقامــة بــني حمــود في الأندلــس؛ حينمــا بــدأت الفتنــة. وقــد انفــرد ابــن الخطيــب ــ تقريبــا ــ بالحديــث عــن ذلــك؛ ولكــن باقتضــاب شديــد؛ حيــث ذكــر أنهــم كانــوا ((**مــن جملــة أمــراء المغاربــة المترسميــن في ديــوان بــني أميــة بقرطبــة**)).[1] دون تحديــد الفتــرة الزمنيــة؛ هــل تــم ذلــك قبــل نــفي الحســن بــن قنــون إلى مصــر، أو بعــد نفيــه؟.

---

[1] أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 128.

وعليه فالسؤال يبقى قائما حول المكان الدائم الذي كانوا يعيشون فيه؛ بعد نفي الأدارسة إلى الأندلس؛ وإخلاء بلاد المغرب منهم. ومن ثمة؛ بعد نفي ابن قنون وأهله إلى مصر. ومن هنا يمكن التساؤل: هل كانوا مستقرين في بلاد غمارة؛ مختفين عن الأنظار بتلك الديار؟ أم كانوا قاطنين ببلاد الأندلس؛ في الظل؛ وبعيدا عن الأضواء؟ وبهذا يمكن الاعتماد على ما ذكره ابن حزم بإيجاز؛ حين ذكر أن بني حمود كانوا بتازغدرا من عمل غمارة.[1] كما يشير البكري إلى بعض فروعهم الموزعين في بقاع شتى بالمغرب كـ: بلاد أوربة، وفاس، وكتامة، وبلاد بني عسوجة وبلاد زناتة، وبلاد برغواطة، وتازغدرا بغمارة.[2] ومن جهة أخرى يجيب ابن الخطيب بإيجاز أيضا ــ في سياق آخر ــ على ذلك؛ إذ يرى أن علي بن حمود انتهز موجة الاضطرابات؛ التي حدثت بين أبناء البيت المالك من: الأمويين وأنصارهم المشكلين من: الأمازيغ وأهل قرطبة؛ فقطع البحر؛ قاصدا سبتة؛ حيث تغلب عليها.

---

[1] **قال ابن حزم: ((وكان بدء أمرهم [أي بني حمود] في شوال سنة 400؛ إذ ولي القاسم بن حمود سبتة إلى التاريخ المذكور. وكان هذا الفخذ من افخاذهم خاملا؛ وكانوا صاروا بتازغدرة من عمل غمارة)). الجمهرة، ص: 51.**

[2] **المغرب، ص ص: 131 ــ 133.**

ولكنــه عــاد إلى الأندلــس عنــد سماعــه باستفحــال أمــر سليمــان بــن الحكــم؛ مــع مــن كــان معــه مــن الأمازيــغ؛ وبعــد ظهــور بــوادر تفيــد بقــرب انتصارهــم علــى أعدائهــم.[1] وقــد وردت إشــارة خاطفــة وباهتــة في الذخيــرة لابــن بســام ــ حيــن ذكــر موضــوع وصيــة هشــام المؤيــد بالعهــد مــن بعــده إلى علــي بــن حمــود؛ نكايــة في بــني عمــه مــن آل الناصــر الثائريــن عليــه ــ قــال فيهــا أن عليــا كــان يتــردد علــى سبتــة؛ بغــرض حــث طوائــف الأمازيــغ، وتحريضهــم علــى الجهــاد في صــف سليمــان؛ وضــد المهــدي وأنصاره مــن أهــل قرطبــة.[2]

[1] وفي هــذا يقــول ابــن الخطيــب: ((ولمــا التفــت البرابــرة بسليمــان؛ استيجاشــا مــن العصائــب الأندلسيــة، وتشميــرا لمقارعتهــا؛ وأجفــل البرابــرة إلى وادي يــارو منهزميــن؛ لحــق [أي علــي بــن حمــود] بالعــدوة الغربيــة؛ وتغلــب علــى سبتــة محتــالا. ثــم عــاد إلى الأندلــس؛ لمــا استوســق الأمــر لسليمــان. واختــص مــن كـُوَر إيالتــه الــتي اقتسمهــا البرابــر واقتطعوهــا بسبتــة، وأخــوه القاســم بالجزيــرة)). أعمــال الأعــلام، ق: 2؛ ص: 128.

[2] قــال ابــن بســام: ((وكــان هشــام ــ عنــد مــا رآه مــن اضطــراب أمــره؛ وتيقنــه مــن انصــرام دولتــه؛ بمــا مــني بــه قديمــا وحديثــا؛ مــن تمالــؤ بــني عمــه آل الناصــر عليــه؛ وقيامهــم واحــدا بعــد واحــد في خلعــه ــ صيّــر إلى علــي بــن حمــود ولايــة عهــده؛ وأوصى إليــه بالخلافــة مــن بعــده؛ وراسلــه بذلــك إلى سبتــة؛ أيــام تــردده عليهــا؛ بمعــنى الاستمــداد، وجمعــه طوائــف البرابــرة للجهــاد)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1. ص ص: 37 ــ 38.

وهنـــا يتبـــادر إلى الذهـــن احتمـــال عـــودة السبـــب في انتقـــال عـــلي بـــن حمـــود إلى الأندلـــس مـــن جديـــد ــ بعـــد أن تغلـــب عـــلى سبتـــة؛ خـــلال موجـــة الاضطرابـــات ــ إلى الخطـــاب الـــذي ورد إليـــه مـــن هشـــام المؤيـــد؛ كمـــا جـــاء في الذخيـــرة ومصـــادر أخـــرى. ذلـــك الخطـــاب الـــذي يسنـــد فيـــه هشـــام ولايـــة العهـــد إليـــه. ومـــن هنـــا يبـــدو أنـــه لـــم يعبـــر المضيـــق نحـــو الأندلـــس لمجـــرد التضامـــن مـــع سليمـــان بـــن الحكـــم، أو بدافـــع الغيـــرة عليـــه بحكـــم العصبيـــة، أو حبـــا في الوقـــوف معـــه ضـــد أعدائـــه مـــن أهـــل قرطبـــة. بـــل حـــدث ذلـــك بدافـــع المصلحـــة؛ الـــتي أملـــت عليـــه العمـــل بجـــد في سبيـــل تحقيقهـــا.

عـــلى كـــل حـــال؛ فانـــزواء بـــني حمـــود هـــذا، واختفائهـــم عـــن الأضـــواء ــ ســـواء في بـــلاد الأندلـــس أو في المغـــرب ــ مكنهـــم مـــن اصطيـــاد الفرصـــة المواتيـــة للانقضـــاض عـــلى عـــرش الخلافـــة بالأندلـــس. وقـــد تحقـــق لهـــم ذلـــك؛ حينمـــا ترنحـــت دولـــة الأمويـــين؛ ومالـــت نحـــو الانهيـــار؛ بعـــد سقـــوط مؤسساتهـــا الفاعلـــة، وتفكـــك قواعدهـــا الأساسيـــة. وجملـــة القـــول هي أن جـــل المصـــادر التاريخيـــة بـــدأت ــ لأول مـــرة ــ تتحـــدث عـــن عـــلي بـــن حمـــود وأخيـــه القاســـم في بـــلاد الأندلـــس؛ اعتبـــارا مـــن سنـــة 403هـ (1012م). حيـــن تناقلـــت ــ مـــا ذكـــره ابـــن حيـــان ــ عنهمـــا وعـــن الموضـــع الـــذي عسكـــرا فيـــه مـــع جيشهمـــا المشكـــل مـــن المغاربـــة؛ وكـــان ذلـــك بالقـــرب مـــن الزهـــراء وقرطبـــة؛ وبالتحديـــد في شَقَنـــدْة. حيـــث كانـــا ضمـــن جيـــش سليمـــان بـــن

الحكم.[1] والمهم هنا أن علي بن حمود يكون قد ولد في بلاد المغرب؛ حسبما توصل إليه إسماعيل العربي؛ بعد عملية حسابية قصيرة قام بها.[2] ثم نُقِلَ ـ مع من نقِل من بني عمه الأدارسة ـ إلى بلاد الأندلس؛ حيث ظل مهمشاً وبعيداً عن الأنظار حتى حانت الفرصة المناسبة؛ حين ظهر الانقسام الأكبر في صفوف بني أمية وأنصارهم؛ فعاد إلى مركز قوته ونفوذه؛ أين جمع شمل عصبيته الأمازيغية؛ بحجة نصرة أحد الفريقين المتخاصمين من بني أمية؛ ولما تمكن واشتد ساعده انقض من هناك على فريسته، وتغلب على أعدائه، حيث تربع على عرش الخلافة في قرطبة باسم العلويين من بني هاشم.

---

[1] **إذ قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وانتقل إلى مدينة الزهراء [أي سليمان بن الحكم] بجملة برابره وجيشه؛ فضاقت الزهراء عنهم؛ فنزلوا بما اتصل بها. ونزل ابنا حمود: علي والقاسم قائدا فرقة المغاربة بشَقُنْدة)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 37. نقل هذا النص أيضا ـ كما هو ـ ابن عذاري، ج: 3، ص: 113. كما أشار إليه الحميدي في جذوة المقتبس، ص ص: 19 ـ 20. وعبد الواحد المراكشي في المعجب، ص: 43.**

[2] **دولة الأدارسة، ص: 226.**

ولابد – هنا – من الإشارة؛ إلى أن ابن خلدون كتب فقرة غامضة؛ تبعث على الاعتقاد بأن بني حمود كانوا مقيمين في تازغدرا ببلاد المغرب؛ في حماية قبيلة غمارة الأمازيغية.[1] وربما يكون ابن خلدون قد اقتبس هذا الخبر عن ابن حزم أو البكري؛ إذ قالا القول نفسه؛ كما سبقت الإشارة إليه. ولما اشتدت الأزمة في الأندلس؛ عَبَرَ أمير بني حمود علي بن حمود إلى الضفة الأخرى مع جملة من أنصاره الأمازيغ؛ حيث انضم إلى صفوف سليمان بن الحكم؛ مسايرة منه للحلف الذي عقده – هذا الأخير – مع جل القبائل الأمازيغية هناك؛ خاصة وأن علي بن حمود وأعضاء أسرته كانوا يرون في أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمازيغي. وبالفعل فقد عامله سليمان بن الحكم كما عامل أمراء القبائل الأمازيغية. حيث أقطعه – بعد أن تحقق له النصر – مدينة سبتة؛ كما أقطع أخاه القاسم الجزيرة الخضراء.

[1] وفي ذلك يقول: ((وبقي الفخر منهم بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ وصاروا في جملة المستعين؛ مع أمراء العدوة، من البربر. فعقد لهما [أي لعلي والقاسم] المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعلي منهما على طنجة، وللقاسم – وكان الأسن – على الجزيرة الخضراء)). العبر، مج: 4، ص: 330.

ويرى بعضهم أن سليمان ارتكب خطأ كبيرا بتقديم تلك المقاطعتين لعلي وأخيه القاسم.[1] والغريب أن بعض الأمازيغ أنفسهم استنكروا ما قام به سليمان؛ على الرغم من الاندماج الحاصل بين بني حمود والأمازيغ.[2] وربما يكون ما أبداه أمير بني برزال من اعتراض؛ لا يعدو أنه أتى من

---

[1] فهذا ابن بسام يقول: ((ومن الاتفاق الغريب على سليمان أنه لما استوسق له الأمر؛ بعد فراغه من خبر هشام المؤيد؛ أنفذ عزمه ــ من بين قواد جيوشه ــ في اختيار علي بن حمود المذكور؛ فقدمه على مدينة سبتة؛ رأيا ذَهَلَ عنه؛ ونبذها إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوى والقرابة. فتلقفها علي تلقف الأكياس المقبلين؛ ودَبَّ لمغبونه سليمان من قِبَلِها الضَّراء دبيب الحَنَق الموتور؛ حتى هجم عليه وسلبه ملكه، وحول دولته، ومزق عِتْرته. وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا من بعده؛ وإذا أراد الله شيئا أمضاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 38.

[2] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة: ((وكانوا ستة قبائل. فأعطى صنهاجة إلبيرة؛ فبقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة. وأعطى مغراوة الجوف. وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة. [لم يكن منذر بن يحيى بربريا؛ بل كان من قبيلة تجيب العربية] وأعطى بني برزال وبني يفرن جيان وذواتها. وأعطى بني دمر وأزداجة شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون. وذكِر أنه ولى القاسم بن حمود طنجة وآصيلا، أما علي بن حمود فولاه سبتة كما ذكرناه. [يرى المراكشي وابن الخطيب وابن خلدون أن ما أعطاه سليمان للقاسم هي الجزيرة الخضراء] فلما بلغ عبد الله البرزالي تقديم ابني حمود؛ دخل على سليمان؛ فقال: "يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب." قال: "نعم". قال له: "أليس العلويون طالبيين؟" قال: "نعم". قال: "تأتي إلى خشاش؛ تردهم ثعابين؟" قال: "نُفِذ الأمر في ذلك")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ــ 114. أنظر في هذا أيضا المعجب، ص: 43. وأعمال الأعلام لابن الخطيب: ق: 2، ص: 119.

بـــاب الغيـــرة والحســـد لعـــلي بـــن حمـــود وأخيـــه؛ أو ربمـــا يكـــون ذلـــك بتأثيـــر مـــن معتقـــده الخـــارجي.

المهـــم أن ذلـــك حـــدث بموافقـــة سليمـــان وبقـــرار منـــه. ولعلـــه لـــم يكـــن في يـــده القـــدرة عـــلى الـــرفـــض أو المعارضـــة؛ نظـــرا لكـــون عـــلي قـــد سيطـــر بالفعـــل ـــ مـــن قبـــل ـــ عـــلى سبتـــة؛ كمـــا جـــاء في نـــصي: ابـــن بســـام وابـــن الخطيـــب. خاصـــة وأن ابـــن حـــزم قـــال أن سبتـــة كانـــت ولايـــة القاســـم بـــن حمـــود منـــذ شـــوال سنـــة 400هـــ(1009م).[1] وبهـــذا فمـــا صـــدر ـــ بعدئـــذ ـــ عـــن سليمـــان لـــم يكـــن ســـوى مصادقـــة وموافقـــة عـــلى أمـــر واقـــع بالفعـــل. وهكـــذا فمـــن ذلـــك التاريـــخ بـــرز الـــدور الخطيـــر والفعـــال للأدارســـة في بـــلاد الأندلـــس؛ ممثليـــن بعـــلي بـــن حمـــود بـــن ميمـــون بـــن حمـــود ـــ وحمـــود اسمـــه الحقيـــقي أحمـــد ـــ بـــن عـــلي بـــن عبيـــد اللـــه بـــن عمـــر بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه.[2] وكمـــا سبـــق ذكـــره فهـــذا الأميـــر يعتبـــر مـــن بقايـــا الأدارســـة؛ الذيـــن أجبرتهـــم الظـــروف عـــلى العيـــش في ظـــل الدولـــة الأمويـــة؛ بعـــد أن تغلبـــت عـــلى ملكهـــم ببـــلاد المغـــرب.

---

[1] **الجمهـــرة، ص: 51.**

[2] **نفســـه، ص: 50.**

وقد برز فيما بعد ببلاد الأندلس والضفة المقابلة في العدوة المغربية ــ من هذه الأسرة؛ إلى جانب علي ابن حمود ــ أخوه القاسم وعدد من ذرية علي بن حمود هذا؛ منهم: يحيى بن علي، وإدريس بن علي، وحسن بن يحيى، وإدريس بن يحيى، ومحمد بن إدريس بن يحيى، ويحيى (حيون) بن إدريس، ومحمد بن إدريس بن علي، وحسن بن إدريس بن علي، وعلي بن إدريس ابن علي. أما ذرية القاسم فمنهم: محمد بن القاسم، وحسن بن القاسم، والقاسم بن محمد بن القاسم. وقد كان بنو إدريس هؤلاء مندمجين ضمن كتلة القبائل الأمازيغية؛ على الرغم من أصولهم الأولى التي تلتحم ببني هاشم. ذلك لأن الأدارسة كلهم قد انصهروا ــ منذ قيام دولتهم الأولى ــ في المجتمع الأمازيغي؛ فأضحوا جزءا لا يتجزأ منهم. ولهذا فالمصادر التاريخية كلها؛ تتكلم عنهم دوما في سياق حديثها عن الأمازيغ؛ كما ينسب كل تصرف يصدر عنهم آليا إلى القبائل الأمازيغية.[1]

---

[1] فابن خلدون يفتتح الكلام عنهم بقوله: ((كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة؛ واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس؛ فكانت للبرابرة إليهم صاغية؛ بسبب ذلك، وخلطة بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر. فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعليّ منهما على طنجة وعملها، وللقاسم ــ كان الأسنّ ــ على الجزيرة الخضراء.

وتشيــر بعــض المصـــادر ــ أيضـــا ــ إلى أن لهجتهــم كانـــت أمازيغيـــة؛ ومـــع ذلـــك فهـــم لا يجهلـــون العربيـــة بالتمـــام. وقـــد أورد ابـــن الخطيـــب مثـــالا عـــلى لهجـــة عـــلي بـــن حمـــود؛ تلـــك اللهجـــة المتأثـــرة بالعجمـــة كمـــا وصفهـــا؛ حيـــن قـــال: ((**وقبـــض** [أي عـــلي بـــن حمـــود] **عـــلى سليمـــان وأخيـــه وأبيـــه الحكـــم؛ فقتلهـــم بيـــده؛ وقـــال بلسانـــه الزنـــاتي: " لا يقتـــل الزلطـــان إلا الزلطـــان"**)). ويقصـــد ابـــن الخطيـــب مـــن هـــذا أن عـــلي ابـــن حمـــود لـــم يقـــل السلطـــان بالسيـــن؛ إذ نطـــق السيـــن زايـــا.[1] غيـــر أن الـــذي قالـــه ابـــن الخطيـــب لا يمنـــع كـــون عـــلي وأخيـــه القاســـم ومـــن تبعهمـــا مـــن ذريـــة ابـــني حمـــود كانـــوا يعرفـــون العربيـــة ويتذوقـــون آدابهـــا؛ خاصـــة وأن مصـــادر كثيـــرة أتـــت بشواهـــد تفيـــد بذلـــك.[2]

****

وكـــان في نفـــوس المغاربـــة والبرابـــرة تشيـــع لأولاد إدريـــس؛ متـــوارث مـــن دولتهـــم بالعـــدوة)). العبـــر، مج: 4، ص: 330. أمـــا ابـــن بســـام فيستشهـــد بمقالـــة ابـــن قتيبـــة؛ حيـــن قـــال: ((ثـــم رفضتهـــم آفاقهـــا [يقصـــد رفضـــت آفـــاق بـــلاد إفريقيـــة بـــني أبي طالـــب] إلى طـــرف بـــلاد البربـــر؛ فنكحـــوا إليهـــم، وتبربـــروا معهـــم)). الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 96.

[1] **أعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 121.**

[2] **فممـــا قالـــه المقـــري ــ عـــلى سبيـــل المثـــال ــ في عـــلي بـــن حمـــود: ((وكـــان الناصـــر عـــلي بـــن حمـــود ــ عـــلى عجمتـــه، وبعـــده مـــن الفضائـــل ــ يصـــغي إلى الأمـــداح، ويثيـــب عليهـــا، ويظهـــر في ذلـــك آثـــار النســـب العـــربي والكـــرم الهاشـــمي. ومـــن شعرائـــه المختصيـــن بـــه ابـــن الحنـــّاط القرطـــبي [وهـــو محمـــد بـــن سليمـــان ابـــن الحنـــاط الرعيـــني القرطـــبي الأعـــمى]... وعبـــادة بـــن مـــاء السمـــاء؛ وكـــان معروفـــا بالتشيع... ومدحه ابن دراج القسطلي)). نفح الطيب، ج: 1، ص ص: 483 ــ 484.**

ـ حكومــة الناصــر لديــن الله علي بن حمــود بقرطبــة:

وخلاصــة القــول فقـد ظـل عــلي بــن حمــود يترقــب الفرصــة المواتيــة للانقضــاض عــلى كــرسي الخلافــة بقرطبــة. إذ كــان يتابــع ــ مــن قــرب وبعنايــة ــ كــل مــا يجــري في ديــار الأندلــس. حيــث يراقــب الأحــداث الــتي تمــت بعــد نشــوب الاضطرابــات ــ في بدايتهــا ــ داخــل البيــت الأمــوي، وبعــد زوال حكــم العامرييــن؛ نتيجــة للانقسامــات الــتي حدثــت بيــن أنصــار الدولــة الأمويــة؛ عندمــا انحــازت كــل فئــة مــن المصطنعيــن، والقبائــل إلى أميــر مــن الأموييــن. فانضــم جمــع كبيــر مــن الأمازيــغ ــ وبنــو حمــود معهــم طبعــا ــ إلى سليمــان بــن الحكــم بــن سليمــان الملقــب بالمستعيــن باللــه؛ الــذي قــام ضــد خصمــه محمــد بــن هشــام بــن عبــد الجبــار الملقــب بالمهــدي. وذلــك لأن الأمازيــغ كرهــوا ابــن عبــد الجبــار (المهــدي)؛ بسبــب مــا أعلنــه مــن عــداء لهــم؛ ومــا أبــداه مــن تعصــب شديــد ضدهــم ــ في بدايــة عهــده ــ إذ كــان يَكِــنُّ لهــم كراهيــة ملحوظــة؛ الأمــر الــذي أجــج حقدهــم عليــه، وعــلى أتباعــه مــن العامــة والدهمــاء؛ الذيــن ارتكبــوا مجــازر رهيبــة في حــق الأمازيــغ بقرطبــة. لــذا كــان رد الفعــل عندهــم ــ عــلى اختــلاف قبائلهــم ــ هــو العمــل باستماتــة عــلى نصــرة خصمــه اللــدود ومنافســه العنيــد سليمــان بــن الحكــم (المستعيــن باللــه).

وسبب كراهية المهدي للأمازيغ ـ طبعا ـ عائدة إلى ضغوط نفسية؛ تحركها في داخله العصبية الشديدة لأقربائه وأهله من بني أمية؛ أولئك الأقرباء من الأسرة المالكة الذين سلبهم الأمازيغ ـ بدعمهم للمنصور ابن أبي عامر وأبنائه ـ القدرة في مقاومة المغتصبين والمستبدين في بلاط هشام المؤيد.[1] وهذا ما فسره المقري بقوله: ((**وأذل** [أي المنصور بن أبي عامر] **قبائل الأندلس بإجازة البرابر**)).[2] أي بنقلهم من المغرب إلى الأندلس؛ ثم يضيف في موضع آخر: ((**وكانت الأموية تعتد عليهم** [أي على الأمازيغ] **ما كان من مظاهرتهم العامريين؛ وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم؛ فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون. ولولا مالهم من العصبية لأستأصلهم الناس؛ ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة** [أي قرطبة]

---

[1] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ((وأعلن [أي المهدي] ببغض البرابرة وتنقصهم؛ جهلا بمحلهم من البأس والعصبية؛... وتعصبت العامة للمهدي... وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط؛ خارج قرطبة؛ عشية يوم الجمعة؛ وبعد محاورة بينهم وبين العامة؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر. وراسلهم محمد بن عبد الجبار؛ فلم يلتفتوا إليه)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 112 ــ 113. وثمة شواهد أخرى في المصدر نفسه، ص ص: 66. 70. 87. 102. 106. 112ــ 119. وأنظر في هذا أيضا البيان المغرب، ج: 2، ص ص: 263. 278 ــ 279. 281. 287. 293 ــ 294. ج: 3، ص ص: 30. 51 ــ 91. والعبر، مج: 4، ص ص: 318 ــ 326. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 397 ــ 398. 405. 417. 427 ــ 430.

[2] نفح الطيب، ج: 1، ص: 405.

بكراهيتهم. وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا؛ وَرُدَّ بعض رؤوسهم في بعض الأيام من باب القصر؛ فانتهبت العامة دورهم؛ وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم؛ فاعتذر إليهم، وقتل من اتهم من العامة في أمرهم؛ وهو مع ذلك مظهر لبغضهم؛ مجاهر بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنه يريد الفتك بهم...)).[1]

ويقتضي الحال هنا وقفة قصيرة؛ لمحاولة فهم ما جرى بقرطبة في تلك الأثناء. فمن الواضح أن الوضع تطور تطور خلال درجات ومراحل متتابعة. ففي البدء اقتصر الصراع على أهل البلاط بقرطبة؛ وبالتحديد داخل الأسرة المالكة؛ أو بالأحرى بين العصبية الأموية العربية وبعض الموالي والمصطنعين؛ ممن أراد الخليفة إعدادهم وتجهيزهم ضد من تسول له نفسه ــ من عصبيته ــ أن يخرج عليه، أو يتطلع لمشاركته في مجد الملك والسلطان.[2] وفي المرحلة الموالية بدأ نجم المنصور بن أبي عامر يبرز ويسطع على الأندلس كلها. ولما أراد هذا الوزير الحاجب الحازم ــ الذي كان وصيا على العرش ــ أن يستبد بالأمر؛ لم يكتف

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 427.**

[2] **وهذا يتوافق مع ما ذكره ابن خلدون ضمن: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.**

باصطنـــاع المـــوالي والمصطنعيـــن ــ كالفتيـــان العامرييـــن ــ بــل مــد نظــره بعيــدا؛ إلى الطــرف الآخــر مــن العــدوة؛ حيــث الأرض الــتي تفيــض بالقبائــل، وأبطــال الحــرب والنــزال؛ تلــك الأرض المغربيــة الخصبــة بالرجــال البواســل، والزاخــرة بالقبائــل الــتي لا تحــصى؛ تلــك القبائــل الــتي مــا زالــت تعيــش في محيــط بــدوي متقشــف؛ محيــط بعيــد عــن ليونــة الحضــارة وطراوتهــا، والنائيــة عــن تياراتهــا المفســدة لشــروط الصلابــة والبسالــة.[1]

وقــد يكــون مــن الحوافــز الــتي جعلــت المنصــور يتحمــس إلى جلــب فرســان الأمازيــغ إلى الأندلــس؛ تلــك النتائــج المشجعــة الــتي انبثقــت عنهــا تجربــة سيــده المستنصــر؛ حيــن استخــدم بــني بــرزال. فاتضــح لــه أنهــم كانــوا أهــلا للمهمــة الــتي أنيطــت بهــم؛ حيــث أضحــوا للخليفــة الأمــوي حراســا أوفيــاء، وللبــلاد فرسانــا مغاويــر. ونتيجــة لذلــك فقــد عمــل المنصــور عــلى جلــب عــدد كبيــر مــن القبائــل الأمازيغيــة وفرسانهــم الأبطــال إلى بــلاد الأندلــس؛ بحجــة الجهــاد، والدفــاع عــن أمــن الدولــة الإسلاميــة مــن تحرشــات النصــارى. فأجــزل لهــم العطــاء، وخصهــم بكــل غــال وثميــن مــن أمــوال وإقطــاع. وبذلــك أصبحــت في يــده

---

[1] أنظــر إلى ما كتبــه ابــن خلــدون ضمــن: ((فصــل في أهــل البــدو أقــرب إلى الشجاعــة مــن أهــل الحضــر)). المقدمــة، ج: 2، ص ص: 588 ــــ 589. و((وفصــل في أن معانــاة أهــل الحضــر للأحكــام مفســدة للبــأس فيهــم، ذاهبــة بالمنعــة منهــم)). نفســه، ص ص: 589 ــــ 591.

قـــوة لا تقهـــر في الأندلـــس؛ مكنتـــه مـــن الاستبـــداد والتصـــرف في شئـــون الدولـــة كمـــا يحلـــو لـــه.[1] ثـــم أتـــت الفتـــرة الموالـيـــة؛ الـــتي شهـــدت الصـــراع الخطيـــر والانقســـام المذهـــل الـــذي فتـــت الدولـــة إلى طوائـــف وإمـــارات صغيـــرة هنـــا وهنـــاك؛ حيـــث هيمنـــت خلالهـــا فئـــات عديـــدة ومتفرقـــة في المجتمـــع: قبائـــل عربيـــة، وقبائـــل أمازيغيـــة، ومـــوالي مـــن أجنـــاس شـــتى، ومماليـــك صقالبـــة وســـودان.. ألـــخ. وضمـــن هـــذا البحـــر المتمـــاوج مـــن العصبيـــات المختلفـــة ــ قبليـــة وفئويـــة وعرقيـــة ومذهبيـــة ــ كـــان بعـــض الفئـــات المنعـــزل، والبقايـــا الضائعـــة مـــن بـــني أميـــة تظهـــر فـــوق السطـــح أحيانـــا، وتختـــفي تحـــت الأمـــواج أحيانـــا أخـــرى. وفي هـــذه الأثنـــاء ظهـــرت العصبيـــة الهاشميـــة؛ ممثلـــة بالأدارســـة مـــن بـــني أبي طالـــب. غيـــر أن عصبيتهـــم الفاعلـــة والموجـــودة في الميـــدان كانـــت هـــي العصبيـــة الأمازيغيـــة؛ نظـــرا لمـــا حصـــل مـــن اندمـــاج قديـــم بيـــن الأدارســـة والأمازيـــغ. ومـــن هنـــا يتضـــح التداخـــل بيـــن العصبيتيـــن؛ كمـــا يتضـــح سبـــب الجفـــاء الـــذي لاقـــاه الأدارســـة مـــن قبـــل الأندلسييـــن؛ ذلـــك الجفـــاء العائـــد ــ في الحقيقـــة ــ إلى عـــدم التمييـــز والفصـــل بينهـــم وبيـــن الأمازيـــغ.

---

[1] أنظـــر أيضـــا: ((فصـــل فيمـــا يعـــرض في الـــدول مـــن حجـــر السلطـــان والاستبـــداد عليـــه)). المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 680 ــ 681. و((فصـــل في أن المتغلبيـــن علـــى السلطـــان لا يشاركونـــه في اللقـــب الخـــاص بالملـــك)). نفســـه، ص ص: 682 ــ 683.

ونظرا لما واجه الأمازيغ من شدة في العداء أبداه سكان المدن؛ وخاصة أهل قرطبة وإشبيلية؛ فما كان منهم سوى الحرص على حماية أنفسهم، والسهر على أمنهم، والذود عن مصالحهم. ومن هنا عملوا على تقديم ولائهم للأمير الذي يفيدهم ويحقق مآربهم. فالتفوا في البداية حول الأمير هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر؛ ولما قتل انضموا إلى ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. ولما تحقق لسليمان المذكور النصر، وتربع على عرش الخلافة بقرطبة؛ لم يجد متسعا من الوقت لكي يؤجل تسديد الدين الذي عليه للأمازيغ ومن ناصره في حرب عدوه. لذا فقد سارع إلى مكافأتهم جميعا؛ حيث أسند إلى بعضهم مناصب سامية في الدولة؛ كما خص أمراءهم بالقيادات والمقاطعات الهامة. فكان حظ بني حمود ـ كما سبق ذكره ـ مثل حظ بقية الأمازيغ؛ لصلتهم بهم وانتمائهم إليهم. وهكذا فقد أقطع سبتة لعلي بن حمود، والجزيرة الخضراء لأخيه القاسم.

وبذلك كان هذا الإقطاع بداية الخطوات الممهدة لدروب الملك؛ إذ وصل بنو حمود بذلك إلى المنفذ؛ الذي ساعدهم على التسرب نحو حكم قرطبة نفسها. فبهاتين الولايتين الهامتين الممثلتين في سبتة والجزيرة الخضراء؛ يمكن لهم أن يحشدوا الحشود، ويسهل عليهم الحصول على الأموال

اللازمة والعتاد الضروري للقتال. هذا بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أحق الناس بالملك؛ حيث استمدوا شرعيتهم أولا: من كتاب العهد الذي ــ كما قيل ــ خص به الخليفة الشرعي هشام المؤيد الأمير علي بن حمود؛[1] وثانيا: من سلالتهم الإدريسية العلوية القريشية؛ التي تضعهم في مقدمة المؤهلين للخلافة. وثالثا: من قوة العصبية التي تساندهم وتقف خلفهم؛ وهي القبائل الأمازيغية.[2] وهذا هو الذي جعلهم يحسون بإمكان قيام دولتهم بيسر وسهولة؛ خاصة بعد أن ضمن علي بن حمود حقه الشرعي فيها؛ من خلال العهد الذي منحه إياه هشام المؤيد.[3]

---

[1] أنظر ما ذكره ابن خلدون فيما يخص ولاية العهد، ومشروعيتها ضمن: "فصل في ولاية العهد". المقدمة، ج: 2، ص ص: 721 ــ 734. إذ يلخص القول في: ((اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة؛ وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها؛ ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده)). ص : 721.

[2] راجع ما قاله ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)). حيث ذكر أن ((كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية...)). ثم قدم بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية. المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[3] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حيان. ويبدو أن هذا النص هو ذاته الذي ذكره ابن بسام وورد من قبل: ((وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته؛ صير إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله إلى سبتة بذلك سراً؛ وولاه

وعليه فما أن تحقق لعلي بن حمود أمر تعيينه على سبتة؛ وما أن تمكن من تعزيز قوته فيها ــ بعد استقراره وضبط أموره ــ حتى شرع في خطواته الأولى نحو تحقيق أهدافه.

وبالفعل كان أول ما بادر إليه علي بن حمود سنة 404هـ(1013م) هو إحكام قبضته على سبتة؛ والقضاء على المعارضين. وذلك أنه سارع إلى قتل قاضي البلدة محمد بن عيسى مع الفقيه ابن يربوع. متهما القاضي المذكور بالتجسس عليه، والسعي إلى كشف أعماله وخططه. إذ اتهمه بأنه كاتب سرا سليمان المستعين، وأخطره بالتحضيرات التي قام بها لغزو قرطبة.[1] إلى جانب ذلك أرسل إلى أخيه القاسم؛ الذي كان في تلك الأثناء بقرطبة؛ فطلب منه الالتحاق بولايته في الجزيرة الخضراء.

طلب دمه؛ واستكتمه السر فيه؛ إلى أوانه وبلوغ زمانه)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 114. 120. أما المقري فيقول: ((فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة، ومحو كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها؛ كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود؛ وبلغ هشاما المؤيد ــ وهو محبوس ــ خبره، واسمه ونسبه؛ فدس إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: "إن خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني" ــ يعني سليمان ــ "فإن فعل فخذ بثأري". وكان هذا الأمر هو الذي قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة؛ وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 482.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 115. أنظر أيضا أعمال الأعلام لابن الخطيب، ق: 2، ص: 121.

كما بعث في سنة 405هـ(1014م) إلى حبوس أمير بني زيري والفتى خيران العامري يعلمهما بخطاب العهد الذي وصله من هشام المؤيد؛ ويطلب منهما مساعدته للإطاحة بسليمان.[1] ثم تحرك نحو مدينة مالقة التي استولى عليها، وربما قتل قائدها حسب قول ابن عذاري.[2] ومن ثمة اجتمع مع خيران في المرية؛ وانضم إليه أيضا زاوي بن زيري وحبوس بن ماكسن بن زيري في قبيلة صنهاجة.[3] فانطلقوا جميعا نحو قرطبة؛ ضمن قوة كبيرة من الأمازيغ والعامريين.

---

[1] قال ابن عذاري نقلا عن المظفري؛ وهو كتاب محمد بن عبد الله بن الأفطس: ((لما خرج علي عن طاعة المستعين؛ أخرج كتابا نسبه إلى= =هشام بن الحكم؛ يقول فيه: "أنقذني من أسر البرابر والمستعين؛ وأنت ولي عهدي". ووجه به إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري؛ فقال له انهض إلى مالقة؛ وبها يتم أمرنا؛ فأقبل إليها بالقطائع والعساكر فقتل قائدها واستولى عليها)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. وقد اشار إلى هذا أيضا المراكشي في المعجب، ص: 44.

[2] انفرد ابن عذاري بخبر قتل والي مالقة. البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. أما المراكشي فقال أنه عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولى الحكم المستنصر؛ وذكر أنه أخرجه من مالقة؛ ولم يشر إلى قتله. المعجب: ص: 44. أما ابن الأثير فيقول أنه اتفق مع علي على الثورة؛ وخرج من مالقة بإرادته وسلمها لعلي بن حمود. الكامل، ج: 7، ص: 284.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

ولما وصلت أخبار علي بن حمود وحلفائه إلى سليمان خرج إليهم بجيشه المكون من الأندلسيين، وقلة من الأمازيغ سنة 407هـ(1016م). ولكنه لم يصمد أمامهم، ومني بهزيمة نكراء؛ حيث انكشفت المعركة عن سقوطه ــ مع أخيه وأبيه ــ في الأسر. ولما دخل علي بن حمود إلى قصر قرطبة واستولى على عرشها؛ بادر فورا بقتل سليمان وأخيه وأبيه ــ ذلك الشيخ الذي ناهز عمره 72 سنة ــ ويقال أنه قتلهم بيده. أخذا بثأر هشام المؤيد كما زعم.[1] هذا هو منطق الملك في أبشع صوره.

وهكذا تم ما أراده الله. ففي لحظات أصبح الحلفاء أعداء؛ يقتل بعضهم بعضا. فما هو السبب؛ وكيف حدث هذا..؟ وما الحافز والمحرك

---

[1] قال ابن بسام: ((فانهزم سليمان؛ وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه؛ وسيقوا أُسَارَى إلى علي بن حمود. ودخل القصر وخيران يطمع أن يجد هشاما المؤيد حيا. فلم يوجد؛ وذكر أنه قتل؛ وعرض عليه قبره. فأمر علي بنبشه. فأخرج الشخص؛ وشهد أنه هشام؛ وسليمان يتبرأ من دمه؛ وما كان في جسده شيء من أثر السلاح؛ فتوهم فيه الخَنْق. وأمر علي بتجهيزه إلى أهله؛ وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه؛ فدفن لزيق أبيه الحكم. ثم دعا علي بسليمان وذويه؛ فضرب عنقه بيده؛ وظهر منه جزع شديد عند ملاحظته السيف؛ خارت منه قواه. فجثا على ركبتيه؛ ثم ضربت عنق الشيخ أبيه وعنق عبد الرحمن ابنه. وجعلت الرؤوس الثلاثة في طست؛ وأخرجت من القصر إلى المحلة؛ ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 41 ــ 42. ورد هذا الخبر أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص: 117. وفي أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

لما جرى كله..؟ هل هي نشوة الملك..؟ أم هي العداوة المزمنة الكامنة في نفوس أجيال وأجيال من بني أمية وبني أبي طالب..؟ يبدو أن تلك العوامل كلها كانت وراء ما حدث. فالأطماع ـ طبعا ـ لعبت دورا مهما؛ كما أن العصبية الهاشمية كانت محركا فعالا نشطت حماس علي بن حمود. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تجاذبته عصبيتان رئيستان هي: العصبية الهاشمية والعصبية الأمازيغية. وعليه فما يمس الأمازيغ يمسه أيضا في الصميم؛ خاصة وأنه كان دوما محسوبا عليهم؛ ولا يعامله الآخرون إلا كما يعاملون الأمازيغ. ومن هنا اتضح بأن عليّ بن حمود وسليمان بن الحكم كانا يكنان لبعضهما كراهية وحقدا دفينين؛ لم يعلنا عنهما إلا في حالات خاصة. وقد جاء في بعض المصادر لمحات من هذا؛ إذ تقول بعض الروايات أن سليمان كان يكن كراهية لعليّ بن حمود والأمازيغ أيضا ـ مثله في ذلك مثل أعضاء الأسرة الأموية ـ وما الحلف الذي جمعهم سوى فترة زمنية عابرة غير دائمة. إذ كان سليمان في أمس الحاجة إليهم وإلى سيوفهم.

لــذا فإنــه كــان يحــرص عــلى مداراتهــم؛ وتقديمهــم عــلى غيرهــم؛ خوفــا مــن بطشهــم؛ لأنــه يــدرك ضعــف موقفــه أمامهــم. ومــن الشواهــد الــتي أوردهــا بعــض الكتــاب والمؤرخيــن: أنــه قــال ــ في أوساطــه الخاصــة ــ أبياتــا شعريــة مــن نظمــه في حــق الأمازيــغ ومــن حالفهــم:[1]

حَلَفــتُ بِمَنْ صَلَّى وَصَــامَ وَكَبَّــرَا

لأغْمِدَهَــا فِيمَــنْ طَــغَى وَتَجَبَّــرَا

وَأَبْصَرَ دِينَ اللـــهِ تحْيَــا رُسُومُـــهُ

فبَــدلَ مَا قَــدْ لاَحَ مِنهَــا وَغيَّــرَا

فوَاعَجَبــاً مِــنْ عَبْشَــمِيٍّ مُمَلَــكٍ

بِرَغــمِ العَــوَالِي وَالمَعَالِي تَبَرْبــرَا

فلَــوْ أنَّ أمْــرِي بِالخِيَــارِ نَبذتهــمْ

وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْــفِ حُكْماً مُحَــرَّرَا

فَإمَّــا حَيَــاة تسْتَلــذ بِفقدِهِـــمْ

وَإمَّا حِمَــامٌ لاَ نرَى فِيـــهِ مَا زَرَى

[1] قــال المقــري في هــذه الأبيــات: ((وكــان مــن أعظــم الأسبــاب في فســاد دولــة المستعيــن؛ أنــه قــال هــذه الأبيــات؛ مستريحــا بهــا إلى خواصــه)). نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 429.

فهذه الأبيات تدل ــ بدون شك ــ على ما ينطوي عليه صدر سليمان؛ من كراهية للأمازيغ؛ حيث لم يستطع التخلص من رواسب العصبية الأموية العربية؛ على الرغم من الحلف الذي يربطه بالأمازيع، وعلى الرغم من استماتتهم في الدفاع عنه، والتضحية بأرواحهم من أجله. وبذلك فقد برهن على أنه لا يختلف كثيرا عن ابن عبد الجبار (المهدي)؛ سوى في التقية التي لجأ إليها. ويبدو أن هذه الأبيات كشفت نواياه الحقيقية؛ مما جعل الأمازيع يختارون صف علي بن حمود؛ عندما قرر الأخذ بثأر أجداده الأدارسة من أحفاد الناصر لدين الله الأموي؛ الذي سبق له أن أزال الدولة الإدريسية من الوجود. إذ كان هذا هو حافزه الأساسي لإسقاط الدولة الأموية؛ وإرجاع الحق لبني هاشم. هذا وقد مدح شاعر الأندلس وفحلها دون منازع؛ أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي علي بن حمود بقصيدة رائعة؛ نذكر مطلعها هنا؛ على أن نسجل أغلبها في الفصل المخصص للحضارة والثقافة. ومطلعها:

لَعَلَّك ياشَمسُ عِندَ الأصيلِ

شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَريبِ الذَّليلِ

فَكوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيع

وَكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسولِ

ولمـــا تـــم لعـــلي أمـــر إسقـــاط دولـــة سليمـــان؛ ســـارع إلى طلـــب البيعـــة مـــن أهـــل الحـــل والعقـــد في قرطبـــة. فبويـــع بالفعـــل في سنـــة 407هــ(1016م) وتســـمى بلقـــب الناصـــر لديـــن اللـــه. وكانـــت بيعـــة شاملـــة؛ لـــم يتخلـــف عنهـــا أحـــد كمـــا قـــال ابـــن حيـــان.[1] وأظهـــر ــ مـــن اليـــوم الأول لحكمـــه ــ سلوكـــا فيـــه حـــزم وجـــد وعـــدل؛ أثلـــج قلـــوب الرعيـــة، ومـــلأ نفـــوس النـــاس بالبشـــر والـــرضى. إذ شـــرع في اجتثـــاث الفســـاد، وكبـــح الظالميـــن، وتسليـــط سيـــف العـــدل عـــلى رقـــاب الناهبيـــن والمتجبريـــن مـــن بعـــض أتباعـــه الأمازيـــغ.[2]

[1] قـــال ابـــن بســـام نقـــلا عـــن ابـــن حيـــان: ((بويـــع عـــلي بـــن حمـــود في بـــاب السُـــدَّة مـــن قصـــر قرطبـــة يـــوم الإثنيـــن لسبـــع بقيـــن لمحـــرم سنـــة سبـــع وأربعمائـــة؛ ثـــاني اليـــوم الـــذي أدرك فيـــه بثـــأر هشـــام المؤيـــد. ولـــم يتخلـــف أحـــد عـــن بيعتـــه؛ ووصلـــوا إليـــه عـــلى طبقاتهـــم؛ فكـــرم منازلهـــم، وأجمـــل خطابهـــم. وتســـمى ليومـــه مـــن الألقـــاب السلطانيـــة بالناصـــر لديـــن اللـــه. لقـــب قـــد سبقـــه إليـــه أبـــو أحمـــد المتوكـــل العبـــاسي بالمشـــرق؛ وتبعـــه فيـــه أيضـــا عبـــد الرحمـــن بـــن محمـــد بهـــذا الأفـــق)). الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 97.

[2] قـــال ابـــن بســـام: ((وجلـــس عـــلي بنفســـه لمظالـــم النـــاس؛ وهـــو مفتـــوح البـــاب، مرفـــوع الحجـــاب؛ للـــوارد والصـــادر؛ يقيـــم الحـــدود مباشـــرا بنفســـه؛ لا يحـــاشي أحـــدا مـــن أكابـــر قومـــه. فانتشـــر أهـــل قرطبـــة في الأرض ذات الطـــول والعـــرض؛ وسلكـــت السبـــل، ورخـــا السعـــر، وأرقـُّـــوا الأغذيـــة، وشامـــوا النســـاء وطلبـــوا النســـل... واستمـــر عـــلى أهـــل قرطبـــة نحـــوا مـــن ثمانيـــة أشهـــر في أحســـن عشـــرة. ثـــم آنـــس منهـــم الكراهيـــة لدولتـــه. وبلغـــه أيضـــا قيـــام المرتـــضى بشـــرقي الأندلـــس. فعـــزم عـــلى إبـــادة أهـــل قرطبـــة وإخلائهـــا؛ فـــلا يعـــود لأئمتهـــم المروانييـــة سلطـــان آخـــر

غيــر أنـــه شعــر ــ بعدئــذ ــ مــن أهــل قرطبــة ميـــلا إلى أميـــر أمـــوي ظهـــر في شـــرق الأندلـــس؛ اسمـــه عبـــد الرحمـــن بـــن محمـــد بـــن عبـــد الملـــك بـــن عبـــد الرحمـــن الناصـــر؛ وقـــد تلقـــب بالمرتـــضى؛ وذلـــك في سنـــة 407هــ(1016م). عندهـــا تحـــول عـــن أسلوبـــه الأول الـــذي اتبعـــه في حكـــم قرطبـــة.[1] فأطلـــق أيـــدي أتباعـــه الأمازيـــغ عـــلى أهـــل المدينـــة ــ كـــرد فعـــل منـــه ضـــد أولئـــك السكـــان؛ الذيـــن قابلـــوا إحسانـــه بالإســـاءة، وجميـــل فعلـــه معهـــم بالنكـــران ــ فانتشـــر النهـــب فيهـــم مـــن جديـــد؛ وكثـــر العيـــث والفســـاد في البلـــدة؛ دون أن يجـــد سكانهـــا حمايـــة أو أذنـــا صاغيـــة لنجـــدة أو إغاثـــة.[2]

الدهــر؛ ثــم يعــود إلى ساحلــه، ويجمــع شمــل برابرتــه؛ فيضــرب بهــم جميــع الأنــدلــس. فانقلــب سريعــا ظــن التجمــل الــذي كــان يظهــره لهــم، وانصــرف إلى حزبــه البربــري فآثــره)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 97 ــ 99.

[1] قــال ابــن عــذاري: ((وانقلــب سريعــا عــن التجمــل الــذي كــان يظهــره لأهــل قرطبــة، وانصــرف إلى حزبــه البربــري فآثــره عليهــم لمــا أحــس منهــم الميــل إلى الخليفــة المرتــضى)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 123.

[2] ذكــر ابــن بســام أنــه: ((وبلغــه أيضــا قيــام المرتــضى بشــرقي الأندلــس؛ فعــزم عــلى إبــادة أهــل قرطبــة، وإخلائهــا؛ فــلا يعــودون إلى أئمتهــم المروانيــة سلطــان إلى آخــر الدهــر؛ ثــم يعــود إلى ساحلــه، ويجمــع شمــل برابرتــه؛ فيضــرب بهــم جميــع الأندلــس. فانقلــب سريعــا ظــن التجمــل الــذي كــان يظهــره لهــم، وانصــرف إلى حزبــه البربــري فآثــره، وأغــضى عــلى ســوء مــا كانــوا عليــه مــن الظلــم والحيــف؛ فوقــع أهــل قرطبــة في وغيرهــم في حالتهــم مــدة سليمــان مــن استيطالتهــم عليهــم. وصــب عــلى أهــل قرطبــة ضروبــا مــن التنكيــل والمغــارم؛ وانتــزع الســلاح

ولا بد ـ هنا ـ أن ننبه إلى تمسك أهل قرطبة وتشبثهم بالأمويين؛ مهما كانت صفاتهم، ومهما تعددت مثالبهم؛ إذ كان سكان هذه المدينة لا يرضون بديلا بهم؛ مهما توافرت في البديل من شروط الصلاح أو العدل، أو الكفاءة. ولعل الجواب عن هذا يكمن فيما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية**".[1] كما أن حياتهم الحضرية ونفوسهم الرقيقة، المرفهة، المتعالية كانت سببا مباشرا في تأففهم وكراهيتهم لمعاشرة الأمازيغ؛ المتميزين بالصفات البدوية في خشونتها وقساوتها. ومن جهة أخرى فإن الأمازيغ بدورهم ـ بحكم طبعهم البدوي ـ لا يخفون احتقارهم وسخريتهم من

منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم؛ ففتحوا له أبوابا من البلايا أهلك بها الأمة؛ وتقربوا إليه بالسعاية)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 99.

[1] ومما جاء في هذا الفصل: ((والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الأنقيا لها إلا بقوة قوية من الغلب؛ للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة؛ نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم؛ وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة)). المقدمة، ج: 2، ص: 632.

نعومـــة أهــل المــدن، ورقــة عاداتهــم، وهشاشـــة عظامهــم، وســوء أخلاقهــم.[1]

ومـــع هــذا لــم يهنــأ عــلي بــن حمــود مــدة طويلــة بخلافــة المسلميــن في قرطبــة؛ إذ تعــرض لمؤامــرة اغتيــال؛ بعــد واحــد وعشريــن شهــرا وسبعــة أيــام[2] مــن يــوم بيعتــه؛ وبالتحديــد في ذي القعــدة مــن سنــة 408هــ(1017م). ونسبــت المصــادر اغتيالــه إلى بعــض صبيانــه الصقالبــة؛ وتــم ذلــك داخــل حمــام قصــره.[3]

---

[1] تكلــم ابــن خلــدون في هــذا حيــن قــال: ((وأهــل الحضــر لكثــرة مــا يعانــون مــن فنــون المــلاذ وعوائــد التــرف والإقبــال عــلى الدنيــا والعاكفــون عــلى شهواتهــم منهــا؛ قــد تلوثــت أنفسهــم بكثيــر مــن مذمــات الخلــق والشــر، وبعــدت عليهــم طــرق الخيــر ومسالكــه بقــدر مــا حصــل لهــم مــن ذلــك. حــتى لقــد ذهبــت عنهــم مذاهــب الحشمــة في أحوالهــم.... وأهــل البــدو وإن كانــوا مقبليــن عــلى الدنيــا مثلهــم إلا أنــه في المقــدار الضــروري لا في التــرف ولا في شــيء مــن أسبــاب الشهــوات واللــذات ودواعيهــا. فعوائدهــم في معاملاتهــم عــلى نسبتهــا؛ ومــا يحصــل فيهــم مــن مذاهــب الســوء ومذمومــات الخلــق بالنسبــة إلى أهــل الحضــر أقــل بكثيــر. فهــم أقــرب إلى الفطــرة الأولى، وأبعــد عمــا ينطبــع في النفــس مــن ســوء الملكــات بكثــرة العوائــد المذمومــة قبحهــا؛ فيسهــل علاجهــم عــن عــلاج الحضــر)). المقدمــة، ج: 2، ص ص: 584 ــــ 585.

[2] الذخيــرة، ج: 1، ق: 1، ص: 102. وحددهــا المراكــشي بــ((عاميــن غيــر شهريــن)). المعجــب، ص: 50. بينمــا يقــول ابــن عــذاري أنــه حكــم سنــة وتسعــة اشهــر وتسعــة أيــام. البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 120. أمــا المقــري فذكــر أن بعضهــم حققوهــا بإحــدى وعشريــن شهــرا وستتــة أيــام. نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 483.

[3] راجــع مــا كتبــه ابــن خلــدون ضمــن: ((فصــل في أن إرهــاف الحــد مضــر بالملــك ومفســد لــه في الأكثــر)). المقدمــة، ج: 2، ص ص: 684 ــ 686.

ولمـا اكتشفت الجريمة سارع أنصاره ــ من القادة والأعيان الأمازيغ ــ إلى إعلام أخيه القاسم؛ الذي كان واليا على إشبيلية. فخاف أن تكون مكيدة قد أعدت له؛ لذا فقد اكتفى ــ في البداية ــ بإرسال من يستطلع صحة الخبر. ولما تحقق من موت أخيه ذهب إلى قرطبة؛ حيث تولى تجهيز أخيه الذي دفن في سبتة. وبعدها بحثوا عن الجناة؛ فاتضح أنهم من صقالبة القصر؛ فقبضوا على بعضهم؛ حيث قتلوا ثم صلبوا على جسر قرطبة. هذا وترك علي ابن حمود من الأولاد: يحيى الذي ولاه سبتة، وإدريسا الوالي على مالقة.[1]

ــ حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:

عقدت البيعة للقاسم بن حمود؛ في سادس يوم من وفاة أخيه علي بن حمود؛ ولقب في ذلك اليوم بالمأمون؛ وكان أكبر من أخيه سنا بعشر سنين.[2] ويقال أنه تشَيَّعَ سراً ولم يظهر ذلك علنا؛ كما أنه لم يحاول تغيير ما كان عليه الناس في مذهبهم.[3] هذا ولم يهنأ هو الآخر طويلا بمنصبه؛ إذ تميز عهده بالاضطراب والانقطاع. حيث

---

[1] الجمهرة، ص: 51. المغرب، ص: 133. والمعجب، ص: 50. والكامل، ج: 7، ص: 286

[2] يرى ابن عذاري أنه يكبره بأربع سنوات فقط. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

[3] العجب، ص: 50. الكامل في التاريخ، ص: 286.

حكـــم قرطبـــة فترتيـــن؛[1] تخللهمـــا انقطـــاع لمـــدة عـــام ونصـــف تقريبـــا؛ تغلـــب خلالهـــا عليـــه ابـــن أخيـــه يحـــيى ابـــن عـــلي بـــن حمـــود؛ الـــذي كـــان واليـــا عـــلى سبتـــة.[2] وهكـــذا تحقـــق مـــا لـــم يكـــن ينتظـــره القاســـم؛ لأنـــه ـــ كمـــا يبـــدو ـــ يكـــون قـــد اقتنـــع ـــ منـــذ الوهلـــة الأولى ـــ ورضي بمـــا تحصـــل عليـــه مـــن ولايـــة ممثلـــة في حكـــم إشبيليـــة. ولكـــن شـــاءت الأقـــدار أن يصبـــح فجـــأة وبـــدون تخطيـــط خليفـــة للمسلميـــن. وعليـــه فقـــد استهـــل الفتـــرة الأولى مـــن حكمـــه ـــ الـــتي بـــدأت في ذي القعـــدة مـــن سنـــة 408هـــ(1017م) ـــ بمظهـــر الحاكـــم الجـــاد والحـــازم والعـــادل؛ إذ أظهـــر ميـــلا إلى إصـــلاح الحـــال، ورعايـــة شئـــون العبـــاد، وتنميـــة أسبـــاب المعـــاش والعمـــران، وكـــان يتصـــف بالرفـــق، وحســـن السياســـة للرعيـــة.

غيـــر أنـــه ـــ مـــع مـــرور الأيـــام ـــ ظهـــر عليـــه شـــيء مـــن الضعـــف والخـــذلان؛ أمـــام قـــوة العصبيـــة الـــتي اعتمـــد عليهـــا في بدايـــة أمـــره؛ وتتمثـــل تلـــك العصبيـــة في قبائـــل الأمازيـــغ. ويبـــدو أنـــه كـــان أسيـــر فضلهـــم عليـــه؛ ولكنـــه عندمـــا استثقـــل هيمنتهـــم، وتضايـــق مـــن شـــدة تغلبهـــم عليـــه وعـــلى شئـــون الدولـــة ـــ باحتكـــار المناصـــب الحساســـة فيهـــا لصالحهـــم ـــ جعلـــه يســـعى جاهـــدا لـــكي يتخلـــص ـــ نوعـــا مـــا ـــ مـــن ثقـــل وطأتهـــم.

---

[1] دامـــت الفتـــرة الأولى مـــن ذي القعـــدة سنـــة 408هـــ إلى ربيـــع الآخـــر سنـــة 412هـــ. أمـــا الفتـــرة الثانيـــة فبـــدأت بـــذي القعـــدة من سنة 413هـــ إلى شعبان من السنة نفسهـــا.

[2] المغـــرب، ص: 133. والبيـــان المغـــرب، ج: 3، ص ص: 124 ــ 125. 130 ــ 131.

لــذا فقــد أراد خلــق بعــض التــوازن في القــوى؛ حيــث شــرع في اصطنــاع جماعــات مــن الســودان؛ الذيــن أسنــد إليهــم بعــض المهــام الحساســة في الدولــة.[1] وهنــا تحركــت العصبيــة الأمازيغيــة الــتي وجــدت أنــه مــن واجبهــا الدفــاع عــن مصالحهــا؛ ومنــع تحقيــق مــا يخطــط لــه القاســم بــن حمــود. وهنــا يتبيــن بوضــوح صــدق المقولــة الــتي ذكرهــا ابــن خلــدون ضمــن: "**فصــل في استظهــار صاحــب الدولــة عــلى قومــه وأهــل عصبيتــه بالمــوالي والمصطنعيــن**" [2]

[1] قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((وزاد كلــف القاســم في اتخــاذ الســودان؛ وقودهــم في أعمالــه؛ إلى أن ضعــف أمــره، وتسلــط البرابــرة عليــه حــتى احتقــره. فكاتــب منــذر بــن يحــيى ـــ في الســر ـــ يبثــه شأنهــم، ويستنهضــه لتقويمهــم؛ فلــم يكــن فيــه فضــل لذلــك)). الذخيــرة، ق: **1**، مج: **1**، ص: **481**. وورد النــص نفســه في البيــان المغــرب، ج: **3**، ص: **130**.

[2] جــاء في قــول ابــن خلــدون: ((فــإذا جــاء الطــور الثــاني وظهــر الاستبــداد عنهــم، وانفــرد بالمجــد، ودافعهــم عنــه بالــراح؛ صــاروا ـــ في حقيقــة الأمــر ـــ مــن بعــض أعدائــه؛ واحتــاج في مدافعتهــم عــن الأمــر، وصدهــم عــن المشاركــة إلى أوليــاء آخريــن؛ مــن غيــر جلدتهــم يستظهــر بهــم عليهــم، ويتولاهــم دونهــم؛ فيكونــون أقــرب إليــه مــن سائرهــم، وأخــص بــه قربــا واصطناعــا، وأولى إيثــارا وجاهــا؛ لمــا أنهــم يستميتــون دونــه في مدافعــة قومــه عــن الأمــر الــذي كــان لهــم، والرتبــة الــتي ألفوهــا في مشاركتهــم؛ فيستخلصهــم صاحــب الدولــة حينئــذ، ويخصهــم بمزيــد التكرمــة والإيثــار؛ ويقســم لهــم مثــل مــا للكثيــر مــن قومــه، ويقلدهــم جليــل الأعمــال والولايــات مــن الــوزارة والقيــادة والجبايــة؛ ومــا يختــص بــه لنفســه؛ وتكــون خاصــة لــه دون قومــه مــن ألقــاب المملكــة؛ لأنهــم حينئــذ أوليــاؤه الأقربــون ونصحــاؤه المخلصــون. وذلــك حينئــذ مــؤذن باهتضــام الدولــة، وعلامــة عــلى المــرض المزمــن فيهــا؛ لفســاد العصبيــة الــتي كــان بنــا الغلــب عليهــا،

وبالفعل فقد جاءت الفرصة المواتية للأمازيغ كي يعطوا للقاسم درسا قاسيا. وبالفعل تم لهم ذلك حينما بدأ يحيى ابن أخيه علي؛ ــ الذي كان واليا على سبتة ــ في المشاغبة، وإظهار شيء من العصيان؛ حيث أخذ يحرض رؤساء القبائل الأمازيغية ضد عمه؛ بهدف ضمان وقوفهم معه في وجه القاسم، ومساعدته في انتزاع ما اغتصب منه بعد موت والده.[1] ولما عرض القاسم أمر ابن أخيه على رؤساء القبائل الأمازيغية؛ تثاقلوا عن نصرته؛ بحجة أنه شأن عائلي بينهما؛ ولا يجوز الدخول بين حسنيين اثنين. وعندما تحرك يحيى نحو قرطبة لم يجد القاسم أمامه سوى الهروب إلى إشبيلية؛ مركز ولايته في السابق. ولم يرافقه إلا خمسة فرسان من خاصته المقربين. وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة 412هـ(1021م). وبقي أنصاره السابقون من الأمازيغ والسودان في قرطبة؛ حيث قاموا بضبط البلدة؛ وإعداد القصر لوصول يحيى؛ ولما وصل سلموا له الأمر.[2]

ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان؛ فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر)). المقدمة، ج: 2، ص: 677.

[1] **أنظر نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.**

[2] **الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 482.**

تلــك هي الفتــرة الأولى مــن حكــم القاســم (المأمــون) في قرطبــة؛ أمــا الفتــرة الثانيــة فبــدأت بعــد انقــلاب الأمازيــغ عــلى ابــن أخيــه يحــيى بــن عــلي؛ ممــا أجبــره عــلى الهــروب ــ هــو الآخــر ــ إلى مالقــة تحــت جنــح الليــل.

فمــا كــان مــن القاســم ــ لمــا سمــع بخبــر خــروج يحــيى إلى مالقــة فــارا ــ إلا أنــه تحــرك مــن فــوره والتحــق بقرطبــة مــن جديــد؛ وتــم ذلــك في ذي القعــدة مــن سنــة 413هــ(1022م). ومــع هــذا لــم تــدم الفتــرة الثانيــة مــن حكمــه طويــلا؛ إذ ثــار عليــه أهــل قرطبــة؛ في شعبــان مــن عــام 414هــ(1023م)؛ بدعــوى أنهــم لــم يحتملــوا تسلــط الأمازيــغ في الأســواق.[1] بينمــا يقــول ابــن بســام: ((**فتكنــف سريــره أغمــار النــاس مــن البرابــر؛ وخرجــوا** [أي أهــل قرطبــة] **لقتالهــم سنــة أربــع عشــرة**)).[2] ويتفــق ابــن الخطيــب مــع هــذا الــرأي أيضــا.[3]

---

[1] البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 134.

[2] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 485.

[3] إذ يقــول: ((وفســد مــا بينــه [أي القاســم] وبيــن أهــل المدينــة؛ بسبــب مــن حفــه مــن البرابــرة)). أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 133. أمــا ابــن الأثيــر فيــرى أن استيــلاء يحــيى وإدريــس عــلى الجزيــرة الخضــراء وطنجــة؛ شجــع النــاس عــلى العصيــان؛ إذ يقــول: ((فلمــا ملــك ابنــا أخيــه بــلاده طمــع فيــه النــاس؛ وتسلــط البربــر عــلى قرطبــة فأخــذوا أموالهــم؛ فاجتمــع أهلهــا وبــرزوا إلى قتالــه عاشــر جمــادى الأولى سنــة أربــع عشــرة [وأربعمائــة] فاقتتلــوا قتــالا شديــدا؛ ثــم سكنــت الحــرب، وأمــن بعضهــم بعضــا إلى منتصــف جمــادى الآخــرة مــن السنــة؛ والقاســم بالقصــر يظهــر التــودد لأهــل قرطبــة وأنــه معهــم وباطنــه مــع البربــر؛ فلمــا كــان

أمـا المقـري فيتعمـق في الشـرح بعـض الـشيء؛ بحيـث يفهـم مـن قولـه أن الاحتقـان بيـن الطرفيـن ربمـا كـان بسبـب التضييـق عـلى أهـل قرطبـة؛ أثنـاء البحـث عـن بعـض الأموييـن المشتبـه في أمرهـم؛ بعـد أن أشيـع أن قائمـا منهـم سـوف يظهـر.[1]

ولمـا عـاد القاسـم إلى إشبيليـة مهزومـا مـن قرطبـة؛ وجـد أبوابهـا مقفلـة في وجهـه؛ بتدبيـر مـن القـاضي محمـد بـن إسماعيـل بـن عبـاد؛ الـذي أوهـم سكـان المدينـة بـأن القاسـم سيسكـن مـن معـه مـن الأمازيـغ في مساكـن الإشبيلييـن. ومـن جهـة أخـرى فـقـد أغـرى ــ صاحـب القاسـم وثقتـه ــ محمـد بـن

يـوم الجمعـة منتصـف جمـادى الآخـرة صـلى النـاس الجمعـة؛ فلمـا فرغـوا تنـادوا السـلاح السـلاح؛ فاجتمعـوا ولبسـوا السـلاح وحفظـوا البلـد، ودخلـوا قصـر الإمـارة؛ فخـرج عنهـا القاسـم...)). الكامـل، ج: 7، ص: 286. ويتفـق ابـن خلـدون مـع الـرأي القائـل بـأن تغلـب ابـني أخيـه عـلى حصونـه ومراكـزه في طنجـة والجزيـرة الخضـراء قـد شجـع النـاس عـلى التجاسـر عليه. العبـر، مج: 4، ص: 331.

[1] وقـد وصـف المقـري مـا حـدث بقولـه: ((ولـم تصلـح الحـال للقاسـم منـذ وصـل إلى الحضـرة. ووقـع الاختـلاف؛ وكـان هـوى السـودان معـه، وهـوى كثيـر مـن البرابـر مـع يحـيى، وهـوى أهـل قرطبـة مـع قائـم مـن بـني أميـة يشيعـون ذكـره ولا يظهـر؛ وكثـر الإرجـاف بذلـك، ووقـع الطلـب عـلى بـني أميـة؛ فتفرقـوا في البـلاد، ودخلـوا في أغمـار النـاس، وأخفـوا زيهـم. ثـم إن الخـلاف وقـع بيـن البربـر وأهـل قرطبـة؛ وتكاثـر البلديـون، وأخرجـوا القاسـم وبرابرتـه؛ فضـرب خيمـة بغربيهـا، وقاتلهـم مـدة خمسيـن يومـا قتـالا شديـدا... وفـر السـودان مـع القاسـم إلى إشبيليـة، وفـر البرابـرة إلى يحـيى وهـو بمالقـة؛ وكـان فـرار القاسـم مـن ظاهـر قرطبـة يـوم الخميـس لثنـتي عشـرة ليلـة خلـت مـن شعبـان سنـة 414هــ)). نفـح الطيـب، ج: 1، ص: 487.

زيـــري بـــن دونـــاس اليفـــرني، وأطمعـــه في إمـــارة البلـــدة إن هـــو ساعدهـــم عـــلى منـــع دخـــول القاســـم إلى قرطبـــة.[1]

وبهـــذا لـــم يجـــد القاســـم بـــدا مـــن الخضـــوع لإرادتهـــم؛ نظـــرا لكـــون أهـــل البلـــد حاصـــروا ابنـــه محمـــدا في دار الإمـــارة؛ وساومـــوه عـــلى فـــك الحصـــار عنـــه والسمـــاح لـــه بالخـــروج مـــن إشبيليـــة؛ مقابـــل أن يرفـــع هـــو بـــدوره الحصـــار عـــن المدينـــة ويتخـــلى عـــن المطالبـــة بهـــا. فلـــم يجـــد القاســـم أمامـــه اختيـــارا آخـــر غيـــر القبـــول بشروطهـــم؛ كسبـــا للوقـــت. وتحـــول إلى شريـــش؛ حيـــث بـــقي هنـــاك بعـــض الوقـــت. وفي تلـــك المدينـــة ازدادت محنتـــه؛ حيـــن تفـــرق مـــن حولـــه جـــل أنصـــاره مـــن الأمازيـــغ، الذيـــن التحقـــوا بابـــن أخيـــه المعتـــلي يحـــيى بـــن عـــلي بمالقـــة؛ وذلـــك في سنـــة 415هـــ(1024م).[2]

---

[1] وفي هـــذا يقـــول ابـــن خلـــدون: ((ولحـــق المأمـــون بإشبيليـــة وبهـــا ابنـــه محمـــد، ومحمـــد بـــن زيـــري مـــن رجـــالات البربـــر؛ فأطمعـــه القـــاضي محمـــد بـــن إسماعيـــل ابـــن عبـــاد في الملـــك؛ وأن يمتنعـــوا مـــن القاســـم؛ فمنعـــوه، وأخرجـــوا إليـــه ابنـــه، وضبطـــوا بلدهـــم. ثـــم اشتـــد ابـــن عبـــاد وأخـــرج محمـــد بـــن زيـــري)). العبـــر، مج: 4، ص: 232. ويتفـــق مـــع هـــذا الـــرأي المقـــري فيقـــول: ((وأطمـــع [أي ابـــن عبـــاد] بـــن زيـــري في التملـــك؛ فأغلـــق الأبـــواب في وجـــه مصطنعـــه وحاربـــه؛ فقتـــل مـــن البربـــر والســـودان خلـــق كثيـــر؛ وابـــن عبـــاد يضحـــك عـــلى الجميـــع؛ فيئـــس القاســـم، وقنـــع أن يخرجـــوا إليـــه ابنـــه وأصحابـــه ويسيـــر عنهـــم؛ فأخرجوهـــم إليـــه؛ فســـار بهـــم إلى شريـــش)). نفـــح الطيـــب، ج: 1، ص: 488.

[2] العبـــر، مج: 4، ص: 332.

ولمـا تخلـص ابـن عبـاد مـن الخطـر الـذي كـان يمثلـه القاسـم؛ انقـض علـى محمـد بـن زيـري بـن دونـاس اليفـرني، وطـرده مـن إشبيليـة. وهكـذا لـم تفـد ابـن دونـاس خيانتـه للقاسـم صاحـب الفضـل عليـه. هـذا ولـم يطـل الحـال بالقاسـم في شريـش حـتى زحـف إليـه المعتـلي يحـيى بـن علـي فحاصـره فيهـا، وقاتلـه قتـالا شديـدا، ثـم ضيـق عليـه حـتى استسلـم؛ فنقلـه معـه إلى مالقـة؛ أيـن رمـاه في الأسـر حـتى مـات، أو قتـل في السجـن سنـة 427هـ(1035م) كمـا قـال بعضهـم.[1] هـذا وخلـف القاسـم مـن الأولاد: محمـدا الـذي تسـمى بالخلافـة في الجزيـرة الخضـراء، والحسـن الـذي تنسـك ولبـس الصـوف، ثـم توجـه إلى الحـج.[2]

وفي عهـد القاسـم بـن حمـود قتـل عبـد الرحمـن ابـن محمـد بـن عبـد الملـك (المرتـضى)؛ الأميـر الأمـوي الثائـر بشـرق الأندلـس.[3] وكـان زهيـر الفـتى، وخيـران الصقلـبي، ومنـذر بـن يحـيى التجيـبي ـ في قومـه ومعـززا بجماعـة مـن فرسـان الفرنـج ـ وسليمـان بـن هـود ـ مدعومـا هـو الآخـر بفرسـان مـن الفرنـج وآخريـن ـ قـد اتفقـوا علـى تنصيبـه

---

[1] الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 485 ـ 486. ويقـول المراكـشي وابـن الأثيـر أنـه قتـل في سنـة 431هـ. المعجـب، ص ص: 51 ـ 52. والكامـل، ج: 7، ص: 287. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 135. والعبر، مج: 4، ص: 332. نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[2] ويـرى ابـن حـزم أن ابـني الحسـن هذا هما: هاشـم وعقيـل. الجمهرة، ص ص: 50.

[3] جعـل المراكـشي وابـن الأثيـر خبـر المرتـضى ومقتلـه في عهـد علـي بـن حمـود. المعجـب، ص ص: 49 ـ 50. الكامـل، ج: 1، ص: 285.

خليفـــة؛ ومحاربـــة القاســـم ومـــن معـــه مـــن الأمازيـــغ. ثـــم زحفــوا جميعــا معـــه ــ في قـــوة عظيمـــة ــ نحـــو قرطبـــة؛ ولكنهـــم اشتبكـــوا في الطريـــق ببـــني زيـــري عنـــد حـــدود إمـــارة غرناطـــة؛ فانهـــزم جيـــش المرتـــضى، ونهبـــت محلتـــه، وتشتـــت أنصـــاره. ومـــن المفارقـــات العجيبـــة أن الذيـــن نصبـــوا المرتـــضى ونـــادوا بـــه خليفـــة للمسلميـــن هـــم الذيـــن تسببـــوا في هزيمتـــه؛ بعـــد خيانتـــه، إذ تركـــوه فريســـة لعـــدوه.[1] بـــل هـــم الذيـــن قتلـــوه عندمـــا فـــر هاربـــا.[2]

---

[1] قـــال ابـــن بســـام: ((وأول مـــن انهـــزم مـــن ذلـــك العسكـــر منـــذر بـــن يحـــيى وخيـــران الصقلـــبي. وكـــان منـــذر قـــد أوقـــع في نفـــوس مـــدده مـــن رجـــال الإفرنجـــة الذعـــر مـــن غـــدر المـــوالي العامرييـــن؛ فشغـــل بذلـــك بالهـــم. فلمـــا انهـــزم لـــم يعرفـــوا الســـر؛ وأجفـــل منـــذر في أصحابـــه الثغرييـــن؛ فمـــر بسليمـــان بـــن هـــود صاحبـــه وهـــو مثبـــت للإفرنجـــة لا يريـــم موقفـــه. فصـــاح بـــه: النجـــاة يـــا بـــن الفاعلـــة. فلســـت أقـــف عليـــك. فقـــال لـــه سليمـــان: جئـــت واللـــه بهـــا صلعـــاء، وفضحـــت أهـــل الأندلـــس؛ ثـــم انقلـــع وراءه ببقيـــة عسكـــره؛ وانقلـــع أيضـــا خيـــران برجالـــه. وصبـــر المـــوالي العامرييـــن قليـــلا حـــول صاحبهـــم المرتـــضى)). الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 454 ــ 455. وممـــا نقلـــه ابـــن بســـام أيضـــا عـــن ابـــن حيـــان قولـــه: ((وذلـــك أنـــه لمـــا انهـــزم المرتـــضى؛ قـــال زاوي لقومـــه: "كيـــف رأيتـــم مـــا قـــد خلصنـــا منـــه؟" قالـــوا: "عظيمـــا". قـــال: "فـــلا تنســـوه وتغالطـــوا أنفسكـــم بعـــده؛ إن انهـــزام مـــن رأيتموهـــم لـــم يكـــن مـــن قـــوة منـــا. وإنمـــا جـــره مـــع القضـــاء غـــدر ملوكهـــم لسلطانهـــم ليهلكـــوه كمـــا فعلـــوا؛ فـــإني عرفـــت ذلـــك مـــن يـــوم نزولهـــم)). نفســـه، ص: 458.

[2] أنظـــر الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 453 ــ 458. والبيـــان المغـــرب، ج: 3، ص ص: 125 ــ 130. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص ص: 130 ــ 131. ونفـــح الطيـــب، ج: 1، ص ص: 484 ــ 486.

هـذا واستـولى بنـو زيـري عـلى مـا في محلـة المرتـضى ـ بعـد هزيمتـه ـ مـن: أنـواع السـلاح وصنـوف الذخائـر وعتـاق الخيـل ومختلـف الأحمـال وأزهى القبـاب. ولـم ينـس زاوي بـن زيـري بـن منـاد أميـر الصنهاجيين أن يرسـل إلى القاسـم بـن حمـود سهمـه مـن الغنيمـة؛ بصفتـه الخليفـة المعتـرف بـه.[1] وبهـذا أصبحـت الأندلـس كلهـا نهبـا للأقويـاء؛ مـن القبائـل العربيـة، والأمازيغيـة، وبعـض الكتـل والعصابـات مـن المماليـك الصقالبـة، والفتيـان العامرييـن والنصـارى وغيرهـم؛ حـدث ذلـك كنتيجـة لتلـك المعركـة الـتي وقعـت بيـن المرتـضى وبـني زيـري في سنـة 409هـ(1018م). وبالمقابـل تأكـدت نهايـة الحكـم الأمـوي نهائيـا في تلـك الربـوع؛ وذلـك عـلى الرغـم مـن المحـاولات الفاشلـة الساعيـة في قرطبـة لإحيـاء دولتهـم.[2]

---

[1] قـال ابـن الخطيـب: ((وورد عـلى القاسـم بـن حمـود الخبـر بمقتـل المرتـضى، وهزيمـة الأندلسييـن مـن قبـل زاوي مـع سهمـه مـن الغنيمـة؛ وفي الجملـة سـرادق المرتـضى؛ فسـر بذلـك، وضـرب السـرادق عـلى نهـر قرطبـة؛ وغشيـه النـاس ينظـرون إليـه؛ وقلوبهـم تتقطـع أسىً وحسـرة)). أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 131.

[2] للتوسـع في دولـة بـني حمـود يستحسـن الرجـوع إلى الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 35 ـ 59. 96 ـ 102. 452 ـ 461. 468 ـ 486. والبيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 115 ـ 144. 216 ـ 220. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 128 ـ 143. والعبـر، مج: 4، ص ص: 330 ـ 336. ودولـة الإسـلام في الأندلـس (العصـر الأول ـ القسـم الثـاني)، ص ص: 656 ـ 677.

وفي هـذا يقـول ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: **((فحلـت بهـذه الوقعـة عـلى جماعـة مـن الأندلـس مصيبـة سـوداء أنسـت مـا قبلهـا؛ ولـم يجتمـع لهـم عـلى البربـر جمـع بعـد؛ وأقـروا بالإدبـار، وبـاءوا بالصغـار. وورد عـلى القاسـم كتـاب زاوي بشرحهـا مـع نصيبـه مـن الغنيمـة؛ وفي جملتهـا سـرادق المرتـضى. فضربـه القاسـم عـلى نهـر قرطبـة، وغشيـه مـن النظـارة جملـة مـن عليـة النـاس؛ وقلوبهـم تتقطـع حسـرة منـه. فركـدت ريـح المروانيـة مـن ذلـك الوقـت)).**[1]

وكـان المرتـضى عبـد الرحمـن بـن محمـد هـذا ــ كغيـره مـن أمـراء الأسـرة الأمويـة ــ يحقـد عـلى الأمازيـغ، ويعلـن تعصبـه ضدهـم؛ بسبـب نصرتهـم السابقـة للعامرييـن. وكـان يحملهـم مسئوليـة التفكـك والانهيـار الـذي أصـاب الدولـة الأمويـة في أواخـر أيامهـا. ومـن منظوماتـه الـتي تفيـض بالعـداء للأمازيـغ قولـه:

---

[1] الذخيـرة، ق: 1، ص ص: 455 ــ 456. وراجـع النـص نفسـه تقريبـا في: البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 127 ــ 128. وأعمـال الأعـلام ق: 2، ص: 131. ونفـح الطيـب، ج: 1، ص: 486.

قــدْ بَلــغَ البَرْبــرُ فِينــا بنــا
مَــا أفسَدَ الأحْــوَالَ وَالنظمَــا
كَالسَّهْــمِ لِلطَّائِــرِ لوْلاَ الــذِي
فِيــهِ مِنَ الرِّيــشِ لمَا أصْــمَى
قومُــوا بِنا فِي شَأنِهــمْ قوْمَــة
تزِيــلُ عَنــا العَــارَ وَالرَّغمَــا
إمَّــا بِهَا نمْلــكُ، أوْ لاَ نــرَى
مَا يَرجــعُ الطــرْفُ بهِ أعْــمَى

وقــد أنشــد محمــد بــن سليمــان بــن الحنــاط الكفيــف شاعــر بــني حمــود قصيــدة أمــام القاســم مشيــدا بالانتصــار عــلى المرتــضى وأتباعــه؛ جــاء في مطلعهــا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْــرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ
وَأصبْــحَ مُلكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود:

كان يحيى بن علي بن حمود ـ في عهد والده ـ والياً على سبتة، بينما اختص أخوه إدريس بولاية مالقة. وكانت في نفس يحيى غصة من عمه؛ بسبب اعتقاده أنه اغتصب منه الملك، واستولى على ميراثه الشرعي؛ نظرا لكونه هو ولي عهد أبيه.[1] غير أنه استسلم ـ في البداية ـ لمنطق القوة والغلبة؛ عندما فهم أن معظم القبائل الأمازيغية كانت تتعاطف مع عمه. ومع هذا فقد ظل يرى في نفسه أحق من عمه بالخلافة. ويرى أنه سبقه إلى العرش؛ منتهزا بعده عن عاصمة الدولة آنئذ؛ إذ أن وجوده في سبتة بالعدوة المغربية ساعد عمه القاسم في التربع على العرش بدلا منه. والراجح هنا هو أن السبب يعود أيضا إلى ميل القبائل الأمازيغية في البداية ـ وهم القوة الضاربة في قرطبة ـ إلى تنصيب القاسم. وربما عللوا موقفهم ـ كما جاء في بعض المصادر ـ إلى عدة أسباب؛ منها: أنهم أحسوا بأن القاسم غبن منذ البداية؛ إذ كان أسن من أخيه علي؛ الذي سبقه وتربع على سدة الخلافة في قرطبة.

---

[1] **يقول البكري: ((وكان له [أي علي بن حمود] من الولد يحيى وإدريس؛ وولى عهده منهما يحيى؛ وكان صاحب المغرب، وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة. فلما قتل علي استدعى البربر القاسم أخاه، وأدخلوه القصر، وبايعه الناس، وخطب له بالخلافة؛ فأنف من ذلك ابن أخيه يحيى؛ لما تقدم من عهد أبيه له)). المغرب، ص: 1333.**

ثم إن الوضع السياسي في تلك المدينة آنئذ ـ أي يوم قتل علي ـ لم يكن يسمح بالتريث والانتظار حتى يأتي يحيى بن علي من سبتة؛ التي كانت أبعد من إشبيلية.[1] وبحكم هذه المسوغات فقد وجد يحيى نفسه ـ في البداية ـ مضطرا للخضوع للأمر الواقع على مضض؛ ولكنه لم يستسلم إليه بشكل مطلق.

وعليه فقد شرع في الإعداد الهادئ لاستعادة ما سلب منه. إذ شرع في تعزيز موقفه عن طريق أخيه إدريس في مالقة؛ لكي يسهل عليه التحرك فيما بعد. وبالفعل فقد كان منطلقه عند زحفه إلى قرطبة؛ عبر تلك المدينة الساحلية. وجاءت الفرصة بسرعة؛ لما شعر ببوادر الضيق والخلاف التي أخذت تدب بين رؤساء القبائل الأمازيغية وعمه؛ جراء اصطناع جماعة من السودان؛ فسارع من فوره إلى تأجيج غيظهم، وتحذيرهم من خطط عمه التي يعمل على تحقيقها؛ باستخدام فرق من السودان لحماية ملكه؛ وإضعاف نفوذ القبائل الأمازيغية.[2]

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 484.**

[2] **يقول المقري: ((وكتب [يحيى] من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: "إن عمي أخذ ميراثي من أبي؛ ثم إنه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان. وأنا أطلب ميراثي، وأوليّكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس"؛ فأجابوه إلى ذلك. فجمع ما عنده من المراكب؛ وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة؛ فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع**

وبالفعل وجد نداؤه وتحذيره صدى لدى رؤساء الأمازيغ؛ خاصة وأنهم أصبحوا بالفعل متذمرين من سلوك القاسم الرامي إلى إضعاف نفوذهم؛ والانفراد بمجد الملك وحده؛ دون حساب لمقتضى المشاركة التي تجمعهم وإياه فيه؛ بحكم أن ذلك الملك نشأ بفضل سيوفهم وغلبتهم.[1] ولهذا فقد لبوا هذه المرة بسهولة نداء يحيى، وأبدوا تفهمهم واستعدادهم لدعمه وتأييده. فبادر على الفور بالإعداد لغزو قرطبة، والإطاحة بعمه؛ فكان أول عمل قام به بعد أن جهز نفسه عسكريا وماديا؛ هو قطع الدعوة لعمه، ثم انتقل إلى مالقة ومنح لأخيه إدريس ولاية سبتة.

أخيه؛ وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكد المودة؛ فقال له أخوه إدريس: "إن خيران رجل خداع" فقال يحيى: "ونحن منخدعون فيما لا يضرنا". ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة؛ واثقا بأن البرابر معه؛ ففر القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت 28 من شهر ربيع الآخر سنة 412هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[1] راجع الفصول التالية في مقدمة ابن خلدون: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)). نفسه، ص ص: 649 ــ 650. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.

ولما أحس بضعف عمه القاسم؛ وتأكد من عجزه عن التصدي له؛ بدأ بالزحف إلى قرطبة؛ في قوة كبيرة يؤازره فيها زاوي بن زيري أمير غرناطة. فاستنجد القاسم بأنصاره الأمازيغ؛ فتثاقلوا ولم يلبوا طلبه؛ بحجة أن الخلاف حاصل بين حسنيين؛ وذلك شأن داخلي بينهما.[1] عندها لم يجد القاسم مفرا من الخروج هاربا إلى إشبيلية؛ التي كان واليا عليها في السابق؛ ولم يرافقه إلا خمسة من الفرسان؛ وذلك عام 412هـ(1021م). ولما دخل يحيى بن علي إلى قصر الخلافة في قرطبة؛ عقدت البيعة له؛ حيث بايعته في المدينة جموع الأمازيغ والسودان وأهل البلد؛ وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة؛ وفيها لقب بالمعتلي بالله. ثم أسند خطة الكتابة إلى أحمد بن برد، والوزارة إلى محمد بن الفرضي.[2]

---

[1] الذخيرة، ق: 1 مج: 1، ص: 482.

[2] فمما كتبه ابن بسام عن التعيينات التي أقرها المعتلي: ((وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم؛ وحسن رأيه في أحمد بن برد وعول عليه في كتابته؛ واستخلص من الأندلسيين صحبه: جعفر بن محمد بن فتح والفقيه أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني؛ وولاه خطة الوزارة؛ فكادت الجبال تنهدُّ لهذه العظيمة؛ وجمح مركبها به؛ وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب؛ فكان أعدى من الجَرَب على دواته؛ وارتقبَ عقلاء الناس ـ عند ذلك ـ حلول المحنة؛ فقديما استعاذوا بالله من وزارة السّفلة. ووصَّل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، ورغبه في الإحسان إليه؛ فذاكره وحدثه ونوه به. وسما ـ في أيامه ـ

ومع هذا فقد عقد يحيى صلحا مع عمه؛ على أن يعترف كل واحد منهما بالآخر؛ فتسمى كلاهما بلقب خليفة.[1] وبذلك أصبح في قرطبة خليفة، وفي إشبيلية خليفة آخر؛ وهذا طبعا يدل على الضعف والهوان الذي أضحى عليه لقب خليفة في الأندلس.

وحتى يحيى بن علي هذا حكم قرطبة ــ مثل عمه ــ في فترتين: بدأت الأولى في جمادى الأولى من سنة 412هـ كما تم ذكره؛ وظل متربعا على سرير الحكم ــ في هذه الفترة ــ ما يناهز السنة وستة أشهر؛ ثم خرج فارا ــ كعمه أيضا ــ إلى مالقة؛ بعد أن ضاق به الحال في تلك المدينة المتقلبة. أما الفترة الثانية فأتت بعد أن عمل القرطبيون على تنصيب بعض الأمويين ــ من جديد في قرطبة ــ كخلفاء؛ وكان آخرهم المستكفي

أبو بكر بن ذكوان، وأبو العباس أحمد بن أبي حاتم أخوه؛ وأنهضهما إلى الوزارة عقب وفاة الشيخ أبي العباس بن ذكوان. وغَرب شأوُ أبي بكر منهم؛ فجاء أحوذيّاً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته)). الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 483.

[1] يقول ابن عذاري: ((وكان عمه القاسم بن حمود لما رأى جور البربر، وقلة طاعتهم؛ خرج من قرطبة إلى إشبيلية فارا منهم وخائفا، فاستقر بإشبيلية وهو يدعى له بالخلافة، ويتسمى بأمير المؤمنين؛ فخاطب البربر ــ من قرطبة ــ إلى ابن أخيه هذا يحيى بن علي؛ وأدخلوه قرطبة، وبويع بها ــ كما ذكرنا ــ وتسمى بالخلافة وإمرة المؤمنين، وتلقب بالمستعلي؛ (قال ابن حزم): "خليفتان تصالحا؛ وهو أمر لم يسمع بأذل منه، ولا أدل على إدبار الأمور؛ يحيى بن علي بن حمود بقرطبة، والقاسم بن حمود بإشبيلية")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 132 ــ 133.

محمد بن عبد الرحمن؛ فكان سيئ السيرة، فاسد الخلق، مهملا لشئون الحكم؛ فانفض من حوله أعيان البلدة؛ وخرج بعضهم – وعلى رأسهم الوزير الشاعر أحمد بن شُهَيد – إلى مالقة؛ مستنجدين بيحيى بن علي؛ آملين في عودته؛ بعد أن يئسوا من جدوى الاتكال على بني أمية.

عندئذ زحف يحيى – كرة أخرى – نحو قرطبة؛ لاستعادتها وضمها إلى مملكته؛[1] خاصة بعد أن خلا له الجو من منافسة عمه الذي أضحى سجينا عنده في مالقة. ودخل – كما جاء في بعض الأقوال – إلى قرطبة من جديد في شهر رمضان من سنة 416هـ(1025م). ولكنه لم يبق في المدينة أكثر من سنة؛ ثم خرج إلى مالقة – أيضا – وبالتحديد في شهر محرم من سنة 417هـ(1026م).

---

[1] **البيان المغرب، ج: 3، ص: 142. أما المراكشي وابن الأثير فيقولان – بصراحة – أنه لم يذهب إلى قرطبة بنفسه؛ وإنما بعث إليها عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني واليا عليها من قبله. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. كما يفهم من سياق ما كتبه ابن خلدون – بغموض – أنه اكتفى بإرسال الوالي المذكور. العبر، مج: 4، ص: 332.**

وذلك لأنه لم يعد يرغب في اتخاذها عاصمة لدولته؛ بعد أن ضاق بها وبأهلها المشاغبين؛ فترك فيها وزيره وكاتبه أحمد بن موسى[1] مع دوناس بن أبي روح. غير أن أهل قرطبة نقضوا عهدهم، وثاروا عليهما ــ كعادتهم ــ في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وذلك لما سمعوا بزحف مجاهد وخيران العامريين نحو قرطبة؛ من قبل حبوس بن ماكسن بن زيري.[2] ولكن مجاهد وخيران اختلفا؛ فخاف كل واحد من صاحبه؛ الأمر الذي جعل خيران ينسحب من قرطبة، ويعود إلى المرية.

وجملة القول يبدو أنه ــ على الرغم من ترحيب الناس بيحيى (المعتلي) في الفترة الأولى من حكمه لقرطبة ــ فإنهم سرعان ما تحولوا عن تأييده والقبول به. ويبدو أن السبب يعود إلى ما ورد في جل المصادر؛ من أنه من جهة وقع فريسة للعجب والغرور والتكبر؛ وذلك تبعا لما أظهره من كبر وزهو بنفسه، وما لجأ إليه من فرض الحجاب؛ والترفع عن الاستقبال ومباشرة

---

[1] **البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 143 ــ 144. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136. وأجمع كل من: عبد الواحد المراكشي وابن الأثير وابن خلدون والمقري على أن الذي ولاه يحيى على قرطبة هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. والعبر، مج: 4، ص: 332. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.**

[2] **الكامل، ج: 7، ص: 288. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 143. وذكر ابن الخطيب معهما اسم زهير؛ مع أنه في الحقيقة كان مساعدا لخيران. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136.**

القضايا بنفسه. ومن جهة أخرى أنه سقط في فخ بعض الوزراء والمستخدمين من السفلة والمنحطين. غير أن ثمة عاملا أخر أغضب بعض الفئات الفاعلة منه. حدث ذلك عندما طالبه رؤساء الأمازيغ بالوفاء بوعده لهم؛ بخصوص عزل السودان من مناصبهم التي حصلوا عليها أيام عمه القاسم؛ فأجابهم في شيء وتهرب من أشياء. عندئذ شرعوا في المشاغبة وإبداء مظاهر العصيان والتمرد. ولما اشتدت ضغوطهم؛ هرب جماعة كبيرة من السودان إلى عمه في إشبيلية؛ وبقي هو منفردا أمام الأمازيغ الساخطين من جهة، والقرطبيين المعارضين من جهة أخرى. وهكذا ساءت الحال بيحيى في قرطبة؛ فاختار بدوره – كعمه – الهروب منها، والالتحاق بمالقة. فما كان من الأمازيغ إلا الإسراع في استدعاء القاسم إلى قرطبة مرة ثانية؛ وذلك في سنة 413هـ(1022م). وكان من قبل متصلا بهم؛ عاملا على التحريض وبث الفتنة؛ مثلما سبق أن عمل يحيى بالضبط.

هـذا ولـم يطـل بقـاء القاسـم ــ كمـا سبقـت الإشـارة إليـه ــ في قرطبـة؛ إذ اضطـر هـو بـدوره إلى الخـروج منهـا مطـرودا بضغـط مـن سكانهـا؛ وذلـك في سنـة 414هـ(1023م). ويبـدو أنهـم ــ كمـا أشـار إلى ذلـك ابـن الأثيـر وابـن خلـدون ــ قد استضعفـوه بعـد أن وصلتهـم أخبـار أفـادت بتغلـب ابـن أخيـه يحـيى المعتـلي عـلى حصونـه ومراكـزه في الجزيـرة الخضـراء وطنجـة.[1]

****

ــ دولـة بـني حمـود خـارج قرطبـة:

وبخـروج القاسـم إلى إشبيليـة ويحـيى إلى مالقـة؛ أفـل شعـاع قرطبـة نهائيـا كحاضـرة للخلافـة بالأندلـس. وأصبحـت كغيرهـا مـن مـدن تلـك الديـار؛ تابعـة لمراكـز أخـرى؛ سـواء كانـت مالقـة أو طليطلـة أو إشبيليـة أو غيرهـا. وأضـحى. الحديـث ــ مـن جهـة أخـرى ــ عـن دولـة بـني حمـود لا يعـدو أن يكـون حديثـا عـن إمـارات متفرقـة للحموديـين ــ مثلهـا مثـل أي إمـارة مـن إمـارات الطوائـف ــ في: مالقـة أو في الجزيـرة أو في سبتـة؛ ثـم انحـدر بهـا الحـال شيئـا فشيئـا أخيـرا إلى مجـرد إمـارة صغيـرة في مدينـة مليلـة. ومـع هـذا فقـد أصـر أصحـاب تلـك الإمـارات

---

[1] **الكامـل، ج: 7، ص: 286. والعبـر، مج: 4، ص: 331.**

على إضفاء صفة الخلافة على ملكهم الهزيل.[1] وهذا ما جعل أبو محمد علي بن حزم يصرخ مستنكرا لما آلت إليه الأوضاع السياسية في الأندلس: ((**فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا ملها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام؛ كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين؛ ويُخطب لهم بها في زمن واحد. وهم: خَلَفٌ الحُصُريٌّ بإشبيلية؛ على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود بِبُبَشْتر**)).[2] وبالطبع فالذي يتحمل تبعات جل تلك الأوضاع الشاذة، والاضطرابات المدمرة ــ التي نسفت الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة الحمودية؛ وبالتالي مزقت بلاد الأندلس إلى دويلات وكيانات هزيلة؛ لا تقوى على الدفاع عن أمنها وأمن رعاياها ــ هي ظاهرة العصبية القبلية؛ تلك الظاهرة المرضية التي سادت بلاد الأندلس آنئذ.

---

[1] أعلن يحيى وأبناؤه أنفسهم خلفاء في مالقة؛ حيث تلقبوا بالألقاب الخلافية. وبالمقابل أعلن أبناء القاسم أنفسهم خلفاء في الجزيرة الخضراء؛ وتلقبوا ــ بدورهم ــ بالألقاب الخلافية. أنظر: الكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 286 ــ 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 144. 191 ــ 192. 216 ــ 219. والعبر، مج: 4، ص ص: 331 ــ 335. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 140 ــ 143.

[2] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء (ضمن كتاب رسائل ابن حزم الأندلسي)، ج: 2، ص ص: 97 ــ 98.

ـ حكومـــة المعتلي يحـــيى بن علي بن حمود في مالقـــة:

فمنـــذ البدايـــة كـــان يحـــيى يميـــل إلى الاستقـــرار في مدينـــة مالقـــة أكثـــر مـــن ميلـــه إلى قرطبـــة؛ تلـــك المدينـــة الـــتي لا تستقـــر عـــلى حـــال. وذلـــك لأن مالقـــة تحتـــل موقعـــا قريبـــا مـــن أنصـــاره وعصبيتـــه في الضفـــة المغربيـــة. لـــذا فعنـــد خروجـــه في المـــرة الثانيـــة مـــن قرطبـــة في سنـــة 417هـــ(1026م)؛ قـــرر أن يجردهـــا مـــن صفتهـــا السابقـــة كعاصمـــة للخلافـــة؛ ووضعهـــا في مصـــاف المـــدن الثانويـــة التابعـــة لمركـــز الخلافـــة في مالقـــة. لهـــذا فقـــد أسنـــد شئونهـــا إلى بعـــض معاونيـــه؛ كـــ: أبي جعفـــر أحمـــد بـــن مـــوسى، ودونـــاس بـــن أبي روح في قـــول، أو عبـــد الرحمـــن بـــن عطـــاف اليفـــرني في قـــول آخـــر.

وكـــان قـــد عمـــل ـ قبـــل هـــذا التاريـــخ، وبالتحديـــد في سنـــة 413هـــ(1022م) لمـــا خـــرج في المـــرة الأولى مـــن قرطبـــة ـ عـــلى تنظيـــم شئونـــه في مالقـــة؛ حيـــث تمســـك بإعـــلان نفســـه خليفـــة إلى جانـــب عمـــه خليفـــة إشبيليـــة. وبـــقي يترقـــب مـــا يجـــري في قرطبـــة وإشبيليـــة؛ حـــتى وصلتـــه أخبـــار هـــروب عمـــه القاســـم مـــن قرطبـــة للمـــرة الثانيـــة، وامتنـــاع إشبيليـــة عـــن استقبالـــه؛ الأمـــر الـــذي اضطـــره إلى اللجـــوء إلى شريـــش. عندهـــا لـــم يتـــرك يحـــيى هـــذه الفرصـــة تفوتـــه؛ لـــذا فقـــد زحـــف فـــورا إلى شريـــش؛ بنيـــة القتـــال ضـــد عمـــه؛ إذ حدثـــت بينهمـــا معـــارك شديـــدة؛ ضيـــق خلالهـــا يحـــيى الحصـــار عـــلى عمـــه حـــتى استسلـــم لـــه في الأخيـــر؛ فقـــام بأســـره؛ ثـــم نقلـــه معـــه إلى مالقـــة عاصمـــة ملكـــه. أيـــن كـــان

مصيره القتل في السجن سنة 427هـ(1035م).[1] في قول، أو في 431هـ(1039م) في قول آخر.

وكان يحيى بن علي يسعى جاهدا ــ منذ ترك قرطبة في المرة الأولى ــ إلى تمهيد دولته وتقويتها انطلاقا من مالقة؛ لذا فإنه لم يتراخ لحظة واحدة عن محاولة ضم مقاطعات جديدة لمملكته؛ من ذلك أنه تغلب على الجزيرة الخضراء؛ التي كانت إحدى مراكز عمه الخلفية؛ وفي الوقت نفسه تمكن أخوه إدريس ــ الوالي على سبتة ــ من التغلب على طنجة؛ التي كانت ــ أيضا ــ حصنا ومستودعا لذخائر عمه. ويعتبر خروج هاتين المقاطعتين الهامتين من يد القاسم؛ بمثابة الضربة القاصمة لسلطانه.

---

[1] شرح المقري سبب قتله بقوله: ((وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه، وإسلام أهل شَريشَ له، وفر سودانه؛ وحصل القاسم وابنه في يد يحيى؛ وكان قد أقسم أنه إن حصل في يده ليقتله، ولا يتركه حتى يلي الإمامة في قرطبة مرة ثانية؛ فرأى التربص في قتله = =حتى يرى رأيه فيه. فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالقة، وحبسه عنده؛ وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماؤه في الإبقاء عليه؛ لأنه لا قدرة له في الخلاص... وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه؛ لأنه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقة؛ فنمي إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان؛ فقال أوَبقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة 427هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488. وذكر عبد الواحد المراكشي أنه بقي في السجن في زمن كل من: يحيى وإدريس؛ ولم يقتل خنقا إلا بعد موت إدريس في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 ــ 52. أما ابن الأثير فيرى أن الذي قتل القاسم هو إدريس بن علي وليس يحيى. الكامل، ج: 7، ص: 287.

وتلا ذلك ـ بالفعل ـ اضطراب حاله في قرطبة، إذ أعلن سكانها عليه العصيان.[1] ولم يكتف يحيى بهذا فحسب؛ بل تحرك أيضا لقتال عمه في شريش كما سبق ذكره. حيث قبض عليه مع ولديه: محمد والحسن؛ حيث سجنهم بمالقة؛ وربما يكون ـ كما جاء في بعض الروايات ـ قد حبس ابني عمه في الجزيرة الخضراء.[2]

ولم يكتف المعتلي يحيى بن علي بما افتكه من عمه؛ بل أكره عددا من أمراء الأمازيغ؛ كي يتخلوا له عن بعض مدنهم وحصونهم؛ التي تغلبوا عليها من قبل. وقد اتخذ من تلك الحصون منطلقا لحصار إشبيلية والتضييق عليها؛ كي يجبر ابن عباد على التسليم له والإذعان للطاعة.[3] ويبدو أن بعض القبائل الأمازيغية لم تكن مخلصة الإخلاص كله للمعتلي؛ وما خضوعها وإعلان

---

[1] **العبر، مج: 4، ص: 331.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 332.**

[3] **يقول في هذا ابن الأثير: ((واتفق البربر على طاعته، وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن؛ فقوي وعظم شأنه، وبقي كذلك مدة ثم سار إلى قرمونة؛ فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا في أخذها)). الكامل، ج: 7، ص: 288. ويتفق معه ابن خلدون فيقول: ((وأقام يحيى المعتلي يخيفهم ويردد العساكر لحصارهم [يقصد هنا ملوك الطوائف] إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له؛ فعلا سلطانه واشتد أمره؛ وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره؛ فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية؛ إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله)). العبر، مج: 4، ص ص: 332 ـــ 333.**

طاعتها إلا سياسة مهادنة؛ الهدف منها كسب الوقت. وهذا ما يتضح من الاتفاق الذي عقد بين أمير بني برزال وابن عباد ضد يحيى بن علي. إذ تجلى ذلك في مساعدة البرزالي لابن عباد في قتل يحيى؛ بل يقال أن أمير البرزاليين محمد ابن عبد الله هو الذي قتل يحيى بيده سنة 426هـ(1034م) أو 427هـ في قول آخر.[1] وذكر في هذا ابن خلدون: ((**فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد؛ وقد كمنوا له؛ فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي؛ وانقطعت دولة بني حمود من قرطبة**)).[2] ولما قتل المعتلي وضع ابن عباد السيف في أنصاره؛ وكانوا في معظمهم من الأمازيغ؛ فتحركت النعرة والعصبية في صدر البرزالي؛ بسبب ما لحق ببني جلدته؛ فطلب من ابن عباد أن يرفع السيف عنهم. وفي هذا يقول ابن عذاري: ((**واستمرت** [أي عمليات القتل] **على أصحاب يحيى؛ حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالي، وبدت عصبيته لقومه؛ وكلم ابن عباد في**

---

[1] **أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 188. والعبر، مج: 4، ص: 333. بينما قال عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أنه قتل في المحرم من سنة 427هـ. المعجب، ص: 61. والكامل، ج: 7، ص: 288.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 333. وتوسعت المصادر الأخرى في شرح الكيفية التي قتل بها يحيى بن علي. منها الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص ص: 316 ـ 318. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 188 ـ 189. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 137.**

رفـــع السيـــف عنهـــم؛ فأطاعـــه في ذلـــك، وتـــم لأبـــن عبـــد اللـــه مـــا أراد مـــن حقـــن الدمـــاء؛ إذ لـــم يـــأت الـــذي أتـــاه إلا عـــن ضـــرورة)).[1] وتلـــك الضـــرورة لـــم تكـــن في الحقيقـــة ســـوى الرغبـــة في استعـــادة حصـــن قرمونـــة؛ الـــذي افتكـــه يحـــيى مـــن سيـــد بـــني بـــرزال؛ واتخـــذه منطلقـــا لحصـــار إشبيليـــة. هـــذا وقـــد تـــرك يحـــيى ولديـــن صغيريـــن همـــا: الحســـن وإدريـــس.[2]

****

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 189.**

[2] **الجمهـــرة، ص: 51. المعجـــب، ص: 54. والكامـــل، ج: 7، ص: 288.**

ـ الانقسام الثاني في أسرة بني حمود:

حدث الانقسام الأول ـ كما سبق شرحه ـ في سنة 412هـ(1021م)؛ عندما خرج يحيى بن علي ابن حمود عن طاعة عمه القاسم؛ حيث أعلن نفسه خليفة بقرطبة؛ في الوقت الذي احتفظ عمه القاسم بلقبه الخلافي في إشبيلية؛ حاضرة ملكه الجديدة. ولما استحوذ يحيى على ملك الحموديين بالأندلس، وانفرد بالحكم ـ بعد تغلبه على مراكز عمه الخلفية في الجزيرة وطنجة ـ زج بعمه في سجن مالقة؛ ثم حبس ولديه: محمدا والحسن بالجزيرة؛[1] حيث أوكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج. ولما قتل المعتلي يحيى ابن علي) بن حمود سنة 427هـ (1035م) سارع أبو الحجاج هذا إلى الإفراج عنهما.[2]

---

[1] فحين يرى عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أن يحيى قد سجنهما في الجزيرة الخضراء؛ يقول ابن خلدون والمقري أن محمدا كان مسجونا بمالقة؛ ثم فر من سجنه في سنة 414هـ إلى الجزيرة. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] وحتى هذا الخبر فيه خلاف؛ إذ يرى عبد الواحد المراكشي أن الموكل بهما أخرجهما إثر مقتل يحيى بن علي؛ بينما يقول ابن الأثير أنهما أخرجا من المعتقل بعد موت إدريس بن علي؛ بينما يجعل ابن خلدون تاريخ هروب محمد بن القاسم ـ من معتقله بمالقة إلى الجزيرة ـ في عام 414هـ. أنظر: المعجب، ص: 62. والكامل، ج: 7، ص: 289. والعبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ثـم طلـب مـن أصحـاب الحـل في الجزيـرة ـ مـن السـودان والأمازيـغ ـ البيعـة لمحمـد بـن القاسـم؛ الـذي اكتـفى ـ في البدايـة ـ بالإمـارة عـلى الجزيـرة؛ وتغـاضى عـن الادعـاء بالخلافـة. ولكنـه ـ فيمـا بعـد ـ أعلـن نفسـه خليفـة سنـة 439هـ(1047م) وتسـمى بالمهـدي.[1] ولمـا تـوفي ولي بعـده في مرتبـة الخلافـة ـ كمـا يزعـم بعضهـم ـ ابنـه القاسـم بـن محمـد؛[2] الـذي قيـل أنـه تسـمى بالواثـق.[3] وكـان هـذا الأميـر هـو آخـر مـن تـولى مـن بـني القاسـم في الأندلـس. ويعـود السبـب في انتقـال الخلافـة مـن بـني عـلي بـن حمـود إلى بـني أخيـه القاسـم؛ إلى مـا أصـاب دولـة الأدارسـة في مالقـة مـن تفكـك ووهـن؛ لـذا فقـد قـرر أمـراء الأمازيـغ ـ في تلـك الديـار ـ أن ينقلـوا الخلافـة مـن أسـرة عـلي بـن حمـود في مالقـة؛ إلى أسـرة أخيـه القاسـم بالجزيـرة.

---

[1] هكـذا في جـل المصـادر؛ بينمـا قـال ابـن خلـدون أنـه تسـمى بالمعتصـم. العبـر، مج: 4، ص: 335.

[2] قـال ابـن حـزم أن محمـد بـن القاسـم خلـف مـن الأولاد: ((يحـيى الأصـم؛ أكبرهـم، ثـم القاسـم؛ الـوالي بعـد أبيـه؛ وكـان حصـورا؛ لا يقـرب النسـاء، وإبراهيـم، وأحمـد، وجعفـر، والحسيـن)). الجمهـرة، ص: 51.

[3] هكـذا قـال ابـن خلـدون، العبـر، مج: 4، ص: 335. أمـا ابـن حـزم والمـراكـشي فيقولان أنـه لـم يتسـم بالخلافـة. الجمهـرة، ص: 50. والمعجـب، ص: 68.

وأولئــك الأمــراء هــم: باديــس بــن حبــوس الصنهــاجي أميــر بــني زيــري في غرناطــة، وإسحــاق ابــن محمــد بــن عبــد اللــه البــرزاليِ الزنــاتي أميــر قرمونــة، ومحمــد بــن نــوح بــن أبي تَزيــري الدمــري الزنــاتي أميــر مــورور، وعبــدون بــن خــزرون الرنــداجي الزنــاتي أميــر بــني خــزرون في أركــش.[1] هــذا وقــد بــقي أبنــاء القاســم في إمارتهــم بالجزيــرة حــتى سنــة 446هــ(1054م)؛ وهي السنــة الــتي تغلــب فيهــا عليهــم جيــش المعتضــد بــن عبــاد؛ حيــث أجلاهــم قائــد ذلــك الجيــش عــن الجزيــرة؛ فانطلقــوا إلى المريــة في حمايــة المعتصــم بــن صمــادح.

---

[1] والكامــل، ج: 7، ص: 289. والمعجــب، ص: 68. والبيــان المغــرب، ج: 3، ص: 218. 229 ـ 230.

ـ حكومـــة المهـــدي محمـــد بـــن القاســـم بـــن حمـــود:

نشـــأت هـــذه الإمــارة ــ كمــا سبــق قولــه ــ في الجزيــرة الخضــراء أيــام القاســم بــن حمــود؛ بتكليــف مــن الخليفــة الأمــوي المستعيــن باللــه سليمــان بــن الحكــم.[1] ثــم تغلــب عليهــا المعتــلي يحــيى بــن عــلي، وقبــض عــلى ولــدي القاســم: محمــدا وحســن. ولكنهمــا استطاعــا الإفــلات بعــد مــوت يحــيى بــن عــلي سنــة 427هــ(1035م)؛[2] والعــودة إلى امتــلاك الجزيــرة مــن جديــد؛ بمساعــدة المكلــف بحراستهمــا؛ وهــو مــن المغاربــة، ويــدعى أبــا الحجــاج. ومنذئــذ اعتــلى محمــد ابــن القاســم عــلى عــرش الجزيــرة الخضــراء؛ دون أن يتســمى ــ في البدايــة ــ بالألقــاب الخلافيــة. أمــا أخــوه حســن فقــد تنســك، ولبــس الصــوف؛ ثــم توجــه إلى الحــج مــع أختــه فاطمــة؛ زوجــة المعتــلي يحــيى بــن عــلي.

---

[1] الكامــل، ج: 7، ص: 284. والمعجــب: ص: 43. وأعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 128.

[2] الكامــل، ج: 7، ص: 289. والمعجــب، ص ص: 62 ــ 63. أمــا ابــن خلــدون والمقــري فيريــان أنهمــا تمكنــا مــن الفــرار مــن محبسهمــا بمالقــة في سنــة 414هــ. العبــر، مج: 4، ص: 335. ونفــح الطيــب، ج: 1، ص: 435.

وبقي محمد بن القاسم على ذلك الحال حتى زحف إليه نجا الصقلبي؛ بغرض امتلاك الجزيرة؛ وذلك في سنة 434هـ(1042م)؛ فخرجت إليه أم محمد القاسم ـ واسمها سبيعة ـ فاحتجت عليه قائلة: **((يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن))**.[1] فاستحى من قولها وتخلى عن غرضه.[2] وظل محمد في إمارته تاركا مرتبة الخلافة لبني عمه؛ أبناء علي بن حمود؛ دون السعي لمزاحمتهم في الألقاب الخلافية؛ حتى قرر أمراء الأمازيغ ـ سنة 439هـ(1047م) ـ تحويل دعوتهم بالخلافة من بني علي بن حمود إلي بني القاسم؛[3] عندئذ تلقب محمد بالمهدي[1] ونسب إلى نفسه خلافة المسلمين.

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: **216**.

[2] يقول عبد الواحد المراكشي أنه أحس بفتور من أصحابه؛ لذا تراجع: ((ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما؛ ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم، واستصلح سائرهم؛ واستدعى الصقالبة من حيث أمكنه ليقوى بهم على غيرهم)). المعجب، ص: **64**.

[3] قال ابن عذاري: ((وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ـــ قال ابن حيان ـــ "فيها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني؛ وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء؛ وهم أربعة أمراء: إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدميري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالة وأستجة وغيرها. فبايع جميعهم له بالخلافة؛ وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي، وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر؛ ثم نهضوا مع إمامهم وساروا إلى المعتضد

ويبــدو أن الأمازيــغ عــادوا فتخلــوا عنــه، وتركــوه وحيــدا؛ إذ يقــال أنــه مــات غمــا سنــة 440هــ(1048م). ويقــول عبــد الواحــد المراكــشي أنــه أنجــب زهــاء ثمانيــة أولاد ذكــورا.

ــ حكومــة القاســم بن محمــد بن القاســم بــن حمــود:

تــولي القاســم بــن محمــد الحكــم في الجزيــرة الخضــراء إثــر وفــاة والــده سنــة 440هــ(1048م). وقــد اختلفــت آراء المؤرخيــن في المرتبــة الملكيــة الــتي احتلهــا القاســم هــذا؛ إذ يقــول ابــن خلــدون والمقــري ــ علــى سبيــل المثــال ــ أنــه تســمى بلقــب الواثــق؛ بينمــا يــرى ابــن حــزم أنــه لــم يتســم بالخلافــة؛ ويتفــق مــع ابــن حــزم كــل مــن: ابــن الأثيــر وعبــد الواحــد المراكــشي.[2]

عبــاد بــن محمــد صاحــب إشبيليــة؛ ونزلــوا عليهــا؛ ودخــل معهــم ابــن الأفطــس صاحــب بطليــوس. وكانــت عــدة هــؤلاء الرؤســاء مــع إمامهــم محمــد بــن القاســم علــى عبــاد بــن محمــد سبعــة ملــوك؛ ثــم انصرفــوا مــع خليفتهــم؛ ولــم يقــض اللــه لهــم أربــا. فلــم يكــن لهــم بعــد ذلــك اجتمــاع، ولا اتفــاق")). البيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 219 ــ 220.

[1] يعتقــد ابــن خلــدون والمقــري: أنــه تلقــب بالمعتصــم. العبــر، مج: 4، ص: 335. ونفــح الطيــب، ج: 1، ص: 435.

[2] قــال ابــن خلــدون: ((ثــم ملكهــا بعــده ابنــه القاســم الواثــق إلى أن هلــك سنــة خمسيــن [وأربعمائــة])). العبــر، مج: 4، ص: 335. أنظــر أيضــا: نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 435. أمــا ابــن حــزم فيقــول: ((وولي الجزيــرة بعــد محمــد بــن القاســم المذكــور ابنــه القاســم بــن محمــد؛ ولــم يتســم بالخلافــة؛ إلى أن خــرج عنهــا سنــة 446هــ)). الجمهــرة، ص: 50. ويؤيــد ابــن الأثيــر هــذا الأمــر بقولــه: ((فــولي الجزيــرة ابنــه القاســم؛ ولــم يتســم بالخلافــة)). الكامــل ج: 7، ص : 289. ويقــول

هـذا ولـم يقـم القاسـم بـن محمـد بمـا يستحـق الذكـر والتنويـه في بـلاد الأندلـس؛ طـوال المـدة الـتي حكـم فيهـا الجزيـرة الخضـراء. وكـل مـا ذكـره عنـه المؤرخـون هـو تعـرض بـلاده لغـزو جيـش المعتضـد ابـن عبـاد؛ بقيـادة عبـد اللـه بـن سـلام في سنـة 446هـ(1054م). فتمكـن مـن التغلـب عـلى الجزيـرة الخضـراء؛ وأخـرج القاسـم منهـا؛ حيـث أعـد لـه مركبـا لينقلـه حيـث يشـاء؛ فاختـار المريـة؛ في حمايـة المعتصـم بـن صمـادح؛ بعـد أن يئـس مـن قبولـه في سبتـة؛ حيـث يقيـم سقـوط البرغـواطي.[1]

المراكـشي أيضـا: ((فتـولى أمـر الجزيـرة بعـده ابنـه القاسـم بـن محمـد ابـن القاسـم؛ إلا أنـه لـم يتسـم بالخلافـة)). والمعجـب، ص: 68.

[1] قـال ابـن عـذاري: ((وفي سنـة سـت وأربعيـن وأربعمائـة نظـر المعتضـد عبـاد في حسـن الجزيـرة الخضـراء وأميرهـا القاسـم بـن محمـد العلـوي؛ فضيـق عليـه إلى أن نـزل عـن بلـده بأمـان عـلى نفسـه وخـرج؛ فكـان الـذي حصرهـا لـه قائـده عبـد اللـه بـن سـلام؛ فأعـد عبـد اللـه للقاسـم مركبـا يسيـر فيـه حيـث شـاء. وكـان أميـر سبتـة يومئـذ سواجـات [سقـوط] البرغـواطي؛ وكـان القاسـم هـذا استنصـره فلـم ينصـره؛ فنكـب عـن سبتـة إلى المريـة؛ وبـقي بهـا إلى أن تـوفي. واحتـوى قائـد بـن عبـاد عـلى الخضـراء؛ ثـم خـرج منهـا بالعسكـر؛ تهفـو بهـم ريـح النصـر؛ وقـد قـدروا ألا غالـب لهـم؛ فلقـوا جماعـة مـن بـني يرنيـان؛ فوقعـت بينهـم حـرب انهـزم لهـا خيـل ابـن عبـاد؛ وقتـل قائدهـم عبد اللـه ابـن سـلام؛ وانصـرف الجيـش لابـن عبـاد مهزومـا)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 242 ـــ 243.

وتقـــول بعـــض الروايـــات أن القاســـم بـــن محمـــد تـــوفي بالمريـــة سنـــة 450هــ(1058م).[1] ويقـــول ابـــن حـــزم أنـــه كـــان حصـــورا لا يقـــرب النســـاء؛ وعليـــه فلـــم يخلـــف أولادا.[2]

****

ــ حكومـــة المتأيـــد باللـــه إدريـــس بن علي بن حمـــود:

ولمـــا قتـــل المعتـــلي يحـــيى بـــن عـــلي بـــن حمـــود؛ عـــاد كبيـــر دولتـــه أبـــو جعفـــر أحمـــد بـــن مـــوسى المعـــروف بابـــن بقنـــة[3] رفقـــة أبي الفـــوز نجـــا الخـــادم ــ ذلـــك الفـــتى الصقلـــبي[4] المقـــرب مـــن المعتـــلي يحـــيى بـــن عـــلي ــ إلى مالقـــة؛ أيـــن استدعيـــا بسرعـــة إدريـــس بـــن عـــلي أخـــا يحـــيى مـــن سبتـــة؛ حيـــث عقـــدا لـــه البيعـــة؛ بشـــرط أن يسنـــد ولايـــة سبتـــة وطنجـــة للحســـن بـــن يحـــيى بـــن عـــلي؛ فقبـــل إدريـــس بذلـــك؛ وانتقـــل الحســـن ابـــن يحـــيى ــ رفقـــة الفـــتى الصقلـــبي نجـــا ــ إلى ولايـــة سبتـــة. وفي البيعـــة تلقـــب إدريـــس بـــن عـــلي بالمتأيـــد باللـــه واعتـــلى ســـدة الخلافـــة؛ مثلمـــا كـــان عليـــه أخيـــه

---

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص ص: 242 ــ 243. الأعـــلام للزركـــلي، ج: 6، ص: 16. أمـــا ابـــن بســـام فلـــم يذكـــر المريـــة؛ ولكنـــه قـــال أنـــه لجـــأ إلى قرطبـــة؛ حيـــث مـــات بهـــا في التاريـــخ نفســـه. الذخيـــرة، ق: 2، مج: 1، ص ص: 36 ــ 37.**

[2] **الجمهـــرة، ص: 51.**

[3] **ورد في بعـــض المصـــادر ابـــن بقيـــة والصحيـــح هـــو ابـــن بقنـــة.**

[4] **في العبـــر؛ الصقـــلي؛ مج: 4، ص: 333.**

يحيى بن علي؛ فاعترف بخلافته جمع كبير من الأمازيغ، وبعض الفتيان العامريين ؛ مثل: حبوس ابن ماكسن بن زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، والفتى الصقلبي العامري زهير المتغلب على المرية، وغيرهم. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 427هـ(1035م) اتفقوا – جميعا – على محاصرة إشبيلية؛ أين استولوا على بعض الحصون والقلاع المحيطة بها.[1]

هذا وقد واجه إدريس المتأيد مقاومة شديدة من طرف ابن عباد؛ الذي عمل جاهدا على استقطاب الناس نحو إشبيلية، والاعتراف بها عاصمة للخلافة؛ إذ أظهر بها رجلا زعم أنه هشام المؤيد؛ فنادى به خليفة للمؤمنين؛ بغرض قطع الطريق في وجه بني حمود؛ الذين يستأثرون بالخلافة. وكان القاضي أبو القاسم بن عباد يعتمد كل الاعتماد في تحقيق مشاريعه على ابنه

---

[1] قال ابن عذاري: ((وفيها [أي سنة 427هـ] اجتمع زهير وحبوس مع محمد ابن عبد الله زعيم زناتة بجهة أستجة في يوم الأربعاء لخمس خلون من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية؛ واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد واحتلوا بالقلعة يوم الإثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طريانة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر؛ وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس ابن علي بن حمود؛ وانصرفوا إلى قرمونة؛ وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها في منتصف شهر ذي الحجة من السنة)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 190 – 191.

إسماعيل؛ الذي نجح في قتل يحيى المعتلي ــ كما سبق ذكره ــ أمام قرمونة.

ولما تولى إدريس بن علي الخلافة واصل التحرش ببني عباد؛ مثلما كان الحال أيام أخيه يحيى. ووقف أمراء الأمازيغ وبعض الفتيان الصقالبة إلى جانب إدريس؛ نظرا لما عانوه من أطماع ابن عباد. لذا فقد اشتد الصراع بينهم وبين بني عباد، وامتد نطاقه حتى شمل جل المراكز والحصون الأمازيغية في الأندلس. ولم يستثن ابن عباد في ذلك حتى حصون حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي؛ إذ انتزع منه أشونة وأستجة، وبعدهما عمل على حصار قرمونة. وهنا التأم شمل الأمازيغ ــ في بداية الأمر ــ من جديد؛ بدعم من الفتى العامري زهير. فتمكنوا بفضل حلفهم ــ بعد فترة ــ من تكبيد بني عباد خسائر فادحة؛ حيث قتل إسماعيل بن أبي القاسم، بعد أن انكسر جيشه على مشارف قرمونة؛ فحزوا رأسه وأرسلوه إلى المتأيد بالله إدريس بن علي الذي كان آنئذ مريضا في حصن بُبَشتر.

ولم يعش إدريس ـ بعد هذه الموقعة ـ سوى يومين؛ إذ مات في المحرم من سنة 431هـ (1039م).[1] وخلف ثلاثة أولاد هم: يحيى ومحمد والحسن؛ وكان له ابن أكبر مات في حياته من قبل؛ اسمه علي؛ ترك من الأولاد ـ هو الآخر ـ ابنا اسمه عبد الله بن علي بن إدريس[2].

ـ حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:

أراد ابن بقنة ـ بعد موت المتأيد بالله إدريس ابن علي ـ تنصيب ولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون؛ الذي تلقب بالقاسم بالله؛ ولكن الفتى نجا الصقلبي لم يترك له الفرصة لتمهيد حكمه؛ إذ عاجله بالقدوم من سبتة ومعه الحسن ابن يحيى بن علي؛ فهرب ابن بقنة مع يحيى ابن إدريس إلى حصن كمارش [قمارش] القريب من مالقة.

---

[1] **قال ابن خلدون في هذا بإيجاز: ((وكان أبوه [أي إسماعيل] أبو القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده لانتزاع البلاد من أيدي الثوار؛ وملك أشونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي؛ وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله بالمتأيد هذا وبزاوي (؟)؛ فجاء زاوي بنفسه، [مات في سنة 428هـ؛ وعليه يكون من شاركهم هو ابنه باديس] وبعث المتأيد هذا عساكره مع ابن بقية [الصحيح هو ابن بقنة]؛ فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة؛ هزم فيها ابن عباد، وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد؛ وهلك [أي المتأيد] ليومين بعدها؛ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة)). العبر، مج: 4، ص: 333.**

[2] **المعجب، ص: 62.**

ولما دخل نجا الخادم إلى مالقة رفع مولاه الحسن بن يحيى إلى[1] سدة الخلافة بمالقة؛[2] فبايعه الناس وتسمى بالمستنصر[3] سنة 431هـ (1039م). وبعدها عمل الحسن على استدراج ابن بقنة وتطمينه بوعد أمان؛ فعاد رفقة يحيى بن إدريس (حيون) إلى مالقة؛ أين قبض عليهما المستنصر وأمر بقتلهما.[4]وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة

---

[1] يبدو أن في الأمر خلط والتباس؛ إذ يعتقد: ابن عذاري وابن الخطيب أن الحسن هذا هو ابن علي بن حمود. وقد تبنى هذا الرأي أيضا إسماعيل العربي. وهذا طبعا لا يستقيم مع ما ثبت من أن علي لم يخلف سوى ولدين اثنين هما: يحيى وإدريس. وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى ــ وهي كثيرة ــ انطلاقا من جمهرة ابن حزم، ص: 51. إلى المغرب للبكري، 133. إلى العبر لابن خلدون، مج: 4، ص ص: 331. 334. إلى نفح الطيب للمقري، ج: 1، ص: 432. أنظر نقيض ذلك في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140. دولة الأدارسة، ص: 267. هذا ويفهم من أقوال ابن عذاري وابن الخطيب أن هناك شخصين يسميان بحسن: الأول بن علي، والثاني ابن يحيى. المهم أن هذه الفترة من حكم الأدارسة يكتنفها غموض كثيف.

[2] ذكر البكري أن إدريس بن علي عين الحسن بن يحيى وليا لعهده. أنظر المغرب، ص: 133.

[3] هذا هو اللقب الذي ذكره: ابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون والمقري؛ أما عبد الواحد المراكشي فقال أنه لقب بالمستعلي؛ والظاهر أنه وقع في التباس. أنظر: المعجب، ص: 63. والكامل، ج: 7، ص: 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. والعبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[4] ثمة رأي آخر مفاده أن حيون لم يعد إلى مالقة؛ بل بقي في حصن إيرش؛ حيث مات به سنة 434هـ. وثمة رأي آخر ذكره ابن خلدون مفاده أن الخادم نجا قتله مع ابن للحسن بن يحيى صغير كان لديه. أنظر: العبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432. هذا فيما يخص حيون؛ أما

عمــه إدريــس، وأخــت يحــيى بــن إدريــس (حيــون) المقتــول؛ فعملــت جهدهــا للانتقــام منــه، والثــأر لأخيهــا؛ وعليــه يقــال أنهــا اغتالتــه بســم دستــه لــه. وذلــك في جمــادى الأولى مــن ســنــة 434هـ(1042م).[1] ويقــال أن الحســن بــن يحــيى خلــف ولــدا وتركــه في كفالــة نجــا الخــادم بسبتــة؛ فقتلــه طمعــا في اغتصــاب الملــك.

بخصــوص أبــي جعفــر بــن مــوسى (ابــن بقنــة) فابــن عــذاري يــرى بــأن بقنــة قتــل بمالقــة؛ بعــد مقتــل الفــتى نجــا فقــول: ((ثــم نهــض قــوم منهــم [أي مــن الثــوار الذيــن قتلــوا نجــا] إلى مالقــة؛ ونهضــوا إلى الوزيــر أبي جعفــر بــن مــوسى فقتلــوه، وأخرجــوا إدريــس بــن يحــيى مــن سجنــه؛ وبايعــوه؛ وتســمى بالعــالي؛ وبايعــه أمــراء البربــر، وخطبــوا باسمــه؛ وذلــك سنــة أربــع وثلاثيــن وأربعمائــة)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 217. إذن يفهــم مــن هــذا النــص أن ابــن بقنــة هــو الــذي كــان مــع الحســن بــن يحــيى؛ وليــس السطيــفي كمــا ذكــر المراكــشي، أو الشطيــفي كمــا سمــاه ابــن الأثيــر. والغريــب أن ابــن عــذاري يخلــط في الأمــر في موضــع آخــر؛ حيــن ذكــر أن أبــا جعفــر بــن مــوسى هــذا استــوزره الحســن بــن يحــيى، ثــم قتلــه سنــة 433هـ بعــد أن امتحنــه واستصــفى أموالــه. أنظــر البيــان المغــرب، ج: ص: 290. كمــا أنــه؛ في الوقــت الــذي أغفــل ذكــر السطيــفي مــن قبــل؛ ذكــره في موضــع آخــر عــلى انــه قتــل في اليــوم الــذي بويــع فيــه العــالي إدريــس ابــن يحــيى؛ وذلــك في خبــر يتوافــق مــع مــا ذكــره عبــد الواحــد المراكــشي؛ ويتعــارض مــع مــا سبــق أن قالــه ابــن عــذاري نفســه. لــذا يتدعــم الــرأي القائــل بــأن هــذا النــص أو (القطعــة) ليــس مــن سيــاق كتــاب ابــن عــذاري؛ ولــم يكــن أصــلا منــه. أنظــر البيــان المغــرب، ج: 3، المقدمــة، ثــم: ص: 291.

[1] الكامــل، ج: 7، ص: 289. والمعجــب، ص ص: 63 ــ 64.

ـ حكومة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود:

كان نجا الصقلبي قد ترك في مالقة ـ عندما رجع إلى مقر ولايته بسبتة ـ رجلا من التجار يثق فيه اشتهر باسم محمد السطيفي؛ وأوصاه بالسهر على سير الإمارة، وعلى سلامة سيده الحسن بن يحيى. ولما قتل الحسن مسموما بيد زوجته؛ سارع السطيفي إلى اعتقال أخيه إدريس بن يحيى؛ خوفا من خروج الأمر من يده ويد نجا الصقلبي الوصي على العرش؛ ثم بعث بالخبر إلى ذلك الفتى الصقلبي نجا؛ فسارع من فوره إلى التوجه في قوة إلى مالقة؛ ولما دخلها زاد في التضييق على إدريس بن يحيى، إذ قام هو الآخر بالتحفظ عليه؛ وأبقاه في سجنه أيضا؛ خوفا من تطلعه للخلافة؛ لأنه ـ كما قيل ـ كان يرغب في القضاء على ملك بني حمود نهائيا.

ويبدو – كما تقول المصادر – أن هذا الفتى الصقلبي كان ينوي – في هذه المرة – الاستبداد بالدولة، ويسعى لامتلاكها والاستحواذ بها لنفسه[1]؛ بعد أن يجلب مجموعات من الصقالبة؛ ليضمن ولاءهم. غير أن خطته فشلت؛ وذلك بعد أن صرح برغبته تلك للذين كانوا معه من الأمازيغ. وكان جيشه مكونا منهم؛ وبالتحديد من برغواطة؛ وهم أخوال الحسن بن يحيى.[2]

---

[1] ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان للحسن بن يحيى المقتول ابن؛ في رعاية الفتى نجا بسبتة؛ وقيل أنه اغتاله؛ حتى يخلو له الجو على ما يبدو. لذا فإنه استخلف في سبتة عند ذهابه إلى مالقة رجلا من الصقالبة كان يثق فيه. المعجب، ص: **64**. أما ابن عذاري فقال بوجود ولد للحسن صغير السن بسبتة في رعاية نجا؛ ولكنه لم يشر إلى احتمال قتله. البيان المغرب، ج: **1**، ص: **216**.

[2] جاء في رواية ابن عذاري: ((فأتى [نجا] الجزيرة الخضراء؛ وفيها ابنا القاسم بن حمود؛ فأراد إخراجهما منها؛ فخرجت إليه سبيعة أمهما وقالت له: "يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن"؛ فاستحيا منها وانصرف إلى مالقة؛ فلما كان ببعض الطريق اجتمعت برغواطة؛ الذين كانوا معه على قتله؛ وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه؛ فقالوا: "أنترك موالينا ونتبع عبدا مملوكا خصيا"؛ فتعرض إليه أحدهم... فطعنه بين كتفيه طعنة خرجت من صدره؛ فهلك أبو الفوز نجاء، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة؛ ثم نهض قوم منهم إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه [يختلف هنا ابن عذاري مع الذين يقولون أن ذلك الوزير هو السطيفي؛ أما ابن موسى (ابن بقنة) فقتله نجا من قبل] وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: **3**، ص: **217**.

فاستـــاء الأمازيـــغ مـــن فكرتـــه؛ ولكنهـــم تظاهـــروا بأنهـــم يؤيدونـــه؛ بينمـــا كانـــوا يتصيـــدون الفرصـــة المواتيـــة للانقضـــاض عليـــه. وبالفعـــل تمكنـــوا مـــن القضـــاء عليـــه؛ أثنـــاء عودتـــه مـــن الجزيـــرة الخضـــراء إلى مالقـــة. ثـــم قضـــوا عـــلى صنيعتـــه السطيـــفي بعـــده.[1] وتـــم ذلـــك كلـــه سنـــة 434هــ(1042م). وبعـــد ذلـــك أخرجـــوا إدريـــس بـــن يحـــيى مـــن محبســـه، ونصبـــوه عـــلى ســـدة الخلافـــة، ولقبـــوه بالعـــالي؛ في السنـــة نفسهـــا أي 434هــ(1042م).

---

[1] الكامـــل، ج: 7، ص: **289**. أمـــا المراكـــشي فقـــال في خبـــر شـــرح فيـــه مقتـــل الخـــادم الصقلـــبي نجـــا: ((وعـــزم [أي نجـــا] عـــلى محـــو أمـــر الحسنييـــن جملـــة؛ وأن يضبـــط تلـــك البـــلاد لنفســـه؛ فـــدعـــا البربـــر الذيـــن كانـــوا جنـــد البلـــد؛ وكشـــف الأمـــر إليهـــم علانيـــة، ووعدهـــم بالإحســـان؛ فلـــم يجـــدوا لمساعدتـــه بـــدا؛ فوافقـــوه في الظاهـــر؛ وعظـــم ذلـــك في أنفسهـــم باطنـــا. ثـــم جمـــع عسكـــره، ونهـــض إلى الجزيـــرة ليستأصـــل محمـــد بـــن القاســـم؛ فحاربـــه أيامـــا، ثـــم أحـــس بفتـــور نيـــات الذيـــن معـــه؛ فـــرأى أن يرجـــع إلى مالقـــة؛ فـــإذا حصـــل فيهـــا نـــفى مـــن يخـــاف غائلتـــه منهـــم واستصلـــح سائرهـــم، واستـــدعى الصقالبـــة مـــن حيثمـــا أمكنـــه ليقـــوى بهـــم عـــلى غيرهـــم؛ وأحـــس البربـــر بهـــذا منـــه؛ فاغتالـــوه في الطريـــق مـــن قبـــل أن يصـــل إلى مالقـــة؛ فقتـــل وهـــو عـــلى دابتـــه في مضيـــق صـــار فيـــه؛ وقـــد تقدمـــه إليـــه الـــذي أراد الفتـــك بـــه؛ وفـــر مـــن كـــان معـــه مـــن الصقالبـــة بأنفسهـــم؛ ثـــم تقـــدم فارســـان مـــن الذيـــن غـــدروا بـــه يركضـــان حـــتى وردا مالقـــة؛ فدخـــلا وهمـــا يقـــولان: "البشـــرى البشـــرى!" فلمـــا وصـــلا إلى السطيـــفي؛ وضعـــا سيفهما عليه فقتلاه)). المعجب، ص ص: **64 ــ 65**.

ولما تولى إدريس بن يحيى الحكم في مالقة بادر فورا إلى اعتقال: محمد وحسن: ابني إدريس ابن علي؛ ووضع عليهما حراسة. ولكن أخذت – بعد فترة – تظهر على إدريس بن يحيى بعض التناقضات، والتصرفات الغريبة في تسيير شئون الدولة؛ لذا بدأت ثقة معاونيه تتضعضع فيه؛ وفتر حماسهم نحوه، وصار ولاؤهم يتآكل شيئا فشيئا؛ ويميل إلى الضعف والتلاشي. وعليه فقد أطلق الحراس المكلفين بابني عمه سراحهما؛ ونادوا بخلافة كبيرهما محمد بن إدريس بن علي؛ بدلا من إدريس. وعندما سمع الخبر السودان القائمين بأمن قصبة مالقة؛ سارعوا للاستجابة والدعاء لمحمد؛ ثم أستقدموه إلى حاضرة الملك. ولما انتصب محمد على عرش الخلافة – بدخوله إلى مالقة – تسمى بالمهدي؛ وولى أخاه حسنا ولاية عهده، ولقبه بالسامي؛ وذلك في سنة 438هـ(1046م).

وبعد أن تمكن الخليفة الجديد من الوضع أمر بالقبض على إدريس (العالي)، ثم حبسه في المكان نفسه؛ الذي كان هو أخوه مسجونان فيه؛ أي في حصن قمارش كما قال بعضهم. وبذلك استبدل الخصمان الأماكن والمواقع.[1]

---

[1] **أورد هذا الخبر ابن الأثير، وعبد الواحد المراكشي، الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب: ص: 66. أما ابن عذاري فلم يذكر حصن إيرش تماما؛ وإنما قال نقلا عن ابن القطان: ((فخرج إدريس بن يحيى من مالقة إلى حصن ببشتر مع عبيده ومن تبعه من الجند؛ فغزا مالقة مع باديس بن حبوس؛ فلم**

ومع ذلك تمكن العالي ـ بعد فترة ـ من الخلاص من محبسه؛ بمعونة بني زيري، وبعض أمراء الأمازيغ؛ الذين لم ترضهم سياسة محمد المهدى؛ المتصف بالتشدد والحزم. وقد تم ذلك عندما استمالوا المكلفين بحراسة العالي في قمارش؛ حيث أقنعوهم بالدعاء للعالي، وإعادته لمنصبه الخلافي؛ انطلاقا من ذلك الحصن؛ وبالفعل قام حراس العالي برفعه إلى سدة الخلافة في تلك الجهات.[1] ولم يكفهم إطلاق سراح إدريس بل عملوا كل جهدهم كي يتغلبوا على مالقة ويعيدوه إلى منصبه فيها. ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع.[2]

يقدر على شيء؛ فرجع إلى حصن ببشتر، وأخرج عياله وجاز إلى سبتة)). ثم أضاف رواية نقلا عن ابن حيان فقال: ((وفي شعبان من سنة ثمان وثلاثين [وأربعمائة] خرج إدريس بن يحيى بن علي بن حمود من مالقة؛ متنزها للصيد فغلق الباب في وجهه أهل البلد؛ ووجهوا إلى ابن عمه محمد ابن إدريس، وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمهدي، وتوطد أمره بمالقة مدة حياته؛ وانصرف إدريس بن [يحيى] بن علي العالي إلى العدوة، ثم رجع بعد ذلك إلى الأندلس، واستقر عند أبي نور بن أبي قرة اليفرني، صاحب رندة شهورا ودعا له بالخلافة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. أما ابن الخطيب فيقول أن محمد بن إدريس انتهز فرصة خروج العالي إدريس بن يحيى إلى حصن ببشتر؛ فأقفل في وجهه أبواب مالقة. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 141. المهم أن الآراء حول دولة الأدارسة في مالقة متضاربة وتختلف من مصدر إلى آخر.

[1] الكامل، ج: 7، ص، 289. والمعجب، ص: 67.

[2] قال المراكشي: ((وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة؛ هابه بها جميع البربر، وأشفقوا منه؛ وراسلوا المرتب في الحصن الذي فيه

ولما يئس بنو زيري وأمراء الأمازيغ من إمكان التغلب على مالقة؛ تخلوا عن المطالبة بها، وتركوا العالي وحيدا؛ واتجه أمراء الأمازيغ ــ بعدئذ ــ صوب هدف آخر في الجزيرة الخضراء؛ حيث يقيم محمد بن القاسم بن حمود؛ فالتفوا حوله، ونادوا به خليفة للمسلمين؛ ولكنهم تخلوا عنه ــ هو الآخر بعد فترة ــ وتفرقوا عنه؛ عندما لم يجدوا فيه فائدة تنتظر.

إدريس بن يحيى هذا؛ واستمالوه؛ فأجابهم، وقام بدعوة إدريس... ولم يظهر محمد مبالاة بذلك؛ بل ثبت ثباتا شديدا؛ وكانت والدته تشجعه، وتقوي متنه، وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى؛ فلما رأى البربر شدة عزمه، وثباته؛ فَتَّ ذلك في أعضادهم؛ وتخلوا عن إدريس بن يحيى؛ ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة؛ إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا)).
المعجب، ص ص: 66 ــ 67.

ولما ترك أمراء الأمازيغ إدريس بن يحيى وحيدا؛ نظرا لفشل مخططهم في احتلال مالقة؛ وتبعا لما كان يبديه من مواقف سلبية ومتناقضة؛ لم يجد أمامه ــ بعد أن تفرق الأنصار من حوله ــ سوى اللجوء إلى سبتة؛ تلك المقاطعة المغربية التي سبق له أن وضعها في يد عبد من عبيد أبيه؛ يسمى سقوط أو (سكوت) البرغواطي؛ في الوقت الذي أسند فيه ــ أيضا ــ مدينة طنجة لعبد برغواطي آخر من عبيد أبيه؛ اسمه رزق الله البرغواطي. وهكذا لم يجد ملجأ مناسبا سواهما يهرب إليه؛ عندما سدت في وجهه السبل؛ وعليه فقد قصدهما؛ قاطعا بحر العدوة؛ فاستقبلاه بالتبجيل والإجلال؛ واعترفا بخلافته؛ وناديا بها؛ ولكنهما ــ بالمقابل ــ ضربا عليه حجابا شديدا؛ منع أعيان القوم من الاتصال به. وبعد مدة سئم البرغواطيان منه؛ فنفياه للأندلس مرة أخرى؛ دون أن يتخليا عن الاعتراف به خليفة للمسلمين؛ كما أبقيا لديهما ولده الصغير رهينة للمستقبل.

وفي الأندلــس اختــار إدريــس الإقامــة في تاكرنــة عنــد بــني يفــرن ـــ دون أن يتنــازل عــن لقــب الخلافــة ـــ وبــقي يرقــب الحــال إلى أن تــوفي خصمــه محمــد المهــدي؛ عندهــا طلــب عامــة النــاس في مالقــة عودتــه إليهــا؛ فدخــل مــن جديــد إلى حاضــرة ملكــه السابــق؛ سنــة 445هـ(1053م). وبــقي في مالقــة إلى أن توفــاه اللــه[1] سنــة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م).

وبذلــك يكــون العــالي إدريــس بــن يحــيى بــن عــلي بــن حمــود قــد حكــم خــلال فترتيــن متقطعتيــن: الفتــرة الأولى بيــن عــامي: 434هـ(1042م) و438هـ(1046م)؛ أمــا الفتــرة الثانيــة فبيــن عــامي: 445هـ(1053م) و446 أو 447هـ(1055م). وذلــك شأنــه شــأن أبيــه يحــيى، وعــم أبيــه القاســم بــن حمــود مــن قبــل.

وكــان العــالي إدريــس بــن يحــيى هــذا حســن الثقافــة، أديبــا وشاعــرا؛ كريــم الخصــال، مهــذب الطبــاع، لطيــف المعشــر، حســن المجلــس، عطوفــا، شفوقــا، حليمــا؛ ولكنــه ـــ مــع ذلــك ـــ كــان غريــب الأطــوار، متناقــض المواقــف والأفعــال. فممــا شــاع عنــه أنــه يكثــر مــن أعمــال الخيــر والإحســان؛ حــتى قيــل أنــه واظــب عــلى التصــدق في كــل يــوم جمعــة بحصــة

---

[1] الكامــل، ج: 7، ص: 289. والمعجــب، ص: 68. والعبــر، مج: 4، ص: 335. أمــا ابــن عــذاري فيخالــف هــذا الــرأي؛ إذ يــرى أن إدريــس مــات بعــد خلعــه بفتــرة قصيــرة. أنظــر البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 291.

مـــن المـــال تقـــدر بخمسمائـــة دينـــار.[1] كمـــا يقـــال أنـــه رد للذيـــن كانـــوا مغضوبـــا عليهـــم اعتبارهـــم وحقوقهـــم، وأرجـــع ــ أيضـــا ــ المطروديـــن إلى أوطانهـــم، وأعـــاد لهـــم مـــا أخـــذ منهـــم مـــن أمـــلاك وضيـــاع.

وبالمقابـــل كـــان يظهـــر في صـــورة أخـــرى مناقضـــة للصـــورة الأولى؛ وذلـــك أنـــه كـــان ينـــادم ويصاحـــب الأرذال مـــن العبـــاد؛ ويقـــال أنـــه لـــم يكـــن يحجـــب حرمـــه عنهـــم.[2] ومـــن غرائـــب مـــا عـــرف عنـــه أنـــه لـــم يكـــن يبخـــل حـــتى بحصونـــه ورمـــوز دولتـــه؛ إذا مـــا سألـــه جيرانـــه الأقويـــاء التكـــرم عليهـــم بهـــا.[3] وقيـــل أنـــه لمـــا انقلـــب عليـــه ابـــن عمـــه محمـــد بـــن إدريـــس؛ عـــرض عليـــه مؤيـــدوه وأنصـــاره ــ مـــن العامـــة ــ أن يسمـــح لهـــم بالمقاومـــة والدفـــاع عنـــه؛ فرفـــض؛ وطلـــب منهـــم أن يتركـــوه وشأنـــه.[4] فلـــم يجـــدوا بـــدا مـــن تركـــه لقمـــة في

---

[1] الكامـــل: ج: 7، ص: 289.

[2] الكامـــل، 7، ص: 289. والمعجـــب، ص: 66.

[3] قـــال المراكـــشي: ((وكـــل مـــن طلـــب منـــه حصنـــا مـــن حصـــون بـــلاده؛ ممـــن يجـــاوره مـــن صنهاجـــة، أو بـــني يفـــرن أعطـــاه إيـــاه. وكتـــب إليـــه أمـــير صنهاجـــة أن يسلـــم إليـــه وزيـــره ومدبـــر أمـــره وصاحـــب أبيـــه وجـــده: مـــوسى بـــن عفـــان السبـــتي؛ فلمـــا أخبـــره بـــأن الصنهـــاجي كتـــب إليـــه يطلبـــه منـــه؛ وأنـــه لابـــد مـــن تسليمـــه إليـــه؛ قـــال لـــه مـــوسى بـــن عفـــان: "افعـــل مـــا تؤمـــر؛ وستجـــدني إن شـــاء اللـــه مـــن الصابريـــن! " فبعـــث بـــه إلى الصنهـــاجي فقتلـــه)). المعجـــب، ص: 66.

[4] يقـــول المراكـــشي: ((واجتمعـــت العامـــة إلى إدريـــس بـــن يحـــيى، واستأذنـــوه في حـــرب القصبـــة، والدفـــاع عنـــه؛ ولـــو أذن لهـــم مـــا ثبـــت الســـودان فـــوارق ناقـــة [وهـــذه العبـــارة تـــأتي كنايـــة عـــن السرعـــة والحســـم]؛ فـــأبى؛ فقـــال لهـــم: "ألزمـــوا منازلكـــم ودعـــوني؛ فتفرقـــوا عنـــه)). المعجـــب، ص: 66.

يــد ابــن عمــه؛ الــذي سجنــه كمــا تمــت الإشــارة إليــه. وحــتى عندمــا انتقــل إلى سبتــة، وقــام عبــداه: سقــوط أو (سكــات)، ورزق اللــه البرغواطيــان بالحجــر عليــه، وحجبــه عــن رؤســاء وأعيــان البلــدة؛ وقــف موقفــا غريبــا؛ وذلــك حينمــا تمكــن بعضهــم مــن الاتصــال بــه؛ فطلبــوا منــه أن يــأذن لهــم بفــك الحصــار عنــه؛ فــأبى ثــم أعلــم العبديــن بمــا قالــوه لــه؛ ممــا أدى بالعبديــن إلى نــفي أولئــك الأعيــان مــن سبتــة؛ بــل نفيــاه هــو بــدوره إلى الأندلــس؛ بعــد أن احتفظــا بولــده رهينــة لديهمــا. فاستقــر بــه الحــال في تاكرنــة عنــد بــني يفــرن؛ إلى أن وصلــه نبــأ وفــاة خصمــه محمــد بــن إدريــس (المهــدي)؛ وطلــب أهــل مالقــة منــه العــودة إلى مركــز ملكــه؛ فعــاد؛ وبــقي بهــا حــتى وفاتــه.

ويعتبــر العــالي إدريــس بــن يحــيى أبــرز بــني حمــود ذكــرا وشهــرة عنــد أدبــاء وعلمــاء الأندلــس؛ إذ لازم بلاطــه عــدد كبيــر منهــم؛ كمــا زاره عــدد آخــر مــن الشعــراء والعلمــاء؛ فكــان يكرمهــم ويجالسهــم ويحاورهــم ويشاركهــم في قــرض الشعــر ونقــده. ومــن أولئــك الأدبــاء والعلمــاء الأديــب الشاعــر الفقيــه أبــو محمــد غانــم بــن الوليــد المخــزومي المالــقي؛ وهــو الــذي قــال في العــالي:

رِيــحُ الصَّبَــا بَلــغِي أنْفــاسَ ذِي ظَمــإٍ
وَبَرِّدِيهَــا بِمَا يَقضِيــهِ مَجْــــرَاكِ
أوْ يَمِّمِي حَضْــرَةَ العَــالِي بِمَا احْتَمَلَــتْ
مِنِّي الضُّلُــوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

****

ــ الانقســام الثالــث في أســرة بــني حمــود:

كــان الانقســام الأول ــ كمــا ذكرنــاه ــ في عهــد القاســم ابــن حمــود سنــة 412هــ (1021م). أمــا الانقســام الثــاني فحــدث بعــد وفــاة إدريــس بــن يحــيى بــن حمــود سنــة 431هــ (1039م). ثــم جــاء الانقســام الثالــث في عهــد العــالي إدريــس بــن يحــيى بــن عــلي سنــة 438هــ (1046م)؛ وذلــك بعدمــا خــرج عليــه ابــن عمــه محمــد بــن إدريــس بــن عــلي؛ حيــن تغلــب عــلى مالقــة وحبــس العــالي في حصــن قمــارش ــ كمــا سبــق ذكــره ــ ثــم تســمى بالخلافــة، وتلقــب بالمهــدي. وبعــد ذلــك انحــاز حــراس إدريــس إليــه، وأعــادوا إليــه الاعتبــار، ونــادوا بــه خليفــة؛ حيــث استقــر لبعــض الوقــت في حصــن قمــارش أو ببشتــر؛ وتمســك بالدعــاء لــه أمــراء الأمــازيــغ ــ أيضــا ــ وزحفــوا نحــو مالقــة؛ بغــرض التغلــب عليهــا وإعــادة العــالي إلى منصبــه؛

ولكنهم فشلوا في مساعيهم كلها؛ نظرا لحسن صمود محمد المهدي ومن معه.

ولما يئس أمراء الأمازيغ من عودة إدريس انفضوا عنه؛ وتحولوا صوب محمد بن القاسم بن حمود أمير الجزيرة؛ فالتفوا حوله ونادوا به ــ هو الآخر ــ خليفة للمسلمين. وبهذه الخطوة أصبح في الأندلس أربع خلفاء؛[1] الخليفة الأول إدريس بن يحيى بحصن بُبَشْتر الملقب بالعالي، والثاني خليفة إشبيلية خلف الحصري المنتحل لاسم هشام المؤيد، والثالث محمد بن إدريس بمالقة الملقب بالمهدي، والرابع محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء الملقب ــ أيضا ــ بالمهدي. ويبدو أن هذا هو الذي استفز أبا محمد علي بن حزم؛ وحفزه لقول مقولته السابقة الذكر؛ مستنكرا ومنددا بما حصل. وطبعا لا يمكن أن يحدث كل ذلك لولا نزوات القبلية؛ ذات المصالح الضيقة، وأنانية العصبية المدمرة.

ــ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود:

وحينما توفي المتأيد إدريس بن علي سنة 431هـ(1039م)؛ خلف ثلاثة أولاد ذكورا هم: يحيى ومحمد وحسن. فأما يحيى ــ وهو الملقب بحيون ــ فقتله ابن عمه المستنصر حسن بن يحيى (المعتلي)؛ عندما قدم مع الخادم نجا من سبتة ــ

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 7، ص: 286. والمعجب، ص: 68.**

كمـــا سبقــت الإشـــارة إليــه ــ وبــقي أخـــواه الصغيـــران: محمـــد وحســـن: ابــني إدريـــس بـــن عـــلي. ولمـــا تـــولى العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى الحكـــم بـــادر ــ فـــورا ــ إلى حبسهمـــا. ولكنهمـــا تمكنـــا مـــن الإفـــلات، والقيـــام بعصيـــان ضـــد إدريـــس؛ متصيديـــن ــ كمـــا قيـــل في بعـــض المصـــادر ــ لحظـــة خروجـــه مـــن مالقـــة للقنـــص؛ فأغلقـــا ــ مـــع أنصارهمـــا ــ أبـــواب المدينـــة؛ ومنعـــاه مـــن العـــودة إلى ملكـــه. وقـــد سهـــل عليهمـــا الأمـــر مـــا كـــان يشـــوب أجـــواء البـــلاط؛ مـــن استيـــاء ونفـــور؛ لمـــا كـــان يبديـــه العـــالي مـــن سلـــوك غيـــر مقبـــول لـــدى معاونيـــه.

وبالطبـــع فقـــد استثمـــرا تلـــك الفرصـــة الـــتي أضـــحى فيهـــا أعيـــان الدولـــة غاضبيـــن مـــن التصرفـــات الشـــاذة للخليفـــة إدريـــس بـــن يحـــيى؛ نظـــرا لمـــا كـــان يظهـــره مـــن تناقـــض وتقلـــب في الأحـــوال. وبذلـــك وجـــد الأخـــوان منفـــذا هامـــا؛ للاستيـــلاء عـــلى الحكـــم. وبالفعـــل تمكنـــا مـــن ذلـــك؛ بمساعـــدة بعـــض الحـــراس، وبمسانـــدة الحاميـــة السودانيـــة بقصبـــة مالقـــة. وتـــم تغلبهمـــا عـــلى ســـدة الخلافـــة سنـــة 438هـــ (1046م)؛ حيـــث تربـــع عـــلى عـــرش مالقـــة محمـــد بـــن إدريـــس؛ الـــذي تلقـــب بالمهـــدي؛ ورفـــع الدعـــاء لـــه بالخلافـــة. وبـــادر محمـــد المهـــدي بإسنـــاد ولايـــة العهـــد لأخيـــه حســـن؛ الـــذي تسمـــى بالســـامي. غيـــر أنـــه غضـــب عليـــه فيمـــا بعـــد، فنفـــاه إلى جبـــال غمـــارة بالعـــدوة المغربيـــة؛ فبايعـــه مـــن كـــان هنـــاك مـــن قبائـــل غمـــارة؛ أيـــن يتواجـــد أنصـــار الأدارســـة التقليدييـــن.

أمـــا محمـــد المهـــدي فبـــقي صامـــدا في مالقـــة؛ ضـــد خصومـــه مـــن أمـــراء الأمازيـــغ إلى يـــوم وفاتـــه مسمومـــا ــ كمـــا قيـــل ــ في سنـــة 444هــ (1052م) أو 445هــ (1053م).[1] فســـارع ــ عندئـــذ ــ العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى إلى العـــودة إلى مالقـــة؛ والتربـــع مـــن جديـــد عـــلى عـــرش الخلافـــة بهـــا؛[2] وذلـــك لأنـــه كـــان يتربـــص الفرصـــة المواتيـــة؛ مـــن تاكرنـــة حيـــث كـــان مستقـــرا. وهكـــذا عـــاد العـــرش لإدريـــس مـــن جديـــد؛ حيـــث بـــقي إلى يـــوم وفاتـــه سنـــة 446هــ(1054م) أو 447هــ(1055م)؛ كمـــا سبـــق ذكـــره.

---

[1] **اتفـــق ابـــن عـــذاري وابـــن الخطيـــب عـــلى قصـــة زعمـــا أنهـــا قصـــة مـــوت محمـــد المهـــدي؛ وجـــاء فيهـــا: ((وكـــان محمـــد بـــن إدريـــس هـــذا سفاكـــا للدمـــاء؛ فامتـــدت يـــده إلى قتـــل البرابـــر؛ ولمـــا رأى الحجـــاب ذلـــك؛ وهـــم أمـــراء القبائـــل؛ عملـــوا الحيلـــة في قتلـــه؛ فوجـــه لـــه باديـــس بـــن حبـــوس بكـــأس عـــراقي مسمـــوم؛ مـــع رجـــل مـــن الكتاميـــين. فلمـــا وصـــل إليـــه قـــال لـــه: "هـــذه كـــأس جلبـــت للحاجـــب المظفـــر باديـــس؛ فلـــم يرهـــا تصلـــح إلا للخلافـــة؛ فاختصـــك بهـــا". فأعجـــب بهـــا محمـــد ابـــن إدريـــس، وملأهـــا خمـــرا، وضمهـــا إلى فمـــه؛ فأحـــس في نفســـه ريبـــة منهـــا؛ فأمـــر الكتـــامي فشربهـــا؛ فتهـــرأ جلـــده عـــن لحمـــه مـــن حينـــه. وبـــقي هـــو ثلاثـــة أيـــام، ومـــات مـــن رائحتهـــا في أواخـــر سنـــة 444هــ)). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 218. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص ص: 141 ــ 142.**

[2] **قـــال البكـــري وابـــن الخطيـــب: أن الـــذي تـــولى الحكـــم ــ مباشـــرة ــ بعـــد مـــوت محمـــد المهـــدي ابـــن أخيـــه إدريـــس بـــن يحـــيى بـــن إدريـــس بـــن عـــلي؛ حيـــث تســـمى بالموفـــق؛ ولـــم ينســـب إلى نفســـه رتبـــة الخلافـــة؛ ولكنـــه لـــم يبـــق في الملـــك أكثـــر مـــن أشهـــر يسيـــرة؛ إذ زحـــف إليـــه العـــالي إدريس بـــن يحـــيى. أنظـــر المغـــرب، ص: 134.**

ـ حكومـــة المستعـــلي محمـــد بـــن إدريـــس المتأيـــد:[1]

تـــولى الحكـــم بمالقـــة في السنـــة الـــتي تـــوفي فيهـــا العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى. وتســـمى ـ في أوثـــق الأقـــوال ـ بالمستعـــلي. هـــذا ولـــم تهتـــم المصـــادر التاريخيـــة كثيـــرا بالمستعـــلي هـــذا؛ خاصـــة وأن حكمـــه لـــم يتجـــاوز السنتيـــن. أي مـــن سنـــة 446 أو 447هـــ (1055م) إلى سنـــة 449هــ(1057م)؛ وهي السنـــة الـــتي تغلـــب فيهـــا باديـــس بـــن حبـــوس بـــن زيـــري عـــلى مالقـــة؛ معلنـــا بذلـــك ختـــام الدولـــة الإدريسيـــة في الأندلـــس نهائيـــا.[2] وكـــان أمـــراء الأمازيـــغ بتلـــك الديـــار قـــد حولـــوا دعوتهـــم ـ في البدايـــة ـ إلى محمـــد بـــن القاســـم سنـــة 439هــ(1047م)، ولمـــا مـــات سنـــة 440هــ(1048م) نقلوهـــا لابنـــه القاســـم لفتـــرة قصيـــرة؛ ولكنهـــم تخلـــوا ـ بعـــد ذلـــك ـ عـــن تلـــك الفكـــرة؛ ورأوا وجـــوب الاستقـــلال بأنفسهـــم؛ دون حاجـــة إلى سنـــد شـــرعي في الحكـــم. خاصـــة بعـــد سقـــوط دولـــة بـــني القاســـم بالجزيـــرة الخضـــراء في يـــد المعتضـــد بـــن عبـــاد سنـــة 449هــ(1057م).[3]

---

[1] هـــذا رأي ابـــن عـــذاري وابـــن خلـــدون. البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص:218. والعبـــر، مج: 4، ص: 335. أمـــا رأي البكـــري وابـــن الخطيـــب فيختلـــف؛ إذ يـــرون أنـــه ابـــن العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى؛ وليـــس ابـــن إدريـــس المتأيـــد. أنظـــر: المغـــرب، ص: 134. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 142. كمـــا انهـــم اختلفـــوا أيضـــا في اللقـــب فمنهـــم مـــن يعتقـــد أن لقبـــه هـــو المستعـــلي؛ ومنهـــم مـــن يـــرى أن لقبـــه هـــو الســـامي.

[2] يـــرى البكـــري أن باديـــس دخـــل مالقـــة، وأسقـــط دولـــة المستعـــلي في سنـــة 447هـــ. المغـــرب، ص: 134.

[3] البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 242.

وهـذا مـا جعـل باديـس بـن حبـوس يزحـف إلى مالقـة؛ بغـرض امتلاكهـا. ولمـا أسقـط أميـر بـني زيـري باديـس بـن حبـوس دولـة بـني حمـود؛ لـم يجـد المستعـلي مفـرا مـن اللجـوء ــ في البدايـة ــ إلى المريـة. ومـن هنـاك وصلتـه دعـوة مـن أهـل مليلـة؛ فأجـاز إليهـم قاطعـا البحـر؛ نحـو العـدوة المغربيـة. وفي تلـك المدينـة الوفيـة لبـني إدريـس وجـد الملجـأ الآمـن؛ حيـث بايعتـه قبائـل تلـك النـواحي سنـة 456هــ(1063م)؛[1] وظـل هنـاك حـتى وفاتـه في أواخـر سنـة 460هــ(1067م).[2] ويعتبـر المستعـلي محمـد بـن إدريـس هـذا هـو آخـر ملـوك بـني حمـود الأدارسـة في الأندلـس. وذلـك بعـد أن تمـت تصفيـة ملـك بـني عمهـم؛ أبنـاء القاسـم بـن حمـود ملـوك الجزيـرة الخضـراء؛ مـن قبـل المعتضـد بـن عبـاد سنـة 449هــ(1057م).

****

---

[1] **يقـول البكـري الـذي كـان معاصـرا لتلـك الفتـرة أن المستعـلي ذهـب إلى مليلـة في سنـة 459هــ؛ فممـا قـال:((وتسـمى بالمستعـلي، ولـم يخطـب لـه بالخلافـة؛ فأقـام بمالقـة إلى أن تغلـب عليهـا باديـس بـن حبـوس بـن ماكسـن في صـدر سنـة سبـع وأربعيـن وأربعمائـة؛ فانقطعـت دولـة بـني عـلي بـن حمـود مـن يومئـذ؛ ثـم استـدعي محمـد بـن إدريـس هـذا مـن مدينـة مليلـة؛ وهـو مستقـر بالمريـة؛ لا يعـرف مكانـه؛ لخمـول ذكـره؛ فعبـر إليهـا؛ وذلـك في شهـر شـوال سنـة تسـع وخمسيـن وأربعمائـة؛ فقـام بـه جماعـة بـني ورتـدي بميلـة وبقلـوع جـارة ونواحيهـا. وهـو هنالـك بـاقي إلى وقتنـا هـذا؛ وهـو آخـر سنـة ستيـن وأربعمائـة)). المغـرب، ص: 134.**

[2] **العبـر، مج: 4، ص: 335. ونفـح الطيـب، ج: 1، ص: 435.**

ـ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

يبـــدو أن الإنجـــازات الحضاريـــة والثقافيـــة لدولـــة بـــني حمـــود لـــم تصـــل إلى المستـــوى المطلـــوب؛ بالنسبـــة لدولـــة تواجـــدت في ربـــوع الأندلـــس؛ إذ كـــان رصيـــد هـــذه الدولـــة الحضـــاري ـ بفرعيهـــا ـ متواضعـــا؛ إذا مـــا قيســـت بالدولـــة الأمويـــة، أو بدولـــة بـــني عبـــاد بإشبيليـــة. فدولـــة بـــني حمـــود ـ ســـواء بقرطبـــة أو بمالقـــة أو بالجزيـــرة الخضـــراء ـ كـــان يهيمـــن عليهـــا الطابـــع القبـــلي؛ ذي التوجـــه العسكـــري. هـــذا مـــن جهـــة، ومـــن جهـــة أخـــرى فـــإن عمرهـــا كـــان قصيـــرا ـ بعـــض الـــشيء ـ بالمقارنـــة مـــع دولـــة بـــني أميـــة؛ الأمـــر الـــذي لـــم يساعـــد عـــلى ظهـــور المبتكـــرات الحضاريـــة والثقافيـــة بالقـــدر الكـــافي. كمـــا أن حياتهـــا كانـــت مليئـــة بالفتـــن والحـــروب والمؤامـــرات؛ وهـــذا ـ بالطبـــع ـ لا يساعـــد عـــلى بـــروز عبقريـــات في الميادـــن العلميـــة والفكريـــة. ويعتبـــر ذلـــك مـــن بيـــن الموانـــع المؤثـــرة في سبيـــل إنجـــاز أي مشـــروع حضـــاري. هـــذا وكـــان ـ طبعـــا ـ للعامـــل الاقتصـــادي أثـــره في انكمـــاش الإنجـــازات الحضاريـــة والثقافيـــة بهـــذه الدولـــة الضعيفـــة؛ الـــتي لـــم تكـــن مواردهـــا الاقتصاديـــة كافيـــة لتحقيـــق مـــا حققتـــه الدولـــة الأمويـــة.

ومـــع ذلـــك فقـــد ورثـــت دولـــة بـــني حمـــود شيئـــا مـــن التـــراث الـــذي خلفتـــه الدولـــة الأمويـــة؛ ممثـــلا ببعـــض المنشـــآت العمرانيـــة، والمبتكـــرات العلميـــة، ومـــا تعـــودت عليـــه الرعيـــة مـــن تـــذوق للإبداعـــات الفنيـــة والأدبيـــة. هـــذا وقـــد ورث بـــلاط الحموديـيـــن أيضـــا ــ بشقيـــه ــ بعـــض المؤسســـات الثقافيـــة كمـــا ضـــم إليـــه بعـــض الأدبـــاء والكتـــاب الفطاحـــل، والشعـــراء الفحـــول؛ كمـــا استقبـــل أدبـــاء وشعـــراء وفـــدوا إليـــه مـــن جهـــات أخـــرى؛ دون نيـــة في الإقامـــة. وقـــد ازدانـــت هـــذه الدولـــة وحظيـــت أيضـــا بوجـــود بعـــض العلمـــاء والفقهـــاء في ربوعهـــا؛ حيـــث اختصـــوا بشئـــون الكتابـــة والقضـــاء والفتيـــا والتدريـــس. ولمزيـــد مـــن الفائـــدة والتوضيـــح نشيـــر إلى أولئـــك العلمـــاء والأدبـــاء والكتـــاب والشعـــراء؛ وهـــم:

ـ أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي:[1] وينتسب إلى أسرة بني درّاج الصنهاجيين. وكان القسطلي ـ أيام المنصور بن أبي عامر ـ كاتبا للإنشاء مع ابن الجزيري.[2] ويبدو أن أنه مرّ مرور الكرام ببلاط

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((حل اسمه من الأماني محل الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس؛ وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدْره؛ وكان الشام والعراق أدنى خطى ذكره. وقد أجرى الثعالبي طرفا من أمره بـ(اليتيمة): "بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام؛ وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك. وكان يجيد ما ينظم")). نفسه، ص: **60**.

[2] ذكره الحميدي فقال: ((كان كاتبا من كتاب الإنشاء في أيام المنصور أبي عامر؛ وهو معدود في جملة العلماء والمقدَّمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء؛ وشعره كثير مجموعٌ؛ يدل على علمه؛ وله طريقة في البلاغة والرسائل؛ تدل على اتساعه وقوته؛ وأول من مدح من الملوك المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر مدبر دولة هشام المؤيد... فعن أبي محمد علي ابن أحمد بن سعيد الفقيه؛ وأخبرني أن المنصور أبا عامر لما فتح شنب ياقب أو غيرها من القلاع الحصينة التي يقال إن أحدا لم يصل إليها قبله؛ استُدْعِيَ أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري؛ وأمرا بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة، وإلى سائر الأعمال. فأما ابن الجزيري: "سمعا وطاعة". وأما ابن درّاج فقال: "لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة". وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة. فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك؛ فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك. وقيل لابن درّاج افعل ذلك على اختيارك؛ فقد فسح لك فيه. ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح؛ وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، ومشاهد القتال، وكيفية الحال؛ بأحسن وصف، وأبدع وصف؛ فاستحسنت ووقع الإعجاب بها؛ ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن. وما بقي من نسخ ابن الجزيري ـ في ذلك الفتح على كثرتها ـ عين ولا أثر... وسمعت أبا محمد علي بن أحمد [بن سعيد

بــني حمــود؛ إذ لــم تطــل إقامتــه فيــه كثيــرا. ومــع هــذا فقــد منــح ملــوك هــذه الدولــة أروع مــا خطتــه أقــلام الكتــاب مــن نثــر، وأجمــل مــا قيــل فيهــم مــن قصائــد شعريــة. ومــن قولــه المنثــور هــذه القطعــة الــتي خــص بهــا الخليفــة عــلي بــن حمــود؛ جــاء فيهــا:

((حسْبُــك اللــهُ يــا ابــنَ رســول اللــه، وعــلى هــدًى مــن اللــه، فيمــا خَفقــتْ إليــه راياتــك، وصَدَقــتْ بــه آياتــك، جديــرٌ أن يُعِــزَّ بطاعتــه نَصْــرَك، كمــا شــرحَ بتوفيقــه صَــدْرَك، ويُتَمِّــم بتأييــدِه أمــرَك، بمــا أوْلَيــتَ أوليــاءَه المؤمنيــن، وأبْلَيْــتَ في عِبــادِه الصالحيــن، المصابيــنَ في الأمــوال والأهليــن، أيــامَ تزاحَمَــتْ إليهــم أسبــابُ القضــاء بالبَأســاءِ والضَّــرَّاء، وأبْرَقَــتْ عليهــم آفــاقُ السمــاء بسيــوف الأعــداء، تَسِــحُّ بوابــل الدِّمــاء وتمــوجُ بأســراب السّبــاء، فَسُرْعــانَ مــا هامــوا فــلا وَزَر، وربعــوا فــلا مُسْتقــرّ، ونــادوا ولاتَ حيــن مَنَــاص ولا فــوْت، إلاَّ مَــنْ أعْفَــاهُ المــوت؛ فأصبحــوا أنْفَــاضَ الجَــلاء، وأغْــراضَ الفنــاء، قــد جَهــدُوا بالبــلاء، وعَيُــوا بالــدَّاء العَيَــاء، فلئــنْ زُلْزِلَــتْ بهــمَ الأرض، لقــد سكَــنَ بهــم عِــزٌّ سلطانِــك، ولئــنْ تَهافــتَ بهــم الذعْــر، لقــد

الفقيــه]؛ وكــان عالمــا بنقــد الشعــر يقــول: "لــو قلــت إنــه لــم يكــن بالأندلــس أشعــر مــن ابــن درّاج لــم أبعــد". وقــال مــرة أخــرى: "لــو لــم يكــن لنــا مــن فحــول الشعــراء إلا أحمــد بــن درّاج؛ لمــا تأخــر عــن شــأو (حبيــب) و(المتنــبي)". مــات أبــو عمــر أحمــد بــن درّاج قريبــا مــن مــن العشريــن وأربعمائــة)). جــذوة المقتبــس، ص ص: 110 ــ 114.

اطمأنــوا في مِهَــادِ أمانــك)).[1] **وقــد** مــدح هــذا الشاعــر الذائــع الصيــت؛ الخليفــة عــلي بــن حمــود بقصيــدة شهيــرة؛ نــوه فيهــا بانتسابــه إلى رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وسلــم، وأشــاد ببــني هاشــم، ومجــد نسبهــم القديــم؛ وجــاء فيهــا:[2]

لَعَلــك ياشَمْــسُ عِنــدَ الأصيــلِ
شَجِيتِ لِشَجْــوِ الغَريــبِ الذَّليــلِ
فَكــوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيــع
وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّســولِ
فَإمَّــا شَهــدْتِ فَــأزكَى شَهيــدٍ
وإمَّــا دَللــتِ فَأهْــدَى دَلِيــلِ

---

[1] **الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 64.**

[2] **قــال فيهــا ابــن بســام: ((وهــذه القصيــدة لــه طويلــة؛ وهي مــن الهاشِميــاتِ الغُــرّ؛ بناهــا مــن المِسْــك والــدُّرّ؛ لا مــن الجــصّ والآجــُر؛ لا بــل خَلَّدهــا حديثــاً عــلى الدَّهــر، وسَــرَّ بهــا مَطالــعَ النُّجــومِ الزُّهْــر؛ لــو قَرَعَــتْ سَمــْعَ دِعْبِــلِ بــنِ عــليّ الخــزاعيّ، والكُمَيْــتِ بــن زَيــْدٍ الأســديّ، لأمْسَكــا عــن القــول، وبرئــا إليــه في القــوّةِ والحَــوْل؛ بــل لَــوْ رآهــا السيــد الحميــريّ، وكُثَيِّــرٌ الخُــزاعيّ، لأقاماهــا بَيِّنَــة عــلى الدَّعــْوَى، ولتلقياهــا بِشــارَة عــلى زَعْمِهِمــا بخــُروج الخيــلِ مــن رَضــْوَى؛ وقــد أثبــتُ أكثرهــا إعلانــاً بجلالــة قدرِهــا، واستحسانــاً لعَجُــزِهــا وصدْرِهــا)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 87 ــ 88.**

عَلى سَابــقٍ في قيُــودِ الخُطــُوبِ
وَنَجْمِ سَنــاً فِــي غُثــاءِ السُّيُــولِ
يُنــادِي الثــرَى لِسَقــامِ الضَّيَــاعِ
وَيَشْكــو إلَى المُلــْكِ دَاءَ الخُمُــولِ
وَعَــزَّ عَلى العِلمِ مَثــوَاهُ أرْضــاً
عَلى حُكمِ دَهْــرٍ ظلــومٍ جَهُــولِ
وَيَعْجَــبُ كَيــفَ دَنــا مِنْ عَــلِيٍّ
ولَــمْ تَنفَصِــمْ حَلقــات الكُبــولِ
وَكيْــــفَ تنسَّــــمَ آلَ النــبيِّ
وَأبْطــأ عَنــهُ شِفــاءُ العَلِيــــلِ
وَأطــوَادُ عِزّهِــــمُ مَاثِــــلاَتٌ
لــهُ وَهْوَ يَرنــو بِطــَرفٍ كلِيــلِ
وَأبْحُرُهــمْ زَاخِــــرَاتٌ إليْــــهِ
وَيَرشُــفُ فِي الثمَــدِ المُسْتَحِيــلِ
تَجَــزَّأ مِــنْ جَنــتَيْ مَــــأرَبٍ
بِخَمــطٍ وَأثــلٍ وَسِــدْرٍ قلِيــلِ

ثـــم يضيـــف قائـــلا:

شَرِيـــدُ السُّيُوفِ وَفَـلُّ الحُتُـــوفِ
يَكِيـــدُ بأفـــلاَذِ قلـــبٍ مَهُـــــولِ

فأذهَـــلَ مُرْضِعَـــةً عَـــنْ رَضِيـــعٍ
وَأنـــسَى الحَمَائـــمَ ذِكـــرَ الهَدِيـــلِ

فَمَا تَهْتَـــدِي العَيْـــنُ فِيهَا سَبِيـــلاً
سِـــوَى سُبُـــلِ العَبَرَاتِ الهُمُـــولِ

وَلاَ يَعْـــرِفُ المَوْتُ فِيهَا طَرِيقـــاً
إلى النَّفْـــسِ إلاَّ بِعَضْـــبٍ صَقِيـــلِ

رَكِبْـــتُ لَهَـــا مَحْمَـــلاً للنجَـــاةِ
وَصَيَّـــرْتُ قَصْـــدَكَ فِيهِ عَدِيـــلِي

فَـــرُدَّتْ عَـــلى عَقِبَيْهَـــا المَنُـــونُ
بِـــوَاقٍ مُجيـــرٍ وَرَأيٍ أصِيـــلِ

وَقَـــد سُمْتَهَـــا بِنَفِيـــسِ التـــــلاَدِ
عَلى أنفـــسٍ ضَائِعَـــاتِ الذُّحُـــولِ

نُفُوسُ حَنَتْ قَـــوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَـــا
فكَـــنَّ سِهَـــامَ قِـــسِيِّ الخمُـــــولِ

إلى أن يقــول:

إلـَـى الهَاشِــمِيِّ إلـَـى الطالِــبيِّ
إلَى الفَاطِمِيِّ العَطُــوفِ الوَصُــولِ
فَسُــمِّيَ جَــدُّكَ عَمْــرو الكِــرَامِ
بهَشْــمِ الثرِيــدِ زَمَــانَ المُحُــولِ
وَضَيَّــفَ حَتَّى وُحُــوشَ الفــلاَةِ
وَأهْــدَى القِرَى لِهِضَابِ الوُعُــولِ
وَإنَّ أبَــا طالِــــبٍ لِلضيُــــوفِ
لأطلَــبُ مِــنْ ضَيفِــهِ لِلنــزُولِ
يَــرُوحُ عَليْهِــم بغــرِّ الجِفـــانِ
وَيَغــدُو لَهُمْ بِالغَرِيــضِ النشِيــلِ
فَأنْتــمْ هُــدَاةُ حَيَــاةٍ وَمَـــوْتٍ
وَأنتــمْ أئمــةُ فِعْــــلٍ وَقِيــــلِ
وَسَـــادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنَــاتِ عَــدْنٍ
جَمِيــعِ شَبَابهــــمُ وَالكهُـــولِ
وَأنتــمْ خَلاَئــفُ دُنيَــا وَدِيـــنٍ
بِحُكْــمِ الكِتَــابِ وَحُكْــمِ العُقُــولِ
ووَالدُكـــمْ خَاتِـــمُ الأنبيَـــاءِ
لَكــمْ مِنــهُ مَجْــدُ حَــفِيٍّ كَفِيــلِ

تلـــــذُّ بحَمْلكـــــمُ عَاتقـــــاهُ

عَلَى حَمْلِـــهِ كـــلَّ عِـــبْءٍ ثقِيـــلِ

وَرَحْـــبٌ عَلَى ضَمِّكـــمْ صَـــدْرُهُ

إِذَا ضَـــاقَ صَدْرُ أبٍ عَنْ سَلِيـــلِ

وَيَطرُقـــهُ الـــوَحْيُ وَهْنـــاً وَأنتـــُمْ

ضَجيعَـــاهُ بَيـــنَ يَـــدَيْ جِبْرَئِيـــلِ

وَزَوَّدَكـــمْ كـــلَّ هَـــدْيٍ زَكِـــيٍّ

وَأوْدَعَكـــمْ كـــلَّ رَأْيٍ أصِيـــــلِ

وممـــا قالـــه ابـــن درّاج في وصـــف المقاتليـــن:

وَقـــَدْ لَمَعَتْ حَوْلَيكَ مِنْهـــمْ أسِنـــة

تُخَيـــلُ أنَّ الحَزْنَ وَالسَّهْلَ نِيـــرَانُ

أسُـــودُ هَيَـــاجٍ مَا تـــزَالُ ترَاهُـــمُ

تطِيـــرُ بِهِمْ نَحْوَ الكَرِيهَةِ عِقْبَـــانُ

وَأقمَـــارُ حَرْبٍ طالِعَـــاتٌ كأنمَـــا

عَمَائِمُهُمْ فِي مَوقِفِ الرَّوْعِ تِيجَـــانُ

وَكـــلُّ زَنـــاتِيٌّ كـــأنَّ حُسَامَـــهُ

وَهَامَـــة مَنْ لاقـــاهُ نارٌ وَقرْبَـــانُ

وَأبْيَــضَ صِنِهَــاجٍ كــأنَّ سِنِانــهُ

شِهَابٌ إذا أهْوَى لِقِرْنٍ وَشَيْطَــانُ

وقـــال أيضــا في وصــف لحظــة وداع لأسرتــه:

ولَما تدَانــتْ لِلــوَدَاعِ وَقَــدْ هَفــا

بِصَبْــرِيَ مِنِهَــا أنــة وَزَفِيــرُ

تُناشِدُنِي عَهْــدَ المَــوَدَّةِ وَالهَــوَى

وَفِي المَهْدِ مَبْغــُومُ النداَءِ صَغِيــرُ

عَــيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطابِ وَلَفْظِــهِ

بِمَوقــعِ أهْــوَاءِ النفــوسِ خَبيــرُ

تَبــوَأ مَمْنوعَ القلــوبِ وَمُهــدَتْ

لــهُ أذْرُعٌ مَحْفوفــة وَنحُـــورُ

فَكــلٌّ مُفــدَّاةِ الترَائِــبِ مُرْضِــعٌ

وَكــلٌّ مُحَيَّــاةِ المَحَاسِــنِ ظِيــرُ

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَــادَنِي

رَوَاحٌ بِتــدْآبِ السُّــرَى وَبُكــورُ

وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَــا

جَوَانِحُ مِنْ ذُعْــرِ الفــرَاقِ تَطِيــرُ

لئِــنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيــوراً فإنـــنِي
عَلى عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَــا لغَيُــورُ
ولَــَوْ شَهِدَتنِي وَالهَوَاجرُ تَلتــظِي
عَلَيَّ ورَقَــرَاقُ السَّــرَابِ يَمُــورُ
أسَلــطُ حَــرَّ الهَاجرَاتِ إذا سَطــا
عَلى حُرِّ وَجْهي وَالأصِيلُ هَجِيــرُ
وَأسْتَنشِقُ النَّكبَــاءَ وَهْيَ بَــوَارِحٌ
وَأسْتَوْطِئُ الرَّمْضَــاءَ وَهْيَ تفُــورُ
ولِلمَوْتِ فِي عَيْــنِ الجَبَانِ تَلَــوُّنٌ
ولِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيــرُ

وقـــال في وصـــف هـــول البحـــر:

إلَيكَ شَحَنـــا الفلـــكَ تَهــوِي كأنهَـــا
وَقَدْ ذَعرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشّمْسِ غِرْبَانُ
عَلَى لُجَــجٍ خضْرٍ إذا هَبــتْ الصَّبَـــا
تــرَامَى بنـــا فِيهــَا ثبيــرُ وَثهـــلاَنُ
مَوَاثِـــلٌ ترْعَى فِي ذرَاهـــا مَوَاثِـــلاً
كمَا عُبــدَتْ فِي الجَاهِلِيَّـــةِ أوْثـــانُ

فِي طَيِّ أسْمَـــالِ الغرِيـــبِ غرِائـــبٌ

سَكنَّ شِغافَ القلـــبِ شِيـــبٌ وَوِلـــدَانُ

يُرَدِّدْنَ فِي الأحْشَـــاءِ حَـــرَّ مَصَائِـــبٍ

تزِيـــدُ ظلاَمـــاً ليلهَـــا وَهْيَ نِيـــرَانُ

إذَا غِيـــضَ مَاءُ البَحْرِ مِنهَا مَدَدْنـــهُ

بدَمـــعِ عيُـــونٍ تمْترِيهـــنَّ أشْجَـــانُ

وَإنْ سَكنـــتْ عَنا الرِّيَاحُ جَـــرَى بنـــا

زَفِيـــرٌ إلَى ذِكـــرِ الأحِبَّـــةِ حَنـــانُ

يَقلـــنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالهَـــمُّ وَالـــدُّجَى

تَمـــوجُ بنـــا فِيهَـــا عُيُـــونٌ وَآذَانُ

ألاَ هَـــلْ إلَى الدُّنيَا مَعَـــادٌ وَهلْ لنـــا

سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أوْ سِوَى المَاءِ أكفانُ

وَهَبْنـــا رَأيْنا مَعْلـــمَ الأرْضِ هَل لنـــا

منَ الأرْضِ مَأوًى أوْ مِنَ الأنسِ عِرفانُ

ـ ثم أبو حفص أحمد بن برد الأكبر:[1]

فأما الكاتب أبو حفص بن أحمد بن برد الأكبر؛ فهو من أهل قرطبة؛ ولم تذكر المصادر أصوله الأولى التي ينحدر نسبه منها. أما ابن بسام فقال إن بني برد ينتمون إلى بني شُهَيد بالولاء. وقد كان ابن برد هذا ـ من قبل ـ كاتبا في البلاط الأموي؛ وأيام بني عامر بالتحديد؛ ثم كتب في آخر أيامه للخليفة علي بن حمود ثم ولده يحيى. وهو جد أبي حفص أحمد بن برد الأصغر؛ صاحب رسالة السيف والقلم. وهذه قطعة من خطاب كتبه ابن برد الأكبر عن علي بن حمود لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة: ((**وما أنكَرنا شيئاً مما ذهبتَ إليه من التَّأنّي والتثبت، ولا اعتقدنا إلاَّ رَأيَك في نَظَرِ الاجتماع، وتَرَقب الالتئام؛ لتَرتفِعَ الشُبْهة ويَنْجَلِيَ الشَّكُّ؛ وإن كان مَذهَبُنَا في هذه الأمَّةِ مشهوراً، واحتسابُنَا الأجْرَ في صلاحِها معروفاً، وقيامُنا لنصرها وسخَاؤنا بأنفُسِنا وأموالنا لاستنقاذها؛ لا نَنْوي إلاَّ وجْهَه تعالى. وإلاَّ فقد عَلِمَ مَنْ عَرَفنا، وأيْقَن من أنْصَفَنا؛ أننا كنا في عَيْشٍ هَنِيّ، ولَبَبٍ رَخِيّ، وعملٍ واسع، ومال**

---

[1] قال ابن بسام: ((وقلد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري؛ ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة؛ فأسمع الصم بيانا، واستنزل العصم إبداعا وإحسانا؛ وقد أخرجت من رسائله؛ ما يعرب عن فضائله، ويوضح مشهور دلائله؛ وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربعمائة؛ وقد نيف على الثمانين)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 103.

وافــر، وجنــدٍ مُطيــع، وحصــنٍ منيــع؛ وفي دونِ ذلــك مــا أقنَــعَ مــن عــرفَ الدنيــا بحقيقتهــا، وأجْــزَأ مــن أنْزلَهــا مَنْزلتَهــا؛ ومــا كــفَى مــن لا يعــدِلُ بالسَّلامــةِ ولا يَبيــعُ بالغَبْــن، ولا يركــبُ الأهــوال، ولا يقتحِــمُ المهالــك، مغــرِّراً بدمــه، مُخاطِــراً بنفسِــه، لحُطــامٍ تافِــهٍ، وظــلٍ زائــل، ومتــاعٍ قليــلٍ؛ وإنــا لنرجــو منــه تعــالى أنــه لــم يُيَسِّــرَ مــا يَسَّــرَ مــن آمالنــا إلا عنــد اطّلاعِــه عــلى نيَّتِــنــا فيهــا؛ فنحــن بعَيْــنِ اللــه، ونواصينــا بيــدِه، والمُلــكُ والأمْــرُ لــه)).[1]

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 117 ــ 118.

ومــن شعــر أبي حفــص بــن بــرد الأكبــر هــذه الأبيــات الــتي خاطــب بهــا أبــا العــلاء صاعــد بــن الحســن اللغــوي:

أبَــا العَــلاءِ اسْتَمِعْ تَعْرِيضَ ذِي مِقــةٍ
أهْدَى لــكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْــرَ مَقْطــُوبِ

نــاءٍ بِغرْبتِــهِ والفَهــمُ نِسْبَتــهُ
وكــمْ دَنِــيٍّ قــصِيٍّ فِي المَناسِيــبِ

وَصَــارَ فِــي غُرْبَــةِ الآدَابِ مُغْتَرِبــاً
أمَا كَــفَى الدَّهْــرُ عَــضٌ دُونَ تغْرِيــبِ

أوْلاكَ مَحْمَــدَةً مِــنْ بَعْــدِ تَجْرِبَــةٍ
لا يَصْلُــحُ الحَمْــدُ إلا بَعْــدَ تَجْرِيــبِ

أنــتَ الــذِي لمْ يُعَاشِــرْ مِثلــهُ رَجُــلاً
فِي العِلــمِ وَالظــرفِ والآدابِ والطيــبِ

تَحْصِيــلُ فَضْلِــكَ لِلحُسَّــادِ مَعْجَــزَةٌ
وكُنْــهُ عِلمِــكَ شَيْءٌ غَيْــرُ مَحْسُــوبِ

أمَّــا اللُّغــاتُ فلاَ يَعْقــوبُ يَبْلــغُ مَــا
وَعِيــتَ مِنهَــا وَلاَ أشْيَــاخُ يَعْقــوبِ

إلى أن يقــول:

ـ ثـم أبـو عامـر أحمـد بن عبـد الملـك بن شهيـد:[1]
وينتسب هذا الأديب الفذ والشاعر العملاق إلى قبيلة

حَيَّـا تَحيَّـةَ ذِي أُنـسٍ بنا وَجـلاً
قِناعَ وَجْهٍ طَويلِ الصَّوْنِ مَحْجُـوبِ
فَقلتُ: أهْلاً ورَحْبـاً، مَنْ هَدَاك لنـا
لَيـلاً؟ فـردَّ بتأهِيـلٍ وتَرْحِيـبِ
قالَ: مَاذا ترَى؟ قلتُ: الغَزَالـةُ فِي
ثوْبِ احْمِرَارٍ مِنَ الظلمَاءِ غِرْبِيـبِ
وَقَالَ: اتئدْ! قُلتُ: قَدْ أبْصَرْتها قِبَـلاً
فَقالَ: حِلاً، فَقلتُ: الحِـلُّ مَطْلُـوبِي
قالَ: تَحَـرَّ فلاَ تشططْ بِنَـا سَرَفـاً
فَقلْتُ: لَيْسَ سِوَى التَّقْصِيرِ مَرْغُوبِي
ثمَّ اعْلَـمِي أنني فِي حُبِّكُـمْ دَنِـفٌ
قَالَتْ: عَلِمْتُ فَلاَ تَخْضَعْ لِمَحْبُـوبِ
قُلْتُ: الوِصَالُ، فَقَالَتْ: مَهْ بَلَى وَعَسَى
وَفِي عَسَى فرْجَةٌ ترْجَى لِمَكـرُوبِ
ثمَّتَ وَلتْ فَأبْقتْ فِي الحَشَا ضَرَمـاً
يَذكـو بِدَمْعٍ عَلَى الخَدَّينِ مَسْكُـوبِ
فَالآنَ فَازْجُرْ أوِ اسْجَعْ إنْ هَمَمْتَ بِهِ
كَسَجْعِ شِـقٍّ أوِ الأفعَى أوِ الذِّيـبِ
هَـذِي عِبَارَتِهَـا فالأمْـرُ مُشْتَـرَكٌ
تلـقَى أفانِينـهُ طـراً بِتَهْذِيـبِ

[1] قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((كـان أبـو عامـر يبلـغ المعـنى ولا يطيـل سَفَـرَ الكـلام؛ وإذا تأملتـه ولسَنَـه، وكيـف يَجُـرُّ في البلاغـة رسنـه؛ قلـت عبـد الحميـد في أوانـه، والجاحـظ في زمانـه. والعجـب منـه أنـه كـان يدعـو قريحتـه إلى مـا شـاء مـن نثـره ونظمـه في بديهتـه ورويَّتِـه؛ فيقـود الكـلام كمـا يريـد مـن غيـر اقتنـاء للكتـب، ولا اعتنـاء بالطلـب، ولا رسـوخ في الأدب؛ فإنـه لـم يوجـد لـه رحمـه اللـه ـ فيمـا بلغـني ـ بعـد موتـه؛ كتـاب يستعيـن بـه علـى

أشجع الغطفانية العربية. هذا ويعتبر النقاد القدماء أحمد بن شهَيْد في صف أهم الأدباء الأفذاذ الذين أنجبتهم بلاد الأندلس في وقته؛ إذ كان يتميز بسهولة عجيبة في التعبير؛ سواء كان ذلك شعرا أم نثرا. فهو بذلك شاعر وناثر في الوقت ذاته.[1] ومن أشهر أعماله الأدبية رسالة "التوابع والزوابع"؛ التي حلق بخياله فيها؛ حيث تخيل أنه قام برحلة إلى أرض الجن؛ بمساعدة جني من قبيلة أشجع الجن. التي تتطابق مع قبيلته أشجع ذات الأصول الأنسية. وأشار في تلك الرحلة إلى ما شاهده، وتكلم عن الذين لقيهم من الجن؛ أتباع الشعراء الفحول وشياطينهم؛ حيث وتحاور معهم وقرأ عليهم شعره

صناعته، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدْر له؛ فزاد ذلك من عجائبه، وإعجاز بدائعه)). نفسه، ص: 192.

[1] قال الحميدي في ترجمة ابن شهيد: ((من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، وله حظ من ذلك يسبق فيه، ولم ير لنفسه في البلاغة أحدا يجاريه؛ وله كتاب "حانوت عطار" في نحو من ذلك، وسائر رسائله وكتبه نافعة الجد، كثيرة الهزل؛ وشعره كثير مشهور؛ وقد ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم] مفتخرا به؛ فقال: "ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد؛ وله من التصرف وجوه البلاغة وشعبها مقدار ينطق فيه بلسان مُركَّب من لساني: عمرو [بن بحر الجاحظ] وسهل [بن هارون]... قال لنا أبو محمد علي بن احمد [بن حزم] توفي أبو عامر ابن شهيد ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى، سنة ست وعشرين أربعمائة بقرطبة؛ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفته في مقبرة أم سلمة؛ وصلى عليه جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم. وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة؛ لم يخلف لنفسه نظير في هذين الهلمين جملة؛ ومولده سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 133 ــ 136.

فأجــازوه. وهــذه الرسالــة ــ كمــا هــو ظاهــر ــ سبــق بهــا غيــره مــن المبدعيــن العــرب وغيــر العــرب؛ إذ كتبهــا قبــل أن يكتــب: أبــو العــلاء المعــري العــربي رسالــة الغفــران، وقبــل أن يكتــب آليــاري دانــتي الإيطــالي قصتــه الكوميديــا الإلهيــة، أو جــون ميلتــون الأنجليــزي الفردوس المفقــود.

هــذا وقــد عــاش أبــو عامــر أحمــد بــن شهيــد في أدق فتــرة عرفتهــا بــلاد الأندلــس؛ كمــا أنــه انغمــس في الصراعــات الــتي دارت ــ آنئــذ ــ بيــن الطوائــف المختلفــة ــ أيــام الفتنــة الكبــرى الــتي اجتاحــت تلــك الديــار ــ وقضــت عــلى مؤسســات الخلافــة الأمويــة نهائيــا. وقــد كــان في عــداد الأدبــاء الذيــن عايشــوا الفتــرة الزمنيــة الــتي أظلــت الدولــة الحموديــة ســواء كــان ذلــك في قرطبــة؛ أو في مالقــة؛ تلــك المدينــة الــتي هاجــر إليهــا ابــن شهيــد مــع بعــض أعيــان قرطبــة ــ لبعــض الوقــت ــ بعــد أن ازداد الوضــع تعفنــا في قرطبــة؛ بسبــب مــا أبــداه بقايــا الخلفــاء الأمويــون مــن سلــوك ســيئ. وعليــه فقــد ذهــب أولئــك الأعيــان ــ وفيهــم ابــن شهيــد ــ إلى مالقــة مستنجديــن بيحــيى بــن حمــود؛ طالبيــن منــه العــودة إلى قرطبــة.[1]

---

[1] لكامــل في التاريــخ، ج: 7، ص ص: 287 ـــ 288. وأعمــال الأعــلام، ق: 2، ص ص: 134 ــ 136. ودولــة الإســلام في الأندلــس، ق: 2، ص ص: 666 ــ 667.

ويبدو أنه لم يتول مهام وزارية في بلاط بني حمود؛ وإن كان من الذين يترددون عليه. ولم يكن ابن شهيد – حسبما تشير إليه بعض النصوص – من المقربين المحبوبين إلى حاشية الخلفاء من بني حمود؛ بل يبدو أنه تعرض – أحيانا – إلى بعض المضايقات من تلك الحاشية[1].

[1] وقد نقل المقري عن صاحب المطمح نصا يشير إلى ذلك الجفاء والإقصاء جاء فيه: ((ودبَّت إلى أبي عامر ابن شُهَيد أيَّام العلويين عَقارِب؛ برئت بها منه أباعد وأقارب؛ واجهه بها صَرْفُ قطوب؛ وانبرت إليه منها خطوب؛ نبَا لها جَنْبه عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجع؛ إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله؛ فأقام مرتهناً، ولقي وَهَناً؛ وقال:

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوَانِ مَجيدُ
يَجُودُ وَيَشْكو حُزنهُ فيُجيدُ
نعَى صَبْرَهُ عِندَ الإمَامِ فَيا لهُ
عَدُوٌّ لأبناءِ الكِرَامِ حَسُودُ
وَمَا ضَرَّهُ إلاَّ مِزَاحٌ وَرِقة
ثنته سَفِيهَ الذِّكرِ وَهوَ رَشِيدُ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبةِ المُلكِ غَيرُهُ
وَطوِّقَ مِنهُ بِالعَظِيمَةِ جيدُ
وَمَا فِيَّ إلاَّ الشِّعر أثبَتهُ الهَوَى
فَسَارَ بهِ فِي العَالَمِينَ فرِيدُ
أفوهُ بمَا لمْ آته مُتعَرِّضاً
لِحُسْنِ المَعَانِي تارَةً فأزِيدُ
فإنْ طالَ ذِكرِي بِالمُجُونِ فإنهَا
عَظائمُ لمْ يَصْبرْ لهُنَّ جَلِيدُ
وَهَلْ كنتُ فِي العُشَّاقِ أوَّلَ عَاقلٍ
هَوَتْ بِحجَاهُ أعْيُنٌ وَخدُودُ

فــراقٌ وَشَجْــوٌ وَاشْتِيَــاقٌ وَذِلــــةَ
وَجَبَّـــــارُ حُفــــاظٍ عَــلَيَّ عَتِيــــدُ
فَمَــنْ يُبْلِــغُ الفِتيَــانَ أَنِّيَ بَعْدَهُـــمْ
مُقِيـــــمٌ بــدَارِ الظَّالِمِيــــنَ وَحِيــــدُ
مُقِيــمٌ بــدَارٍ سَاكِنوهَــا مِــنَ الأذَى
قِيَــامٌ عَــلَى جَمْــرِ الحِمَــامِ قعــودُ
وَيَسْمَــــعُ لِلْجَنــــانِ فِي جَنَباتِهَــــا
بَسِيــطٌ كترْجِيــعِ الصَّــدَى وَنَشِيــدُ
وَلسْــتُ بــذِي قيْــدٍ يَــرِنُّ، وَإنمَــا
عَلَى اللحْــظِ مِنْ سُخطِ الإمَــامِ قيُــودُ
وَقلــتُ لِصَــدَّاحِ الحَمَــامِ وَقَــدْ بَــكَى
عَلَى القصْــرِ إلفــاً وَالدُّمــوعُ تَجُــودُ
ألاَ أيُّهَــا البَــاكِي عَــلَى مَــنْ تُحِبــهُ
كِلاَنَـــــا مُعَــنًّى بِالخَــــلاَءِ فرِيـــــدُ
وَهَلْ أنــتَ دَانٍ مِنْ مُحِــبٍّ نــأى بــهِ
عَــنِ الإلــفِ سُلطــانٌ عَليــهِ شدِيــدُ
فَصَفقَ مِنْ رِيــشِ الجَنَاحَيــنِ وَاقِعــاً
عَلَى القــرْبِ حَــتَّى مَا عَلَيــهِ مَزِيــدُ
وَمَــا زَالَ يُبْكِيــنِي وَأَبْكِيــهِ جَاهِــداً
وَلِلشَّــوقِ مِنْ دُونِ الضُلُــوعِ وَقُــودُ
إلى أنْ بَكَى الجُدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجْونَــا
وَأَجْهَــــشَ بَــابٌ جَانِبَــــاهُ حَدِيــــدُ
أطَاعــتْ أمِيــرَ المُؤمِنِيــنَ كتائــبٌ
تصَــرَّفُ فِي الأمْــوَالِ كيْــفَ تريــدُ
فلِلشَّمْــسِ عَنهــا بِالنَّهــارِ تأخُـــرٌ
وَلِلبَــدْرِ شِحْنــاً بِالظــلاَمِ صُـــدُود
ألاَ إنهَــا الأيــــامُ تلعَـــبُ بِالفــتَى
نُحــوسٌ تهَــادَى تــارَة وَسُعـــودُ

مــع ذلــك فقــد اختــار اللجــوء إلى مالقــة، وفضــل رعايــة يحــيى بــن عــلي بــن حمــود؛ عندمــا ضــاق بــه الحــال في قرطبــة؛ بسبــب مــا وصــل إليــه الوضــع في تلــك المدينــة مــن فســاد وتعفــن بعــد خــروج بــني حمــود منهــا. لــذا فقــد قــال هــذه القصيــدة لمــا أزمــع الخــروج إلى مالقــة:

أرَى أعيُنــاً ترنــو إلَيَّ كأنمَــا
تسَــاوِرُ مِنهــا جَانــبَيَّ أرَاقــمُ
أدُورُ فــلاَ أعتَــامُ غيْرَ مُحَــارِبٍ
وَأسْعَى فلاَ ألقَى امْرُءاً لِي مُسَالــمُ
ويَجْلبُ لِي فَهمِي ضُرُوباً مِنَ الأذَى
وَأشْقَى امْرُئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالمُ
وَأوْجَعُ مَظلومٍ لِقلــبٍ وَذِي حِــجىً
فــتىً عَــرَبِيٌّ تزْدَرِيــهِ أعَاجــمُ

وَمَا كنــتُ ذا أيــدٍ فَأذعــن ذا قــوًى
مِــنَ الدَّهــرِ مُبــدٍ صَرْفــهُ وَمُعِيــدُ
ورَاضَــتْ صِعــابِي سَطــوَةٌ علويــة
لهَــا بَــارِقٌ نحْــوَ النــدَى ورُعــودُ
تقولُ التِي مِنْ بَيْتِهَــا كــفَّ مَركــبِي
أقرْبُـــكَ دَانٍ أمْ مَــدَاكَ بَعِيـــدُ
فقلتُ لَهَا أمْــرِي إلى مَنْ سَمَــتْ بِــهِ
إلَى المَجـــدِ آبــاءٌ لــهُ وَجـــدُودُ

غَنَيْتمُ عَلى مَا تزْعُمُونَ عَنِ الوَرَى

لقدْ سَفِهَــتْ تِلكَ الحُلــومُ الزَّوَاعِــمُ

وَهَلْ يُقْدِمُ البَازِي عَلى الطَّيْر فِي الضُّحَى

إذا زَالَ عَنْ رِيشِ الجَناحِ القــوَادِمُ

سَـــلاَمٌ عَليكـــمْ لاَ تَحِيَّـــةَ شَاكِـــرٍ

ولَكِنْ شَـــجىً تنْسَـــدُّ مِنهُ الحَلاَقــمُ

وَمَا قرِعَتْ سِـــنِّي عَليْكـــمْ ندَامَـــةً

وَأوشكَ غـــداً أنْ يَقرَعَ السِّن نـــادِمُ

عَلَيكمْ بـــدَارِي فاهْدِمُوهَـــا دَعَائِمـــا

ففِي الأرْضِ بَنـــاءُونَ لِي وَدَعَائِـــمُ

لئِنْ اخْرَجَتنِي عَنكم شَـــرَّ عُصْبَـــةٍ

ففِي الأرْضِ إخْـــوَانٌ عَلَيَّ أكـــارِمُ

وَإنْ هَضَمَتْ حَـــقِّي أمَيَّـــةُ عِندَهَـــا

فَهَاتـــا عَلى ظَهرِ المَحَبـــةِ هَاشِـــمُ

وَلاَ غـــرْوَ مِنْ تِلكَ القلاَنسِ جَالِيـــا

إذا عَرَفتْ حَـــقِّي هُنـــاكَ العَمَائِـــمُ

وقـــال في وصـــف نحلـــة:

وَطائِـــرَةٍ تهـــوِي كـــأنَّ جَناحَهَـــا
ضَمِيـــرٌ خـــفِيٌّ لاَ يُحَـــدِّدُهُ وَهـــمُ
مُلاَزِمَـــةٍ لِلـــرَّوْضِ حَتَّى كأنهَـــا
لَهَا كلٌّ مَا تفترُّ عَنهُ الرُّبَى طَعْـــمُ
تَمُجُّ بِفيهَا الشَّهْدَ صِرفاً وَيَخْتَـــفِي
لِمُشْتَـــارِهِ مَا بَيْنَ أحْشَائِهَـــا سَهـــمُ
مُنافِـــرَةٍ لِلإنِـــسِ تأنَـــسُ بِالفَـــلاَ
مُفرِّقةٍ لِلشَّهْدِ، مِنْ بَعْضِهَـــا السُّـــمُّ
فإدناؤُها رُشْـــدٌ وَهَتـــكُ حِجَابِهَـــا
إذا احتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أيامِهَا ظلـــمُ

وقـــال في وصـــف برغـــوث:

وَمُنفـــرٍ لِلنـــــومِ مَسْكنـــــهُ إذَا
نـــامَ المُمَلـــكُ بَيْنَ أثنـــاءِ الثيَـــابْ
يَسْرِي إلَى الأجْسَامِ يَهْتِـــكُ عَـــدْوُهُ
عَنْ كلِّ جِسْمٍ صِيغَ بِالنُّعْمَى حِجَابْ
وَيَعُـــضُّ أرْدَافَ الحِسَـــانِ وَمَالـــهُ
كفٌّ وَلَكِنْ فوهُ مِنْ أعْدَى الحِـــرَابْ

مُتَحَكِّـمٌ فِي كـلِّ جِسْـمٍ ناعِـمٍ
مُتدَلِّـلٌ مَا بَيْـنَ أَلْحَـاظِ الكِعَـابْ
فـإِذَا هَمَمْـتَ بزَجْـرِهِ وَلَّى وَلاَ
يُثْنِيـهِ عَمَّـا قـدْ تَعَـوَّدَهُ طِـلاَبْ
وتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّـهِ مَخضُوبَـةً
بدَمِ القلُـوبِ وَمَا تَعاوَرَهُ خِضَـابْ
قـرْمٌ مِنَ الليْـلِ البَهيـمِ مُكـوَّرٌ
يَمْـشِي البَـرَازَ وَمَا توَارِيهِ ثِيَـابْ
عَظمَـتْ رَزِيَّتـهُ وَلَكِـنْ قـدْرُهُ
أخزَى وَأهوَن مِنْ ذبَابٍ فِي تـرَابْ

ومـن روائـع مـا كتبـه نثـرا في وصـف برغـوث قولـه: ((**أسـودُ زنـجيٌّ، وأهـليٌّ وحـشيٌّ، ليـس بـوانٍ ولا زُمَّيْـل، كأنـه جـزء لا يتجـزأ مـن لَيـل، وشُونيزَةٍ،**[1] **وَثَبَتُهَـا غريـزة، أو نقطـة مـداد، أو سويـداء قلـب فـؤاد، شربـه عـبٌّ، ومَشْيـهُ وَثـبٌ، يَكمُـنُ نهـاره، ويَسْـري ليلـه، يـدرك بطعـن مؤلـم، ويستحـلُّ دم كـل مسلـم، مسـاور للأسـاوِرَة، يجـرُّ ذيلـه عـلى الجبابـرة يتكفـرِ بأرفـع الثيـاب، ويَهْتِـكُ سِتـرَ كـل حجـاب، ولا يَحْفِـلُ ببـوَّاب، يـرد مناهـل العيـش العَذبَـة، ويصـل إلى**

[1] الشُّونيـزَة هي الحبـة السـوداء، وتسميهـا العامـة في الجزائـر سَيْنُوجَـة.

الأحراج الرطبة، لا يُمْنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيْرَةُ غَيور، شَرُّهُ مبثوث، وعهده منكوث، وهكذا كل بُرْغوث)).[1]

ويبدو أنه كان يخوض صراعا ساخنا ضد مجموعة من أدباء وعلماء قرطبة؛ إذ كانت بينهم منافسة شديدة؛ تجلت في بعض المناقضات والمعارضات التي كانوا يشنونها ضد بعضهم بعضا. ولم ينج من هذا الصراع حتى من ولي منهم مناصب عليا في الدولة[2].

---

[1] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 83.

[2] وهذا خبر نقل عن ابن شهيد يتعرض للأديب الكاتب ابن عباس الذي كان يتولى وزارة الفتى زُهير الصقلبي؛ جاء فيه: ((لما قدم زهير الصقلبي إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر بن عباس إلى لـُمَّة من أصحابنا منهم: ابن بُرْد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني؛ فحضروا إليه؛ فسألهم عني وقال: "وجِّهُوا إليه"؛ فوافاني رسوله مع دابة بسَرْج مُحَلَّى ثقيل؛ فسرت إليه، ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب؛ تحفز المجلس لدخولي، وقاموا جميعا لي؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحبَه قبله، وهو يترنم؛ فسلمت عليه سلامِ من يعرف قدر الرجال، فرد رداً لطيفا؛ فعلمت أن في أنفه نُعرة لا تخرج إلاّ بسعط الكلام، ولا ترام إلا بمستحصد النظام؛ ورأيت أصحابي يُصِيخون إلى ترنمه. فقال لي ابن الحناط؛ وكان كثير الإنحاء عليّ، جالبا في المحافل ما يسوء إلَيَّ: "إن الوزير حضره قسيم، وهو يسألنا إجازته"؛ فعلمت أنِّي المراد؛ فاستنشدته، فأنشد:

مَرَضُ الجُفونِ وَلثْغة فِي المَنطِقِ

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم؛ فما المراد غيري؛ ثم أخذت الدواة فكتبت:

سَبَبانِ جرَّا عِشْقَ مَنْ لمْ يَعْشقِ
مَنْ لِي بألثغَ لاَ يَزَالُ حَدِيثُهُ
يذكِي عَلَى الأحْشَاءِ جَمرَةَ مُحرقِ
ينبِي فَينبو فِي الكلاَمِ لِسَانُهُ
فكأنهُ مِنْ خمرِ عَينيهِ سُقِي

وكتب ابن شهيد إلى الكاتب الأديب أبي بكر محمد بن قاسم المعروف باشكمياط أو (أشكنهاط) رسالة قال فيها منتقدا إياه: ((**ما أغيرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر؛ لو إليكَ كانَ العلم، أو بكفك كانَ الفهم؛ لم تترك لأرض أعلاماً، ولا لغيرك إنعاماً؛ أحَشا عند رِعدتك؟!**[1] **عرضت عليك الدُّرَّ منظوماً؛ فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت؛ وما أحس ما أطلعت لو ابتدعت. معرّضا بالتقَصُّص،**[2] **ومشيراً إلى التلصُّص؛ هيهات ! لا يزيد الحزّ من الغرَب** [الذهب والفضة]، **ولا يضيءُ السليط في القصب** [أي أنابيب

لاَ ينعِشُ الألفاظَ مِنْ عَثَرَاتِها

وَلَوانَّها كتِبتْ لهُ فِي مهرَق

ثم قمت عنهم؛ فلم ألبث أن وَرَدُوا علَيَّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرضَ بما جئت به من البديهة، وسألوني أن أحمل مَكَاويَ الهجاء على حتاره [أي تحريفه]؛ فقلت:

أبو جَعفرٍ كاتِبٌ مُحسِنٌ

مَلِيحُ سنا الخطِّ حلوُ الخطابة

تملأ شحماً ولَحماً وَما

يليقُ تملؤُهُ بالكِتابة

لهُ عرَقٌ ليسَ ماءَ الحياءِ

ولَكِنهُ رَشحُ ماءِ الجنابة

جرَى المَاءُ فِي سُفلِهِ جرْيَ لينٍ

فأحدَثَ فِي العلوِ مِنهُ صَلاَبة)).

نفح الطيب، ج: 3، ص ص: 610-611.

[1] أي هل يصح الحش (ترييش السهم استعدادا للرمي) مع رعدة تنتاب الرامي.

[2] أي الولوع في تتبع معاني الآخرين.

مــن الجوهــر][1] **لأقطعــنَّ حبالــك هاجــراً، ولأتركــن ليلــك ساهــراً))**.[2]

ومــن النصــوص الــتي يعــارض فيهــا ابــن شهيــد بعــض الكتــاب المحافظيــن، المتشبثيــن بالأساليــب القديمــة للبيــان قولــه: **((وإصابــةُ البيــان لا يقــومُ بهــا حفــظُ كثيــر مــن الغريــب، واستيفــاءُ مسائــلِ النحــو؛ وإنمــا يقــوم بهــا الطبــع مــع وَزنِــه مــن هذيــن: النحــو والغريــب. ومقــدارُ طبــعِ الإنســان إنمــا يكــونُ عــلى مقــدار تركيــب نفســه مــع جسمــه؛ فمــن كانــت نفســه في أصــلِ تركيبــه مستوليــةً عــلى جسمــه؛ كــان مطبوعــاً روحانيــاً؛ يــطُلــع صُــورَ الكــلام والمعــاني في أجمــلِ هيئاتهــا، وأروَقِ لبساتهــا؛ ومــن كــان جسمــه مستوليــاً عــلى نفســه ــ مــن أصــل تركيبــه ــ والغالــبَ عــلى حسّــه؛ كــان مــا يطلــعُ مــن تلــك الصــور ناقصــاً عــن الدَّرجــة الأولى في الكمــال والتمــام، وحُسْــنِ الرَّونــق والنظــام. فمــن كانــت نفسُــه المستوليــة عــلى جسمــه فقــد تــأتي منــه في حســن النظــام صُــورَ رائقــة مــن الكــلام؛ تمــلأ القلــوب، وتشعــف النفــوس. فــإذ فتشــت لحسنهــا أصــلا لــم تجــده، ولجمــال تركيبهــا أســا لم تعرفــه؛ وهــذا هــو الغريــب؛ أن يتركــب الحســن مــن غيــر حســن؛ كقــول امــرئ القيــس:**

---

[1] أي أن الذهــب والفضــة لا يصلحــان للسهــام؛ ولــن يزيــد الحــز مــن قيمتهمــا لــكي يصيــرا سهامــا؛ كمــا لا يــضيء السليــط في قناديــل مــن أنابيــب الجوهــر؛ بينمــا يــضيء في قناديــل بسيطــة.

[2] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 230 ـــ 231.

تنوَّرتُهَــا مِنْ أذرُعــاتٍ وَأهــلهَــا
بيَثْــرِبَ أدنَى دَارِهَــا نظَــرٌ عــَالِي

فــإن هــذه الديباجــة إذا تطلبــت لهــا أصــلاً مــن غريــب معــنىً لــم تجــده. وكقــول أبي نــواس:
طرَحتــمْ مِــنَ الترْحَــالِ ذِكــراً، فَغَمنــا،
فَلوْ قدْ شَخَصْتمْ صَبَّحَ المَوْتُ بَعْضَنَــا

ثــم قولــه:
سَأشْكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْــيَى بْنِ خَالــدٍ
هَــوَاكِ، لَعلَّ الفضْــلَ يَجْمَــعُ بَيننــا

فهــذا مــن الكــلام الغــثِّ، واللفــظِ الــرَّثِّ؛ الــَّذي لــو رامــه حِمــار الكــُســاح لأدركــه؛ ولكــن لــه مــن التعلــق بالنفــسِ، والاستيــلاء عــلى القلــب مــا تــرى)).[1]

ولمزيــد مــن الفائــدة نثبــت هنــا هــذه المقاطــع مــن رسائــل أدبيــة، نقديــة رائعــة كتبهــا ابــن شهيــد؛ جــاء فيهــا: **((وكمــا أن لكــل مَقــامٍ مَقــالاً؛ فكذلــك لكــل عصــر بيــان، ولكــلِّ دَهــرٍ كــلام، ولكــلّ طائفــةٍ مــن الأمــم المتعاقبــة نــوعٌ مــنَ الخطابــة، وضــربٌ مــن البلاغــة؛ لا يوافقُهــا غيــرُه ولا تَهــشَّ لســواه. وكمــا أن للدنيــا دولاً؛ فكذلــك للكــلام نقــلٌ وتَغَايــرٌ في العــادة. ألا تــرى أنَّ**

---
[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 231 ـ 232.

الزَّمـان لمـا دار كيـف أحـال بعـضَ الرَّسـمِ الأولِ في هـذا الفـنِّ إلى طريقـة عبـد الحميـد وابـن المقفـع وسهـل بـن هـارون وغيرهـم مـن أهـلِ البيـان؟ فالصنعـة معهـم أفسَـحُ باعـاً، وأشـدُّ ذراعـاً، وأنـوَرُ شُعاعـاً؛ لرُجْحـان تلـك العقـول، واتسـاع تلـك القرائـح في العلـوم. ثـم دار الزمـانُ دَوَرَانـاً؛ فكانـت إحالـةٌ أخـرى إلى طريقـة إبراهيـم بـن العبـاس ومحمـد بـن الزَّيـَّات وابـني وهـبٍ ونظرائهـم؛ فرقـت الطِّبـاعُ، وخـف ثقـلُ النفـوس. ثـم دارَ الزمـانُ فاعتـرى أهلـه بالطائـف صلَـفٌ، وبرِقـةِ الكـلامِ كلـفٌ؛ فكانـت إحالـة أخـرى إلى طريقـة البديـع وشمـس المعـالي وأصحابهمـا. وكذلـك الشعـراءُ انتقلـوا عـن العـادة في الصنعـةِ بانتقـال الزمـانِ؛ وطلـبَ كـلُّ ذي عصـرٍ مـا يجـوز فيـه، وتهـشُّ لـه قلـوبُ أهلـهِ؛ فكـان مـن صريـعِ الغـواني وبَشـارٍ وأبي نـواسٍ وأصحابهـم في البديـع مـا كـان؛ مـن استعمـال أفانينـهِ والزيـادة في تفريـع فنونـهِ.

ثـــم جـــاء أبـــو تمـــامٍ فأســـرف في التجنيـــس، وخـــرج عـــن العـــادة؛ وطـــابَ ذلـــكَ منـــه، وامتثلـــه النـــاس؛ فكـــل شِعـــرٍ لا يكـــونُ اليـــوم تجنيســـاً أو مـــا يُشبهـــه تَمُجـــه الآذانُ؛ والتوسُّـــطُ في الأمـــرِ أعـــدلُ؛ لأنـــه لَبـــسَ ديباجـــة المُحدثيـــن عـــلى لأمـــةِ العـــرب؛ فتركَـــبَ لـــه مـــن الحُسْـــنِ بينهمـــا مـــا تَركـــب)).[1]

((وأهـــل صناعـــة الكـــلام مُتباينـــون في المنزلـــة، متفاضِلـــون في شَـــرَفِ المرتَبـــة، عـــلى مقـــدارِ إحسانهـــم وتصرُّفِهـــم. فمنهـــم الـــذي ينظـــم الأوصـــاف، ويختـــرعُ المعـــاني، ويحـــرز جيـــد اللفـــظِ؛ إلاَّ أنـــه يَصْعُـــبُ عليـــه الكـــلام، ويَكـــدُّ قريحتـــه التأليـــف؛ حـــتى إنـــه رُبَّمَـــا قَصَّـــر في الوصـــف، وأســـاءَ الوضـــع. فهـــذا في الأبيـــاتِ القليلـــة نافـــر، وفي القريبـــةِ المأخـــذِ سائـــر، وفي طريقـــة الجمهـــور الأعظـــم ذاهـــب؛ حـــتى إذا ازدحمـــت عليـــه، وانحشَـــدَتْ إليـــه، وطالبتـــه ببهـــاءِ البهجـــة، وشـــرف المنزلـــة، وقـــف وأنفـــلّ، وتـــلاشى واضمحـــل. ومنهـــم الكـــارعُ في بحـــر الغـــزارة، القـــارحُ بشُعـــاعِ البراعـــة؛ الـــذي يَمُـــرُّ مَـــرَّ السَّيـــلِ في اندفاعـــه، والشؤبُـــوبِ في انصبابـــه؛ لا يشكـــو الفشَـــل، ولا يَكِـــلُّ عـــلى طـــولِ العمـــل؛ إذا ازدحَمَـــتْ في الكـــلامِ عليـــه المطالـــب، وعَلِقـــتْ بحـــواشي فكـــره المـــآرب، وحُشـــرت عليـــه الصعائـــب والغرائـــب؛ استقـــلَّ بهـــا كاهلـــه، واضطلـــع بثقلهـــا غاربـــهُ، وأعارَهـــا مـــن نظـــرِه لَمْحـــة، ومـــن فِكْـــره

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 237 ــ 238.

قدْحَـــة، ثـــمِ رمى بهـــا عـــن جانبيـــهِ؛ قـــد رَوِيَـــتْ بمائهـــا، ولبســـت شُعـــاع بهائهـــا؛ وبـــقي كاللقـــوَةِ في المَرْقــب؛ ســـامٍ نظـــرُه، قـــد ضــمَّ جناحَيْـــه، ووقـــفَ عـــلى مخلبـــه، لا تتـــاحُ لـــه جارحـــة إلا اقتصَّهـــا، ولا تنَازلـــه طائـــرة إلاَّ اختَطفهـــا؛ جُرْأتـــه كشَفرتـــه، وبديهتـــه كفكرتـــه؛ فذلـــك الألســـن يـــومَ حـــربِ الكـــلام، لا تُخْـــطئُ ضربتـــُه، ولا تُصـــابُ غرَّتـــُه. ومنهـــم مـــن يتجـــافَى الكـــلام، ويـــرغ عـــن المقـــال؛ فـــإذا مُـــني بـــه، أخـــذ بأطـــرافِ المحاســـنِ، وشـــارَك في أنحـــاءٍ مـــن الصنعـــة؛ وجُـــلّ مـــا عنـــده تلفيـــقٌ وحيلـــة؛ وبذلـــك يُصاحِـــبُ الأيـــَّام، ويُجـــاري أبنـــاء الزَّمـــان؛ مـــا كـــان لـــه عقـــل يغـــطي عـــلى نقصانِـــه، سياســـة يَسُـــوسُ بهـــا فُحـــولَ زمانِـــه. ومـــن خـــرج عـــن هـــذه الطبقـــات الثـــلاث لـــم يستحـــق اســـم البيـــان، ولا يدخـــلُ في أهـــلِ صناعـــة الكـــلام)).[1]

((وقـــومٌ مـــن المعلميـــن بقُرْطُبتِنـــَا ممـــن أتى عـــلى أجـــزاءٍ مـــن النحـــو، وحفِـــظَ كلمـــاتٍ مـــن اللغـــة، يحنـــونَ عـــلى أكبـــادٍ غليظـــة؛ وقلـــوبٍ كقلـــوب البُعـــران؛ ويَرجعـــونِ إلى فِطـــنٍ حَمِئـــةٍ، وأذهـــانٍ صَدِئـــةٍ؛ لا مَنفـــذَ لهـــاَ في شُعـــاعِ الرِّقـــَةِ، ولا مَـــدَبَّ لهـــاً في أنـــوارِ البيـــان. سَقَطـــَتْ إليهـــم كتـــبٌ في البديـــعِ والنقـــدِ فَهِمُـــوا منهـــا مـــا يفهمـــه القـــرد اليمـــاني مـــن الرَّقـــص عـــلى الإيقـــاع، والزَّمْـــر عـــلى الألحـــان؛ فهـــم يُصرِّفـــون غَرَائبَهـــا فيمـــا يَجـــري عندهـــم تصريـــفَ مـــن لـــم يـــرْزَقْ آلَـــة الفهـــم،

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ، ص ص: 238 ــ 239.

ومــن لــم تكــن لــه آلــة الصناعــة، ممــا هي مَخْصوصَــة بهــا، لا تقــومُ تلــك الصناعــة إلا بتلــك الآلــة؛ فهــو كالحمــار لا يمكنــه أن يتعلــم صناعــة ضــربِ العــود والطنبــور؛ لتوتــدِ رُسغــه، واستــدارة حافــره؛ ولا لــه بنــانٌ يَجــسُّ بــه عــلَى دَسْتبــان... فهــذه حــالُ العصابــةِ مــن المعلِّمِيــن: يدرِكــون بالطبيعــةِ، ويقصــرون بالآلــةِ. وتقصيرهــُم بالآلــة هــو مــن طريــق العِلــلِ الدَّاخِلــةِ مــن فســاد الآلــةِ القابلــةِ للروحانيــة، والخادمــةِ لآلاتِ الفهــم، الباعثــة لرقيــق الــدَّم في الشّرْيانــات إلى القَلــب؛ وزيــادةِ غِلــظِ أعصــاب الدّمــاغِ ونُقصانِهــا عــن المقــدار الطبيــعي. يُعِيــنُ عــلى ذلــك بالحَــدْسِ وطريــق الفِراســة فســادُ الآلــةِ الظاهــرةِ؛ كفرطحــةِ الــرأس وتسفيطــه، ونتــوءِ القَمَحــْدُوَةِ، والتِــواءِ الشَّــدْقِ، وخــزَرِ العيــن، وغِلــظِ الأنــفِ، وانــزواءِ الأرنَبــة...

وليس العجبُ في هذه العصابةِ إلا من أبي القاسم[1] فإنَّه زاد عليهم في الصناعة، وبَزَّهم بِوُفورِ

---

[1] وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي؛ قال فيه الحميدي: ((وكان متصدراً في علم الأدب يُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه؛ وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما؛ وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي)). جذوة المقتبس، ص: 151. وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي... قد بذ أهل زمانه بقرطبة؛ في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة؛ في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، والمشاركة في بعض معانيها. وكان غيورا على ما يَحْمِل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه، وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه، وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه. وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة؛ ومضى الناس من حائن وظاعن؛ فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 281 ـ 282. أما صاحب المغرب فقد أضاف: ((استكتبه المستكفي فبَرُدَ، ووقع كلامه خاليا من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين؛ فزُهِدَ فيه؛ وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي؛ ولحقته تهمة في دينه أيام هشام؛ فسجن في المطبق. وابن شهيد كثير الوقوع فيه والتندير به... قال الحجاري: "كان بارد النظم والنثر، لم يندر له من شعره إلا قوله:

صَحِبْتُ القَطِيعَ وَنَادَمْتُه ... وَأَصْبَحْتُ فِي شُرْبِهِ ذا انْقِطَاعْ
وَأَبْصَرْتُ أَنْسِي بِهِ وَحْدَهُ ... كَأُنْسِ الرَّضِيعِ بِثَدْيِ الرَّضَاعْ "

قال: "وهو القائل في يحيى بن حمود:

أَنْتَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهِمُ ... يَابْنَ مَنْ مَا مِثْلُهُ بَشَرُ
فَإِذا مَا لُحْتَ بَيْنَهُمُ ... قِيلَ هَذا البَدْوُ وَالحَضَرُ"

قال: "وأنشدتهما لأحد الأدباء، فقال لي ـ عندما سمع عجز الأول ورأى ترادف الميمات ـ : هذه عُقَد ذنب العقرب؛ فلما سمع الثاني قال: سبحان من

البضاعـــة. دخـــلَ الشعـــراء فَأخَـــذَ لباقَتَهـــم، وصـــار في جملـــة الكتـــاب فاستعـــار صلفهـــم ورشاقتهـــم، وباشـــرَ أهـــلَ الحســـاب فاستفـــاد طريقـــة البراهيـــن، وناظـــر أهـــلَ الجَـــدَلِ فتعلـــم القوانيـــن، وعَـــرَفَ عناصـــرَ الكـــلامِ؛ فكـــل علـــم يَزْعَمُـــه قبـــض يـــده، وكـــل جـــدٍّ وهَـــزلٍ فإليـــه منســـوبٌ، وعنـــهُ مأخـــوذ؛ وهـــو مـــع مـــا اجتمـــع لـــه مـــن ذلـــك كُلـــهِ، وحـــُبِي بـــه، أشدهـــم صَبابَـــة [ضنانـــة] بـــألاَّ يكـــونَ بالأندلـــسِ مُحْسِـــنٌ ســـواه، ولا مجيـــدٌ حاشـــاه. وكـــانِ الـــرَّأيُ عِنـــدِي لـــه أن يَسْكُـــنَ أرْضَ جليقيـــة أو قُطـــراً بعـــد عـــن الإســـلام؛ حـــتى لا يسمـــعَ فيـــه لخطيـــب ذِكـــراً، ولا يُحِـــسَّ لشاعـــرٍ ركـــزاً؛ فيكـــونِ هنـــاك فـــرْداً. ومـــنَ العَجـــب أيضـــاً فيٍ أمَـــرِهِ أنَّ كـــلَّ كاتـــب كتـــبَ للسلاطيـــن عندنـــا، وكـــلَّ شاعـــرٍ مدحهـــم، رُوِيَـــتْ أَشعـــارُه ورسائلـــه غيـــر أبي القاســـمِ وحـــدَه. عـــلى أنـــه إنمـــا جلـــسِ للتعليـــمِ عـــلى هـــذا المعـــنى. وربمـــا عـــرَّضَ بـــأن يُؤخَـــذُ منـــه شيءٌ مـــن أشعـــارِهِ ورسائلـــه ولا يجيبـــه تلميـــذ؛ والمحـــرومُ محـــرومٌ...

أخـــلى خاطـــر هـــذا الرجـــل مـــن التوفيـــق، وجعلـــه يخـــرى عـــلى فمـــه")). المغـــرب في حـــلى المغـــرب، ج: 1، ص: 73.

وهو مع هذا يسمينا الهمج الهامج، ويسمي البديعَ والصَّابئَ وشمسَ المعالي العَضَاريط. وهو أبخلُ أهلِ الأرض لا محالة. ولم يُقَصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغامَته [أَي بياض رأسه].

وفي ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة أصيب ابن شهيد بداء الفالج؛ فشل حركته، وألزمه الفراش إلى أن مات. وقد أثر عليه ذلك المرض كثيرا؛ إذ طال ثقله عليه؛ وضيق عليك أنفاسه، فكره الحياة على تلك الحال المؤلمة؛ حتى راودته نفسه بالانتحار؛ ولكنه صبر على حكم الله؛ إلى أن وافته المنية سنة ست وعشرين وأربعمائة.

ـ ثم أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّعيني المعروف بابن الحناط الكفيف: سمي بابن الحناط لأن أباه كان يبيع الحِنْطة بقرطبة. وينتسب هذا الأديب إلى قبيلة ذي رُعَيْن الحميرية العربية. هذا وقد ولد ضعيف البصر أعشى؛ وعلى الرغم من علته تلك؛ فقد تمكن من تعلم القراءة، والتفوق في تحصيل علوم شتى. ولم يفتّ في عضده انطفاء بصره بالكامل بعد فترة من الزمن؛ إذ واصل الجدّ والاجتهاد في استيعاب العلوم بمختلف فنونها. ويعتبر ابن الحناط من شعراء وأدباء الأندلس الفحول في زمنه.

وقد كانت له صولات وجولات في مواجهة ابن شهيد؛ ويبدو أنه تفوق عليه في بعض المرات.[1] ويقول صاحب المسهب أن بني ذكوان هم الذين أعانوه في حياته؛ إذ كفوه مئونة الدهر؛ وضمنوا له فرصة التفرغ للعلم. وتقول بعض المصادر أنه كان يغلب عليه الاشتغال بعلم

---

[1] قال ابن بسام: ((وأبو عبد الله بن الحناط هذا زعيم من زعماء العصر ـ كان ـ ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام، وغمرة علم سالت بأعلام الأنام؛ فكم له من وقذة [أي ضربة] لا يبرأ أميمها [أي جرحها]، ونكزة لا يسلم سليمها. وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه، وانحياشه ـ كان ـ إلى جانبه؛ مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء، وأخذت عليه بفروج الهواء... وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال: "وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي؛ بقية الأدباء النحارير في الشعر؛ هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم. وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة؛ فاجتثَّ أصله. وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية؛ من رجل موهَّنٍ في دينه، مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أحواله، ولد أعشى الحملاقة، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقرأ كثيرا في حال عشاه، ثم طفئَ نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك، فأنجح علاجا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الإستنباط؛ وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة، فاعترف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة")). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 437 ـ 438.

المنطــق؛ الأمــر الــذي وضعــه ــ آنئــذ ــ موضــع اتهــام في دينـــه.[1]

وهــذه بعــض العينــات مــن قصائــد ابــن الحنــاط بالإضافــة إلى نصــوص مــن نثــره؛ حفظتهــا كتــب التــراث الأندلــسي. بــدءا بمقطــع مــن رسالــة بعــث بهــا إلى الوزيــر أبي العبــاس ابــن ذكــوان قــال فيهــا: **((الإسهــاب كلفــة، والإيجــازُ حكمــة، وخواطــر الألبــاب سهــام؛ يصــابُ بهــا أغــراضُ الكــلام؛ وأخونــا أبــو عامــر** [ابــن شهيــد] **يسهــبُ نثــراً، ويطــوّل نظمــاً؛ شامخــاً بأنفــه، ثانيــاً مــن عطفــه، متخيــلاً أنــه قــد أحــرز السبــاق في الأدب، وأوتي فصــل الخطــاب. فهــو يستقصــرُ أساتيــذَ الأدبــاء، ويستجهــلُ شيــوخ العلمــاء... في ليلــةٍ بتهــا، والكــفُّ الخضيــبُ سوارُهــا البــدر، والشعــرى العبــورُ وشاحهــا النســر،؛ وكأنمــا سماؤهــا روضــة تفتحــتِ النجــوم وسطهــا زَهــراً، وتفَجَّــرَتِ المجــرَّة خلالهــا نهــراً؛ وادٍ يسيــل بعسجــد عــلى رضــراضِ زبرجــد. فلمــا أصبــت الغِــرَّة، وأقصــدت الثغــرة؛ تقلبــت عــراراً، وتناومــت غــراراً؛ حــتى أنبهــني الفجــر ببــرده، وسَرْبَلــني الصبــاح بــبُــرْده، وهببــت مــنَ النومــة، وصحــوت مــن النــشْــوةِ، فَزففتهــا إليــك بنــتَ ليلتهــا عــذراء، وجلوتهــا عليــك كريمــة فكرتهــا حسنــاء، تتلفــع بحبــرةِ حبــر، وتتبختــر في شعــار شعــر، مؤتلفٌ بيــن رَقهــا ومدادهــا، ومجتمــع في بياضهــا وسوادهــا...**

---

[1] **المغــرب، ج: 1، ص: 121.**

وتخال القلمَ رقَّ لما به فبكى؛ فأنشدْها أخاكَ الشهيدي [أي ابن شهيد]، **وكلفه على العروض والقافية مُعارضَتَها، وحمّله على اللينِ والشدة مُقارضتها، فستوقد بقلبه قبَساً، وتَضْرِبَ في أذنِهِ جَرَساً؛ فيَتَبيَّن به حَظَّه، ويعرف لغيره فضله)).**[1]

ويبدو أنه كان بين ابن الحناط وابن شُهيد منافسة حثيثة وبريئة؛ لم تمنعهما من إظهار التقدير والاحترام لبعضهما بعضا؛ ويتجلى ذلك من خلال تصرفاتها الواضحة، ومن خلال ما ينظمانه من مقاطع شعرية يتبادلان فيها المديح[2].

---

[1] **الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 439 ـــ 440.**

[2] **وقد نقل الحميد بعض الأبيات التي تؤيد هذا؛ مثل: ((فأخبرني الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي قال: "لما نعيت أبا عامر بن شُهيد إلى أبي عبد الله بن الحناط ــ وقد عرفت ما كان بينهما من المنافسة ــ بكى، وأنشدني لنفسه بديهة:**

لَمَّا نعَى الناعِي أبا عَامِرِ
أيقنتُ أنِّي لسْتُ بِالصَّابِرِ
أوْدَى فتَى الظرفِ وَتِّبُ النـدَى
وَسَيِّدُ الأوَّلِ وَالآخِرِ"

ولابن الحناط من كلمة طويلة في مدح أبي عامر بن شهيد أولها:

أمَّا الفِرَاقُ فلِي فِي يَوْمِهِ فرَقُ
وَقدْ أرقتُ لهُ لوْ يَنفعُ الأرَقُ
أظْعَانُهمْ سَابَقتْ عَيْنِي التِي انهَمَلتْ
أمِ الدُّمُوعُ مَعَ الأظعَانِ تسْتبِقُ
عاقَ العَقِيقُ عَنِ السُّلوَانِ وَاتضَحَتْ
فِي توضحٍ لِي مِنْ نَهْجِ الهَوَى طرُقُ

وممـــا قالـــه ابـــن الحنـــاط في قصيـــدة رفعهـــا إلى الخليفـــة عـــلى بـــن حمـــود:

رَاحَـــتْ تذكـــرُ بِالنسِيـــمِ الرَّاحَـــا
وَطفـــاءُ تكسِـــرُ لِلجنـــوحِ جَناحَـــا

أخــفَى مَسَالِكهَا الظـــلاَمُ فأوقـــدَتْ
مِـــنْ بَرقِها كَيْ تَهتـــدِي مِصْبَاحَـــا

وَكأنَّ صَوْتَ الرّعدِ خلفَ سَحَابهـــا
حَادٍ إذا وَنـــتِ السَّحَائِـــبُ صَاحَـــا

جَادَتْ عَلى التلعَاتِ فاكتَسَتِ الـــرُّبَى
حُلـــلاً أقـــامَ لَهَا الرَّبيـــعُ وِشاحَـــا

لـــوْلاَ النسِيـــمُ الذِي تأتِي الرِّيـــاحُ بهِ
إذَا تضَـــوَّعَ مِنْ عَرفِ الحِـــمَى الأفـــقُ

لـــمْ أدْرِ أنَّ بُيُـــوتَ الحَيِّ نازِلـــةٌ
نَجْـــداً وَلاَ اعْتَادَنِي نَحْوَ الْحِمَى القـــلقُ

مَـــا فِي الهَـــوَادِجِ إلاَّ الشمْسُ طالِعَـــة
وَمَـــا بقلـــــبِي إلاَّ الشـــــوقُ وَالأرَقُ

ومـــن أخـــرى:

مِنْ كلِّ بَيْضَـــاءَ مِثـــلِ البَـــدْرِ مُطلِعـــاً
هَيفـــاءَ مِثل قضِيـــبِ البَـــانِ مُنعَطِفـــا

إلـــفٌ ألفـــتُ الضَّنَـــا مِنْ بَعْدِ فرقتـــهِ
حَـــتَّى غـــدَا بَـــدَنِي مِنْ دِقـــةٍ ألفـــا)).

جـــذوة المقتبـــس، ص: 58.

فانظُرْ إلَى الرَّوْضِ الأرِيضِ وَقَدْ غدَا
يَبكِي الغــوَادِي ضَاحِكــاً مُرتاحــا
وَالنــورْ ُ يَبسُــطُ نحوَ دِيمتِهــا يــداً
أهــدَى لها سَــاقِي النــدَى أقدَاحَــا
وَتَخالــهُ حَــيّى الحَيا مِــنْ عَرفِــهِ
بذكِيِّــــهِ فــــإذَا سَقـــــاهُ فاحــــا
رَوْضٌ يُحَــاكِي الفاطِــمِيِّ شمَائــلاً
طِيبــاً، وَمزْنٌ قــدْ حَكــاهُ سَمَاحَــا
أعَــلِيُّ إنْ تعــلُ المُلــوكَ فإنهــمْ
بهــمٌ جُعلــتَ أغرَّهــا الوَضَّاحَــا
لمــا طلعــتَ لَهــا بِكــلِّ ثنِيــةٍ
أنسَيْتهــا المَنصُــورَ وَالسَّفاحَــــا

وفي قصيــدة أخــرى يقــول في عــلي بــن حمــود أيضــا:

شــقِيَ بَعْدَنا بالبُعدِ مِنْ نِعمَ نُعمَــانُ
وَأُوحِشَ مِنْ لبْنَى عَلى البُعدِ لُبنــانُ
سَقَى القَطرُ مَا بَيْنَ العَقِيقِ وَضَارِجٍ
مَعــارِفَ فِيهَــا لِلأحبــةِ عِرْفــانُ

وَحَيا الحيَــا عَهداً عَهدناهُ باللـــوَى

لـــوَى دَيننا فِيـــهِ صُدُودٌ وَهِجـــرَانُ

إلى قولـــه:

وَلاَ مِثلَ هَذَا العَـــدْلِ كيـــفَ أعَـــادَهُ

عَلِيٌّ وَقَدْ مَـــرَّتْ مِنَ الظلمِ أزْمـــانُ

ويقـــول فيـــه أيضـــا في قصيـــدة أخـــرى:

بَكيـــتُ لَهَا شجْـــواً وَهنَّ الحمائِـــمُ

ينحـــنَ بلاَ دَمـــعٍ وَدَمعـــكَ سَاجِـــمُ

وَلَما عَلونا الحزْنَ وَاعْتَسَفـــتْ بنـــا

رُسُومَ الدِّيارِ اليَعْمَـــلاَتُ الرَّوَاســـمُ

ثـــم يقـــول:

سَقَى مَنبتَ اللذَّاتِ مِنهَا ابْنُ هَاشِـــمٍ

إذَا انهمَلـــتْ مِن رَاحَتيـــهِ الغمَائِـــمُ

إمَـــامٌ أقَـــامَ الدِّيـــنَ حَـــدُّ حُسَامِـــهِ

طرِيـــراً وَمِنـــهُ فِي يَـــدِ الله قائِـــمُ

وَيُزْهِرُ فِي يُمناهُ نــورٌ مِنَ الظبَــا

لــهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِيــنَ كمَائِــمُ

سُيُــوفٌ إذَا اعْتلتْ جهَاتُ ثغورِهَــا

فمِنهُــنَّ فِي أعْناقِهــــنَّ تمَائِــــمُ

بِكلِّ خمِيــسٍ طبَّــقَ الجَــوَّ نقعَــهُ

وَضَيــقَ مَسْــرَاهُ الجيَادُ الصَّــلاَدِمِ

كــأنَّ مُثــارَ النقــعِ إثمِــدُ عَيْنِــهِ

وَأشفــارَ جَفنيْــهِ الشِّفارُ الصَّــوَارِمُ

تعُــدُّ عَليْهِ الطيْرُ وَالوَحْــشُ قوتهَــا

إذَا سَــارَ وَالتفــتْ عَليْــهِ القشَاعِــمُ

ويقــول أيضـــا في غيرهـــا:

رِقتُ وَقدْ غــنَّى الحَمَامُ الهَوَاتــفُ

بمنعَرَجِ الأجْزَاعِ وَالليْــلُ عاكــفُ

أعدْنَ لِيَ الشوقَ القدِيمَ وَطــافَ بِي

عَلى النأْيِ مِنْ ذِكرَى المَلِيحَةِ طَائِفُ

ويضيــف:

سَقَى عَرَصَــاتِ الــدَّارِ كلٌّ مُلثــةٍ
مِنَ المُزْنِ تزْجيهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ
كأنَّ نثِيــرَ القطــرِ مِنهَــا جوَاهِــرٌ
تفرِّقهَــا لِلرِّيــحِ أيــدٍ عَوَاصِــفُ
كأنَّ ابْتِسَــامَ البَــرقِ فِيهَا إِذَا بَــدَتْ
سُيُــوفُ عَــلِيٍّ بِالدِّمَــاءِ رَوَاعــفُ

ولـــه قصيـــدة في القاســـم بـــن حمـــود يشيـــر فيهـــا إلى مقتـــل المرتـــضى الأمـــوي؛ بعـــد أن خانـــه حليفـــه خيـــران الصقلـــبي؛ فاستهلهـــا قائـــلا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ[1]
وَأَصبْــَحَ مُلْكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

إلى أن يقــول:

وَفُرِّقَ جَمْع الكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الــوَرَى
عَلَى ابْنِ حَبِيــبِ اللهِ بَعْــدَ خَلِيلِــهِ

---

[1] في هــذا البيــت إشـــارة إلى قصيـــدة أحمـــد بـــن دراج القسطـــلي؛ كـــان قـــد مـــدح فيهـــا خيـــران بقولـــه في المطلـــع:

لـــك الخيـــر قـــد أوفى بعهـــدك خيـــران   وبشـــراك قـــد وافـــاك عـــز وسلطـــان

وَقَــامَ لِــوَاءُ النَّصْرِ فَــوقَ مُمَنَــعٍ

مِنَ العِــزِّ جِبْرِيــلٌ إِمَــامُ رَعِيلِــهِ

وَأَشْرَقَــتِ الدُّنيَــا بِنــورِ خَلِيفَــةٍ

بِــهِ لاَحَ بَــدْرُ الحَــقِّ بَعْدَ أفولِــهِ

مِــنَ الهَاشِمِيِّيــنَ الذِيــنَ بِمَجْدِهِــمْ

تَعَــوَّدَ شَخْــصُ المَجْدِ جَرَّ ذُيُولِــهِ

فلاَ تسَــلِ الأيَّــامَ عَمَّا أتَــتْ بِــهِ

فمَا زَالَــتِ الأيــامُ تَــأتِي بسُولِــهِ

ولَمَّا دَعَا الشَيْطَانُ فِي الخَيْلِ حِزْبَــهُ

وَأقبلَ حِــزْبُ اللــهِ فَــوْقَ خُيُولِــهِ

كَتائِــبُ مِــنْ صَنهَاجَــةٍ وَزَنَاتَــةٍ

تَضَايَقُ فِي عَرْضِ الفَضَاءِ وَطُولِــهِ

تَقَــدَّمَ خَيْــرَانٌ إِلَيْهَــا بِزَعْمِــهِ

لِيُــدْرِكَ مَا قَــدْ فَاتَــهُ مِنْ ذُحُولِــهِ

فَلَمَّا التَــقَى الجَمْعَــانِ عَــاوَدَ رَأيَهُ

فَخَلَّى لِبَعْضِ الهَوْلِ جُــلَّ فُضُولِــهِ

وَوَلَّى وَأبْــقَى مُنْــذِراً مِنْ وَرَائِــهِ

يُقِيــمُ لأهْلِ الغَــدْرِ عُــذْرَ نُكولِــهِ

ومـمــا قالـــه في المعتـــلي يحـــيى بـــن حمـــود:

لمْ يَخـــل مِنْ نوَبِ الزَّمَـــانِ أديـــبُ
كـــلاَّ فشَـــأنُ النائبَـــاتِ يَنـــوبُ

أمْسَى قـــرَاراً لِلخطـــوبِ وَأغتـــدِي
غرَضـــاً تفـــوَّقُ نَحْـــوَهُ فتصيـــبُ

وَإذَا انتهَيْـــتَ إلَى العُلـــومِ وَجَدتهَـــا
شَيْئـــاً يُعَـــدُّ بـــهِ عَليْـــكَ ذُنـــوبُ

وَغضَـــارَةُ الأيامِ تـــأبَى أنْ يُـــرَى
فِيهَـــا لأبْنـــاءِ الذَّكـــاءِ نصِيـــبُ

وَلذَاكَ مَنْ صَحِـــبَ الليَـــالِي طالبـــاً
جَـــدًّا وَفهْمـــاً فاتـــهُ المطلـــوبُ

إلى قولـــه:

أمـــتْ أمِيـــرَ المُؤْمِنِيـــنَ مَوَاحِـــلاً
فسَـــقى صدَاهَـــا غيْثـــهُ الشؤْبـــوبُ

المُعْتـــلِي بِاللـــهِ وَالمَلِـــكُ الـــذِي
تـــاجُ الفخـــارِ برَأسِـــهِ مَعْصُـــوبُ

إنْ كـــانَ عَـــدُّوا حُـــبَّ آلِ مُحَمَـــدٍ
ذَنبـــاً فـــإنِّي لسْـــتُ مِنـــهُ أتـــوبُ

وممـــا قالـــه في محمـــد بـــن القاســـم بـــن حمـــود حينمـــا اختـــار الإقامـــة عنـــده في الجزيـــرة الخضـــراء:

تفرَّغتُ فِي شُغلِ العَدَاوَةِ وَالظَّعــنِ
وَصِـــرْتُ إلَى دَارِ الإقامَةِ وَالأمْــنِ

أمَقتولةَ الأجْفانِ مِنْ دَمْــعِ حُزنهـــا
أفِيـــقِي فإنِّي قدْ أفقـــتُ مِنَ الحُـــزْنِ

فلِلـــهِ سَيْرِي يَوْمَ وَدَّعتُ صُحْبَـــتِي
زَمَاعـــاً وَلمْ أقرَعْ عَلَى ندَمٍ سِـــنِّي

رَحَلتُ فكمْ مِنْ جُـــؤْذَرٍ وَغَضَنفـــرٍ
يُرَوِّي الثرَى مِنْ فَضْلِ أدْمُعِهِ الهَتِنِ

وَمَا عَنْ قِلى فارَقتُ ترْبَةَ أرْضِكــمْ
وَلكِنني أشفقتُ فِيهَـــا مِـــنَ الدَّفـــنِ

مَرَرْتُ بشـــوسٍ وَالنُّجُـــومُ كأنهَـــا
توَقدُ مِنْ فِكرِي وَتسْرَجُ مِنْ ذِهـــنِي

وَأسْرَيـــتُ مِنْ بَـــدْرِ الظلاَمِ بِألبَـــةٍ
بِصُحْبَةِ مُطفِي الجَمْرِ أوْ مُكفِئِ الظَّعْنِ

لبسْنا بِهَا ليْـــلاً مِـــنَ الثلـــجِ أبْيضاً
كسَتهُ يَـــدُ الصِّنبْرِ ثوْباً مِنَ القطـــنِ

وَرُحْنا عَــلَى ألبيــرَةٍ فاسْتقــلَّ بِي
جَنَاحُ عُقابٍ لاَ يَــرُوحُ إلَى وَكـــنِ
وَلَمــا تنكبْنــا المُنكــبَ لــمْ نَجِــدْ
لَنا مَرْكباً أهدَى سَبيـــلاً مِنَ السُّفُـــنِ
ترَامَتْ بنا الأهْوَالُ فِي كــلِّ لُجَّـــةٍ
تخيلهَــا جَــوًّا تَجَلــلَ بِالدَّجْـــنِ
ترَى السُّفنَ فوقَ المَوْجِ فِيهَا كأنَّهَـــا
تَحَدَّرُ مِنْ رَعْنٍ وَتوفِي عَلَى رَعـــنِ
فبوَّأتُ رَحْــلِي ظِــلَّ أرْوَعَ مَاجِــدٍ
يَقولُ بلاَ خلفٍ وَيُعــطِي بلاَ مَـــنِّ
إمَام وَصِيُّ المُصْطفَى وَابــنِ عَمـــهِ
أبُوهُ، فتــمَّ الفخــرُ بَيْنَ أبٍ وَابـــنِ

ـ ثــم أبــو بكــر عُبــادة بــن عبــد اللــه بــن محمــد الأنصــاري الخــزرجي المعــروف بابــن مــاء السمــاء:[1]
يضعــه كثيــر مــن النقــاد والأدبــاء الأندلسيــن في صــف فحــول الشعــراء بتلــك الديــار. وهــو مــن أهــل قرطبــة؛

[1] وصــف الحميــدي ابــن مــاء السمــاء بقولــه: ((مــن فحــول شعــراء الأندلــس، متقــدم فيهــم مــع علمــه؛ ولــه كتــاب "أخبــار شعــراء الأندلــس". ذكــره أبــو محمــد عــلي بــن أحمــد [بــن حــزم]؛ وأنــه كــان حيــا في صفــر سنــة إحــدى وعشريــن وأربعمائـــة)). جــذوة المقتبــس، ص: 293.

وينتسب في أصوله الأولى إلى الأنصار؛ وبالتحديد إلى قبيلة الخزرج. ويعتبر ابن ماء السماء من المبدعين المجددين في صناعة الشعر. هذا وقد نسبوا إليه بعض المبتكرات في نظم التواشيح.[1] ويقول ابن بسام أنه كان يظهر التشيع في شعره. وهذه بعض العينات من شعره بدءا بهذا المقطع قاله في علي بن حمود:

---

[1] قال ابن بسام: ((وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية؛ ومدح رجالها. وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة؛ سلك إلى الشعر مسلكا سهلا؛ فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عُبادة هذا منآدَها، وقوم ميْلَها وسنادَها؛ فكأنها لم تُسْمَعْ بالأندلس إلا منه، ولا أخذتْ إلا عنه؛ واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثيرٍ من حسناته. وهي أوزان كَثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب؛ تُشَقُّ على سماعها مصوناتُ الجيوب بل القلوب. وأول من صنع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقنا واخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمد بن محمود القَبْري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار؛ غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة؛ يأخذ اللفظَ العاميّ والعجميّ ويسمّيه المَرْكَزَ، ويضعُ عليه الموَشَّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إن ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد الفريد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثم نشأ يوسف بن هارون الرَّمادي؛ فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز؛ يضمّنُ كلّ موقفٍ يقف عليه في المراكز خاصّة. فاستمر على ذلك شعراءُ عصرِنا؛ كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عُبادة هذا؛ فأحدَث التضفير؛ وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف في المركز)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 468 ـ 469.

أطَاعَتــكَ القلــوبُ وَلاَ عَــصِيٌّ
وَحِــزْبُ اللـــهِ حِزْبُــكَ يَــا عَــلِيٌّ
فكـــلٌّ مَـــنِ ادَّعَى مَعَــكَ المَعَـــالِي
كـــذُوبٌ مِثْــلَ مَا كـــذبَ الـــدَّعِيٌّ
أبَى لــَكَ أنْ تُهَاضَ عـــلاَكَ عَهْــدٌ
هِشَــــامِيٌّ وَجَـــــدٌّ هاشِــــمِيٌّ
وَمَـــا سُمِيــتَ بِاسْــمِ أبيــكَ إلاَّ
ليَحْيَـــا بِالسَّــمِيِّ لــهُ السَّــمِيُّ
فـــإنْ قـــالَ الفَخـــورُ أبِي فـــــلاَنٌ
فَحَسْبُــكَ أنْ تقـــــولَ أبِي النــَبِيُّ

ويقـــول أيضـــا في قصيـــدة أخـــرى:

أبَسْـــلٌ عَليكَ المَاءُ حَـــتَّى يشُوبَـــهُ
دَمٌ وَالكرَى حَتَّى تقضَّ المَضَاجِـــعُ
أجَـــمَّ جيَـــاداً أدمَنَ الغـــزْوُ نهْكهَـــا
فَمِنهَـــا حَسِيـــرٌ فِي الجهَادِ وَظَالـــعُ
وَأغمِـــدْ سيُوفاً تشتكِيـــكَ جُفونُهـــا
كمَا تشْتــكِي نُجْلَ العيُونِ البرَاقِـــعُ

وَسَكِّنْ عَجَاجَ الرَّكــضِ شَيْئاً فقلَّمَــا

يُرَى الجَوُّ مِمَّا هُجْتــهُ وَهوَ ناصِــعُ

وَآنِــسْ قُصُوراً طَالَ إيحَاشهَا بــهِ

فقدْ أشفقتْ مِمَّا صَنَعْــتَ المَصَانِــعُ

وَهَلْ ضَــرَّكَ البَاغِي بسَهْمِ مَكيِــدَةٍ

وَأنتَ بَــوَاقِي عِصْمَــة اللـــهِ دَارِعُ؟

وَأيُّ يَــدٍ تنــوِي قِرَاعــكَ بَعْدَمــا

رَأيْنــا يَــدَ الجَبــارِ عَنــكَ تقــارِعُ؟

وقــال راثيــا عــلي بــن حمــود، ومهنئــا لأخيــه القاســم بتــوليــه العــرش:

صَــلى عَلَى المَــلِكِ الشَّهيدِ مَلِيكــهُ

وَسَقــاهُ فِي ظِــلِّ الجنانِ الكوثــرُ

مَــولًى دَهَتــهُ عَبيــدُهُ، وَغضَنَفــرٌ

ترَكتهُ أيْــدِي العُفــرِ وَهوَ مُعَفــرُ

كانــتْ تهَيَّبُــهُ الأسُــودُ فغالــــهُ

فِي قصْــرِهِ مُسْتضْعَــفٌ مُسْتَحْقــرُ

لمْ يُثْــنِ عِــزُّ المُلْكِ عَنــهُ مَنونــهُ

فَسَمَــتْ لهُ مِنْ حَيْثُ لمْ يَكُ يَحْــذَرُ

ختلتــــــهُ سِــــــراً وَالقبَائـــــلُ دُرَّعٌ

تَحْمِيـــهِ لكِــنَّ المَنايـــا جُسَّـــــرُ

ولَــــوْ أنهَا رَامَتــــهُ جَهْراً لاَنثنـــتْ

وَالبيـــضُ تقـــرَعُ وَالقنـــا يَتكســـرُ

ثـــم يكمـــل:

مَـــا غـــابَ بـــدْرُ التـــمَّ إلاَّ رَيثمَـــا

جَـــلَّى الدُّجَى عنا الصَّبَاحُ الأزْهـــرُ

إنْ يَهْـــوِ مِنْ أفـــقِ الخِلاَفـــةِ نيـــرٌ

يَهْـــدِي السَّبيـــلَ فقـــدْ تـــلاَهُ نيِّـــرُ

بِالقاسِـــمِ المَأمُونُ أفـــرَخَ رَوْعنـــا

فالقسْــمُ وَافٍ وَالنصيـــبُ مُوَفـــرُ

ومـــن شعـــره في القاســـم بـــن حمـــود:

مَا ضَيعَ اللـــهُ مُلكاً أنـــتَ رَاعِيـــهِ

وَلاَ أبَـــاحَ ذِمَـــاراً أنـــتَ حَامِيـــهِ

لِلـــهِ دَرُّكَ مِـــنْ مَـــولًى عَوَارِفـــهُ

لمْ تبـــقَ فِي الأرْضِ إلاَّ مَنْ يُوَاليهِ

تَهْدِيهِ وَالناسُ قَدْ ضَلُوا كَوَاكِبَ مِـــنْ
آرَائِـــهِ فِي سَمَـــاءٍ مِـــنْ مَعَاليـــهِ
مُكفــلاً برِضَـــاهُ هِمـــــةَ أنفـــاً
تَرْمِي إلى الغَرَضِ الأَقْصَى فتُصمِيهِ
كَانـــتْ خِلاَفتُنـــا فِي الغرْبِ مَظْلَمَةَ
كـــأنَّ أيَامَنــــــا فِيهَـــا ليَالِيــــــهِ
سِيَاسَةٌ أبْـــرَأتْ بِالرِّفْــقِ فِي مَهَـــلٍ
دَاءَ الخِـــلاَفِ وَقَـــدْ أعيـــا مُدَاوِيهِ
وَحِكمَةٌ خَضَعَتْ هَـــامُ المُـــلوكِ لهَا
عِـــزًّا فلاَ حُـــرَّ مَوْجُـــودٌ بوَادِيـــهِ
مُؤَيـــدٌ جَـــاءَتِ الدُّنيَـــا إلَى يَـــدِهِ
عَفــواً وَلَبَّتــهُ مِنْ قــرْبٍ أمَانِيـــهِ
جَلَـــتْ أيادِيـــهِ حَـــتَّى إنَّ أنفُسَنَـــا
وَمَـــا مَلَكنـــاهُ جُـــزْءٌ مِـــنْ أيَادِيـــهِ

ويقــول مادحــا يحــيى بــن عــلي بــن حمــود:

فهَــا أنــذَا يَا ابْــنَ النبــوَّةِ نافــثٌ
مِنَ القولِ أرْياً غَيْرَ مَا يَنفثُ الصِّــلُّ

وَعِندِي صَرِيحٌ فِي وَلاَئِــكَ مُعــرِقٌ
تشيعــهُ مَحْــضٌ وَبيْعَتــهُ بتــلُ

وَوَالَى أبِي قَيــسٌ أباكَ عَلَى العُــلاَ
فَخيَّــمَ فِي قلبِ ابنِ هِنــدٍ لهُ غِــلُّ

ومــن شعــره أيضــا:

لاَ تشْكُــــوَنَّ إذَا عَثــــــرْ
تَ إلَى صَدِيقِكَ سُــوءَ حَالــكْ

فيُرِيــكَ ألوَانــــاً مِــنَ الــْـــ
إذْلاَلِ لــمْ تَخطـــــرْ ببَالـــــكْ

إيـــــاكَ أنْ تـــــدْرِي يَميــــ
ــنــكَ مَا يَــدُورُ عَلَى شِمَالِــكْ

وَاصْبــرْ عَلَى نــوَبِ الزَّمَــا
نِ وَإنْ رَمَتْ بِــكَ فِي المَهَالــِكْ

وَإلَى الــذِي أغـــــنَى وَأقــــ
ــنَى اضْرَعْ وَسَلْهُ صَلاَحَ حَالِكْ

وهــذا موشـــح لـــه يقــول فيـــه:

مَنْ وَلِــي ♦ فِي أمَّــةٍ أمْــراً وَلَـمْ يَعْـدِلِ ♦ يُعْـزَلِ ♦ إلاَّ لِحَاظُ الرَّشَــإ الأكْحَــلِ

جُــرْتَ فِي حُـكـمَـكَ فِي قـتـــلِيَ يَـا مُـسْـرِفُ

فَـانْـصِفِ فـوَاجِـبٌ أنْ يُنـصَـفَ الـمُـنـصِفُ

وَارْأفِ فـــإنَّ هـــذَا الــشـــــوقَ لاَ يَـــــرْأفُ

عـلِّـــلِ ♦ قـلبي بذَاكَ البَارِدِ السَّلْـسَلِ ♦ يَنْجَلِي ♦ ما بفـؤادي مِنْ جَوَى مُشْعَــلِ

إنــــمـــا تـبْـــرُزُ كـَيْ تـوقِـدَ نَـارَ الفِـتـــنْ

صَـنـَمـــاً مُـصـوَّراً فِـي كـلِّ شـيْءٍ حَسَـــنْ

إنْ رَمَـى لـَمْ يُخـطِ مِــنْ دُونِ القلُـوبِ الجـنَـنْ

كَيفَ لِي ♦ تَخَلُّصٌ مِنْ سَهْمِكَ المُرْسَـلِ ♦ فَصِـلِ ♦ وَاستَبْقني حَيــاً وَلاَ تقتــلِ

يَا سَـنـا الـشَّـمْـسِ وَيَـا أبْــهَى مِــنَ الكوكـــبِ

يَا مُـنـَى النـفـــسِ وَيَـا سُـؤلِي وَيَـا مَـطلـبِـي

هَـا أنـا حـــلَّ بـأعـــدَائـــكِ مَـا حـلَّ بِــي

عـــذِّلِـي ♦ مِنْ ألـَمِ الهجْرَانِ فِي مَعزِلِ ♦ وَالخَلِي فِي الحُبِّ لاَ يَسْــألُ عَمَــنْ بلي

أنــتَ قـَدْ صَيَــرتَ بالحُـسْـنِ مِـنَ الرُّشــدِ غَــيّ

لـَمْ أجِـدْ فِـي طـــرُقِـي حُـبـكِ ذنبـاً عَـلـَيّ

فـَاتـئـدْ وَإنْ تـشـأ قـتـلِـيَ شَـيْـئـاً فـشَـيّ

أجــمِــلِ ♦ وَوَالِــنِي مِنْكَ يَدَا المُفْـضِـلِ ♦ فَهْيَ لِي ♦ مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقبِــلِ

مَاَاغتَـذَى طـــرفِـيَ إلاَّ بِــسَـنـا نــاظِـرَيـــكْ

وَكَـــذَا فِي الـحُـبِّ مَا بي لَيْـسَ يَخـفى عَـلـيْـكْ

وَلــــذا أنـشِـدُ وَالـقـلـبُ رَهـيــنٌ لـدَيــكْ

يَـا عَـلي ♦ سَلطْتَ جَفنيْكَ عَلى مَقتـلِي ♦ فابقِ لِي قلبي وَجُدْ بالفَضـلِ يَـا مَوئِـلِي

ـ ثــم أبـــو جعفـــر أحمـــد بـــن أيـــوب اللمـــائي:[1] يعتبـــر أبـــو جعفـــر اللمـــائي مـــن الأدبـــاء والشعـــراء الفحـــول ببـــلاد الأندلـــس. وينتســـب هـــذا الكاتـــب إلى قبيلـــة لمايـــة الأمازيغيـــة؛ وقـــد ولـــي ــ في بـــلاط عـــلي بـــن حمـــود ــ خطـــة الكتابـــة. ويبـــدو أنـــه كـــان يعـــاني ــ في آخـــر أيامـــه ــ مـــن مـــرض ضيـــق النفـــس أو داء النسمـــة كمـــا يســـمى آنئـــذ؛ وقـــد تـــوفي في مالقـــة بعـــد شـــدة وعـــذاب[2].

---

[1] **قـال ابـن بسـام: ((وكـان أبـو جعفـر هـذا ــ وقتـه ــ أحـد أئمـة الكتـاب، وشهـب الآداب؛ مـن سُخِّـرت لـه فنـون البيـان، تسخيـر الجـن لسليمـان؛ وتصـرف في محاسـن الكـلام، تصـرف الريـاح بالغمـام؛ طلـع مـن ثنايـاه، واقتعـد مطايـاه؛ ولـه إنشـاءات سَرِيَّـة في الدولـة الحموديـة؛ إذ كـان علـم أدبائهـا، والمُضطَلـع بأعبائهـا)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.**

[2] **وقـد أورد ابـن بسـام قصيـدة لأبي عامـر ابـن شهيـد قالهـا ــ وهـو عـلى فـراش مرضـه المزمـن ــ عندمـا نـعي إليـه أحمـد بـن أيـوب اللمـائي جـاء فيهـا:**

أمِـنْ جَنابهُـمُ النفـحُ الجَـنوبيُّ

أسْرَى فَصَاكَ بهِ فِي الغوْرِ غـاريُّ؟

أهـدَى إليَّ ظلامـاً رَدْعَ نافِجَـةٍ

أدْمـاءَ شـقَّ بهَا الدَّأمَـاءَ هِنـدِيُّ

وَالليْـلُ قدْ قـامَ فِي أثـوَابِ نادِبـةٍ

كأنـهُ فـوقَ ظهْـرِ الأرْضِ نـوبيُّ

والنجْـمُ تَحْسَبُـهُ قـدَّامَ تابعِـهِ

حَمَامَـةً رَامَهَـا فِي الجَـوِّ بَـازِيُّ

وعلى الرغم من شهرته وطول باعه في ميدان الكتابة نثرا وشعرا؛ فإن ما وصل إلينا من أعماله زهيد جداً؛ بسبب الضياع؛ وقد تنبه إلى هذا الأمر ابن بسام حيث قال: ((**إلا أنِّي لم**

وَجَدْوَلُ الأفق يَجْرِي فِي مُنافسِهِ
مَاءٌ سَقَى زَهْرَةَ الخضْرَاء فِضِيُّ
فقلتُ وَالسُّقمُ مَنشُورٌ عَلَى جَسَدِي
يَحدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ العَيْشِ مَطوِيُّ:
أُهدَى اللمَائِيُّ مِنْ أزْهارِ فِكرَتِه
نشْراً فقالَ الدُّجَى: مَرَّ اللمَائِيُّ
فقِيلَ مَاتَ فقالَ الليْلُ قارَبَ ذَا
فانهَلَّ مِنْ مُقلتِي نوْءُ سِمَاكِيُّ
وَبِتُّ فرْداً أناجِي مُقلتِي شغفاً
كأنني فِي نقوبِ الدَّارِ جِنِّيُّ
لاَ عِشتُ إنْ مُتَّ لِي يَا وَاحدِي أبَداً
وَمَوتنا وَاحِدٌ لاَ شكَّ مَرئِيُّ
إنَّ الكرِيمَ إذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ
أوْدَى بهِ الوَجْدُ وَالثكلُ الطبيعِيُّ
إنْ مُتُّ قبْلكَ لاَ تعْجَبْ فذُو أمَلٍ
قدْ حَمَّ مِنْ دُونِهِ يَوْماً حَمَامِيُّ
أوْ مُتَّ قبْلِي فمَا مَنعَاكَ لِي عَجَبٌ
إنَّ الكرِيمَ إلَى الأصْحَابِ مَنعِيُّ
زَادَ البَلاَءُ عَلَى نفسِي فأعْدَمَهَا
صَبْرِي فصَبْرِي عَليْكَ اليَوْمَ وَحْشِيُّ
حَتَّى أهُمَّ بقتلِي كلَّ دَاجِيَةٍ
يَا قوْمِ هَلْ رَامَ هَذَا قبْلُ إنسِيُّ؟
إنِّي إلَى اللهِ مِنْ عُقبَى بُلِيتُ بهَا
جَرَى بهَا الحُكمُ وَالأمْرُ الإلهِيُّ

أجد عند تحريري هذه النُّسخة من كلامه إلاَّ بعض فصول له من منثور؛ وهي ثِمَادٌ من بُحُور؛ وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل في صناعته، والتقدم على أكثر جماعته)).[1] وأهم أعماله التي وردت في المصادر القليلة هذه القطعة النثرية التي بعث بها إلى وزير زهير أبي جعفر أحمد بن عباس جاء فيها: **((غُصنُ ذِكراك عندي ناضر، وروضُ شُكرك لديّ عاطر، وريحُ إخلاصي لك صَباً، وزمنُ آمالي فيك صِباً، فأنا شاربٌ ماءَ إخائك، متفيِّءٌ ظِلال وفائك، جانٍ منك ثمر فرَْع طاب أكله، وأجناني البرَّ قديمًا أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروَّاني إفضالاً وَدْقه، وأنت الطَّالعُ في فجاجه، السَّالكُ لمنهاجه: سهمٌ في كنانة الفضل صائب، وكوكب في سماء المجد ثاقب، إن أتبعَتَ الأعداءَ نورَهُ أحرق، وإن رميتَهم به أصابَ الحَدَقَ؛ وعلى الحقيقة فلساني يَقْصُرُ عن جميلِ أسِرِّه، ووصفِ وُدٍّ أضمِرُه)).**[2] أما شعره فمنه قوله:

قَدْ قلتُ إذْ سَارَ السَّفِينُ بِهِ
وَالبَيْنُ يَنهَبُ مُهْجَتِي نهْبَا
لوْ أنَّ لِي مُلكاً أصولُ بِهِ
لأخَذْتُ كلَّ سَفينةٍ غصبْا

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] نفسه، ص: 618.

وقـــال في أخـــرى أيضـــا:

غــنَّى وَلِلإِيقــاعَ فــو قَ بَيَانِ مَنطِقِــهِ بَيــانُ

وَكأنمــا يــدُهُ فـــمٌ وَقضِيبهُ فِيهَــا لِســانُ

زاره بعــض أصحابــه وهــو طريــح الفــراش بفعــل المــرض الــذي أودى بحياتــه؛ فحــاول بعضهــم الترويــح عليــه بغــرض التخفيــف عنــه؛ فقــال لهــم شعــرا:

رَوَّحــنِي عَائِــدِي فقلــتُ لــهُ

مَــهْ، لاَ تــزِدْنِي عَلَى الذِي أجِــدُ

أمَــا تــرَى النــارَ وَهْيَ خامــدَةٌ

عنــدَ هبــوبِ الرِّيــاحِ تتقِـــدُ؟

وقــال يشتــكي مــن علتــه بعــد أن يئــس مــن الشفــاء:

عظمَ البَــلاَءُ فلاَ طَبيبٌ يرتــجَى

مِنــه الشفــاءُ وَلاَ دَوَاءٌ ينجــعُ

لــمْ يَبــقَ شَيْءٌ لمْ أعَالِجهَــا بــهِ

طَمَعَ الحَيَــاةِ، وَأينَ مَنْ لاَ يَطمَــعِ؟

"وَإذَا المَنِيـــة أنشبـــتْ أظفارَهـــا
ألفيْـــتَ كـــلَّ تمِيمَـــةٍ لاَ تنفـــعُ"[1]

ولـــه هـــذه القطعـــة كذلـــك:
يا كبـــدِي بِالبَيْـــنِ مَـــنْ أكلمَـــكْ
وَيا دُمـــوعَ العَيْـــنِ مَنْ أسْجَمـــكْ؟
وَيا فـــؤَادِي كمْ تقـــاسِي الهَـــوَى
مُكتتمـــاً عـــنِّيَ، مَـــا أكتمَـــــكْ!
علمْتـــكَ الكتـــمَ أمَـــا تسْتَـــحِي
وَيْحـــكَ أنْ تَكتـــمَ مَـــنْ علمَـــكْ؟
كنـــتُ أدَاوِيـــكَ فـــلاَ ذَنـــبَ لِي
لـــوْ أنـــنِي أعلـــمُ مَـــنْ أسقمَـــكْ

ولـــه هـــذه قطعـــة الـــتي يكـــون قـــد مـــدح فيهـــا عـــلي بـــن حمـــود:
طلَعـــتْ طوَالعُ لِلرَّبيـــعِ فأطلعَـــتْ
فِي الرَّوْضِ وَرداً قبْلَ حينِ أوَانـــهِ
حيـــا أمِيـــرَ المُؤْمِنيـــنَ مُبشـــراً
وَمُؤَمـــلاً لِلنيـــلِ مِـــنْ إحسانـــهِ

---

[1] استشهـد هنـا ببيـت أبي ذؤيـب الهـذلي.

ضَنَـــتْ سَحَائبـــهُ عَليـــهِ بمَائهَـــا

فأتـــاهُ يسْتسْقِيـــهِ مَـــاءَ بنانـــــهِ

دَامـــتْ لنـــا أيامـــهُ موْصُولـــــة

بِالعـــزِّ وَالتمْكِيـــنِ فِي سُلطانـــــهِ

ثـــم هـــذه القصيـــدة الـــتي يشكـــو فيهـــا نوائـــب الدهـــر:

أمسَى سَقامِي زَاجـــرِي وَمُؤَنـــبِي

وَغـــدَا مَشِيبِي وَاعِظِي وَمُـــؤَدِّبِي

أوْهتْ خطوبُ الدَّهرِ مِنِّي عَاتِـــقِي

ثقلاً، وزَعـــزَعَ منكِبِـــاهُ منكِـــبِي

وَهمَـــتْ سَحائبـــهُ عَلَيَّ فغـــادَرَتْ

أرْضِي قرَارَةَ كلِّ خطبٍ مُعجـــبِ

فأظلُّ أبصِـــرُ فيهِ مَا لمْ أحْتســـبْ

جـــوراً وَأقـــرَأ فيـــهِ مَا لمْ أكتـــبِ

ســـنٌ حدِيثٌ تحتَ جـــدٍّ شـــارِفٍ

وَســـوادُ رَأسٍ فـــوْقَ قلبٍ أشيـــبِ

أغـــدُو عَلَى بَكـــرٍ لصرفِ بَناتـــهِ

وَأرُوحُ مبتنِيـــاً بأخـــرَى ثيِّـــــبِ

أفتــضُّ مِنهَا كــلَّ يــوْمٍ عــذْرَة
لاَ تشتـــهَى وَأزَفُّ مَا لمْ أخطـــبِ
يَا سَيـــدِي وَأخِي الوَفِيَّ وَمَا أخِي
منهُ إلَى قلـــبِ الإخـــاءِ بأقـــربِ
وَإذَا غدَا العِلـــمُ المُشـــرِّفُ أهلـــهُ
نسَبـــاً يُؤلِفنـــا فنحـــنُ بنـــو أبِ
هـــلاَّ اهتدَيتَ إلَى خِطابِ مـــرزَّإٍ
مَا بينَ أضْلاَعِ الخطـــوبِ مُغيـــبُ
لمْ يبـــقِ مِنهُ الدَّهـــرُ غيْرَ مَدَامِـــعٍ
سُفـــحٍ وَقلـــبٍ بِالسقـــامِ مُعَـــذَّبِ
أخفتـــنِيَ الأيـــامُ فِي لهَوَاتهَـــــا
وَسَجَننِي فِيهَا فَكيـــفَ شَعَـــرْتَ بِي؟
وَكتبْتَ عَنْ وُدٍّ وَقَـــدْ كتبَ الإخـــا
بَينَ النفـــوسِ صَحَائِفاً لـــمْ تكتـــبِ
بـــأرَقَّ مِنْ دَمعِ المُشـــوقِ فـــؤَادُهُ
وَأرَقَّ مِنْ ريـــقِ الحَبيبِ وَأعـــذَبِ
فظلَلـــتُ مِنهُ فِي غدِيـــرِ بَلاَغـــةٍ
عـــذْبٍ وَمُلتفِّ الحَدَائـــقِ مُعْشـــبِ

كرُمــــتْ مَغارِسهُ فأوْرَقَ فرْعـــهُ
عِلمـــاً وَأثمَـــرَ بِالكـــلاَمِ الطيـــبِ
صُبُـــحٌ تـــدَرَّعَ مِنْ سَوَادِ مِـــدَادِهِ
لَيـــلاً كفِعْـــلِ الزَّائـــرِ المُترَقـــبِ
خفِيَـــتْ مَعَانِيـــهِ عَـــلَى أوْهامِنـــا
فَالفكـــرُ بَيْـــنَ مُصـــدّقٍ وَمُكـــذِّبِ
طلعـــتْ كوَاكِبـــهُ وَلَمَّـــا تطلِـــعْ
وَغربَـــنَ فِيـــهِ لنـــا لمَّـــا تغـــرُبِ
أنَا مُذْنـــبٌ لاَ شكَّ إذْ لمْ أسْتطِـــعْ
رَدَّ الجَـــوَابِ وَأنتَ غيرُ المُذْنـــبِ
حَمَلتـــهُ مِنْ طيبِ الإخـــاءِ مَحَبـــةً
فيكـــمْ وَإخـــلاَصٌ لكـــمْ فتطيَّـــبِ
وَبَعَثـــتُ مَاءَ الوَرَدِ فِيـــهِ سَائِغـــاً
عَذْبـــاً لذَائقـــهِ زلالاً   فاشـــرَبِ
أذْكَى مِنَ المِسْكِ الفتيـــقِ نسِيمُـــهُ
أرَجـــاً وَأصْفَى مِنْ لُعابِ الجنـــدُبِ

ـ ثم أبو بكر عبد الله بن حجاج الغافقي الإشبيلي: وهو ـ كما يستوحى من اسمه ـ من أهل إشبيلية. هذا وينتسب ابن حجاج إلى قبيلة غافق القحطانية العربية. قال عنه صاحب المغرب **((ذكر الحجاري**: "**أنه شاعر بعيد الصوت، معدود في شعراء المعتضد؛ وكان قد هجر وطنه، وانتبذ إلى صاحب الجزيرة الخضراء محمد بن القاسم بن حمود... فقال له وزيره: أسأل ابن الخليفة: هل أنت من بني حجاج أصحاب السيرة بإشبيلية؟ فقال: لو كنت منهم طلبت السيف؛ ولم أطلب بالشعر؛ فقال ابن حمود: لا فُضَّ فوك! يا شَدَّ ما امْتَعضَ لأعْيانِ بلده)).**[1] ويكون ابن حجاج هذا قد توفي بعد سنة 430هـ؛ لأنه تقابل في هذه السنة مع الحميدي؛ الذي قال إنه سمع منه أشعارا كثيرة؛ عندما التقى به في السنة المذكورة.[2] ومن شعره هذه الأبيات التي ذكرها الحميدي:

لَما كتمْتُ الحُبَّ لاَ عَنْ قِلًى
وَلَمْ أجِدْ إلاَّ البُكا وَالعَوِيلْ
نادَيتُ وَالقلبُ بِهِ مُغْرَمٌ
يا حَسْبِيَ اللهُ وَنِعمَ الوَكِيلْ

---

[1] **المغرب، ج: 1، ص ص: 265 ـ 266.**

[2] **جذوة المقتبس، ص: 261.**

وأورد لــه الحجــاري هــذه الأبيــات:

ألاَ أيها الــوَادِي الذِي رَفَّ ظِلــهُ
وَفاحَــتْ خزَاماهُ وَغــرَّدَ طائِــرُهْ

أتذْكــرُ أيامِي بدَوْحِــكَ وَالحِــمَى
يبارِكنــا مِنــهُ بِجزْعِــك زَائــرهْ

وَقدْ رَقَّ نَسْــجُ العَتبِ بينِي وَبَيْنــهُ
وَمَا زَاد مِنا الحبُّ عفتْ سَرَائِــرُهْ

أمــا المقــري فقــد أورد لــه عــدة مقطوعــات؛ منهــا هــذا المقطــع مــن قصيــدة مــدح بهــا محمــد بــن القاســم ابــن حمــود:

يقولونَ إنَّ السِّحْرَ فِي أرْضِ بابــلٍ
وَمَا السحْرُ إلاَّ مَا أرَتــكَ مَحَاجــرُهْ

وَمَا الغُصْنُ إلاَّ مَا انثنَى تَحْتَ برْدِهِ
وَمَا الدِّعصُ إلاَّ مَا طوَتــهُ مَــآزِرُهْ

وَمَا الــدُّرُّ إلاَّ ثغــرُهُ وَكلاَمــــهُ
وَمَا الليْــلُ إلاَّ صَدْغــهُ وَغدَائــرُهْ

وأرد لــه أيضــا المقــري مقاطــع صغيــرة مــن الشعــر الــذي قالــه عندمــا كــان في إشبيليــة. لا داعي لإثباتهــا في هــذا المجــال.

ـ ثـــم أبـــو محمد غانم بن وليـــد المخـــزومي المالـــقي:[1]
وينتســـب هـــذا الأديـــب العالـــم إلى بـــني مخـــزوم مـــن قريـــش؛ وهـــو مـــن أهـــل مالقـــة وعلمائهـــا النابهيـــن. قـــال فيـــه الحميـــدي: ((**فقيـــهٌ، مـــدرسٌ، وأستـــاذ في الآداب وفنونهـــا، مجـــوِّد؛ مـــع فضـــل وحســـن طريقـــة**)).[2] ووردت لـــه بعـــض المقطـــع الشعريـــة في الذخيـــرة، وبعـــض المواضـــع المتفرقـــة مـــن نفـــح الطيـــب، وفي جـــذوة المقتبـــس، والصلـــة. ولغانـــم بـــن وليـــد رسائـــل نثريـــة عديـــدة أوردهـــا ابـــن بســـام؛ منهـــا عـــلى سبيـــل المثـــال هـــذه المقطوعـــة النثريـــة الـــتي صاغهـــا لمـــا تـــولى إدريـــس العـــالي الخلافـــة. وفي النـــص إشـــارة إلى الأحـــداث الـــتي تكـــون قـــد وقعـــت في مالقـــة؛ حيـــن حـــاول الفـــتى الصقلـــبي نجـــا بمساعـــدة السطيـــفي اغتصـــاب الحكـــم. قـــال غانـــم: ((**ولـــم يتـــرُك المتطـــولُ علينـــا عـــزَّ وجهـــهُ بالهـــدى أمـــة محمَّـــدٍ عليـــه الســـلامُ ســـدى؛ بـــل نـــظـــمَ شملهـــا بإمـــامٍ عـــادلٍ تجتمـــعُ إليـــه، وتعـــوِّلُ عليـــه، تتوارثـــهُ كابـــراً عـــن كابـــرٍ، وتـــتـــلـــقـــاهُ غابـــراً عـــن غابـــرٍ؛ إلى أن أذِنَ اللـــهُ للأكمـــام الهاشـــميّ، والملـــك الفاطـــميّ، والفـــرع العلـــويّ، إدريـــس العـــالي باللـــه بـــن يحـــيى المعتـــلي باللـــه بـــن عـــلي الناصـــر**

---

[1] **قـــال فيـــه ابـــن بســـام: ((قـــد بـــذ ـــ وقتـــه ـــ أهـــل ذلـــك الإقليـــم، في أنـــواع التعاليـــم؛ فَـــرْدَ عصـــره ونسيـــج وحـــده في تنـــاهي جـــده؛ متفننـــا جـــرى في ميـــدان السَّبْـــق، وفقيهـــا قرطـــس أغـــراض الحـــق؛ وكـــان في هـــذا البـــاب الـــذي ولجنـــا فيـــه مـــن أهـــل الرَّويـــة والبديـــه)). الذخيـــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 853 ـــ 854.**

[2] **جـــذوة المقتبـــس، ص: 325.**

لدين الله بن حمود بن أبي العيش بن عبيد الله ابن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فقام العالي بالله بخلافة المغربيين، واضطلع بملك العدوتين؛ ولما آن أوانُ إمامته، حانَ من عدوّه حينُ قيامته. وكان مقتلُ العبد الغادر ـ وكافرُ النعْمَة كالكافر ـ في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، وفي عشرين ليلةٍ خلتْ من كانون. فانجلتْ سمومُ الشتاء بانجلائه، وانقضت أيام الشؤمِ بانقضائه، وكان عقبَ الشهر في استقبال شهر رجَبَ الشهر الأصمّ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّ العربَ أسقطتْ فيه قعْقعَة السِّلاح؛ وكأنَّ المثلَ إنما جرى في مضمار، على مفرق الليل والنهار، وأرى الناسَ مخايلَ السعدِ والإيناس، وهو قولهم: عِشْ رجباً ترَ عجباً؛ وكأن هذا العجبُ آخِرَ يومٍ من الليالي، وقامَتْ فيه دولةُ هذا الملكِ العالي، والشمسُ تأخذُ من قعرِ الفلكِ في الصعود، وتؤذنُ بجري الماء في العود؛ وتترقَّى بالعلم في دَرَجِ السعود:

وَاستَقْبَلَ المُلكَ إمَامُ الهُدَى
فِي أرْبَعٍ بَعْدَ ثلاَثِينَا
خِلاَفةُ العَالِي سَمَتْ نَحْوَهُ
وَهوَ ابْنُ خَمْسٍ بَعْدَ عِشْرِينَا

إنِّي لأرْجُــو يَا إمَــامَ الهــدَى

أنْ تمْلِــكَ المُلـــــكَ ثمَانِينَــــــا

لاَ رَحِــمَ اللـــهُ امْرُءاً لَمْ يَقُــلْ

عِنْــدَ دُعَــائِي لَــكَ آمِينَــــــا

فسفــرت الدنيــا قناعهــا فتيــة، وبلغــت النفــوسُ بخلافتــه الأمنيــة، وانثالــتْ عليــه بيعــاتُ الأمصــار، وأمــتْ حضرتــه الرُّســلُ مــن جميــع الأقطــار، وبــدأ بالفضــل، وصــدع بالعــدل؛ فأحيــا مآثــرَ آبائــهِ الطاهريــن)).[1]

وفي رسالــة لــه بعــث بهــا إلى أبي الحســن الحصــريّ قــال: **((مــا أفصــحَ لسانــك، وأفســحَ ميدانــك، وأوضــحَ بيانــك، وأرجــحَ ميزانــك، وأنــورَ صباحــك، وأزهــرَ مصباحــك؛ أيهــا السابــق المتمهــل، في ميــدان النّبــل، والسَّامِــقُ المتطــوِّلُ بفضائــلِ الذّكــاء والفضــل؛ أرحتــني مــن غــلّ الهــمِّ، فأزهدتــني أريحيّــة، وأزَحتــني عــن ظــلّ الغــمِّ، فلاحــتْ لي شمــسُ الأمنيــة، بمــا أطلعتــه عــليّ، فنفذتــه مكارمُــك إليّ. فقلــت: أعَصْــرُ الشبــابِ رَجَــع، أم كوكــبُ السَّعــدِ طَلَــعَ، أم بأرقُ الإقبــال لمــع؟ كــلاَّ واللــه؛ إنهــا لمكرُمَــةٌ فهريــة، أهدتهــا نفــسٌ سنيــة، وهمَّــة عليَّــة. إن قلــتُ الوشيُ الصنعــانيّ فقــد نقصتهــا، أو الدّيبــاجُ الخســروانيّ فقــد بخستُهــا. بــلى**

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 861 ــ 862.

والله، أرتني زهرَ الرَّبيع في غيرِ أوانه، وحُسنَ الصَّنيع على عَدَمه في أهلِ زمانه؛ لمحتُ منه عِقد اللآل، يبقى على أخرى الليال؛ فأنت واحدُ البلاغة الذي لا يجارَى، وفارسُ الفصاحة الذي لا يُبارَى؛ وقد اعتقدتُ ما به أشرت، وإياه اعتمدت، لو لاح لي في أفقِ النقلةِ صباح، أو استقلّ بي في طرُق الرّحلة جناح.

وكم حاولتُ مسالمة النوائب بانقباضي، ومداراة الدُّنيا بتركي لأغراضِها وإعراضي؛ فإذا الانقباضُ قد حصَّلني في جملةِ القَبض، والتركُ للأغراض قد جعلني للنوَب كالغرض؛ ولا سلاحَ إلاَّ الدُّعاء إلى الله تعالى في الصَّلاح، ولا جناح إلاَّ التمني لمن يقولُ ما عليك جُناح؛ فسبحان من قدرَ أن أكونَ لنابِ النوَب حرباً، وتكونَ عليّ أيامُ الزمان إلباً، أصلى بنار المصائب السُّود؛ كأنِّي ممَّا أنا باكٍ منه محسود. أستغفرُ الله! فقد حمي صدري حتى غلى مِرْجَلُه، وضاق مجالُ فكري حتى اتَّسعَ في الشكوى مقولَه. ولو أني سلمتُ لمواقع الأقدار، وعلمتُ أنه ليس على القدَر اختيار، ورضيتُ بما يأتي به الليلُ والنهار، وتَيَقنتُ أنَّ خُلُقَ الزمانِ عداوة الأحرار؛ لأرحتُ قلباً يتقلبُ في جمرِ الأسى، وأذكرتُ لبًّا قد نسي الاقتداء بالأسى)).[1]

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 856 ــ 857.

ومــن المقطوعــات الشعريــة لغانــم بــن وليــد؛ هــذه الأبيــات الــتي قالهــا لمــا دخــل عــلى مجلــس باديــس ابــن حبــوس؛ فوســع لــه كي يجلــس عــلى رغــم الضيــق فقــال:

صَيــرْ فــؤَادَكَ لِلمَحْبُوبِ مَنزِلــة
سـمُّ الخيــاطِ مَجَــالٌ لِلحَبيبَيْــنِ
وَلاَ تسَامِــحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشَــرَةٍ
فقلمَــا تسِــعُ الدنيَــا بَغِيضَيْــنِ

ولــه أيضــا:

الصَّبْــرُ أوْلَى بِوقــار الفــتَى
مِنْ قلــقٍ يَهْتِــكُ سِترَ الوَقــارْ
مَنْ لــزِمَ الصَّبْــرَ عَلَى حَالــهِ
كــانَ عَــلَى أيامِــهِ بِالخيــارْ

وممــا قالــه في العــالي باللــه إدريــس بــن يحــيى ابــن حمــود:

لَوْلاَ التَّحَــرُّجُ لمْ يُحْجَبْ مُحَيَّــاكِ
حُيِّيــتِ عَنــا وَحُيِّينــا بِمَحْيَــاكِ
هَذا اللثــامُ غَمَــامٌ مَا يُبِينُ هُــدًى
حُــطِّي اللثــامَ فَليسَ البَــدْرُ إلاَّكِ

لمَّا هَدَيْــتِ إلَى نَعْمَـــانَ سَافِــرَةً
كانتْ هدَايَتُــا مِنْ بَعْضِ نُعْمَــاكِ

ثم يضيف:

أوْ يَمِّمِي حَضْرَةَ العَالِي بِمَا احْتَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

ويقــول في قصيــدة أخــرى:

يَا غَرِيبــاً بِحُسْنِــهِ   قِصَّتِي فِيكَ أغْــرَبُ
أنْتَ فِي طَيِّ نَاظِرِي   وَالمُنَى مِنْكَ تُحْجَبُ
لاَ تَلُــمْ فِي مِــدَادِهِ   بدَمِ القلــبِ يُكتَــبُ
إنَّ إدْرِيــسَ مَاجِــدٌ   لِلعُلاَ فِيــهِ مَذهَــبُ
جَــدُّهُ خَاتَمُ الهُــدَى   وَعَــلِيٌّ لــــهُ أبُ
فَهْــوَ لِلْمَجْدِ مَطْلَــعٌ   وَهْوَ لِلْمَجْدِ مَغــرِبُ

ويقــول دولــة إدريــس العــالي:

ضَحِــكَ الزَّمَانُ إلَيْكَ بَعْدَ عُبُــوس
وَنَــفَى دُجَى الإيحَــاشِ بِالتأنِيــسِ

فَأدِرْ نُجُومَ الرَّاحِ فِي فَلَــكِ المُــنَى
وتَطُوفُ نَحْوَكَ مِنْ أكــف شُمُــوسِ
فِي رَوضَةٍ تُحْيِي النُّفــُوسَ كَأَنَّمَــا
بَاتـــتْ تَنَفــسُ عَنْ عُــلاَ إدْرِيـــسِ
مَلِــكٌ أقــامَ اللـــهُ دَوْلَــةَ مُلكِـــــهِ
فَكَبَــا مِنَ الأعْــدَاءِ كــلُّ رَئِيــسِ
مِنْ دَوْحَةِ الــوَحْيِ الــتِّي بِسُمُوِّهَــا
دَرَسَـــتْ مَعَانِي الكفــرِ أيَّ دُرُوسِ

وقـــال في رثـــاء أخويـــه:

يـــا دَمْـــعُ لاَ تخــذُلْ وَكنْ مُسْعِــداً
لاَ تَخــشَ مِنْ صَبْرِيَ أنْ يَمْنعَــكْ
أخٌ غرِيــــقٌ وأخٌ فِي الثـــــرَى
وَترتـــجِي السَّلْـــوةَ مَـــا أطمَعَــكْ!
إنَّ جُمـــودَ العَيـــنِ خـــوْفَ العِــدَا
وَرِقبَــةَ الحُسَّـــادِ لـــنْ يَنفعَـــــكْ
يـــا عُمَـــراً أعْمَـــرْتَ قلـــبِي أسىً
وَدَّعَ صَبــرِي مِثلمَـــــا وَدَّعـــــكْ

رُزِئــتُ فِي الدُّنيَــا يَدَيْ نصْــرتِي
يَــا دَهــرُ تبــاً لــكَ مَــا أفجعــكْ

وقـــال واصفـــا وادي مالقـــة في موضـــع يســـمى ربـــوة العقـــاب:

ضحِــك الزَّمَانُ بِحسنِــهِ وَبهَائـــهِ
كَالصَّبِّ يَضْحَكُ بَعْدَ طول بُكائِـــهِ
وكـــأنَّ إقبَـــالَ الرَّبيـــعِ بوَصلِـــهِ
وَصْلُ الحَبيبِ أتـــاكَ بَعْدَ جَفائِـــهِ
وَكأنمَـــا وَادِي العُقَـــابِ عَشيـــة
مُسْتمْطِـــرٌ دَمْعِي بِجرْيـــةِ مَائـــهِ
وَكأنَّ رَشحَ الطلِّ فِي رَوْضِ الرُّبَى
رَشحُ الخدُودِ بَـــدَا بنـــارِ حيائـــهِ

وكـــان يُحْـــيي جلســـات الأنـــس والطـــرب في قصـــر الملـــك العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى مطـــرب اسمـــه المهـــدوي؛ فطلـــب يومـــا مـــن غانـــم تذييـــل بيـــت مـــن الشعـــر كـــان يحفظـــه؛ حـــتى يتســـنى لـــه الغنـــاء بـــه؛ مـــع التذييـــل. والبيـــت الـــذي يحفظـــه المهـــدوي هـــو:

يَا نائِبَ الوَجهِ عَنْ شمْسِ الضحَى غَسَقاً

وَالبـــدْرُ لـــوْ كلفـــوهُ ذَاكَ لـــمْ ينـــبِ

فأكمـــل غانـــم بـــن وليـــد بديهـــة:

فِي غـــرَّةِ الملكِ العَـــالِي وَمَنظـــرِهِ

بـــدْرٌ يُعطـــلُ نورَ السبعةِ الشهـــــبِ

نـــرَى محيـــاهُ فِي ليـــلٍ فيخبرُنـــا

عنِ الحَقِيقـــةِ أنَّ الشمـــسَ لمْ تغـــبِ

وحـــدث أيضـــا في بعـــض جلســـات الأنـــس والسمـــر والغنـــاء؛ الـــتي كـــان يحييهـــا المغـــني محمـــد بـــن الحمـــاميّ أن طلـــب الملـــك إدريـــس مـــن غانـــم تذييـــل بيـــت ابـــن المعتـــز:

هـــلْ يُزِيـــلُ البَيْـــنَ مُحْتَـــالُ

أنْ غـــدَتْ لِلبَيْـــنِ أجْمَـــــالُ

فأكمـــل غانـــم قائـــلا:

إنمـــا العَـــالي إمَـــامُ هـــــدًى

حلِيَـــتْ فِي عَصْـــرِهِ الحَـــــالُ

مَلِـــــكٌ إقبَـــــــالُ دَوْلتــــهِ

لِـــــذَوِي الأفهَـــامِ إقبَـــــالُ

قــلْ لِمَتنْ أبــدَتْ مَطَالبـــــهُ

رَاحَتَـــاهُ الجـــــاهُ وَالمَـــــالُ[1]

ـ وأبــو عبــد اللـــه محمــد بــن الســرّاج المالــقي: لــم يتــم التعــرف عــلى أصــل نسبــه الأول؛ إذ أحجمــت المصـــادر المتوفــرة عــن الإشــارة إلى ذلــك؛ ولــم تذكــر ســوى أنــه مــن أهــل مالقــة[2]. أمــا ابــن بســام فقــد نقــل مقطوعــات عديــدة مــن شعــره؛ ولكنــه لــم يشــر إلى ترجمــة حياتــه؛ وكــل مــا قــال فيــه: ((**محســنٌ في**

---

[1] وممــا حكــاه غانــم عــن مجالــس السمــر الــتي تقــام بقصــر الملــك إدريــس قولــه: ((وحضــرتُ مجلســهُ أيضــاً فتغــنَّى الحمــاميُّ بشعــرٍ محــدثٍ أولــه:

إذَا بَلغتِــني يَــا نــا قــتِي المَسْــمِيَّ إدْريســا

فكــأنَّ العــالي باللــهِ استحســنَ الحُــلْــةَ ولــم يــرضَ قولــه "المســمــيِّ"؛ وإنمــا هــو المســمَّــي أو المُــسَــمَّــى مــن سمّــيت أو أسميــت؛ ولا يُــقــالُ مــن التسميــة سمــوتُ ولا سميــت؛ ولــو قــال "المُســمَىٍ بإدريســا" لصــحَّ الــوزنُ والكــلام؛ فأطــرَقَ قليــلاً ــ أيــده اللــه ــ ثــم قــال: للمُــغــنــي: "أعِــدِ الصــوتَ؛ قــل:

إذَا ضَاقــتْ بكَ الدُّنيَــا فَعَــرِّجْ نحــوَ إدْرِيسَــا

إذَا لاَقيتـــهُ تلـــقَى رَئيســـاً ليْسَ مَرْءوسَــا

وَمَــنْ عَزَمَاتــهُ تنــفِي عــن الأوْطَــان إبْليســا

إمَــامٌ ماجــدٌ ملـــكٌ يزيــلُ الغــمَّ وَالبُؤسَــا")).

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 864.

[2] قالــه عنــه الحميــدي مثــلا: ((محمــد بــن الســرّاج المالــقي: منســوب إلى مالقــة؛ بلــد مــن بــلاد الأندلــس؛ عــلى ساحــل المَجَــاز الــذي يقــال لــه الزُّقَــاق؛ لــم يقــع لي اســم أبيــه؛ شاعــر أديــب مشهــور؛ رأيــت لــه أشعــارا في ذي الوزارتيــن أبي جعفــر أحمــدِ بــن بَقنــة وزيــر دولــة العلويِّــن مــن بــني حمــود؛ وذكــره أبــو عامــر بــن شُهَيْــد مفضِّــلا لــه؛ وأنشــد ممــا استحســن مــن شعــره:

وكَــمْ عَنَّ يَوْم النحْــر مِنْ نَحْــرِ شَــادِنٍ

لِعيــنِي بأطــوَاق الجمــالِ مُطــوَّق)).

جذوة المقتبس، ص: 61.

أهــل عصــره مَعــدود، وشاعِــرُ بــني حَمُّــود؛ ولـــه فيهــم غيــرُ مــا قَصيــد، ومقطوعــاتٌ في النَّسيــب؛ وجدتهــا بخــطّ الأديــب أبي عــليّ الحســن بــن الغليــظ مــن أفــقِ مالقــة أيضــا؛ صاحبــه الكثيــر الاتصــالِ بــه والمُنادمــةِ لـــه)).[1] وكمــا هــو واضــح؛ فشعــر ابــن الســراج هــذا تغــب عليــه نزعــة الوصــف، وحــب الطبيعــة، والغــرق في المجــون. وهــذه بعــض المقاطــع المختــارة مــن الذخيــرة والمغــرب ونفــح الطيــب. فممــا قالــه عنــد سماعــه لهــزار؛ وهــو ذلــك الطائــر المسمى في بــلاد المغــرب والأندلــس بــأمِّ الحَسَــن[2]:

وَمسْمِعَـــةٍ تغنينـــا ارتجـــالاَ
وَتصْحبنـــا بنغمتهَـــا دَلاَلاَ
وَبينَ أكفنـــا خمـــرٌ وَمـــاءٌ
إذَا ما سالَ خِلتَ الدُّرَّ سَـــالاَ
فإنْ شاءَتْ سقيناهـــا مدَامـــاً
وإنْ شـــاءَتْ سقيناهـــا زُلاَلاَ
وَلوْ سُقيتْ دَمِي وَدَمِي حَرَامٌ
لَكـــانَ لِحســـنِ منطِقِهَا حَلاَلاَ

---

[1] **الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 870 ــ 871.**

[2] **ثمــة قــول يــرى أن أم الحســن هي الشحــرور والعندليــب والبلبــل.**

ويقــول أيضــا:

وَمُسمِعَةٍ غنتْ فهَاجــتْ لنا هــوًى
جنينا به مِنها ثمَــارَ المنَى جنيــا
دَعوْتُ لَهَا سُقيَا، فمَا استكمَلَ الرِّضَا
دُعائِي لها حَتى سَقاها الحَيا سَقيَــا
وكَأسٍ علَى طِيبِ استمَاعِي لِصَوتِها
شرَبتُ، وَدَمعُ المُزْنْ يُسعدُنِي جرْيا

ثــم يقــول:

كفَي حزناً أنِّي أرَى الحسنَ ممكِنــاً
وَلستُ أرَى لِي فيهِ أمْراً وَلاَ نهيــا
وَلوْ تعــدِلُ الأيــامُ فِي بذلِ خطــةٍ
لَمَا كنتُ فِي السُّفلَى وَغَيْرِيَ فِي العُليا

وممــا قالــه في ديــك صــدح مــع السحــر:

رَعَى اللهُ ذَا صَوْتٍ أنسْنا بصَوتــهِ
وَقد بانَ فِي وَجهِ الظلاَم شحــوبُ
دَعــا مِنْ بعِيــدٍ صَباحاً فأجابــهُ
يُخبرُنــا أنَّ الصبــاحَ قـــرِيبُ

عَلَيَّ لـــهُ ــ لوْ كنتُ أملكُ أمـــرَهُ
حياةٌ عَلَى طِيبِ الزَّمـــانِ تطِيـــبُ

ولـــه كذلـــك:

رَعَى اللـــهُ فِتيَانـــاً أنسْتُ بقرْبهـــمْ
عَلَى جَـــدْوَلٍ لِلمـــاءِ فِيـــهِ خريـــرُ
أقمنا بهَا يَوْمينِ فِي خفضِ عِيشـــةٍ
وَلاَ عيـــشَ إلاَّ قهـــوَةٌ وَغدِيـــــرُ
تـــدُورُ القـــوَافِي بَيننـــا نستحِثهـــا
وكـــأسُ الحميا بِالســـرُورِ تـــدُورُ
وَفِي الشجرَاتِ الخضرِ مِنهُ رَقِيقـــة
لنغمتِهَـــا بَيْـــنَ الضُّلـــوعِ هدِيـــرُ
إذَا مَا تغنـــتْ فوقنـــا قلـــتُ قيْنـــة
تلاَهـــا بصَـــوْتٍ مُثلثـــانِ وَزِيـــرُ
سَبَتنِي بِصَوْتٍ لوْ يُبـــاعُ اشترَيتـــهُ
بمَا مَـــرَّ مِنْ عمـــرِي وَذَاكَ يسيـــرُ

ــ ثـــم أبـــو عـــلي الحســـن بـــن الغليـــظ المالـــقي: كـــان ملازمـــا لزميلـــه الشاعـــر ابـــن الســـراج المالـــقي؛ فهمـــا وجهيـــن لعملـــة واحـــدة كمـــا يقـــال. والمصـــادر

التي تكلمت عن ابن السراج تحدثت ــ في سياق واحد ــ عن ابن الغليظ؛ لأنه كان هو المورد الأساسي الذي استقت منه تلك المصادر الأدبية أخبار زميله ابن السرج. وكان هذان الشاعران في خدمة ملوك بني حمود. ويتميز شعرهما بالتوجه نحو وصف الطبيعة، والمجون. هذا وقد جاءت أشعار ابن الغليظ متداخلة مع أشعار ابن السراج؛ إذ كانت عبارة عن مطارحات شعرية إخوانية بينهما؛ حيث كان ابن الغليظ ــ في أغلب الأحيان ــ يستفز صديقه ابن السراج بشطر أو بيت أو بعض أبيات؛ فينساق هذا الأخير مع تيار الإغراء؛ فيأتي ببقية الفكرة متقيدا بالبحر والقافية والروي نفسه. وكعينة من شعر ابن الغليظ؛ هذه الأبيات التي بعث بها إلى ابن السراج مغريا إياه كي يلتحق به؛ حيث أعد مجلس شراب وأنس:

يا خليلاً صَفا وَكَدَّرَ يوْمِي
هل إلَى الطيبِ فِي غدٍ مِنْ سبيلِ؟
لوْ تراني أسارِقُ اللحظَ خِلي
وَأسقِّي مِنْ رِيقِهِ المعسولِ

لتمَنيـــتَ أنْ تـــرَى "حسُـــنَ الـــوَرْ

دِ" [1] تغنيـــكَ بِالغنـــاءِ النبيـــــلِ

يا خلِيـــلاً مِثالـــهُ نصْـــبَ عيـــنِي

لـــوْ خلونـــا إذَنْ شفيـــتُ غليـــلِي

وقـــال واصفـــا جلســـة مـــن جلساتهمـــا في الطبيعـــة الخلابـــة؛ محـــاولا بذلـــك تحريـــك صديقـــه ابـــن ســـراج، واستفـــزازه لـــكي يصـــف ذلـــك الموضـــع الجميـــل:

شرِبنـــا علَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ

خريـــرُ دُموعِي عِند رُؤْيةِ أزْهـــرِ[2]

حلفـــتُ بعينيهَا لقـــدْ سَفكـــتْ دَمِي

بأطـــرَافِ فتـــانِ وَألحـــاظِ جـــؤذرِ

ثـــم أعـــاد إنشـــاد صـــدر البيـــت الأول؛ بغـــرض تحريـــك صديقـــه ابـــن الســـراج:

شرِبنـــا عَـــلَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ

---

[1] حُـسُـــــن الـــورْد: جاريـــة يحبهـــا ابـــن الســـراج.

[2] أزْهـَــــرُ جاريـــة لبعـــض أصدقائهمـــا كـــان يهواهـــا ابـــن الســـراج.

فقـــال عـــلى الفـــور:

بكــــاءُ محـــبٍّ بانَ عنـــه حبيـــبُ

فمنْ كانَ مشغوفـــاً كئيبـــاً بإلفـــهِ

فـــإنِّي مشغـــوفٌ بـــهِ وكَئيـــبُ

ومـــن المقاطـــع الشعريـــة الـــتي نسبهـــا ابـــن بســـام إلى ابـــن الغليـــظ؛ بغـــرض استفـــزاز ابـــن الســـراج:

بـــدَا الورْدُ فِي أغصانهِ متعرِّضـــاً

يذَكـــرُنِي مَن اسمهُ حســـنُ الـــورْدِ

يذَكـــرُ أيامـــاً نعمنـــا بطِيبهـــــا

ورَشف رُضابٍ طَعمهُ حَسنُ الورْدِ

فدَعنِي ولاَ تلـــحَ علَى الحبِّ أهلـــهُ

فلَوْ كُنت تدْرِي لَمْ تلمْنِي علَى وَجدِي

فقـــال:

ولَما تبـــدَّى الورْدُ فـــوقَ غصُونـــهِ

وذَكرنِي بِالـــورْدِ فِي صفَحةِ الخـــدِّ

ذَكـــرْت به منْ خـــدُّهُ لِيَ روْضـــة

تهيمُ بها مَن حسنِها روْضةُ الـــورْدِ

فقلتُ لِمنْ عهدِي لـــهُ مِثــلُ عهـــدِهِ
سَقَاكَ الحَيا مِنْ صَاحِبٍ حافِظِ العهدِ
وَقلتُ اسْقِنِي كأساً عَلَى طِيبِ ذِكرِها
فــإنِّيَ مَشغوفٌ بِها بينِكــمْ وَحـــدِي

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج معتـــذرا عـــن تخلفـــه عـــن موعـــد تواعـــدا عليـــه:

يــا صَدِيقــاً وِدَادُهُ مَا يرِيــمُ
وَخليــلاً إخــاؤُهُ لِي يــــدُومُ
جَاءَنِي رَاغِباً لأحضُرَ عُرْســاً
مَنْ لـــهُ عِندَنـــا ذِمــامٌ قدِيــمُ
وَهوَ عُسٌ لاَ تأتِهِ خاوِيَ البطـْـ
ـــنِ فإنَّ الغــدَاءَ فِيـــهِ نسِيــمُ

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج ــ أيضـــا ــ بعـــد عودتـــه مـــن سفـــر متعـــب؛ رافـــق فيـــه أناســـا لـــم يرتـــح لرفقتهـــم:

يا مَنْ أقلبُ طـــرفِي فِي مَحاسِنِـــهِ
فــلاَ أرَى مِثلهُ فِي النـــاسِ إنسَانـــا

لَوْ كُنتَ تَعلــمُ مَا لاَقَيتُ بَعْــدَكَ ما
شَرِبتَ كَأساً وَلاَ استَحْسَنتَ رَيحَانـــا

فأجابـــه بقولـــه:

يا مَــنْ إذَا سقتنِي الــرَّاحَ رَاحتــهُ
أهــدَتْ إلَيَّ بِها رُوحــاً وَريحانـــا
مَنْ لَمْ يَكنْ فِي صَبَاحِ السَّبتِ يَأخُذها
فَلَيسَ عِندِي بِحُكمِ الظرْفِ إنْسَانـــا
فَكنْ عَلَى حُسْنِ هَذَا اليوْمِ مُصْطَبِحاً
مُؤَخــراً حسنــاً فِيــهِ وَحسانـــــا
وَفِي البَسَاتِينِ إنْ ضَاقَ المَحَــلُّ بِنــا
مَندُوحَة لاَ عَدمْنــا الدَّهــرَ بُسْتانـــا

ـــ ثــم أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القِبذَاقِي الأشبــوني:[1]
لــم يكــن ابــن مقانــا مــن المقيميــن في مالقــة؛ ولكنــه زار بــلاط الخليفــة العــالي إدريــس بــن يحــيى؛ خــلال تجوالــه في بــلاد الأندلــس؛ أيــن مدحــه كمــا مــدح بعــض الأمــراء في تلــك الربــوع. هــذا وقــد كتــب الحميــدي اسمــه هكــذا: ((**عبــد الرحمــن بــن مقتــاة**

[1] قــال فيــه ابــن بســام: ((مــن شعــراء غربنــا المشاهيــر؛ ولــه شعــر يُعْــرِبُ عــن أدب غزيــر؛ تصــرف فيــه تصــرف المطبوعيــن المجيديــن؛ في عنفــوان شبابــه وابتــداء حالــه، ثــم تراجــع طبعــه عنــد اكتهالــه)). الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 786.

البطليـــوسي؛ أبـــو زيـــد)).[1] وقـــال إنـــه شاعـــر مشهـــور؛ ثـــم أورد لـــه هـــذا القطعـــة الشعريـــة:

وَرَوْضٍ مِنْ رِيَاضِ الحُزْنِ ناءٍ
كـــأنَّ مـــلاَءَهُ وَشْيٌ مُعضـــدْ
خرَقنـــا دُونهُ أحشـــاءَ خـــرْقٍ
كـــأنَّ سرَاتـــهُ جيـــشٌ مُـــزَرَّدْ
وَقدْ نشـــرَ الصَّباحُ رِدَاءَ نـــورٍ
عَلَى دُرَرٍ مِنَ الزَّهرِ المُنضـــدْ
كـــأنَّ الطـــلَّ مُنتشِـــراً عَليـــهِ
بـــرَادَة فِضةٍ فِي الجـــوِّ تبـــرَدْ
كـــأنَّ غدِيـــرَهُ مـــرْآة قيـــنٍ
جلاَها الصَّقلُ أوْ صَرْحٌ مُمَـــرّدْ
إذَا طربـــتْ عَليهِ الطيرُ غنـــتْ
لإسْحـــاقٍ وَزِرِيْـــابٍ وَمَعبـــدْ

[1] **جـــذوة المقتبـــس، ص: 279.**

أما ابن بسام فقد نقل عن الوزير الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري قوله: **((كان أبو زيد ابن مقانا قد انصرف شيخا إلى وطنه عندنا؛ بعد أن جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة؛ قال: فمررت به يوما بقريته التي تدعى بالقِبذَاق من ساحل شِنترة؛ وبيده مزبرة** [أداة لقطع الأشجار]؛ **فلما رأيته ملت إليه ومال إلي، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حراثٍ يحرثُ بين يديه)).**[1] ويبدو أن ابن مقانا كان لا يسمع جيدا؛ إذ وصف نفسه بالصمم في هذا البيت:

سمِعتُ الكنكَ يَصْرُخُ فِي الرَّبيعِ
عَلى مَا بِي مِنَ الصَّمِم الطبيعِي

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي حظيت بانتشار واسع في المغرب والأندلس؛ وهي التي قال فيها ابن بسام: **((وله القصيدة المشهورة في ابن حمود؛ يتداول القوّالون أكثر أبياتها؛ لعذوبة ألفاظها، وسلامتها)).**[2] ومما حكاه المقري بخصوص هذه القصيدة قوله: **((وقد كان بنو حمود من ولد إدريس العَلوي؛ الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس؛ وكانوا إذا**

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 787.

[2] نفسه، مج: 2، ص: 791.

حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم؛ يتكلم من وراء حجاب؛ والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي؛ الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته النونية... وبلغ فيها إلى قوله: (أنظرونا نقتبس...)؛ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: "انظر كيف شئت"؛ وانبسطَ مع الشاعر، وأحسن إليه)).[1] ومطلع هذه القصيدة التي مدح بها ابن مقانا إدريس العالي هكذا:

أَلبَرقٍ لائحٍ مِنْ أندَرِينْ
ذرَفتْ عَيْناكَ بِالمَاءِ المَعِينْ
لعِبَتْ أسْيَافُهُ عَارِيَة
كَمَخارِيقَ بِأيدِي اللاَّعِبينْ
ولِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وُحَنِينْ
ولِقلبِي زَفَرَاتٌ وَأنِينْ
وَأنَاجِي فِي الدُّجَى عَاذِلَتِي
وَيْكِ لاَ أسْمَعُ قوْلَ العَاذِلِينْ
عَيَّرَتنِي بِسَقامٍ وَضَنًى
إنَّ هَذيْنِ لزَيْنُ العَاشِقِينْ

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 214.**

إلى أن يقــول:

وكَــأنَّ الطــلَّ مِسْــكٌ فِي الثــرَى
وكَــأنَّ النــورَ دُرٌّ فِي الغصُــونْ
وَالنــدَى يَقطــرُ مِــنْ نرْجَسِــهِ
كدُمُـــوعٍ أسْبلتهُـــنَّ الجُفـــونْ
وَالثرَيــا قــدْ عَلــتْ فِي أفقِهَــا
كقضِيــبٍ زَاهِــرٍ مِــنْ يَاسَمِيــنْ
وَانْبــرَى جُنــحُ الدُّجَى عَن أفقــهِ
كَغــرَابٍ طــَارَ عَنْ بَيضٍ كَنِيــنْ
وكَــأنَّ الشَّمْــسَ لمــا أشرَقــتْ
فَانثنــتْ عَنْهَــا عُيــونُ النَّاظِريــنْ
وَجْــهُ إدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَــلِي
بْــنِ حَمُّــودٍ أمِيــرِ المُؤمِنِيـــنْ
خــطَّ بِالمِسْــكِ عَــلَى أبوَابـــهِ
ادْخلوهَـــا بِسَـــلاَمٍ آمِنِيـــنْ
وَينــــادِي الجـــوْدُ فِي آفاقـــهِ
يَمِّمُــوا قَصْــرَ أمِيــرِ المُسْلِميــنْ

مَلِـــــكٌ ذُو هَيبـــــةٍ لكِنـــــهُ
خاشـــــعٌ لِلـــهِ رَبِّ العالمِيـــــنْ
وَإِذَا مَـــــا رُفِعـــــتْ رَاياتـــــهُ
خفقــتْ بَيــنَ جَنـَاحَيْ جَبْرَئِيــنْ
وَإِذَا أشكــلَ خطــبٌ مُعضِـــــلٌ
صَـدَعَ الشــكَّ بمِصبْــاحِ اليَقِيــنْ
وَإِذَا رَاهـــــنَ فِي السبـــــقِ أتَى
وَبيمْنـــــاهُ لِـــــوَاءُ السابقِيـــــنْ
يَا بـــنِي أحْمَــدَ يَا خيــرَ الـــوَرَى
لأبيكـــمْ كـــانَ رَفــدُ المُسْلِــمِيــنْ
نـــزَلَ الـــــوَحْيُ عَليـــهِ فاحْتـــبَى
فِي الــدُّجَى فَوقَهُمُ الرُّوحُ الأمِيــنْ
خلِقــوا مِــنْ مَــاءَ عَــدلٍ وَتــقى
وَجَمِيعُ النـــاسِ مِنْ مَـــاءٍ وَطِيــنْ
انظُرُونـــا نقتبــسْ مِــنْ نُورِكــُم
إنـــهُ مِــنْ نـــورِ رَبِّ العَالمِيــنْ

ولمــا خـــرج مـــن بلنسيـــة قاصـــدا طرطوشـــة؛ لزيـــارة صاحبهـــا الفـــتى العامـــري المدعـــو مقاتـــلا؛ منـــع مـــن الجـــواز إليهـــا؛ فكتـــب إلى مقاتـــل هـــذه الأبيـــات:

إنْ كانَ وَادِيــكَ نِيــلاً لاَ يُجازُ بـــهِ

فمَالنا قــدْ حُرِمْنـــا النيْــلَ وَالنيـــلاَ

إنْ كانَ ذَنبِي خـــرُجِي مِنْ بَلنسيَـــةٍ

فمَــا كفــرْتُ وَلاَ بَدَّلـــتُ تبدِيـــلاَ

"هِيَ المَقادِيـــرُ تَجْرِي فِي أعِنتِهَـــا"

لِيقــضِيَ اللـــهُ أمراً كانَ مَفعـــولاَ

ولـــه أيضـــا في مجاهـــد العامـــري:

وَلمـــا سَقتنـــا مِـــنِ ابرِيقِهَـــا

لثمْنـــــا يَدَيهَـــــا وَخلخالهَـــــا

وَبتنـــا وَباتـــتْ عَــلَى سَاقِهَـــا

تصَفَــقُ لِلشـــرْبِ جرْيالَهَـــا

كأنَّ نجُـــومَ الـــدُّجَى رَوْضَـــة

تَجُـــرُّ بهَـــا السُّحْـــبُ أذْيالهَـــا

كـــأنَّ الثريَـــــا بهـــا رَايــــــة

يقـــودُ المُوَفـــــقُ أبطالهـــــا

ــ ثـــم أبو عمرو بن هاشم وزير العالي إدريس بن يحـــيى: لـــم تتكلـــم جـــل المصــــادر عـــن هـــذا الوزيـــر الشاعـــر؛ ومـــا عرفنـــاه عنـــه أتى في المغـــرب؛ حيـــث

قـــال عنـــه صاحبـــه: **((مـــن المسهـــب: كـــان لـــه خـــلال توجـــب لـــه الـــوزارة. أخبـــرت انـــه كـــان يومـــا في بيـــت وزارتـــه؛ فدخـــل عليـــه غـــلام جميـــل بقـــل عـــذاره؛ فقـــال:**

أتـــانِي وَقدْ خـــطَّ العِـــذَارُ بخـــدِّهِ

كمَا خطَّ مِنْ جمْرٍ عَلَى مُهْرَقٍ سَطرَا

فقلـــتُ لـــهُ: لـــمْ يَقتنِـــعْ بِحَيَائِـــه

مُحياكَ حَتَّى زَادَ مِنْ شعـــرٍ سِتـــرًا)).[1]

ـ ثـــم أبـــو عـــلي الحســـن بـــن حســـون:[2] هكـــذا ورد اسمـــه في بعـــض المصـــادر. وثمـــة غمـــوض كبيـــر يكتنـــف هـــذا الفقيـــه القـــاضي؛ حيـــث يوجـــد ــ كمـــا يتبـــادر إلى الذهـــن ــ اثنـــان ــ أو أكثـــر ــ وليـــا قضـــاء مالقـــة في فتـــرة زمنيـــة واحـــدة؛ أو متقاربـــة عـــلى الأقـــل؛ ولا يعـــرف إن كانـــا ــ في حقيقتهمـــا ــ شخصـــا واحـــدا أم شخصيـــن؛ إذ تســـمي المصـــادر ذلك القـــاضي أحيانـــا باســـم الحســـن وأحيانـــا أخـــرى باســـم الحسيـــن أو باســـم محمـــد بـــن الحســـن؛ كمـــا يكنيـــه بعضهـــم بـــأبي

---

[1] **المغـــرب، ج: 1، ص: 425.**

[2] **قـــال فيـــه ابـــن سعيـــد: ((مـــن المسهـــب: "عيـــن مالقـــة. ورب حلِّهـــا وعَقْدهـــا، وعلـــم بُرْدِهـــا وواسطـــة عِقْدِهـــا، وكـــان مـــن أئمـــة العلمـــاء، ولي قضـــاء مالقـــة في مـــدة العـــالي بـــن يحـــيى بـــن حمـــود الفاطـــمي)). نفســـه، ص: 430.**

علي وبعضهم الآخر بأبي عبد الله.[1] أضف إلى ذلك أن ابن بشكوال سمى أيضا قاضيا – ولي قضاء مالقة في زمن بني حمود؛ وبالتحديد في زمن إدريس بن يحيى – باسم أبي علي حسين بن عيسى بن حسين الكلبي المعروف بحسون؛ ونسبه إلى بلدة جراوة بالمغرب. وقال أنه توفي سنة 453هـ(1061م).[2]

أما صاحب المغرب فقد تكلم عن المدعو أبا علي الحسن بن حسون بإيجاز شديد؛ وقال فيه: **((عَيْن مالقة، وربُّ حَلّهَا وعقدها، وعلم بُردها وواسطة عقدها؛ وكان من أئمة العلماء؛ ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي... وقاسى شدة من اختلاف الخلفاء على**

---

[1] **تعرض ابن بسام خلال حديثه عن الفقيه الشاعر غانم بن وليد؛ (المتوفى سنة 470هـ) حين أورد قصيدته التي رثى فيها القاضي ابن حسون؛ فقال: ((وله [أي لغانم] من قصيدة يرثي الفقيه القاضي أبا عليّ بن حسون)). الذخيرة ق: 1، مج: 2، ص: 866. علما بأن صاحب القصيدة سماه فيها بالحسين؛ بقوله: ((ولّى حُسَيْنٌ والمحامد بعده)). أنظر أيضا المغرب، ج: 1، ص: 430. ونفح الطيب، ج: 3، ص: 390. وتاريخ قضاة الأندلس، ص ص: 90 – 94.**

[2] **جاء تحت رقم 327 ((حُسَين بن عيسى بن حسين الكلبي: قاضي مالقة؛ يُكْنَى: أبا علي، ويعرف بحسون... وكان فقيه مالقة وكبيرها، أصله من جراوة (قلت: جراوة التي أصله منها هي بين تلمسان، وعقبه بها مشهور. اخبرني بذلك أهل ذلك الموضع)؛ وتوفي صدر سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. قال الشعبي: وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظرائها، ما رأيت مثله في علمه بها)). الصلة، ج: 1، ص: 142.**

بلــده)).[1] كمــا أورد لــه قطعــة شعريــة صغيــرة نسبهــا إليـــه؛ وهي:

خلعــتُ عِذَارِي فِي هوَاها وَعِندَما
تبَدَتْ نجومُ الشيبِ فِي غَسقِ الشعْرِ

وَثَنَيتُ عَنانِي وَارتَجَعتُ إِلَى النهَى
وَعاوَدَنِي حِلمِي وَرَاجَعنِي صَبَـــرِي

وَأَصْبَحْتُ لاَ أبغِي سِوَى العِلمِ خُطَة
ففِيهِ الذِي أرْجوهُ فِي مَوقفِ الحَشْــرِ

وَلَوْلاَهُ مَا أصبَحتُ أقضِي عَلَى الألَى
صَحِبْتهمْ فِي عُنفــوَانٍ مِــنَ العُمرِ

وفي المقابــل ذكــر المقــري مــا دار بيــن المدعــو ابــن حَــسّــون وإدريــس بــن يحــيى؛ فقــال: **((وحــكي أن العــالي إدريــس الحمــودي لمــا عــاد إلى ملكــه بمالقــة؛ وبَّــخ قاضيهــا الفقيــه أبــا عــلي بــن حَسُّــون؛ وقــال لــه: "كيــف بايعــت عــدوي مــن بعــدي وصحبتــه؟". فقــال: "وكيــف تركــت أنــت ملكــك لعــدوك؟". فقــال: "ضــرورة القــدرة حملتــني عــلى ذلــك". فقــال: "وأنــا أيضــا حصلــت في يــد مَــنْ لا يسعــني إلا طاعتــه"))**.[2]

---

[1] المغــرب، ج: 1، ص ص: 430 ـــ 431.

[2] نفــح الطيــب، ج: 3، ص: 390.

ثـم أورد المقـري لهـذا القـاضي أبياتـا مـن الشعـر نسبهـا ليـه:

رُفِعــتُ مِنْ دَهرِي إِلَى جَائِــرٍ
وَيبتــغِي العَــدلَ بأحْكــامِي
أضْحــتْ به أمْلاَكــهُ مِثلَ أشـْ
ـكــالِ خيــالٍ طــوْعَ أيــامِ
هــذَا وَلمــا أبــرَمَ ذَا ناقِــضٌ
كأنهــمْ فِي حُكــمِ أحــلاَمِ

غيــر أن صاحــب كتــاب تاريــخ قضــاة الأندلــس المدعــو أبـا الحسـن عـلي بـن عبـد اللـه الجـذامي المالـقي النبـاهِيّ. يذكـر روايـة يمكـن أن تفـك الإشكـال بعـض الـشيء.[1] وذلـك أنـه تكلـم عـن قـاضٍ ولي قضـاء مالقـة في الفتـرة الزمنيـة الـتي حـددت للقـاضي المدعـو ابـن حسـون؛ غيـر أن الاسـم الـذي ذكـره صاحـب كتـاب تاريـخ قضـاة الأندلـس يختلـف عمـا ذكـر سابقـا. فالاسـم هنـا هـو: محمـد بـن الحَسَـن الجُـذاميّ النُّبـاهيّ. وقـال أنـه ولي ــ لأول مـرة ــ القضـاء في عهـد يحـيى بـن عـلي بـن حمـود؛ حيـث أجبـره عـلى تلـك المهمـة؛ وذلـك أنـه خيـره بيـن القبـول بخطـة القضـاء أو السيـف؛ فقبـل بهـا بشـروط.

[1] أنظـر كتـاب تاريـخ قضـاة الأندلـس المسمى بــ: كتـاب المراقبـة العليـا فيمـن يستحـق القضـاء والفتيـا. ص ص: 90 ــ 94.

لما توفي يحيى في قرمونة؛ عرفت مالقة اضطرابات وفوضى؛ جراء قدوم الفتى الصقلبي **نجا** إليها؛ وتكليف وزيره **محمد السطيفي** بتسيير البلد؛ فاستعفى القاضي محمد بن الحسن الجذامي النُّباهيّ. وبعد ثورة الجند والرعية على **نجا والسطيفي** وقتلهما؛ انتصب إدريس بن يحيى على عرش مالقة؛ فعين في خطة القضاء القاضي محمد ابن الحسن بكتاب تولية نشره صاحب الكتاب وهو: ((**هذا كتابٌ أمر به، وأنفذَه، وأمضاه من عَهده، وأحكمَه الإمامُ أميرُ المسلمين، عبدُ الله العالي بالله، الظافرُ بحول الله، إدريس بن المُعتلي بالله ـ أعلى اللهُ أثره وأعزَّ نصره ـ للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن ـ وفقه الله ـ قلده به القضاءَ بين المسلمين بمدينة مالقة ـ حرسها الله ـ وأعمالها**)). ثم يضيف مؤلف كتاب: ((**وهو كتاب** [يقصد كتاب التولية] **كبيرٌ في رَقٍ، وتأريخه في إحدى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة 445هـ**[1053م]؛ **وعليه توقيعُ العالي بخطّ يده، نصه: "يُنفذُ هذا ويُعمَل عليه، واللهُ الموفق، وهو المستعان"**))[1].

---

[1] تاريخ قضاة الأندلس، ص: 91.

ومما يبعث على الاعتقاد في احتمال كون هذا الشخص هو نفسه الذي ورد ذكره من طرف كل من: ابن بسام، وابن سعيد، والمقري؛ ما جاء ذكره في كتاب قضاة الأندلس (المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)؛ حول رواية مقتل القاضي النباهي؛ إذ جاء أنه كان رفقة بعض الفقهاء ومنهم الأديب غانم؛ الذي تمكن من النجاة مع الآخرين. ويبدو أن قصيدة غانم في رثاء القاضي الذي سماه ابن بسام بابن حسون تتفق مع هذا السياق؛ علما بأن صاحب القصيدة يكنيه فيها بأبي علي ويسميه بالحسين[1].

---

[1] وجاء فيها:

((الموْتُ أعربَ فِي أصحِ مَسَاق — أنَّ المنيِة شمرَتْ عَنْ ساق
المَوْتُ يُخبرُ عَنْ مرَارَةِ كأسِهِ — وَالكأسُ ملأى لمْ يدِرْها ساق
هلاَّ توَاصَينا بصورَةِ حالنا — وَالنفسُ ترقَى فِي لهًى وَترَاق
يَا آمِلَ الدُّنيا لباقِي عمرِهِ — أقصِرْ فما أملٌ عليها باق
حسناءُ زيٍ بِالنهَى ممهورَةَ — فإذَا تعرَّتْ مُتعتْ بطلاَق
مَعْشوقةُ الحرَكاتِ إلاَّ أنها — أفعَى تدُبُّ لأعشقِ العشاق
كمْ أوْدَتِ الدُّنيا بِغضٍّ شبيبةٍ — كالغصْنِ ماسَ بناضرِ الأوْرَاق
وَموَقرٍ لبسَ المَشيِبَ جَلاَلَة — بَحرٍ لباغِي العِلمِ عَذبِ مَذَاق
طرَقتهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقتْ — مِنهُ الفضَائلُ أيمَا إطرَاق
لوْ كانَ يُبقِي المَوْت حَبراً عَالِماً — لوَقى الحِمامَ أبا علِيِّ وَاق
وَلى حسينٌ وَالمحامدُ بعدَهُ — كيلاَ تقاسِي جاحمَ الأشوَاق
أسَفِي لرَيةِ كنتَ عقدَ جَمَالِها — فابتزَّ ذَاكَ العِقدَ دُونَ وفِاق
تزدَانُ مِنكَ بِحسنِ مَا قدْ طوّقت — زَينَ الحمامِ الوُرق بِالأطوَاق

هذا ما سمح به المجال فيما يخص ذكر الأدباء والعلماء الذين أظلتهم الدولة الحمودية؛ على أنه من الضروري الإشارة إلى أن عهد العالي إدريس بن يحيى كان أكثر ثراء وازدهارا من غيره من العهود التي حكم فيها ملوك آخرون من بني حمود. وذلك لأن الفترة التي حكم خلالها العالي تميزت ـ على الرغم من قصرها وانقطاعها ـ بالحركة الأدبية والثقافية النشيطة؛ إذ كان بلاط تلك الدولة عبارة عن منتدى أدبي؛ سمح لكثير من الأدباء والشعراء بعرض إبداعهم ونشره وإذاعته. وكانوا يجدون كل تشجيع وتكريم من قبل أمير الدولة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود.

عِلمٌ أعِينَ بفضلِ حِلمٍ رَاجحٍ أخذَ الأمانَ لهُ مِنَ الأخلاَقِ
وَصبَاحَة وَسَمَاحَة قسمتْ لهُ رِزقاً تبارَك قاسمُ الأرْزَاقِ
وَمِنَ الغَرِيبِ غرُوبُ شَمسٍ فِي الثرَى وَضياؤُها باقٍ عَلى الآفاقِ
أبقيتَ فِي الدُّنيا مآثرَ ثرَّةً تبلَى حُلى الأيامِ وَهْيَ بوَاقِ
قدْ كانَ مَجلِسُكَ المُبارَكُ مَوْسماً فأقامَ أوْحشَ مِنْ غدَاةِ فرَاقِ
غيبتَ عنهُ مَغِيبَ بَدْرٍ كاملٍ وَالليلُ أدْهمُ ضارِبٌ بروَاقِ
وَمِنَ العَجَائِبِ وَالكسوفُ مرتَبٌ قمرٌ توَارَى فِي زَمانِ محاقِ
مَنْ ذَا أعزِّي فِيكَ مِنْ هذَا الورَى لمْ يلقنِي إلاَّ بِحزنكَ لاَقِ
وَالناسُ مَحزُونونَ فيكَ كأنما كانَ اتفاقهمْ عَلى إصفاقِ

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 866-868.

وهكذا ظلت الحال بين مد وجزر؛ حتى انتهى أمر الحموديين نهائيا في مالقة سنة 449هـ(1057م). وذلك بعد أن استولى باديس بن حبوس أمير غرناطة عليها؛ حيث ضمها إلى مملكته. ثم تلا ذلك خروج آخر أمراء الدولة الحمودية محمد بن إدريس (المستعلي) منها؛ قاطعا البحر إلى مليلة؛ أين بقي بها أميرا عليها حتى حلول تاريخ وفاته سنة 456هـ(1063م).

****

3)ــ دولــة بنـي سليمـــان:

صاحـب هـذه الإمــارة هــو سليمـــان بــن عبـد اللــه الكامــل ابـــن الحســـن المثـــنى ابـــن الحســـن السبـــط ابـــن عــلي بـــن أبي طالـــب.[1] وعليـــه فهـــو أخـــو إدريـــس الأكبـــر. هـــذا وقـــد تمكـــن سليمـــان مـــن إنشـــاء هـــذه الدولـــة في تلمســـان ــ الـــتي اعتبـــرت قاعـــدة للمغـــرب الأوســـط؛ وحاضـــرة لهـــذه الدولـــة العلويـــة ــ بفضـــل عـــون ومساعـــدة بعـــض القبائـــل الزناتيـــة المهيمنـــة عـــلى تلـــك الربـــوع. وتـــم ذلـــك عندمـــا لجـــأ إليهـــا مؤســـس الإمـــارة (**سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه**)؛ فـــاراً مـــن العباسييـــن بالمشـــرق.

---

[1] تضاربـت الأقــوال حــول الشخــص الــذي يمكــن أن تنســب إليــه إمــارة تلمســان؛ فــإن كــان معظــم المؤرخيــن والجغرافييــن يقولــون بأنــه سليمــان بــن عبــد اللــه؛ فــإن آخــرون يقولــون إنــه سليمــان بــن عبــد اللــه المنحــدر عــن الحسيــن بــن عــلي بــن أبي طالــب . مــن ذلــك مــا يقولــه الطبــري عــن سليمــان بــن عبــد اللــه؛ أنــه قتــل في وقعــة فــخ يــوم الترويــة في ســنة 169هــ. وفي المقابــل يــرى آخــرون أن الــذي تــولى إمــارة تلمســان هــو شخــص يــدعى محمــد؛ ولكنــه مــن أبنــاء الحسيــن وليــس مــن أبنــاء الحســن كمــا يتسلســل نســب بــني إدريــس بــن عبــد اللــه. ويقــول أيضــا آخــرون أنــه محمــد بــن سليمــان مــن ولــد الحســن بــن عــلي؛ وليــس سليمــان مــن قــدم إلى تلمســان. ويعتبــر البكــري أحــد القائليــن بهــذا القــول؛ الــذي يقــول عــن تلمســان: ((وهي دار مملكــة زناتــة، وموسطــة قبائــل البربــر، ومقصــد لتجــار الآفــاق؛ ونزلهــا محمــد بــن سليمــان بــن عبــد اللــه بــن حســن بــن عــلي بــن أبي طالــب)). أنظــر المغــرب، ص: 77. وللمزيــد مــن التوضيــح أنظــر كــل هــذه الخلافــات في كتــاب دولــة الأدارســة؛ لإسماعيــل العــربي، ص ص: 137 ــ 146. غيــر أن ابــن حــزم ــ وهــو مــن المحققيــن المدققيــن الثقــاة ــ يــرى أن الــذي أقــام الدولــة بتلمســان هــو سليمــان بــن عبــد اللــه بــن الحســن بــن الحســن بــن عــلي ابــن أبي طالــب. أنظــر جمهــرة أنســاب العــرب، ص: 48.

إذ تـم ذلـك عقـب مقتـل أخيـه إدريـس الأول؛[1] حيـث جـاء ـ هـو الآخـر ـ إلى هـذه الديـار بحثـا عـن الحمايـة والسلطـان. ولمـا وصـل إلى مشـارف إفريقيـة؛ عـرج جنوبـا؛ اتقـاء وخوفـا مـن عيـون أتبـاع العباسيـن وولاتهـم في القيـروان.

وتبعـا لذلـك فقـد وجـد في أراضي الرستميين أمنـا وسلامـا؛ لا يمكـن توفرهمـا في شمـال البـلاد. وكـل مـا يمكـن قولـه في هـذا المجـال؛ هـو أن سليمـان بـن عبـد اللـه بعـد أن التحـق ببـلاد المغـرب؛ عقـب مـوت أخيـه إدريـس؛ كانـت محطتـه الأولى منطقـة تيهـرت؛ حيـث حـاول فيهـا كسـب تأييـد القبائـل المتواجـدة بالمغـرب الأوسـط؛ طمعـا في مناصرتهـم، ودعمهـم؛ غيـر أنهـم كذبـوه في بدايـة الأمـر، ولـم يصدقـوا خبـر انتسابـه لعـلي كـرم اللـه وجهـه. ولمـا لاحظـوا مـا يجـري مـن عمليـات مكثفـة للبحـث عنـه؛ مـن طـرف والي القيـروان؛ تيقنـت ـ عندئـذ ـ قبائـل المغـرب الأوسـط مـن صدقـه، وصحـة نسبـه الهاشـمي.

---

[1] يقـول ابـن خلـدون: ((وأمـا سليمـان أخـو إدريـس الأكبـر؛ فإنـه فـر إلى المغـرب أيـام العباسيـن؛ فلحـق بجهـات تاهـرت بعـد مهلـك أخيـه إدريـس؛ وطلـب الأمـر هنـاك)). العبـر، مج: 4، ص: 34.

فتحقق له ـ حينها ـ شرط أصحاب النصاب الملكي؛[1] واجتمعت حوله قبائل زناتة؛ التي كانت آنذاك في صراع مع أمراء الدولة الرستمية؛ بدءاً بفتنة ابن فندين اليفرني الزناتي، وما تبعه من وقائع دارت بين الدولة الرستمية وشريحة عريضة من قبيلة زناتة؛ ممن كانوا متمذهبين بالواصلية. وعليه فقد اختارت شريحة عريضة من القبائل الزناتية مبايعة سليمان ابن عبد الله، وإعلان الطاعة له. وفي هذا يقول ابن خلدون: **((وطلب الأمر هناك** [أي سليمان]؛ **فاستنكره البرابر؛ وطلبه ولاة الأغالبة؛ فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكها، وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك)).**[2] وبذلك تمكن سليمان من إقامة ملكا ـ وإن كان محدود السيادة ـ بواسطة قبيلة زناتة في تلمسان. ويمكن تحديد امتداد نفوذ هذه الدولة بما كان يعرف في ذلك العهد بالمغرب الأوسط.[3]

---

[1] أنظر في هذا مقدمة ابن خلدون، ((فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

[2] العبر، مج: 4، ص، 34.

[3] وقد ذكر عبد الرحمن الجيلالي بعض العلامات لحدود إمارة بني سليمان إذ قال: ((وإذا نظرنا إلى حدود الجزائر الإدريسية وجدناها لا تتعدى ـ من جهة الشمال الشرقي ـ مدينة وهران ونهر الشلف، ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر إلى جبال مديونة قبلي فاس؛ ولك أن تقول أنها تمتد ـ على الساحل ـ من الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة

ويبــدو أن إمــارة بــني سليمــان هــذه كانــت عبــارة عــن ولايــة كبــرى تابعــة للمملكــة الإدريسيــة؛ ولكنهــا تتميــز باستقــلال داخــلي؛ مكــن أمراءهــا مــن التصــرف بحريــة مطلقــة. ومــع هــذا فقــد كانــت الدولــة الإدريسيــة هي الــتي تتحمــل أعبــاء الدفــاع عــن هــذه الإمــارة؛ وهــذا هــو مــا حــدث بالفعــل؛ حيــن أقــام إدريــس الثــاني في جــوار ابــن عمــه محمــد بــن سليمــان بتلمســان، والمغــرب الأوســط عمومــا؛ طيلــة ثــلاث سنيــن؛ بغــرض تمهيــد تلــك الإمــارة، وتأميــن السلامــة لحدودهــا؛ وتأديــب بعــض القبائــل الصفريــة المتمــردة؛ مــن قبيلــة نفــزة وغيرهــا؛ وذلــك في سنــة 199هـ.[1]

شرقــا، ثــم تعــود بناحيــة تنــس غربــا وجنــوب شلــف إلى مليانــة وتنتــهي بمتيجــة)). تاريــخ الجزائــر العــام، ج:، **1**، ص: **183**.

[1] وقــد أورد هــذا الخبــر ابــن أبي زرع إذ قــال: ((ورجــع [إدريــس] إلى مدينــة فــاس؛ فأقــام بهــا إلى شهــر محــرم مــن سنــة تســع وتسعيــن [ومائــة] ؛ فخــرج منهــا برســم غــزو قبائــل نفــزة؛ فســار حــتى غلــب عليهــم، ودخــل مدينــة تلمســان؛ فنظــر في أحوالهــا، وصلــح أسوارهــا، وجامعهــا، وصنــع فيهــا منبــرا؛ قــال أبــو مــروان عبــد الملــك الــوراق: "دخلــت مسجــد تلمســان في سنــة خمــس وخمسيــن وخمسمائــة فرأيــت في رأس منبرهــا لوحــا مــن بقيــة منبــر قديــم قــد سمــر عليــه هنالــك؛ مكتــوب: هــذا مــا أمــر بــه الإمــام إدريــس بــن إدريــس بــن عبــد اللــه ابــن حســن بــن الحسيــن [الصحيــح هــو الحســن السبــط] بــن علــي رضي اللــه عنهــم في شهــر محــرم سنــة تســع وتسعيــن ومائــة". فأقــام إدريــس بمدينــة تلمســان وأحوازهــا ثــلاث سنيــن، ثــم رجــع إلى مدينــة فــاس الأنيــس المطــرب بــروض القرطــاس، ص: 27.

وكان إدريس الثاني ـ قبل ذلك ـ قد أقام فترة من الزمن في تلمسان؛ عقد خلالها اتفاقية بينه وبين الأغالبة؛ رسمت بموجبها الحدود الفاصلة بين دولته ودولتهم. وقد اتفقوا على جعل شلف حداً فاصلا بينهما. وكما هو واضح؛ فقد اتخذ إدريس الثاني إمارة بني سليمان بمثابة الحاجز الواقي لدولته بفاس؛ في وجه أطماع بني الأغلب بالقيروان من جهة، ودريئة تمنع امتداد النفوذ الإباضي، والصفري من جهة أخرى. كل هذا ولم تذكر مصادر الدولة الإدريسية شيئا عن بني سليمان في تلمسان خلال تلك الفترة؛ بل ركزت حديثها على أعمال إدريس الثاني ونشاطه في تلك الربوع.

وربما يعود السبب في عزوف المؤرخين عن الإسهاب والتدقيق في الحديث عن إمارة بني سليمان راجع إلى اعتقادهم بأنها لا تعدو أن تكون سوى ولاية تابعة للدولة الإدريسية بفاس. لذا فقد اقتصروا على الأحداث التي صنعها السلاطين الأدارسة لا غير؛ خاصة عندما يعلم القارئ بأن المؤرخين ـ آنئذ ـ كانوا لا يهتمون كثيرا بغير محيط السلطان وحاضرته.

ومع هذا فلا بد من الاعتراف بأن هذا القول لا يخرج عن كونه قولا افتراضيا لا غير؛ وذلك بسبب اضطراب السند التاريخي إن وجد.. لأن الأحداث التاريخية لدولة سليمان بن عبد الله يكتنفها غموض كثيف؛ بسبب قلة المصادر التي يمكن أن تتكلم عنها بتوسع واستفاضة. وكل ما توفر لدينا حتى الآن؛ لا يتجاوز بعض المصادر الحاملة لمعلومات هزيلة؛ تشير إلى أمراء هذه الدولة، والمدن التي يحكمونها؛ بدون تفاصيل تذكر، ومن دون ذكر تواريخ يمكن الاعتماد عليها؛ في تحديد الفترات الزمنية التي حكم خلالها أمراء هذه الدولة.

هذا وتجمع المصادر المتوفرة على أن الذي خلف سليمان؛ على عرش تلمسان بعد وفاته هو ولده محمد. كما تقول المصادر أن محمدا هذا هو الذي استدعى ابن عمه إدريس الثاني إلى تلمسان؛ كي يساعده على إخضاع الأطراف الشرقية من مملكته، وتأديب الثائرين من القبائل الصفرية؛ وبالفعل لبى محمد بن إدريس طلب ابن عمه محمد بن سليمان وقدم إليه، كما سبقت الإشارة إليه؛ حيث ظل في تلك الربوع حتى استتب الأمر لبني سليمان بن عبد الله.

وحسب رواية ابن خلدون والتنسي؛ قد يكون محمد بن سليمان قام بتوزيع عمالات الدولة، ومقاطعاتها على أبنائه. فخص أحمد ابنه بولاية العهد، ونصب ابنه عيسى على عمالة أرشقول، وولده الحسن بمقاطعة في جهات تيهرت، وولده إبراهيم بتنس، وولده إدريس في جراوة؛ وهكذا.[1]

ويبدو أن أحفاد سليمان بن عبد الله قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط كله؛ بدءا بحدود بجاية شرقا، وحتى مدينة نمالتة **(مغنية**

---

[1] فمما قاله ابن خلدون مثلا: ((وورث [أي سليمان] ملكه ابنه محمد بن سليمان؛ على سننه؛ ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم ابن محمد بن أحمد [بن محمد بن سليمان]؛ وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدّعي بنو عبد الواد نسبه؛ فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول [أرشقول] لعيسى بن محمد بن سليمان؛ وكان منقطعا إلى الشيعة. وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى؛ وكنيته أبو العيش؛ ولم تزل إمارتها في ولده؛ ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى. وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر، وأخوه يحيى كذلك... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد ابن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وَبَطْوُش بن حناتِش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جدا)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 ــ 36.

حاليــا) غربــا.[1] وكانــوا بمثابــة أمــراء عــلى مــدن منعزلــة؛ تقــف كحصــون في وجــه منافسيهــم: مــن بــني الأغلــب والرستميــين. كمــا عرفــت هــذه الديــار أيضــا هجــرات أخــرى لأحفــاد عــلي بــن أبي طالــب؛ وهــو مــا تؤكــده الآثــار الباقيــة بعدهــم؛ ممثلــة في أسمــاء الأماكــن، والمــدن الجزائريــة؛ الــتي تنســب إليهــم. كســوق حمــزة **(البويــرة حاليــا)**، نسبــة إلى أميــر هــاز حمــزة بــن الحســن بــن سليمــان بــن سليمــان وفيــه يقــول ابــن حــزم: ((**ملــك هــاز مــن أرض المغــرب،** [موقعهــا بالقــرب مــن عيــن بوسيــف الحاليــة] **وملــك قطيعــا مــن صنهاجــة؛ وإليــه ينســب ســوق حمــزة، وولــده بهــا كثيــر؛ وكذلــك أيضــا ولــد اخوتــه في تلــك الجهــة))**.[2] وحسبمــا يبــدو فقــد يكــون السهــل المعــروف الآن بسهــل بــني سليمــان منسوبــا إلى سليمــان بــن عبــد اللــه أيضــا. ثــم ســوق إبراهيــم؛ المنســوب كذلــك إلى إبراهيــم بــن محمــد بــن سليمــان؛ كمــا أن مدينــة بوفريــك الحاليــة؛ منسوبــة إلى أبــي فريــك الكبيــر **[كتــب في بعــض المراجــع خطــأ ــ الكافــر]**؛ وهــو مــن نســل جعفــر بــن الحســن **(عــم إدريــس الأول)**؛ لأن منطقــة متيجــة ــ بقاعدتهــا قزرونــة ــ كانــت خاضعــة لأبنــاء جعفــر بــن الحســن بــن الحســن بــن عــلي كــرم اللــه وجهــه.

---

[1] لمزيــد مــن التدقيــق أنظــر إلى مــا كتبــه مــوسى لقبــال عــن بــني سليمــان في ديــار الجزائــر؛ في كتابــه دور كتامــة. ص ص: 209 ــــ 213.

[2] جمهــرة أنســاب العــرب، ص: 55.

وإذا ما تتبع القارئ المصادر التاريخية؛ سيجد أن جل بلاد المغرب أضحت ملجأ مفضلا لأبناء علي بن أبي طالب؛ حيث وجدوا في تلك الديار الأمن والتقدير والاحترام؛ تلك الأشياء التي فقدوه في جهات كثيرة من المعمورة.[1]

هذا وقد تم إسقاط دولة بني سليمان؛ بقواعدها كافة؛ بفعل ضربات جيوش الدولة الفاطمية؛ المنافسة لهم في النسب الهاشمي؛ تلك الدولة القوية المشكلة من قبائل: كتامة ومكناسة وصنهاجة. ونتيجة لذلك التهديد والتضييق؛ انكشف الجناح الشرقي لدولة الأدارسة؛ فأضحت ـ بدورها ـ عرضة لهجمات الفاطميين الشيعة من بني عبيد الله الفاطمي؛ الذين امتدت أيديهم إليها كذلك؛ فكانت نهايتها الحتمية هي الأخرى؛ بعد مدة من الزمن.

هذا ما توفر من معلومات حول دولة بني سليمان المغمورة في زوايا التاريخ المظلم تقريبا؛ كما أن موضوع الحضارة والنشاط الثقافي فيها يكاد الحديث عنه يدخل في عداد المستحيلات؛ وذلك بسبب غياب الشواهد اللازمة، وانعدام المعالم

---

[1] **أنظر: العبر، ج: 4، ص ص: 34 ـــ 36. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص ص: 474 ـ 484. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص ص: 182 ـ 190. ودور كتامة، ص ص: 209 ـــ 215. ودولة الأدارسة، ص ص: 137 ـــ 146. 293 ـ 294.**

الضرورية لتكوين الصورة مقبولة حول هذا الموضوع. وعليه فقد تعذر الكشف عما يمكن أن يكون قد أنجز في ظل تلك الدولة من منشآت وأعمال حضارية وثقافية؛ لأن المصادر التاريخية ــ كما سبق ذكره ــ لم تقدم شيئا يذكر عنها في هذه المجالات، أو في غيرها من المجالات التاريخية الأخرى. ومع هذا يبدو أن لهذه الإمارة بعض الصلات الثقافية مع محيطها؛ شرقا وغربا. وحتى إن فقدت الشواهد على ذلك فليس معنى ذلك انعدام الحركة الثقافية بالتمام في إمارة بني سليمان. وخير دليل على ذلك تلك القصيدة التي قالها الشاعر الفحل بكر بن حماد في الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ وهي التي بقي منها مقطع صغير جاء فيه:

سَائِلْ زُواغة عن طعان سُيوفه
وَرماحه في العَارِضِ المُتهَلِلِ
وديار نفزة كيفَ دَاسَ حَريمَها
والخيلُ تمْرغ في الوشيج الذبَّل
وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلة
وسقَى جَراوة من نقِيعِ الحَنظل)).

على أنه يستحسن التنبيه إلى دور البيئة القبلية المنغلقة التي كانت تحيط بهذه الدولة؛ الأمر الذي أبقاها محاطة بالغموض؛ الذي كان له تأثير حتى عندما اقتصر الأمر على مجرد السرد التاريخي للمظهر السياسي الخاص بها.

****

4)ـ الدولة الفاطمية:[1]

ينتسب حكام هذه الدولة إلى فاطمة بنت محمد صلى الله علية وسلم، وإلى جدهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ويسمى مؤسسها وأول ملوكها ـ حسبما ورد في كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ـ هو: عبيد الله بن أحمد بن الحسين ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه.[2]

---

[1] ينحصر البحث هنا في حدود الدولة الفاطمية القائمة ببلاد المغرب؛ وينتهي الاهتمام بها بدءا بانتقال الخليفة المعز إلى القاهرة.

[2] تضاربت الآقوال حول نسب مؤسس الدولة الفاطمية؛ ولم تتفق المصادر على سلسلة واحدة لآبائه؛ ومما يقوله ابن الأثير في هذا الباب: ((أول من ولي منهم أبو محمد عبيد الله؛ فقيل: هو محمد بن عبد الله بن ميمون ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ ومن ينسب هذا النسب يجعله: عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب إليه القداحية. وقيل: هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني [ابن] محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي أبن أبي طالب رضي الله عنهم. وقد اختلف العلماء في صحة نسبه؛ فقال ـ هو وأصحابه القائلون بإمامته إن نسبه صحيح على ما ذكرناه، ولم يرتابوا فيه. وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضا؛ ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضيّ:

مَا مُقَامِي عَلَى الهَوَانِ وَعِنْدِي ... مِقْوَلٌ صَارِمٌ وَانْفٌ حَمِيٌّ
ألبَسُ الذلَّ فِي بِلاَدِ الأعَادِي ... وَبِمِصْرَ الخَلِيفَةَ العَلَوِيُّ
مَنْ أبُوهُ أبِي، وَمَوْلاَهُ مَوْلاَ ... يَ إذَا ضَامَنِي البَعِيدُ القَصِيُّ
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدَا النَّا ... سِ جَمِيعاً: مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ
إنَّ ذُلِّي بِذَلِكَ الْحَيِّ عِزٌّ ... وَأوَامِي بِذَلِكَ الرَّبْعِ رِيٌّ

هـــذا وقـــد اختلفـــت المصـــادر التاريخيـــة في ســـرد تسلســـل آبـــاء هـــذه الأســـرة الحاكمـــة للدولـــة الفاطميـــين؛ وحـــتى نسبهـــم الهاشـــمي تضاربـــت الآراء حولـــه؛ فثمـــة مـــن أنكـــره، وثمـــة مـــن صدقـــه. ويبـــدو أنهـــم تعرضـــوا لهجمـــة إشاعـــات، وحملـــة تشويـــه؛ نظمهـــا ضدهـــم أنصـــار الدولـــة العباسيـــة المنافســـة لهـــم؛[1] وقـــد رأينـــا أنهـــم استعملـــوا الأسلـــوب نفســـه مـــع إدريـــس الثـــاني؛ حيـــث حاولـــوا نشـــر الشكـــوك حـــول انتسابـــه لأبيـــه إدريـــس الأول؛ إذ كلفـــوا مـــن يطعـــن في نسبـــه.

ولكـــن بعـــض المحققيـــن ــ مـــن أهـــل العلـــم والمؤرخيـــن المدققيـــن ــ يميلـــون إلى تصديـــق نسبهـــم الهاشـــمي.[2]

وإنمـــا لـــم يودعهـــا ديوانـــه خوفـــا)). الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص : 124 ــ 125.

[1] لمـــن يريـــد أن يستزيـــد بخصـــوص محاولـــة التشهيـــر بالفاطمييـــن ــ مـــن طـــرف العباسييـــن ــ ومـــا نســـب إليهـــم مـــن تزويـــر وانتحـــال للنســـب النبـــوي الشريـــف؛ عليـــه أن يراجـــع مـــا كتبـــه ابـــن الأثيـــر في كتابـــه الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص ص: 124 ــ 126. ومـــا كتبـــه المقريـــزي في كتابـــه اتعـــاظ الحنفـــا بأخبـــار الأئمـــة الفاطمييـــن الخلفـــا، ص ص: 25 ــ 40.

[2] ومـــن بينهـــم ابـــن خلـــدون الـــذي يقـــول: ((ولا عبـــرة بمـــن أنكـــر هـــذا النســـب مـــن أهـــل القيـــروان وغيرهـــم؛ وبالمحضـــر الـــذي ثبـــت ببغـــداد ــ أيـــام القـــادر ــ بالطعـــن في نسبهـــم، وشهـــد فيـــه أعـــلام الأئمـــة ــ وقـــد مـــر ذكرهـــم ــ فـــإن كتـــاب المعتضـــد إلى ابـــن الأغلـــب بالقيـــروان، وابـــن مـــدرار بسجلماســـة؛ يغريهـــم بالقبـــض عليـــه؛ لمـــا ســـار إلى المغـــرب شاهـــد بصحـــة نسبهـــم. وشعـــر الشريـــف الـــرضي مسجـــل بذلـــك. والذيـــن شهـــدوا في المحضـــر؛ فشهادتهـــم عـــلى السمـــاع؛ وهي مـــا علمـــت. وقـــد كـــان نسبهـــم ببغـــداد منكـــرا عنـــد أعـــدائهـــم شيعـــة بـــني العبـــاس منـــذ مائـــة سنـــة؛ فتلـــون النـــاس بمذهـــب أهـــل الدولـــة؛ وجـــاءت شهـــادة عليـــه؛ مـــع أنهـــا شهـــادة عـــلى النـــفي. مـــع أن طبيعـــة الوجـــود في الانقيـــاد إليهـــم؛ وظهـــور كلمتهـــم حـــتى في

مـــن ذلـــك مـــا قالـــه ابـــن الأثيـــر: ((**فـــفي امتنـــاع** [الشريـــف الـــرضيّ] **مـــن الاعتـــذار، ومـــن أن يكتـــب طعنـــا في نسبهـــم مـــع الخـــوف؛ دليـــل قـــوي عـــلى صحـــة نسبهـــم؛ وسألـــت أنـــا جماعـــة مـــن أعيـــان العلوييـــن في نسبـــه** [أي نســـب عبيـــد اللـــه مؤســـس الدولـــة الفاطميـــة] **فلـــم يرتابـــوا في صحتـــه... وزعـــم القائلـــون بصحـــة نسبـــه؛ أن العلمـــاء ممـــن كتـــب في المحضـــر** [الـــذي طلـــب منهـــم التوقيـــع عليـــه الخليفـــة العبـــاسي القـــادر باللـــه] **إنمـــا كتبـــوا خوفـــا وتقيـــة، ومـــن لا علـــم عنـــده بالأنســـاب فـــلا احتجـــاج بقولـــه))**.[1]

وممـــا لا شـــك فيـــه؛ أن نجـــاح الأدارســـة في بـــلاد المغـــرب جعـــل بقيـــة العلوييـــن بالمشـــرق يحســـون بعطـــف سكـــان تلـــك الديـــار تجـــاه قضيتهـــم، وميلهـــم إليهـــم؛ بحكـــم النســـب الـــذي يربطهـــم مـــع نـــبي المسلميـــن عليـــه الصـــلاة والســـلام. ومـــن هـــذا المنطلـــق أرســـل ســـادس الأئمـــة العلوييـــن؛ جعفـــر الصـــادق بـــن محمـــد الباقـــر داعيتيـــن إلى المغـــرب همـــا: عبـــد اللـــه بـــن عـــلي بـــن أحمـــد المعـــروف باســـم الحلـــواني، وأبـــو سفيـــان الحســـن ابـــن القاســـم. نـــزل الأول في أرض كتامـــة، والثـــاني في مرمجنـــة بالقـــرب مـــن الحـــدود التونسيـــة الجزائريـــة الحديثـــة.

مكـــة والمدينـــة أدل شـــيء عـــلى صحـــة نسبهـــم. وأمـــا مـــن نسبهـــم في اليهوديـــة والنصرانيـــة ليعمـــون القـــدح وغيـــره فكفـــاه ذلـــك إثمـــا وسفسفـــة.)). العبـــر، مج: 4، ص: 64.

[1] **الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص: 125.**

وكان لهما الفضل الأول في التعريف بالقضية العلوية، ونشر الفكر الشيعي بين سكان المغرب الأوسط وإفريقية؛ حيث تمكنا من تحقيق طلب الإمام جعفر بتمهيد المناخ وحرث الأرض؛ انتظارا لمن سيقوم بالحصاد.[1] وما قدوم أبي عبد الله الشيعي ــ فيما بعد ــ إلا من باب استكمال العمل الذي بدأه هذان الداعيتان. ومع هذا فلا بد من الاعتراف بجهود أبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن محمد المعروف بالشيعي وبالمحتسب وبالمعلم؛ فهو المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية.[2] حيث لم يكتف ــ كغيره ــ بالدعوة الكلامية؛ بل قام بدور القائد العسكري المحنك؛ الذي ألحق بالأغالبة الهزيمة تلو الأخرى؛ حتى تغلب على حاضرة ملكهم القيروان. كما استطاع إخضاع بقية الممالك بالمغرب الأوسط؛ كمملكة بني رستم بتيهرت، ومملكة بني مدرار بسجلماسة. ودام به الوقت في ذلك العمل الكبير بدءا من عام وصوله إلى ديار كتامة سنة 280هـ(893م)، وحتى بيعة عبيد الله المهدي؛ أول أئمة الدولة سنة 297هـ(909م).

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 54 ــ 58. والكامل، ج: 6، ص: 126. واتعاظ الحنفا، ص ص: 53 ــ 54. ودور كتامة، ص ص: 216 ــ 238.

[2] أنظر الأعمال التي قام بها هذا الداعية الفذ في كتاب رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 71 ــ 236. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 127 ــ 133. والعبر، مج: 4، ص ص: 65 ــ 76. ودور كتامة، ص ص: 231 ــ 329.

ولم يحقق أبو عبد الله الشيعي تلك النجاحات بسهولة ويسر؛ إذ كان عليه ــ في بداية الأمر ــ توحيد كلمة عشائر كتامة؛ ثم الانتقال بعدئذ إلى خارج القبيلة؛ كي يستطيع ضرب الأعداء بقبيلة موحدة وقوية. وعليه فقد استغرق وقتا طويلا في تحقيق وحدة قبيلة كتامة. وبهذا يكون قد اتبع الأسلوب الذي شرحه ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1] حيث تعمل عشيرة معينة على إخضاع بقية عشائر القبيلة وإلزامها بالطاعة والانقياد لقيادة واحدة؛ وذلك بالعمل على مزج العصبيتين الصغرى والكبرى ضمن عصبية واحدة قوية؛ كل هذا يتم بغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى؛ تقوم فيها

---

[1] جاء فيها: ((ثم إن القبيل الواحد ــ وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة ــ فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها، وتستتبعها؛ وتلتحم جميع العصبيات فيها؛ وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق؛ المفضي إلى الاختلاف والتنازع: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ" [من الآية 251 من سورة البقرة]. ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها، أو مانعتها؛ كانوا أقتالا، وأنظارا؛ ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها؛ التحمت بها أيضا؛ وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغلبة الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها؛ ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة؛ أهل العصبيات؛ استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 ــ 610.

العصبية الموحدة بالتغلب على غيرها من العصبيات الغريبة وإخضاعها؛ في سبيل تحقيق الملك القاهر. وهذا هو الذي حدث بين عشائر كتامة؛ حيث قضى أبو عبد الله الشيعي وأنصاره وقتا طويلا في تمهيد سلطانه، وتوحيد العصبيات والعشائر الكتامية المتفرقة؛ ضمن عصبية واحدة متينة وقوية.

ويبدو أن بوادر الوحدة أخذت تتحقق في أواخر سنة 298 هـ(910م)؛ حيث تمكن الداعية الشيعي أبو عبد الله من إخضاع العشائر الكتامية بكاملها؛ خاصة التي كانت بعيدة شيئا ما عن أطراف المدن.[1] هذا بخصوص العشائر الكتامية؛ أما القبائل

---

[1] وفي هذا يقول القاضي النعمان: ((واستولت أمور أبي عبد الله على عامة بلد كتامة؛ وظهرت دعاته في كل ناحية منها، وغلب أمره عليها، واستحكم فيها؛ ولم يبق فيها إلا من يدخل دعوته: إما راغبا، وإما راهبا، أو مخذولا؛ قد أنكرها بقلبه، وغلبت عليه شقوته؛ فأصر على إنكارها؛ فتمسك بما هو عليه؛ غير مدافع لأمر، ولا متوثب على أحد من أهله؛ بل قد صار كل من هذه حاله تحت أحكام الدين، وأيدي المؤمنين؛ يجري حكمهم عليهم، وينفذ أمرهم فيهم، ويحيط سلطانهم من ورائهم؛ بعد أن كانت لأبي عبد الله الشيعي في قبائل كتامة وقائع كثيرة يطول ذكرها؛ أقام ـ بعد انهزام الجميع عنه ـ نحو سنتين يوقعها بهم، وينقص أطرافهم، ويقتلهم، ويغنم أموالهم؛ حتى أجابوه، وسلموا لأمره؛ طائعين، ومكرهين، وراغبين، وخائفين. ولم يبق غير المدائن، ومن فيها من أمرائها، ومن انضم إليهم، وصار عندهم؛ من غلبت عليه الشقوة، وسبق في علم الله حلول البلاء به من رؤساء القبائل، ووجوه العشائر؛ ممن أنف عن الدخول في الدعوة، والوقوع تحت من كان يرى أنه واقع تحت أمره من العشيرة، ومن خامره الخوف من مقدمات سوء فعله، وزين له الشيطان التمادي على

الأخـــرى؛ فيظهـــر أن عشائـــر عجيســـة وزواوة تكـــون قـــد التحقـــت بالـــدعـــوة خـــلال عـــام 288هــ(900م).[1] أمـــا قـــبـــيـــلـــة تـــلـــكـــاتـــة الصنهاجيـــة ــ ذات القـــوة والنفـــوذ ــ فقـــد بقيـــت عـــلى الحيـــاد طيلـــة الفتـــرة الـــتي ناضـــل فيهـــا أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ في سبيـــل إقامـــة الدولـــة الفاطميـــة؛ كمـــا أن المصـــادر لـــم تذكـــر أي محاولـــة منـــه للتعـــرض لتلـــك الـــقـــبـــيـــلـــة الـــواسعـــة الانتشـــار. والـــذي بـــادر ــ حسبمـــا يبـــدو ــ إلى عقـــد صـــلات مـــع تلكاتـــة الصنهاجيـــة هـــو عبيـــد اللـــه المهـــدي نفســـه؛ وذلـــك لمـــا استتـــب الأمـــر في القيـــروان لعبيـــد لـــه، وظهـــرت أمامـــه الأخطـــار المحدقـــة بدولتـــه؛ تلـــك الأخطـــار الـــتي بـــدأت بوادرهـــا تبـــرز مـــن خـــلال تحركـــات القبائـــل الزناتيـــة؛ نتيجـــة لتحريـــض الأمويـــين بالأندلـــس؛ لـــذا فقـــد ســـعى ــ بكـــل جهـــده ــ لـــكي يكســـب ود خصـــوم الزناتيـــن التقليديـــن؛ وهـــم بالطبـــع الصنهاجيـــن.

غيـــه وجهلـــه؛ وطوائـــف مـــن القبائـــل ممـــن قـــارب المدايـــن، وعاشـــر أهلهـــا، واستمالهـــم أمراؤهـــا؛ يدارونهـــم، ويكاتبونهـــم، ويتسللـــون إليهـــم في الســـر؛ وهـــم عـــلى ظاهـــر الطاعـــة، والوقـــوع تحـــت الدعـــوة في الجهـــر؛ تركـــوا عـــلى حالهـــم مستوريـــن؛ كمـــا تـــرك رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وعـــلى آلـــه مـــن كـــان بالمدينـــة وحولهـــا مـــن المنافقيـــن)). رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 121 ــ 122.

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 119 والعبـــر، مج: 4، ص: 69.

هــذا وقــد تضاعفــت الحاجــة إلى عونهــم بعــد استفحـــال أمـــر أبي يزيـــد مخلـــد بـــن كيـــداد اليفـــرني؛ الـــذي كـــان عـــلى رأس القبائـــل الزناتيـــة الثائـــرة عـــلى الدولـــة. ومـــن جهـــة أخـــرى فقـــد وجـــد المهـــدي نفســـه في حاجـــة ماســـة إلى التحالـــف مـــع عصبيـــة أخـــرى ذات قـــوة تعـــادل قـــوة العصبيـــة الكتاميـــة؛ بغـــرض تحقيـــق شـــرط التـــوازن. وعليـــه فقـــد أخـــذ يفكـــر في هـــذا الأمـــر بعـــد أن بـــدأت فئـــات مـــن قبيلـــة كتامـــة تلجـــأ إلى حركـــات فيهـــا مشاغبـــة، وتمـــرد في بعـــض الأحيـــان. وهكـــذا شـــرع عبيـــد اللـــه في إغـــراء قبيلـــة تلكاتـــة، والعمـــل عـــلى كســـب ولائهـــا. وبالفعـــل وجـــدت مساعيـــه أذنـــا صاغيـــة لـــدى الصنهاجيـيـــن؛ نظـــرا لأنهـــم يميلـــون إلى أبنـــاء عـــلي بـــن أبي طالـــب مـــن جهـــة؛ ونظـــرا ــ أيضـــا ــ لحاجتهـــم الماســـة إلى حليـــف قـــوي يساعدهـــم عـــلى كبـــح جمـــاح خصومهـــم الزناتيـيـــن مـــن جهـــة أخـــرى. وهكـــذا توافقـــت مصالـــح الطرفيـــن؛ فالتحمـــت قواهمـــا، وتناسقـــت جهودهمـــا في مواجهـــة العـــدو المشتـــرك.[1]

---

[1] ويشيـــر إلى هـــذا ابـــن خلـــدون بقولـــه: ((ولما استوســـق الملـــك للشيعـــة بإفريقيـــة تحيـــز إليهـــم [أي زيـــري بـــن منـــاد] للولايـــة الـــتي لعـــلي رضي اللـــه عنـــه فيهـــم. وكـــان مـــن أعظـــم أوليائهـــم؛ واستطـــال بهـــم عـــلى عـــدوه مـــن مغـــراوة؛ فكانـــوا ظهـــرا لـــه عليهـــم. وانحرفـــت لذلـــك مغـــراوة وسائـــر زناتـــة عـــن الشيعـــة سائـــر أيامهـــم؛ وتحيـــزوا إلى المروانييـــن ملـــوك العـــدوة بالأندلـــس؛ فأقامـــوا دعوتهـــم بالمغـــرب الأوســـط والأقـــصى ــ كمـــا نذكـــره إن شـــاء اللـــه تعـــالى ــ ولمـــا كانـــت فتنـــة أبي يزيـــد؛ والتـــاث أمـــر العبيدييـــن بالقيـــروان والمهديـــة؛ كـــان لزيـــري بـــن

وبالإضافة إلى القبائل المذكورة؛ لابد من الإشارة إلى أنه سبق لأبي عبد الله الشيعي ــ داعية الفاطميين ــ أن أخضع بعض الفئات من قبيلة مكناسة لما تغلب على سجلماسة سنة 296هـ(908م). أضف إلى ذلك أنه بدأ اتصاله بالقبائل الزناتية في سنة 296هـ(908م) أيضا؛ وذلك عندما شرع في زحفه نحو سجلماسة؛ لتخليص عبيد الله المهدي من الأسر. ففي تلك الأثناء وفد عليه أمير زناتة ــ محمد بن خزر ــ عند وصوله إلى طبنة؛ طالبا الأمان لقبيلته، ومقدما العهد بالمسالمة، وعدم التعرض لعمال وعساكر الشيعي.[1]

وكان أمر أبي عبد الله الشيعي قد استفحل، واشتدت سطوته بعد أن احتل القيروان، وأسقط دولة الأغالبة؛ بفضل ما وجهه من ضربات صوب تلك الدولة الهرمة؛ إذ طاولها بالحرب، واستنزف بقية قواها؛ فانهارت تحت أقدام القبائل الكتامية؛ التي كانت تمثل القوة الضاربة بالنسبة للشيعة.

مناد منافرة إلى الخوارج؛ أصحاب أبي يزيد وأعقابهم؛ وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان؛ كما ستراه العبر، مج: 6، ص : 313.

[1] وكان قد سقط ــ من قبل ــ رسل أبي عبد الله الشيعي في كمين نصبه جماعة من زناتة فقتلوهم؛ بينما كانوا طريقهم إلى سجلماسة؛ محملين ببعض المال إلى عبيد الله المهدي. أنظر رسالة افتتاح الدعوة، ص: 197 ــ 198.

وهنا يتحقق ما قرره ابن خلدون أيضا ضمن "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة**".[1] وذلك أن القبيلة المتمردة والطامعة في الاستيلاء على الملك، الساعية نحو تحقيقه بالقوة والغلبة؛ تعمل على إسقاط الدولة القائمة بواسطة حرب الاستنزاف؛ أو بتعبير ابن خلدون بواسطة المطاولة لا بالمناجزة.

ومن يتابع الأحداث السياسية والعسكرية منذ وصول الداعية أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ(900م)؛ وحتى انتصاب عبيد الله المهدي على عرش القيروان سنة 297هـ(909م)؛ سيجد ـ حتما ـ أن الأعباء العظمى في مسيرة قيام الدولة الفاطمية تمت ـ بالدرجة الأولى ـ بفضل سواعد الكتاميين. وعليه فلا بد من التنويه بفضل هذه القبيلة الأمازيغية في تشييد صرح الدولة الفاطمية، وفي تمهيد سلطانها ببلاد المغرب، بالإضافة إلى الفتوحات العظيمة التي أنجزتها في بلاد المشرق. فهذه القبيلة وضعت أبناءها، وأموالها في خدمة الدعوة الفاطمية؛ نتيجة لما تزودت به عصبيتها من شحنات ذات طاقة معنوية هائلة؛ استمدت من تعاليم المذهب الشيعي؛ ذي السمات الدينية والسياسية.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ـ 878.**

وهنا تصدق – أيضا – نظرية ابن خلدون؛ التي شرحها ضمن: "**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**" و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] فالدعوة الدينية هنا عززتها عصبية فياضة وقوية؛ مشخصة في قبيلة كتامة؛ التي تبنت المذهب الشيعي، وتحملت أعباء قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي.

ومفاد ذلك كله أنه إذا تحققت نشأة هذه الدولة على أسس مذهبية، ودعوة دينية؛ قد تفوز بنفوذ واسع، وسلطان عريض، وملك عظيم؛ ولكن بشرط أن توجد عصبية قوية تقف وراء تنفيذ العمل العسكري والسياسي. وهكذا توافرت شروط نجاح الدولة الفاطمية بالمغرب. وعليه نرى أنه – إلى جانب الدعوة الدينية – انتصبت عصبية كتامة؛ بصفتها الكفيلة بتنفيذ تلك المهمة في الميدان؛ ومن هنا تكون هذه القبيلة هي الوصية الفعلية على قيام وسلامة الدولة الفاطميين الفتية. لم لا..؟ أليس عبيد الله المهدي من أهل النصاب الملكي؟ لذا فهو جدير بالمساندة، والدعم؛ كما يمكنه – في هذه الحال – الاستغناء عن عصبيته الخاصة؛ لأنه سيجد عصبية أخرى مستعدة للانقياد إليه.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 636. 638 – 642.**

وهذا هو الذي قصده ابن خلدون؛ ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1]

والدولة الفاطمية ــ مثلها مثل الدولة الإدريسية ــ جاءت نشأتها نتيجة لما وصلت إليه عصبية بني هاشم؛ من ضعف وانقسام. فبعد استفحال أمر بني العباس، وسعيهم لتصفية أبناء علي بن أبي طالب؛ التجأ هؤلاء إلى أقاصي البلاد وأطرافها؛ مستترين ــ خوفا وتقية ــ من أذى أبناء عمومتهم؛ بني العباس. فوجدوا في تلك المناطق النائية الأمن والأنصار معا. وقد عالج ابن خلدون هذه الظاهرة ضمن فصلين في مقدمته: "**فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين**" و"**فصل في كيفية طروق الخلل للدولة**".[2] وكما سبقت الإشارة إليه؛ فقد تم التوسع في شرح رأي ابن خلدون في هذا الموضوع ضمن دراسة مستقلة وضعتها تحت عنوان "العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية" حيث تبرز نظرية ابن خلدون هذه؛ الكيفية التي تسقط بها الدول؛ عندما يتسرب إليها الفساد. وكيف تبدأ الدولة بالتفكك؛ حينما يتنكر حاكمها لأهل عصبيته؛ فيسعى لإذلالهم، وتقليم أظافرهم.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] نفسه، ص ص: 859 ــ 862. 863 ــ 867.

إذ يستشهد هذا العلامة بما حدث لعصبية بني عبد مناف؛ وهي عصبية مركبة؛ يجتمع فيها بنو هاشم وبنو أمية. حيث انقسمت هذه العصبية المركبة، الجامعة؛ بين بني هاشم وبني أمية. ثم انقسمت عصبية بني هاشم بدورها إلى بني العباس وبني أبي طالب.

وهكذا تتضح سلامة استقراء ابن خلدون. فكما نشأت الدولة الإدريسية من جراء الاضطهاد والقمع؛ المسلطين على أبناء علي بن أبي طالب. فقد نشأت الدولة الفاطمية بدورها عقب قمع وتشريد بني أبي طالب أيضا؛ إذ لجأ أعضاء هذه الأسرة إلى التقية والتستر؛ إلى جانب سعيهم الحثيث في نشر دعوتهم بأطراف البلاد النائية؛ بواسطة دعاة أكفاء. وتبعا لذلك؛ قدم إلى بلاد المغرب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم؛ ذلك الداعية الداعية الشيعي الفذ. جاء إلى بلاد المغرب بغرض نشر الدعوة الفاطمية الشيعية في تلك الديار؛ فانطلق بالعمل من وسط قبيلة كتامة؛ التي انقادت إليه؛ بعد أن وحد عشائرها؛ ضمن عصبية واحدة؛ متينة الأسس؛ معتمدا على فعالية التعاليم الدينية؛ التي أضفت عليها هالة من القدسية، والفخامة. واستطاعت هذه القبيلة ضم قبائل أخرى إلى صفوفها؛ كما سبق ذكره.

وبعـد فتـرة تمكنـت مـن اكتسـاح دولـة بـني الأغلـب. وهنـا فتـح البـاب عـلى مصراعيـه؛ أمـام قيـام دولـة الفاطميـين؛ عـلى أنقـاض دولـة الأغالبـة. وتـم هـذا ببيعـة عبيـد اللـه المهـدي عـام 297هـ(909م) بـرقـادة.

وجملـة القـول.. فقـد حققـت دولـة الفاطميـين مـا لـم تتمكـن دولـة الأدارسـة مـن تحقيقـه. فالعصبيـة المناصـرة للدولـة الفاطميـة تفـوق العصبيـة المنحـازة للأدارسـة بكثيـر. إذ كـان لدولـة الفاطميـين أتبـاع عددهـم لا يحـصى؛ مكنوهـا مـن التغلـب عـلى إفريقيـة والمغـرب كافـة؛ بـل مـدوا نفـوذ هـذه الدولـة إلى بلـدان المشـرق أيضـا؛ حيـث شمـل مصـر والشـام والحجـاز. وفي حـالات خاصـة؛ وصـل نفـوذ الدولـة الفاطميـة إلى بغـداد نفسهـا؛ إذ التهمـت الـدول المتواجـدة في تلـك الربـوع كلهـا. فغـدت الخلافـة الفاطميـة تزاحـم الخلافـة العباسيـة، وتهـدد وجودهـا في عقـر دارهـا. ومـرد هـذا ـ طبعـا ـ يعـود إلى مـا ذكـره ابـن خلـدون ضمـن: "**فصـل في أن عظـم الدولـة واتسـاع نطاقهـا وطـول أمدهـا؛ على نسبـة القائميـن بهـا؛ مـن القلـة والكثـرة**".[1]

---

[1] **المقدمـة، ج: 2، ص ص: 644 ـ 646.**

ومن جهة أخرى يمكن ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون؛ من خلال ما قرره ضمن: "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة؛ لا بالمناجزة**".[1] حيث صنف الدول المستجدة إلى صنفين: الصنف الأول؛ تنشأ الدولة فيه بالأطراف؛ التي تكون الدولة المستقرة عاجزة عن حمايتها. وهذا الصنف قاصر ومحدود الفعالية. وإذا تأملنا في أحداث الدولة الإدريسية يتبين لنا بأنها تمثل الصنف الأول هذا.

أما الصنف الثاني؛ فهو الذي يعتمد على الدعوة والدعاة؛ بغرض التعبئة المعنوية الموجهة سواء إلى الحلفاء أو الخصوم. ويتم ذلك ــ عادة ــ بأن يقوم أولئك الدعاة بنشر مفاهيم وأفكار تستند إلى أصول مذهب معين بأساليب جذابة ومثيرة للعواطف؛ عاملين كل جهودهم لكي تحققون الغرض المطلوب من خلال بث مؤثرات نفسية تلهب قلوب العامة، ومن خلال طرح حجج منطقية يمكنها أن تستميل الخاصة؛ ثم العمل بكل القوى على شحذ الهمم وبعث روح التضحية في النفوس، تشجيع المترددين وحثهم على العصيان والثورة؛ ضد كل ما هو قائم.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

ومـــن جهـــة أخـــرى يسعـــون بكـــل الوسائـــل الممكنـــة إلى نشـــر الإشاعـــات الهدامـــة في صفـــوف الخصـــوم، والعمـــل عـــلى تثبـــط هممهـــم، وتفكيـــك وحدتهـــم وتشتيـــت شملهـــم؛ بواسطـــة حمـــلات نفسيـــة مدمـــرة. وهـــذا الصنـــف الثـــاني ــ طبعـــا ــ يمكـــن اعتبـــار الفاطميـــن مثـــلا بـــارزا لـــه.[1]

ــ حكومـــة عبيـــد الله بن أحمـــد بن الحسيـــن المهـــدي:

اختلفـــت الأقـــوال حـــول المكـــان الـــذي ولـــد فيـــه عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ فمـــن قائـــل بأنـــه ولـــد بسلميـــة في أرض الشـــام ومـــن قائـــل أنـــه ولـــد ببغـــداد سنـــة 260هـــ(873م). كـــان قـــد تـــولى الإمامـــة بعـــد مـــوت والـــده أحمـــد (أو محمـــد في بعـــض الأقـــوال) بـــن الحسيـــن؛ حيـــث بـــقي في (عَسْـــكـــر مُـــكـــرَم) والشـــام مختفيـــا؛ إلى أن اشتـــد البحـــث عنـــه مـــن طـــرف

[1] حيـــث يقـــول ابـــن خلـــدون: ((وكـــذا العبيديـــون؛ أقـــام داعيتهـــم بالمغـــرب؛ أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ ببـــني كتامـــة؛ من قبائـــل البربـــر؛ عشـــر سنيـــن ويزيـــد؛ يطـــاول بـــني الأغلـــب بإفريقيـــة؛ حـــتى ظفـــر بهـــم، واستولـــوا [أي العبيديـــون] عـــلى المغـــرب كلـــه، وسمـــوا إلى مصـــر؛ فمكثـــوا ثلاثيـــن سنـــة أو نحوهـــا في طلبهـــا؛ يجهـــزون إليهـــا العساكـــر والأساطيـــل في كـــل وقـــت؛ ويـــجيء المـــدد لمدافعتهـــم بـــرا وبحـــرا مـــن بغـــداد والشـــام؛ وملكـــوا الإسكندريـــة، والفيـــوم، والصعيـــد؛ وتخطـــت دعوتهـــم من هنالـــك إلى الحجـــاز؛ وأقيمـــت بالحرميـــن. ثـــم نـــازل قائدهـــم جوهـــر الكاتـــب بعساكـــره مدينـــة مصـــر؛ واستـــولى عليهـــا، واقتلـــع دولـــة طُغُـــج مـــن أصولهـــا، واختـــط القاهـــرة؛ فجـــاء الخليفـــة بعـــدُ المعـــز لديـــن اللـــه؛ فنزلهـــا لستيـــن سنـــة، أو نحوهـــا؛ منـــذ استيلائهـــم على الإسكندريـــة)). المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 876 ــ 877.

العباسيين؛ خاصة بعد استفحال أمر الشيعة في المغرب واليمن؛ فاضطر عبيد الله ــ عندئذ ــ إلى الهروب مع ولده أبي القاسم نزار نحو مصر؛ وذلك قصد اتقاء شر الخليفة العباسي المكتفي؛ الذي أمر بالقبض عليه. ولما حل بمصر في زي التجار أكمل طريقه نحو بلاد المغرب. ويبدو أنه قام بذلك تبعا لما سبق له؛ حيث استقبل رسلا من كتامة بعثهم الداعية الفاطمي أبو عبد الله؛ يبشره بما تحقق له من الفتح. ولما وصل إلى إفريقية اتجه جنوبا نحو سجلماسة؛ بعد أن أحس بكثافة عمليات البحث عنه. غير أن أمره انكشف في تلك المدينة؛ حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار، وأودعه السجن؛ بعد أن وصله خطاب من الخليفة ببغداد ــ أو ابن الأغلب ــ يطلب منه ذلك. وظل في سجنه حتى أخرجه منه الداعية الشيعي أبو عبد الله؛ بعد أن تغلب على القيروان وأسقط دولة بني الأغلب؛ ثم زحف إلى سجلماسة؛ التي تغلب عليها هي الأخرى وقبض على أميرها اليسع.

ويصف القاضي النعمان لحظة اللقاء بين الداعية والإمام بقوله: ((**فخرج إليهم وجوه أهل المدينة** [مدينة سجلماسة]...**ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم** [وهو أبو القاسم نزار بن المهدي]؛ **فكانت في الناس مسرة عظيمة؛ استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقرِّب لهما عليهما السلام فَرَسَان؛ فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: "هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون"، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح؛ حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له**)).[1]

وبعد أن تم للفاطميين تمهيد الوضع في سجلماسة، وبعد أن تمكنوا من القبض على اليسع ابن مدرار وقتله؛ تحركوا نحو رقادة؛ مقر الملك في القيروان؛ وفي الطريق عرجوا على إكجان؛ حيث أخذوا ما كان مكنوزا بها من الأموال والذخائر؛ ثم رحلوا صوب القيروان؛ فحلوا برقادة يوم خميس من أيام ربيع الآخر سنة 297هـ(909م).[2]

---

[1] **رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 239 ـــ 240.**

[2] **وقد وصف ابن عذاري لحظة وصول المهدي ومن معه إلى رقادة؛ حيث قال: ((وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة؛ ومعه ابنه أبو القاسم، وجعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن؛ ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان؛ فدعوا له، وهنؤوه، واظهروا له السرور**

وبادر المهدي في اليوم الثاني من وصوله ــ أي يوم الجمعة ــ بإصدار أوامر مكتوبة إلى خطباء المساجد؛ موضحا فيها الصيغة التي يجب إتباعها في الدعاء له ولأهل البيت. وقد أورد نص هذه الصيغة القاضي النعمان وهي: **((اللهم فصلِّ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك؛ عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين؛ كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين؛ الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون؛ اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادا، ولبريتك موئلا وملاذا؛ فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين؛ إله الخلق رب العالمين)).**[1]

بأيامه؛ وسألوه تجديد الأمان لهم. فقال لهم: "أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم"؛ ولم يذكر الأموال؛ فعاوده بعضهم، وسألوه التأمين لهم في الأموال؛ فأعرض عنهم؛ فخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل رقادة وعليه ثوبُ خزٍّ أدكنُ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ وَرْدٌ؛ وأبو القاسم ابنه خلفه؛ عليه ثوبُ خزٍّ خلوقيٌّ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ أشقر؛ ،أبو عبد الله أمام عبيد الله؛ وعليه ثوبٌ توتيٌّ، وظهارةُ كتّان، وعمامةٌ، ومنديلٌ اسكندرانيٌّ، وتحته فرسٌ كُمَيْت، وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه؛ والناس حواليه وبين يديه أقواط يسلمون عليه. فنزل عبيد الله في القصر المعروف بالصَّحْن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح. وتسمى عبيد الله بالمهدي)). البيان المغرب، ج: **1**، ص: **158**.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: **249 ــ 250**.

غيــر أن رأي ابــن عــذاري يخالــف مــا ذكــره النعمـــان إذ يـــرى أن المهـــدي اتخـــذ بعـــض الإجـــراءات الـــتي توضــح تشيــع عبيــد اللـــه بشكـــل متطـــرف، وينســـب إليـــه العـــداء لبقيـــة المذاهـــب السنيـــة.[1] كمـــا أن مـــا جـــاء في كتـــاب القـــاضي النعمـــان مـــن أشعـــار مـــدح بهـــا الشعـــراء المهـــدي؛ لا يؤخـــذ عليهـــا بمكـــره؛ إلا أن ابـــن عـــذاري لـــه نظـــرة أخـــرى إذ نســـب إلى بعضهـــم شعـــرا ــ في مـــدح المهـــدي ــ يدخـــل في عـــداد النصـــوص المارقـــة الداعيـــة للكفـــر.[2]

---

[1] يقـول ابـن عـذاري: ((وأقـر عـلى عمالـة القيـروان الحسـن بـن أبي خِنْزِيـر، وعـلى القضـاء بهـا المَـرُّوذِي. وأمـر أن تُقلـع مـن المساجـد والمواجـل والقصـور والقناطـر أسمـاء الذيـن بنوهـا؛ وكتـب عليهـا اسمـه. وأظهـر عُبَيْـد اللـه التشيُّـع القبيـح، وسـب أصحـاب النـبي ــ صلعـم ــ وأزواجـه؛ حـاشى عـلي بـن أبي طالـب، والمقـداد بـن الأسـود، وعمـار بـن ياسـر، وسلمـان الفـارسي، وأبي ذر الغفـاري؛ وزعـم أن أصحـاب النـبي ــ عـم ــ ارتـدوا بعـده غيـر هـؤلاء الذيـن سميناهـم. ومنـع المـروذي الفقهـاء أن يفـتي أحدهـم إلا بمذهـب زعـم انـه مذهـب جعفـر بـن محمـد؛ منـه سُقُـوطُ الحِنْـث عمـن طلـق البَتَّـةِ، وإحاطـة البنـات بالميـراث، وأشيـاء كثيـرة يطـول ذكرهـا)). البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 159 ــ 160. ويقـول محمـد الصنهـاجي أيضـا في هـذا البـاب: ((وكـان مـن جملـة مـا أخـذت عبيـد اللـه أن قطـع صـلاة التراويـح في شهـر رمضـان، وأمـر بصيـام يوميـن قبلـه، وقنـت في صـلاة الجمعـة قبـل الركـوع، وجهـر بالبسملـة في الصـلاة المكتوبـة، وأسقـط مـن أذان صـلاة الصبـح "الصـلاة خيـر مـن النـوم"، وزاد حي خيـر، محمـد وعـلي خيـر البشـر العمـل)). أخبـار ملـوك بـني عبيـد وسيرتهـم، ص: 27.

[2] مـن ذلـك مـا زعمـوا أنـه لمحمـد البديـل الـذي يقـول (بسيـط):

حَـلَّ برقَّـادَة المَسِيـحُ   حَـلَّ بهَـا آدَمُ ونُـوحُ
حـلَّ بهَـا أحْمَـد المُصَـفَّى   حـلَّ بهـا الكَبْـشُ وَالذّبيـحُ
حَـلَّ بهَـا اللـهُ ذُو المَعَـالِي   وَكُـلُّ شَـيْءٍ سِـوَاهُ رِيـحُ

وربما يدخل ما ذكره ابن عذاري وغيره من مؤرخي السنة في عداد الإشاعات التي سلطت على الفاطميين من باب الحملة النفسية المضادة.

المهم أن عبيد الله المهدي بمجرد أن انتصب على سدة الحكم في رقادة ؛ ذلك الحكم الذي وجده جاهزا وممهدا؛ فإنه لم يترك لأنصاره الفرصة لكي يشاكوه في السلطان والحكم؛ إذ سارع إلى الانفراد بالحكم؛ وذلك بتعزيز مركزه، وإزاحة أبي عبد الله الشيعي من مكانته الهامة في الدولة. ولم يشفع له ما مقدمه للدولة وإمام الدولة من خدمات جليلة؛ لأنه في الحقيقة هو الذي أوصل المهدي إلى ذلك المركز المرموق؛ بعد أن أخرجه من سجنه بسجلماسة، وبعد أن طلب من القبائل المناصرة لدعوته بطاعة الإمام المنتظر؛ حيث قال لهم: **((هذا مولاي ومولاكم، وولي أمركم، وإمام دهركم، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر؛ قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيد حزبه وجنده)).**[1]

ويضيف ابن عذاري قائلا: ((لعنه الله، وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه! وكانت إيمان كتامة أول دخولهم إفريقية: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهديّ برقادة"! حتى كتب بعضُ أحداث القيروان هذين البيتين؛ وتلطفوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم؛ وهي (مجتث):

الجُورُ قَدْ رَضِينَا لاَ الكُفْرُ وَالحَمَاقَة

يَا مُدَّعِي الغُيُوبِ مَنْ كَاتِب البِطَاقَة؟)).

البيان، ج: 1، ص: 160.

[1] **رسالة افتتاح الدعوة، ص: 245.**

وهنـــا يصــــدق رأي ابــــن خلـــدون أيضـــا حيـــن كتـــب: "**فصـــل في أن مـــن طبيعـــة الملـــك الانفـــراد بالمجـــد**"[1] إذ يـــرى أن ذلـــك يتـــم بعـــد أن يتحقـــق الملـــك لرئيـــس العصبيـــة البـــارز بيـــن الجميـــع؛ عندئـــذ يقتـــضي منـــه خلـــق الكبـــر والأنفـــة المسيطـــر عليـــه ــ وهـــذان الصفتـــان مـــن خـــواص الطبيعـــة الحيوانيـــة ــ إلى السقـــوط في الغيـــرة والحـــرص عـــلى الاستحـــواذ عـــلى مـــا اكتسبـــه؛ فـــلا يـــرضى بمشاركـــة غيـــره في ذلـــك المجـــد؛ الـــذي غـــدا بيـــن يديـــه؛ وعليـــه يســـعى إلى إبعـــاد الطامعيـــن في المشاركـــة، والمزاحميـــن لـــه في تحقيـــق المجـــد؛ ولمـــا يصطـــدم بمقاومـــة مـــا أو أي اعتراض مـــن طـــرف شركائـــه في الأمـــر؛ يحـــول اهتمامـــه إليهـــم، ويسلـــط آلـــة القمـــع والدمـــار ضدهـــم.

لـــذا فـــلا غرابـــة أن يكـــون أول ضحايـــا القمـــع المسلـــط مـــن المهـــدي هـــو معاونـــه وداعيتـــه، وصاحـــب الفضـــل عليـــه أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ إذ وصـــل بـــه حـــد الانتقـــام إلى قتلـــه؛ بعـــد عـــام مـــن بيعتـــه؛ أي في سنـــة 298هـــ(910م). وكـــان الـــذي نفـــذ أمـــر المهـــدي في أبي عبـــد الشيـــعي هـــو رفيقـــه وتلميـــذه القائـــد الكتـــامي عروبـــة بـــن يوســـف.

---

[1] **المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 649 ــ 650.**

ولما هم بتنفيذ الأمر بالقتل قال له أبو عبد الله الشيعي: ((**لا تفعل يا بني**))، فأجابه عروبة: ((**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك**)).[1] ومن غرائب أمزجة الملوك ما قام به المهدي أيضا؛ إذ انه بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي بأمره؛ تولى بنفسه الصلاة عليه، ثم قال: ((**رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك**)).[2] ومن المفارقات أن يكون عروبة بن يوسف الملوسي ــ ذلك القائد الكتامي العظيم الذي ضرب به المهدي أبا عبد الله الشيعي ــ هو نفسه ضحية سخط وقمع المهدي؛ إذ لم يسلم حتى هو من الانتقام الملكي؛ إذ قتله المهدي بعد فترة قصيرة؛ مع أخيه حباسة ابن يوسف؛ ذلك القائد الذي فتح الإسكندرية.

هذا وقد حدثت ــ نتيجة لمقتل أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، وأصحابه الكتاميين ــ بعض الثورات بين العشائر الكتامية؛ الناقمة والساخطة على المهدي؛ ولكن هذا الأخير استطاع إخماد ثورتهم، والتنكيل بهم؛ فعادوا إلى ديارهم بأرض كتامة؛ حيث أعلنوا العصيان من جديد، ونصبوا صبيا من بينهم؛ وهو كادو بن معارك المدعو بالماوطي؛ مدعين أنه المهدي المنتظر؛ بل يقال أنهم تطرفوا في ادعائهم؛ حتى أنهم زعموا

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 135. البيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

[2] الكامل، ج: 6، ص: 135. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

أنــه نــبي.[1] ولــم تــدم هــذه الثــورة؛ إذ جــرد المهــدي جيشــا بقيــادة ولــده أبي القاســم محمــد بــن عبيــد اللــه، وكــان جــل أفــراده مــن قبيلــة كتامــة؛ فأخمــدوا تلــك الفتنــة. وبهــذا يتضــح بــأن قبيلــة كتامــة لــم تتأثــر بذلــك الانقســام؛ إذ سرعــان مــا عــادت إلى الطاعــة، وإلى خدمــة الدولــة الفاطميــة. ويبــدو أن المهــدي قــد شغلهــم بالفتوحــات شرقــا وغربــا؛ فتركــوا المشاغبــات؛ واتجهــوا صــوب الفوائــد الــتي تأتيهــم مــن الحــروب الخارجيــة. وقــد كانــت أيــام الدولــة الفاطميــة بالمغــرب مشحونــة بالحــروب والفتــن والثــورات؛ الأمــر الــذي جعلهــا لا تهنــأ بفتــرة مــن الاستقــرار والهــدوء. وأخطــر الثــورات عــلى الإطــلاق هي الــتي نشبــت في عهــد أبي القاســم القائــم بأمــر اللــه؛ خليفــة المهــدي؛ وهي ثــورة الخــوارج؛[2] بقيــادة أبي يزيــد مخلــد بــن كيــداد المعــروف بصاحــب الحمــار؛ إذ كــادت هــذه الثــورة أن تقــضي عــلى الدولــة الفاطميــة نهائيــا؛ لــولا الانقسامــات الــتي حدثــت في صفــوف القبائــل الثائــرة.

---

[1] رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص: 273. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 166 ــ 167.

[2] رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 277 ــ 279. وأخبــار ملــوك بــني عبيــد، ص ص: 29 ــ 34. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. والعبــر، مج: 4، ص ص: 84 ــ 93. مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. واتعــاظ الحنفــا، ص ص: 109 ــ 125.

هــذا ولــم يهنــأ عبيــد اللــه طويــلا؛ إذ انشغــل بعــض الوقــت في إخمــاد ثــورات عديــدة قامــت هنــا وهنــاك؛ مثــل ثــورة الكتاميــن بالقيــروان، وثورتهــم كذلــك ببلادهــم خلــف الصــبي المدعــو كــادو بــن معــارك، وثــورة في صقليــة بقيــادة ابــن وهــب، وثــورة أخــرى بصقليــة كذلــك بقيــادة أحمــد بــن زيــادة اللــه ابــن قــرْهــب وثــورة في تيهــرت قامــت بهــا جماعــة مــن قبيلــة زناتــة، وثــورة هــوارة بطرابلــس بقيــادة أبي هــارون الهــواري، وثــورة أهــل طرابلــس أيضــا بقيــادة محمــد بــن إسحــاق المعــروف بابــن القرليــن وعصيــان مــن طــرف زناتــة ولمايــة. هــذا بالإضافــة إلى الحمــلات العسكريــة الــتي قــام بهــا أبــو عبــد اللــه الشيــعي المغــرب الأوســط، ومــا قــام بــه أبــو القاســم بــن المهــدي مــن حمــلات أيضــا ضــد قبائــل عديــدة هنــا وهنــاك.

ولــم يكــن هــدف الفاطميــن هــو الاكتفــاء بتشييــد دولــة لهــم ببــلاد المغــرب فحســب ــ كمــا كــان الحــال بالنسبــة للأدارســة ــ بــل كانــوا يتخــذون مــن دولتهــم بالمغــرب خطــوة تكتيكيــة؛ في سبيــل تحقيــق هــدف استراتيــجي؛ وهــو الإطاحــة بالخلافــة العباسيــة، وقيــام دولتهــم بــدلا منهــا. لــذا فقــد شــرع المهــدي منــذ سنــة 301هــ(913م) في غــزو مصــر. وكانــت أولى خطــوات تمــت في هــذا السبيــل؛ هــي أوامــره بخــروج حباســة ابــن يوســف في أسطــول نحــو مصــر؛ حيــث احتــل المــدن المتاخمــة لمصــر في برقــة؛ مثــل ســرت

وإجدابيــة وبرقــة؛ كمــا اشتبــك مــع جيــش قــدم مــن المــدن المتاخمــة لمصــر في برقــة؛ فانتــهى السجــال بينهمــا أخيــرا بهزيمــة جيــش مصــر. ثــم تقــدم إلى الإسكندريــة بحــرا؛ حيــث تغلــب عليهــا. وبعــد ذلــك تقــدم حباســة نحــو مصــر؛ أيــن فتــح بعــض الحصــون هــناك؛ إلى أن لحــق بــه أبــو القاســم بــن عبيــد اللــه في جيــش عظيــم؛ فاحتــل الإسكندريــة سنــة 302هــ(914م)؛ ثــم تقــدم أبــو القاســم إلى الفيــوم؛ أيــن عسكــر بهــا.[1] وهنــاك وصلتــه الأخبــار بوصــول القائــد العبــاسي مؤنــس الخــادم إلى مصــر بغــرض محاربــة جيــش الفاطميــن. عندهــا أرســل أبــو القاســم إلى حباســة يطلــب منــه الالتحــاق بــه، وتسليــم أمــر الجيــش إلى أبي فريــدن؛ فغضــب حباســة بسبــب ذلــك؛ وقــال: ((**لمــا أشرفــت عــلى أخــذ البلــد؛ يفــوز أبــو فريــدن بخيــره وذكــره**)).[2]وكــان رد فعلــه أنــه عــاد مــع مجموعــة صغيــرة إلى المغــرب.[3]

---

[1] **أنظــر الكامــل في التاريــخ، ج: 6، ص: 147. واتعــاظ الحنفــا،، ص ص: 98 ــ 100. والنجــوم الزاهــرة، ج: 3، ص ص: 172 ــ 173. 186 ــ 187. 196.**

[2] **البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 173.**

[3] **وكانــت هــذه الحادثــة هــي السبــب في عصيــان حباســة وأخيــه عروبــة؛ إذ خرجــا عــن طاعــة الدولــة ؛ فانتــهى أمرهمــا إلى الإعــدام.**

وكانت هذه ضربة شديدة ثبطت عزيمة أبي القاسم؛ فعاد أدراجه إلى القيروان؛ فانتهز الفرصة مؤنس الخادم فأغار على خلفيات الجيش الفاطمي وساقته.[1] ويرى ابن الأثير هنا أن الجيش الفاطمي تكبد خسائر كبيرة. ثم عاود المهدي في سنة 303هـ(915م) الكرة؛ حيث أمر بإرسال جيش آخر بقيادة أبي مدين ابن فروخ لجس النبض في الحدود المصرية؛ فاحتل برقة في سنة 304هـ(916م)؛ بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا.

ولم يقتصر اهتمام عبيد الله المهدي بمصر والمشرق فحسب؛ بل اهتم – في الوقت ذاته – بالمناطق الغربية أيضا؛ حيث جرد جيشا بقيادة أمير تيهرت مصالة بن حبوس المكناسي لفتح البلاد الغربية الخاضعة للدولة الإدريسية، وإمارة بني صالح في نكور. وبالفعل فقد تحقق ما كان يرجوه عبيد الله المهدي من تلك الحملة؛ إذ تمكن مصالة من التغلب على مناطق شاسعة في المغرب الأقصى؛ بدولها وقبائلها؛ مثل نكور التي احتلها في سنة 305هـ(917م)؛ وفاس حاضرة الدولة الإدريسية؛ بعد أن أجبر ملكها الإدريسي يحيي بن إدريس بن عمر إلى تقديم الطاعة إلى المهدي إمام الدولة الفاطمية.

---

[1] **تختلف رواية ابن الأثير عن رواية ابن عذاري؛ إذ يرى ابن الأثير أن الذي اشتبك مع مؤنس الخادم هو حباسة؛ ولم يشر إلى أبي القاسم بن عبيد الله. الكامل، ج: 6، ص: 149.**

وفي سنة 306هـ(918م) جهز المهدي ولده أبو القاسم بن عبيد الله وأمره بالزحف ــ مرة ثانية ــ نحو مصر في جيش ضخم من كتامة وبعض قبائل إفريقية؛ فانطلق الجيش عن طريق البر؛ فتغلب على برقة؛ ثم تقدم إلى الإسكندرية فدخلها؛ وتقدم إلى الجيزة؛ فاحتل الأشمونيين وجزء كبير من الصعيد. ثم شحن عبيد الله أسطولا بحريا ــ مشكلا من ثمانين مركبا ــ نحو مصر؛ لدعم ولده أبي القاسم؛ بقيادة يعقوب الكتامي وسليمان الخادم. وبالمقابل بعث الخليفة العباسي مؤنس الخادم برا، وأسطولا من طرسوس ــ مشكلا من خمسة وعشرين مركبا ــ لمواجهة جيوش الفاطميين. وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش الفاطمية؛ التي فتكت بها الأمراض والأوبئة.[1]

ومن طرائف بعض المؤرخين أنهم عللوا زحف أبي القاسم بن عبيد الله نحو مصر والمشرق؛ بأنه لم يكن سوى رد انفعالي على استفزاز العباسيين؛ بعد أن أمر الخليفة العباسي المقتدر ــ كما قالوا ــ الشاعر محمد بن يحيى المعروف بالصولي بأن يكتب قصيدة إلي أبي القاسم ابن المهدي؛ ردا على قصيدة كان قد أرسلها إليه أبو القاسم؛ مفتخرا بما فتح الله عليه؛ ومن قصيدة الصولي هذا البيت:

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 161. واتعاظ الحنفا، ص ص: 103 ــ 104. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 181 ــ 182.

فلوْ كانتِ الدُّنيَا مِثَـالاً لِطائِـرٍ

لكانَ لكمْ مِنهَا بِمَا حُزتم الذنـبُ

من بين أولئك المؤرخين المقريزي؛ الذي يكمل حديثه فيقول: ((**فحرك همته** [أي همة أبي القاسم] **هذا البيت؛ فقال:** "**والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه ــ إن قدرت ــ وإلاّ أهلك دونه".** **وكابد على ديار مصر من الحروب أهوالا، ومات ولم يظفر بها؛ وأوصى ابنه المنصور... وكان الظافر بها المعز)).**[1] وحتى أن صحت حكاية هذه القصيدة؛ فلا يمكن أن يقوم المهدي وولده أبو القاسم بشن حرب على دولة بني العباس امتدت زمنيا بعشرات السنين، وكلفت الدولة آلاف الأرواح، وأموالا لا تحصى؛ لا لشيء سوى أنه أصر ــ بعناد ونكاية في القادر العباسي ــ أن يستولي على صدر الطائر ورأسه..!! فهذا التعليل فيه كثير من الأصباغ الأسطورية ما يضحك. أما الحقيقة فتكمن في الرغبة الجامحة لدى الفاطميين للإطاحة بالخلافة العباسية ــ التي يرون فيها دولة مغتصبة لحقوق العلويين ــ حتى يتسنى لهم إقامة الخلافة الفاطمية العلوية الشرعية في نظرهم.

[1] **اتعاظ الحنفا، ص: 99.**

وبعدها انشغل عبيد الله المهدي بتطويع القبائل المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى؛ كزناتة ومكناسة وهوارة ونفوسة وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**واضطرب المغرب؛ فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكر كتامة أولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة؛ ففر محمد ابن خزر** [الزناتي] **وأصحابه في الرمال. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية، ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها؛ ثم عاج إلى الريف؛ فافتتح بلد نكور من ساحل المغرب الأوسط(!) ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيق عليه، ودوخ أقطار المغرب؛ ورجع ولم يلق كيدا**)).[1]

---

[1] **العبر، مج: 4، ص: 82.**

وفي سنـــة 322هــ(933م) تــوفي عبيــد اللــه المهــدي؛ بعــد أن حكــم الدولـــة الفاطميـــة ببـــلاد المغـــرب مـــدة أربـــع وعشريـــن سنـــة؛[1] فأخـــفى ولـــده أبـــو القاســـم خبـــر موتـــه مـــدة مـــن الزمـــن قيـــل أنهـــا وصلـــت إلى السنـــة تقريبـــا؛ بينمـــا يقـــول أبي عبيـــد اللـــه محمـــد الصنهـــاجي أنهـــا لـــم تتجـــاوز الشهـــر؛ وذلـــك خوفـــا مـــن حـــدوث فتنـــة أو بعـــض الاضطرابـــات[2].

ــ حكومـــة القائم بأمر الله أبو القاســـم محمد بن عبيد الله:

ثمـــة مـــن يقـــول أن اسمـــه عبـــد الرحمـــن أو نـــزار وليـــس محمـــدا. وتلقـــب مـــن ألقـــاب الخـــلافـــة بلقـــب القائـــم بأمـــر اللـــه. وولـــد هـــو الآخـــر في سلميـــة بـــأرض الشـــام؛ وقـــدم إلى المغـــرب رفقـــة والـــده؛ حيـــث تعـــرض لنفـــس الظـــروف الـــتي عرفهـــا والـــده؛ مـــن خـــوف وتستـــر وسجـــن ..الـــخ. تـــولى شئـــون الدولـــة بعـــد ممـــات والـــده؛ دون أن يعلـــن موتـــه في بدايـــة الأمـــر؛ خوفـــا مـــن حـــدوث فتـــن.

---

[1] **قـــال محمـــد الصنهـــاجي: ((وتـــوفي عبيـــد اللـــه يـــوم الإثنيـــن الرابـــع عشـــر مـــن ربيـــع الأول سنـــة 322هــ؛ وكســـف القمـــر في تلـــك الليلـــة كسوفـــا كليـــا (؟!). وعمـــره اثنتـــان وستـــون سنـــة ــ أو ثـــلاث وستـــون ــ وكانـــت وفاتـــه مـــن دواء سقـــاه إيـــاه ابـــن الجـــزار؛ يقـــال أنـــه حـــب (السورنجـــان)؛ لنقـــرس كـــان يشكـــوه؛ وكـــان إسحـــاق الإسرائيـــلي نهـــاه عنـــه، وأعلمـــه أنـــه يجـــد عـــلى إثـــره إفاقـــة، ثـــم يشتـــد عليـــه. وقـــد يتسبـــب في هلاكـــك. فلـــم يقبـــل منـــه قولـــه؛ لشـــدة مـــا يجـــده؛ فوجـــد تلـــك الإفاقـــة ثـــم مـــات)) أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص ص: 26 ــ 27.**

[2] **أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص: 27. والكامـــل، ج: 6، ص: 238.**

ولم يعلن نبأ وفاة والده حتى تمكن من الأمر،[1] وقبض دفة التسيير بيد ثابتة.[2] ومع هذا فقد وقع ما كان يتوجس منه؛ إذ أنه ما أن أعلن وفاة والده حتى اشتعلت بعض الثورات في عدة جهات؛ كانت أبرزها ــ آنئذ ــ هي الثورة التي قام بها في نواحي طرابلس شخص يدعى ابن طالوت القرشي؛ إذ ادعى أنه ابن المهدي؛ غير أن أمره كشف، واتضح للناس كذبه؛ فقتله من كان في تلك الجهات من الأمازيغ. كما أرسل أبو القاسم جيشا بقيادة ميسور الفتى إلى النواحي الغربية بغرض إخضاع؛ حيث دخل إلى نكور وفاس.

---

[1] **قال ابن عذاري: ((ولم يركب أبو القاسم طول إمارته بمظلة. فقام بسيرة أبيه، واظهر من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده؛ فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين. وافتتحت في أيامه مدائن كثيرة من مدائن الروم بصقلية، وثار عليه عدة ثوار؛ فأمكنه الله منهم)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 208 209.**

[2] **يقول ابن الأثير: ((ولما توفي [أي عبيد الله] ملك بعده ابنه أبو القاسم محمد؛ وكان أبوه قد عهد له. ولما أظهر وفاة والده كان قد تمكن، وفرغ من جميع ما أراده، واتبع سنة أبيه. وثار عليه جماعة فتمكن منهم؛ وكان من أشدهم رجل يقال له: ابن طالوت القرشي؛ في ناحية طرابلس؛ وزعم انه ولد المهدي؛ فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس؛ فقاتله أهلها؛ ثم تبين للبربر كذبه؛ فقتلوه، وحملوا رأسه إلى القائم)). الكامل، ج: 6، ص: 238.**

ومن جهة أخرى فإنه لم ينس الهدف الرئيسي لوالده؛ وهو فتح الديار المصرية؛ لذا فقد جهز جيشا بقيادة خادمه زيدان فدخل الإسكندرية أيضا؛ ولكنه انهزم في الأخير أمام جيش الإخشيد.[1]

وفي سنة 333هـ(944م) اشتدت الثورة الخارجية في المغرب الأوسط وإفريقية ضد الدولة الفاطمية تلك الثورة التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي؛ المعروف بصاحب الحمار. وكانت هذه الثورة أعنف الثورات وأعتاها على الدولة الفاطمية؛ حتى كادت أن تسقطها نهائيا؛ لولا ضربات من الحظ أنقذتها. وقد انهزمت أمامه جيوش الفاطميين مرات عديدة؛ حتى أن القائم بأمر الله نفسه اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة إلى المهدية.[2] ويعود ــ في الحقيقة ــ ظهور أبي يزيد في الساحة المذهبية إلى عهد عبيد الله؛ وبالتحديد إلى سنة 316هـ(928م)؛ إلا أنه كان يقتصر ــ في نشاطه ــ على الدعوة باللسان؛ دون اللجوء إلى السلاح.

---

[1] الكامل، ج: 6، ص : 238.

[2] قال ابن عذاري: ((وكان أبو يزيد أحد أئمة الإباضية النكار بالمغرب. قال الرقيق: "وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار. وتسمى شيخ المؤمنين." قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنوده، وقام المسلمون معه." وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه؛ سماهم ابن سعدون في كتابه رجلاً رجلاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 217.

ولما مات عبيد الله خرج للعلن؛ رافعا لواء العصيان المسلح ضد الدولة الفاطمية. وبقي يكيل لجيوش الدولة الهزيمة تلو الهزيمة؛ ولم يترك لأبي القاسم فرصة لاسترداد أنفاسه؛ وحصره مدة طويلة في المهدية؛ دون أن يجد سبيلا لفك ذلك الحصار الذي أنهك أهل المدينة، وأوصلهم إلى حافة الهلاك جوعا.[1] بل مات أبو القاسم في الوقت الذي كان فيه أبو يزيد محاصرا لسوسة.[2] ولم تتمكن الدولة الفاطمية من أبي يزيد إلاّ بعد أن انفضت عنه القبائل الزناتية التي كانت تناصره؛ بعد أن انحرف عن الطريق السوي،[3] وبعد أن شعرت تلك القبائل مدى الخطورة هذا الرجل لو

---

[1] يقول ابن خلدون: ((واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي؛ ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي، وفرقها فيهم)). العبر، مج: 4، ص: **88**.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخر من سنته [يقصد هنا سنة 334هـ وهذا يخالف التاريخ الذي ذكره ابن عذاري]؛ وبها عسكر القائم؛ وتوفي القائم وهو بمكانه [يقصد أبا يزيد] من حصارها)). العبر، مج: 4، ص: **89**. أما ابن عذاري فيقول: ((وفي سنة 335هـ وصل أبو يزيد إلى المهدية. ثم نهض إلى سوسة؛ فناوشه أهلها؛ فقيل فيه (وافر):

أَلَـمَّ بِسُوسَةَ وَبَـغَى عَلَيْهَا وَلَكِـنَّ الإلَـهَ لَهَـا نَصِيـرُ

[3] يقول ابن خلدون: ((ثم انتقض البربر عليه [أي على أبي يزيد] بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات، والمنافسة بينهم؛ فانفضوا عنه؛ ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين [وثلاثمائة]. وغنم أهل المهدية معسكره؛ وكثر عبث البربر في أمصار إفريقية وضواحيها؛ وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم)). العبر، مج: 4، ص: **88**.

استولى على الحكم. وبذلك انتهى أمره إلى الأسر والقتل.[1]

ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله:

ولد المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بالمهدية سنة 299هـ(911م) أو سنة 302هـ. ولما تولى الحكم ـ خلال المحنة التي مرت بها الدولة الفاطمية جراء حصار أبي يزيد لها ـ قام هو بدوره بإخفاء خبر موت والده القائم بأمر الله؛ خوفا من تثبيط عزائم أنصاره وجيوشه من جهة؛ وتشجيع أبي يزيد ـ الذي كان أمره قد استفحل في تلك الأثناء ـ من جهة أخرى؛ حيث كان يقف على أبواب سوسة محاصرا إياها. لذا فقد التزم بكتمان خبر موت والده: ((**فلم يُسمَّ بالخليفة، ولا غيَّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود إلى أن فرغ من أبي يزيد**)).[2] وكان المنصور يتمتع بعزيمة فولاذية، وشجاعة ملحوظة؛ ويبدي عند الحاجة إصرارا شديدا؛ في سبيل تحقيق أهدافه. وكان فصيح اللسان وخطيبا موهوبا؛ إذ يتمتع بقدرة على إنشاء وارتجال الخطبة حاضرا.

---

[1] قال ابن خلدون في موت أبي يزيد: ((ثم هلك من الجراحة التي به؛ فأمر [المنصور إسماعيل] بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا؛ فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه)). العبر، مج: 4، ص: **93**.

[2] العبر، مج: **4**، ص: **89**.

ومن أهم الأعمال التي قام بها بعد موت أبيه هي المبادرة بإرسال الإمدادات إلى سوسة بحرا؛ في أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والأمتعة والميرة؛ فكانت هذه الخطوة الجريئة والحازمة منه سببا في هزيمة أبي يزيد، وفك الحصار عن المدينة؛ حيث خرج إليه أهلها مع المدد الذي جاءهم؛ فانهزم أبو يزيد أمامهم.[1] ولم يترك المنصور هذه الفرصة تفوت؛ إذ واصل ضغوطه المتتالية على أبي يزيد في كل مكان، وتابع تحركاته أينما سار حتى تمكن من القبض عليه أخيرا في جبل كيانة بالقرب من المسيلة؛ حيث وضع في قفص ونقل إلى المهدية. ويقال أنه سلخ لما مات وحشي جلده تبنا؛ ووضع مع قرد في قفص. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

أمَّا النفاق فقدْ نسَخْ   وَأبُو الكبَائر قدْ سُلِخْ
كانَ الفوَيسِقُ مُخلدٌ   قرْداً ولَكنْ قدْ مسخْ
لوْ قدْ رَأيتَ محلهُ   وَبنو الحداية تَصْطرِخْ

---

[1] وفي سوسة يقول أحد شعرائها آنئذ وهو أحمد بن افلح:

ألَمَّ بِسُوسَةَ وَبَغَى عَلَيْهَا   ولَكِنَّ الإلَهَ لَهَا نَصِيرُ
مَدِينَةُ سُوسَةَ لِلْمَغْرِب ثغْرٌ   يَدِينُ لَهَا المَدائِنُ وَالثُّغورُ
لَقَدْ لُعِنَ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيهَا   كَمَا لُعِنَتْ قُرَيْضَةَ وَالنَّضِيرُ
أعَزَّ الدِّينَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ   بِسُوسَةَ بَعْدَمَا الْتَوَتِ الأمُورُ

لرَأيتَ مَا عَقَــدَ اللعِيــ ـــنُ بِلُطفِ رَبكَ قَد فُسِخْ

وقـــال أحدهـــم في أخـــرى:

... فَسلَختهُ مِنْ جِلــدِهِ وَحَشَوتهُ حَشْــوَ المَزَاوِدْ

وَضَرَبتـــهُ مَثلاً يَسِيــ ـــر فِي الأقارِبِ وَالأبَاعِدْ

وَرَدَتْ بـــهِ أطماعـــهُ وَظُنونـــهُ شرَّ المـــوَارِدْ

وزحـــف المنصـــور نحـــو تيهـــرت ــ بعـــد القبـــض عـــلى أبي يزيـــد ــ حيـــث ضبـــط الأمـــور بهـــا؛ وانتقـــم مـــن الخارجيـــن عـــن طاعـــة الدولـــة الفاطميـــة؛ الأمـــوات[1] منهـــم والأحيـــاء. وكذلـــك الحـــال في القيـــروان؛ إذ نقـــل ابـــن عـــذاري عـــن ابـــن حمـــادوه خبـــر عمليـــات التنكيـــل الـــتي سلطهـــا المنصـــور عـــلى بعـــض سكـــان القيـــروان.[2] ومـــن إنجـــازات المنصـــور العمرانيـــة تشييـــده لمدينـــة صبـــرة الـــتي سماهـــا المنصوريـــة؛ حيـــث أمـــر بالبـــدء في بنائهـــا سنـــة 336هــ(947م)؛ إذ انتقـــل إليهـــا تاركـــا المهديـــة، الـــتي تهدمـــت جـــل أحياؤهـــا.

---

[1] قـــال محمـــد الصنهـــاجي: ((ثـــم انصـــرف إسماعيـــل إلى المسيلـــة، وتوجـــه منهـــا إلى تاهـــرت يـــوم الثلاثـــاء، لســـت بقيـــن مـــن صفـــر مـــن هـــذه السنـــة؛ فلمـــا وصـــل إليهـــا أمـــر بنبـــش عظـــام مصالـــة وفضـــل بـــني حبـــوس، وأحرقهـــا بالنـــار، وأحـــرق منبـــر جامعهـــا؛ لكونـــه خطـــب عليـــه لعبـــد الرحمـــن بـــن محمـــد (الخليفـــة الناصـــر الأمـــوي) وأقـــام بهـــا أيامـــا وولى عليهـــا)). أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص: 45.

[2] قال ابـــن عـــذاري: ((وقـــال ابـــن حمـــادوه: "ولمـــا ظفـــر بـــأبي يزيـــد؛ نهـــض إلى القيـــروان؛ فدخلهـــا في هـــذه السنـــة؛ فقتـــل مـــن أهلهـــا خلقـــا، وعـــذب آخريـــن؛ ولـــم يزالـــوا معـــه في الامتحـــان إلى أن هلـــك")). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 220.

ومما نسب للمنصور أيضا سعيه لإعادة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة؛ بعد أن انتزعه منها القرامطة. وهنا يظهر هذا الخبر مغلفا بكثير من الغموض والاضطراب؛ إذ يزعم بعض المؤرخين أن المنصور انتقل بنفسه للمشرق لإعادة الحجر الأسود إلى موضعه؛ بينما يرى آخرون أن القرامطة هم الذين أرجعوه بأنفسهم بعد أن هددهم المنصور؛ ومنهم أيضا من أشار لموضوع إعادة الحجر دون التطرق لدور الفاطميين في ذلك.[1] والخلاصة أن وفاة إسماعيل المنصور حدثت في سنة 341هـ(952م)؛ بينما كان في عز شبابه؛ إذ لم يتجاوز عمره آنئذ تسع وثلاثين سنة. ويقال أن سبب موته هي قرحة في كبده؛ تسببت في حدوث إسهال شديد لديه؛ فتوفي نتيجة لذلك الإسهال الحاد.

---

[1] **يقول ابن عذاري: ((وفي سنة 339 تحرك أبو طاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام؛ وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المُطِيع. وكان الذي اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي ــ لعنه الله ــ في سنة 317؛ في أيام المقتدر العباسي ــ رحمه الله ــ والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علاج ــ لعنه الله ــ ولما مات القرمطي؛ وجه اخوته الحجر؛ فرد إلى موضعه في هذه السنة؛ ووضعه بيده حسين بن المروذي الكناني)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220. غير أن أقوالا أخرى تخالف هذا الرأي؛ وردت في الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 335.**

ـ حكومـة المعـز لديـن اللـه معـد بـن إسماعيـل:

خلـف المعـز لديـن اللـه والـده إسماعيـل في سـدة الملـك بإفريقيـة وبـلاد المغـرب سنـة 341هـ(952م) كمـا جـاء في أشهـر الأقـوال. وكـان مولـد هـذا الخليفـة بالمهديـة سنـة 319هـ(931هـ) ولمـا ولي الخلافـة كـان عمـره في حـدود اثنيـن وعشريـن سنـة. ويعتبـر المعـز مـن أشهـر الخلفـاء الفاطمييـن علـى الإطـلاق؛ إذ شـاع ذكـره في العالـم الإسـلامي؛ نظـرا لكونـه أول مـن تغلـب علـى مصـر بالكامـل، ونقـل مركـز الخلافـة الفاطميـة إليهـا. وتقـول المصـادر التاريخيـة أنـه بـدأ عهـده في سنـة 342هـ(953م) بالخـروج إلى جبـل أوراس في جيـش عظيـم؛ بغـرض تأديـب وإخضـاع مـن بـقي متمـردا عـن الدولـة؛ مـن أتبـاع أبي يزيـد. فسلـط غضبـه علـى قبيلـتي: هـوارة ومليلـة المنحازتيـن ـ سابقـا ـ إلى أبي يزيـد؛ ولـم تثنهـم موتـه عـن مواصلـة العصيـان، والخـروج عـن طاعـة الدولـة الفاطميـة. وبعـد أن حقـق المعـز هدفـه نحـو الخـوارج ـ مـن بقايـا أنصـار أبي يزيـد ـ اتجـه صـوب المغـرب الأقـصى؛ حيـث بعـث إلى تلـك الديـار سنـة 347هـ(958م) خادمـه الـوفي ـ الـذي بـدأ نجمـه يسطـع؛ جوهـر الكاتـب ـ قصـد تطويـع القبائـل المتمـردة مـن زناتـة ومكناسـة وغيرهمـا.[1]

---

[1] **قـال المقريـزي في تلخيـص لخبـر ابـن الأثيـر: ((وفي سنـة سبـع وأربعيـن عظـم أمـر أبي الحسـن جوهـر عنـد المعـز، وعـلا محلـه، وصـار في رتبـة الـوزارة؛ فسيـره في صفـر منهـا علـى جيـش كثيـف؛ فيهـم الأمـير زيـري بـن منـاد**

وفي سنة 355هـ(965م) شرع المعز لدين الله في التمهيد للعمل الهام الذي شغله وحلم به هو آبائه منذ قيام دولتهم؛ ويتمثل ذلك الحلم في السعي بدون كلل للاستيلاء على مصر؛ التي ستكون خطوة أمامية في سبيل إسقاط الخلافة العباسية ببغداد، وقيام الدولة الفاطمية بدلا منها. وعليه فقد أمر بالشروع في حفر آبار الماء بين مصر وإفريقية؛ وكما أمر أن يبنى له عدة قصور على طول الطريق؛ فنفذ ما أمر به. وفي تلك السنة بالذات وصل خبر وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر؛ فازداد المعز لهذا عملا وإصرارا في سبيل تحقيق حلمه؛ فبادر إلى جمع المال والعتاد اللازمين للمهمة الكبرى؛ ويقال أنه خصص سنة 357هـ(967م) للحملة المقبلة على مصر مبلغا من المال يقدر بأربعة وعشرين ألف دينار؛ وضعت كلها تحت تصرف القائد الفاطمي جوهر الصقلي.[1]

الصنهاجي وغيره؛ فسار إلى تاهرت، وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس؛ فنازلها مدة، وسار إلى سجلماسة؛ وقد قام بها رجل وتلقب بالشاكر، وخوطب بأمير المؤمنين؛ ففر من جوهر؛ فتبعه حتى أخذ أسيرا. ومضى جوهر إلى البحر المحيط؛ فأمر أن يصاد من سمكه، وبعثه في قلال إلى المعز؛ وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها، ثم عاد فقاتل أهل فاس حتى افتتحها عنوة، وقبض على صاحبها، وجعله مع صاحب سجلماسة في قفصين، وحملهما إلى المعز بالمهدية، وعاد في أخريات السنة)). اتعاظ الحنفا، ص ص: 134 ـ 135.

[1] اتعاظ الحنفا، ص ص: 138 ـ 139.

وتحـــرك الجيـــش الفاتـــح مـــن القيـــروان نحـــو مصـــر يـــوم السبـــت رابـــع عشـــر شهـــر ربيـــع الأول مـــن سنـــة ثمـــان وخمسيـــن وثلاثمائـــة؛ فوصـــل إلى مصـــر في يـــوم الثلاثـــاء ثامـــن عشـــر شعبـــان مـــن السنـــة نفسهـــا.[1] وقـــال محمـــد بـــن هـــاني الأندلـــسي مودعـــا الجيـــش ومادحـــا جوهـــر الكاتـــب في قصيـــدة طويلـــة نذكـــر منهـــا:

رَأيتُ بِعيـــنِي فوقَ مَا كنتُ أسمـــعُ
وَقدْ رَاعـــنِي يوْمٌ مِنَ الحشرِ أرْوَعُ
غـــدَاة كـــأنَّ الأفـــقَ ســـدَّ بمثلـــهِ
فَعَادَ غرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيثُ تَطـــَعُ
فلـــمْ أدْرِ إذْ سلمـــتُ كيـــفَ أشيـــعُ
ولَـــمْ أدْرِ إذْ شيعـــتُ كيـــفَ أوَدِّعُ
وَكيفَ أخُوضُ الجَيْشَ وَالجَيْشُ لُجَة
وَإنِّي بمنْ قدْ قـــادَهُ الدَّهـــرُ مُولـــعُ
وَأينَ وَمَا لِي بَينَ ذَا الجَمعِ مَسْلَـــكٌ
وَلاَ لِجوَادِي فِي البسِيطـــةِ مَوْضِـــعُ
ألاَ إنَّ هذَا حَشْـــدُ مَنْ لمْ يـــذُقْ لـــهُ
غِرَارَ الكرَى جَفنٌ وَلاَ باتَ يَهجـــعُ

[1] النجـــوم الزاهـــرة، ج: 4، ص: 28.

نَصِيحَتــهُ لِلمُلــكِ سَدَّتْ مَذَاهِــبِي

وَمَا بَينَ قيدِ الرُّمْحِ وَالرُّمحِ إصْبَــعُ

فقدْ ضَرِعَتْ مِنهُ الرَّوَاسِي لِمَا رَأتْ

فكيفَ قلوبُ الإنس وَالأنسُ أضْــرَعُ

فلاَ عَسْكرٌ مِنْ قَبلِ عَسْكــرِ جَوْهــرٍ

تخبُّ المَطايــا فِيهِ عَشراً وَتُوضِــعُ

تَسيــرُ الجبــالُ الجامِــدَاتُ بسيــرِهِ

وَتسجدُ مِنْ أدنَى الحَفِيفِ وَترْكَــعُ

إذَا حــلَّ فِي أرْضٍ بَناهــا مَدَائنــاً

وَإنْ سَارَ عَنْ أرْضٍ ثوَتْ وَهْيَ بَلقعُ

إلى أن يقــول:

وَنودِيَ بِالترْحَالِ فِي فَحمةِ الــدُّجَى

فَجَاءَتهُ خيلُ النَّصْرِ تَرْدِي وَتَمــزَعُ

فلاَحَ لها مِنْ وَجْهــهِ البدْرُ طالعــاً

وَفِي خــدِّهِ الشِّعرَى العبورُ تَطلــعُ

وَأضْــحَى مــرَدَّى بِالنجــادِ كأنــهُ

هِزَبرُ عَرِينٍ ضَــمَّ جَنبيــهِ أشجــعُ

فكبــرَتِ الفرْســانُ للـــهِ إذْ بــدَا
وَظــلَّ السِّــلاَحُ المُنتضَى يَتقعْقــعُ

ثــم أضــاف:

فسِــرْ أيها الملــكُ المطاعُ مُؤَيــداً
فلِدِّيـــــنِ وَالدُّنيــا إليــكَ تطلــــعُ
وَقدْ أشعرَتْ أرْضُ العِرَاقينِ خيفــة
تَكادُ لَهــا دَارُ السَّــلاَمِ تضَعضــعُ
وَأعطــتْ فِلسْطِينُ القِيــادَ وَأهلُهــا
فلــمْ يبــقَ مِنهــا جَانــبٌ يَتمَنــعُ
وَمَا الرَّمْلة المَقصُورَة الحَظْوِ وَحْدَهَــا
بأوَّلِ أرْضٍ مَا لهَا عَنــكَ مَفــزَعُ
وَمَا ابْنِ عُبيْدَ اللــهِ يَدْعوكَ وَحــدَهُ
غدَاةَ رَأى أنْ ليسَ فِي القوْسِ مَنزَعُ
بَلِ الناسُ، كلُّ الناسِ يَدْعُوكَ، غيْرَهُ
فــلاَ أحــدٌ إلاَّ يــذِلُّ وَيخضــعُ
وَإنَّ بأهــلِ الأرْضِ فقــراً وَفاقــة
إلَيــكَ وَكلُّ الناسِ آتيــكَ مهطــعُ

ألاَ إنمَا البُرْهــانُ مَا أنتَ مُوضِــحٌ

مِنَ الرَّأيِ وَالمِقدَارُ مَا أنتَ مُزْمِــعُ

رَحَلْــتَ إلَى الفسْطَاطِ أيمنَ رِحْلَــةٍ

بأيمنِ فَــالٍ فِي الذِي أنتَ مُجْمِــعُ

وَلمَّا حَثَثْــتَ الجَيْــشَ لاَحَ لأهلِــهِ

طرِيــقٌ إلَى أقصَى خرَاسَانَ مَهيــعُ

ثــم قــال:

وَمَا جهِلتْ مِصرٌ وَقدْ قِيلَ مَنْ لَهَــا

بِأنــكَ ذَاكَ الهبــرزِيُّ السميــذَعُ

وَأنــكَ دُونَ النــاسِ فاتــحُ قفلِهــا

فأنــتَ لهــا المرْجــوُّ وَالمُتوَقــعُ

فإنْ يــكُ فِي مِصْرٍ رِجالُ حلومِهــا

فقدْ جَاءَهمْ نِيلٌ سِوَى النيــلِ يَهــرَعُ

وَيممهــمْ مَــنْ لاَ يَغيــرُ بنِعمــةٍ

فيسْلبهــمْ لكِــنْ يَزِيــدُ فيوسِــــعُ

ويبـــدو أن الـــذي شجـــع المعـــز لإرســـال جيشـــه إلى مصـــر هـــو مـــا أصبحـــت عليـــه الأوضـــاع الاقتصاديـــة والاجتماعيـــة المترديـــة في مصـــر بعـــد مـــوت كافـــور؛ إذ يقـــال أن بعـــض المصريين قـــد بعثـــوا إليـــه مستنجديـــن بـــه، ومحفزيـــن إيـــاه لفتـــح البـــلاد، وطـــرد الاخشيذيين.[1] ولمـــا أصبحـــت مصـــر في يـــد الفاطميين؛ بـــادر جوهـــر مـــن يومـــه الأول إلى رفـــع الدعـــوة في المنابـــر باســـم

---

[1] قـــال يوسـف بـن تغـري بـردي: ((كـان قـد انخـرم نظـام مصـر بعـد مـوت كافـور الإخشيـذي؛ لمـا قـام عـلى مصـر أحمـد بـن عـلي بـن الإخشيـذ وهـو صغيـر؛ فصـار ينـوب عنـه ابـن عـم أبيـه الحسـن بـن عبيـد اللـه بـن طغـج، والوزيـر – يومئـذ – جعفـر بـن الفـرات؛ فقلـت الأمـوال عـلى الجنـد؛ فكتـب جماعـة منهـم إلى المعـز لديـن اللـه معـد؛ وهـو بالمغـرب يطلبـون منـه عسكـرا ليسلمـوا إليـه مصـر؛ فجهـز المعـز جوهـرا هـذا بالجيـوش والسـلاح في نحـو ألـف فـارس أو أكثـر؛ فسـار جوهـر حـتى نـزل بجيوشـه إلى تروجـة بقـرب الإسكندريـة؛ وأرسـل إلى أهـل مصـر؛ فأجابـوه بطلـب الأمـان، وتقريـر أملاكهـم لهـم؛ فأجابهـم جوهـر إلى ذلـك، وكتـب لهـم العهـد. فعلـم الإخشيذيـة بذلـك؛ فتأهبـوا لقتـال جوهـر المذكـور؛ فجاءتهـم مـن عنـد جوهـر الكتـب والعهـود بالأمـان؛ فاختلفـت كلمتهـم؛ ثـم اجتمعـوا عـلى قتالـه، وأمـروا عليهـم ابـن الشويـزني، وتوجهـوا لقتالـه نحـو الجيـزة وحفظـوا الجسـور؛ فوصـل جوهـر إلى الجيـزة، ووقـع بينهـم القتـال في= =حـادي عشـر شعبـان، ودام القتـال بينهـم مـدة، ثـم سـار جوهـر إلى منيـة الصياديـن، وأخـذ مخاضـة منيـة شلقـان؛ ووصـل إلى جوهـر طائفـة مـن العسكـر في مراكـب؛ فقـال جوهـر للأميـر جعفـر بـن فـلاح: "لهـذا اليـوم أرادك المعـز لديـن اللـه!"فعبـر عريانـا في سراويـل وهـو في موكـب ومعـه الرجـال خوضـا؛ والتـقى مـع المصريين، ووقـع القتـال بينهـم، وثبـت كـل مـن الفريقيـن؛ فقتـل كثيـر مـن الإخشيذيـة، وانهـزم الباقـون بعـد قتـال شديـد. ثـم أرسلـوا يطلبـون الأمـان مـن جوهـر فأمنهـم؛ وحضـر رسولـه ومعـه بنـد وطـاف بالأمـان ومنـع مـن النهـب؛ فسكـن النـاس وفتحـت الأسـواق، ودخـل جوهـر مـن الغـد إلى مصـر في طبولـه وبنـوده)). النجـوم الزاهـرة، ج: 4، ص ص: 30 – 31.

الخليفـــة المعـــز لديـــن اللـــه الفاطـــمي؛ كمـــا ألـــزم المؤذنيـــن بإتبـــاع نـــص الأذان المتبـــع عنـــد الشيعـــة؛ وأمـــر بتـــرك شعـــار الســـواد، ولبـــس الأبيـــض مـــن اللبـــاس. وبعدهـــا أرســـل بالبشـــرى إلى المعـــز يعلمـــه بما فتـــح اللـــه لـــه. فوصلـــت الأخبـــار إلى القيـــروان في رمضـــان مـــن سنـــة 358هـ(968م).

وبهـــذا يكـــون قـــد امتـــد الزمـــن بالخلفـــاء الفاطمييـــن ببـــلاد المغـــرب؛ حـــتى حـــل عهـــد المعـــز لديـــن اللـــه معـــد بـــن المنصـــور ــ وهـــو رابـــع ملوكهـــم ــ حيـــث استطاعـــت الدولـــة الفاطميـــة ــ في عهـــد هـــذا الخليفـــة ــ تحقيـــق أعظـــم إنجازاتهـــا السياسيـــة؛ إذ تمكنـــت مـــن نشـــر سلطانهـــا عـــلى ديـــار مصـــر كلهـــا؛ ثـــم الحجـــاز وبـــلاد الشـــام بعـــد ذلـــك؛ ومـــن ثمـــة أصبحـــت تهـــدد الخلافـــة العباسيـــة بحـــق. ومـــا أن وصلـــت البشائـــر بالفتـــح؛ حـــتى أنشـــد شاعـــر البـــلاط الفاطـــمي؛ محمـــد بـــن هـــاني الأندلـــسي قصيدتـــه الشهيـــرة الـــتي قـــال فيهـــا مادحـــا الخليفـــة المعـــز:

تقولُ بَنو العَبَاسِ هل فتِحَتْ مِصْـــرُ
فقلْ لِبنِي العبـــاسِ قدْ قضِيَ الأمـــرُ
وَقدْ جـــاوَزَ الإسكِندَرِيـــة جوْهـــرٌ
تُطالعـــهُ البشرَى وَيَقدُمـــهُ النصْـــرُ
وَقدْ أوفـــدَتْ مِصـــرٌ إليهِ وُفودَهـــا
وَزيدَ إلَى المَعْقودِ مِنْ جسْرِها جِسرُ

فما جاءَ هذَا اليــوْمُ إلاَّ وَقدْ غــدَتْ
وَأيدِيكـــمُ مِنها وَمِنْ غيرِها صِفِــرُ
فلاَ تكثرُوا ذِكرَ الزَّمانِ الذِي خـــلاَ
فذَلكَ عصرٌ قدْ تقضَّى وَذَا عصْـــرُ
أفِي الجيشِ كنتمْ تَمْترُونَ، رُوَيدَكـــمْ
فَهذَا القنا العَرَّاصُ وَالجَحْفلُ المَجــرُ
وَقدْ أشرَفَــتْ خيلُ الإلـــهِ طوَالعـــاً
عَلَى الدِّينِ وَالدُّنيا كَما طلعَ الفجــرُ
وَذَا ابنُ نبيِّ اللـــهِ يطلـــبُ وِتــرَهُ
وَكانَ حــرٍ أنْ لاَ يضِيعَ لـــهُ وِتــرُ
ذَرُوا الورْدَ فِي مَاءِ الفرَاتِ لِخيلِـــهِ
فلاَ الضَّحلُ مِنهُ تَمنَعُونَ وَلاَ الغمــرُ
أفِي الشمْسِ شكٌ أنها الشَّمسُ بَعدَمَـــا
تَجلتْ عِياناً ليسَ مِنْ دُونهـــا سِتــرُ
وَمـــا هِيَ إلاَّ آيـــة بعـــدَ آيــــةٍ
وَنـــذْرٌ لكمْ إنْ كانَ يغنِيكـــمُ النـــذرُ
فكونوا حَصِيداً خامِدِينَ أوِ ارْعــوُوا
إلَى مَلِكٍ فِي كفـــهِ المَوْتُ وَالنشــرُ

أطيعــوا إمامــاً للأئمـــةِ فاضـــلاً

كما كانتِ الأعمـــالُ يفضُلهـــا البـــرُّ

ردُوا سَاقيـــاً لاَ تنزِفـــونَ حِياضـــهُ

جموماً كما لاَ تنزِف الأبحرُ الـــذُّرُّ

فإنْ تتبعـــوهُ فهوَ موْلاَكـــمُ الـــذِي

لهُ برَســولِ اللـــهِ دُونكـــمُ الفخـــرُ

وَإلاَّ فبعـــداً لِلبعِيـــدِ فبينـــهُ

وَبينكـــمُ مـــا لاَ يقرِّبـــهُ الدَّهـــرُ

أفِي ابنِ أبِي السِّبطَينِ أمْ فِي طلِيقِكمُ

تنزَّلـــتِ الآيـــاتُ وَالســـوَرُ الغـــرُّ؟

ومـــا أن استقـــر جوهـــر في مصـــر؛ حـــتى بـــادر إلى بنـــاء جامـــع الأزهـــر، وبعـــض الأحيـــاء مـــن المدينـــة الـــتي سماهـــا القاهـــرة؛ حســـب وصيـــة المعـــز. ثـــم جـــرد في سنـــة 359هــ(969م) جيشـــا بقيـــادة جعفـــر بـــن فـــلاح الكتـــامي لفتـــح بـــلاد الشـــام؛ فكـــان لـــه ذلـــك؛ إذ تمكـــن ذلـــك القائـــد الكتـــامي مـــن أســـر الحســـن بـــن عبـــد اللـــه ابـــن طغـــج بالرملـــة؛ ثـــم زحـــف عـــلى طبريـــة ودمشـــق؛ فصالـــح الأولى وتغلـــب عـــلى الثانيـــة بسيـــف القـــوة والقهـــر. وفي سنـــة 361هــ(971م) تحـــرك المعـــز لديـــن اللـــه نحـــو مصـــر؛ تاركـــا بـــلاد المغـــرب بيـــن أيـــدي

الصنهاجيين من بني زيري؛ وذلك أنه قرر نقل سلطات الدولة الفاطمية إلى المشرق بعد أن تم بناء القاهرة؛ من خلال انتقاله هو بنفسه إليها؛ واستقراره بها. وتعتبر هذه الفترة نهاية لمجال هذه الدراسة؛ المخصصة للدول التي قامت وسقطت في المغرب والأندلس لا غير. لذا فأحداث الدولة الفاطمية بالمشرق تخرج عن هذا السياق.

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

وفيما يخص المنجزات الثقافية والحضارية التي تمت في الدولة الفاطمية؛ يمكن استخلاص أن لهذه الدولة مرحلتين متباينتين: الأولى تمتد عبر حياة الدولة في بلاد المغرب، والثانية تمثلها الفترة الزمنية التي انتقل فيها مركز الدولة إلى بلاد المشرق. ومع أن هذه الفترة المشرقية تزخر بالإنجازات الرائعة والأعمال العظيمة إلا أنها خارجة عن اهتمام هذه الدراسة. لذا ستترك لمجال آخر. وأما حياة الدولة في بلاد المغرب فلم تكن كلها حبلى بالأعمال الجليلة؛ من حيث الإنجازات الحضارية والنشاطات الثقافية؛ إذ كانت في معظمها مليئة بالحروب والفتن؛ الأمر الذي لم يسمح للقائمين بشئون الدولة أن يتفرغوا ـ بشكل أوسع ـ للإنجازات الحضارية، والنشاط الثقافي؛ تلك الإنجازات؛ التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل الاستقرار والأمن؛ كما أن النشاط الثقافي لا يتحقق

وينمو إلا عندما تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية في وضع جيد. لذا فقد كانت منجزات الدولة الفاطمية: العمرانية والثقافية في بلاد المغرب؛ تتم في محيط قبلي ضيق، ومنغلق على نفسه؛ وقد ازداد تضييقا وانغلاقا بسبب التوجه المذهبي المتعصب لأصحاب الدولة الفاطمية؛ ذلك التوجه المبني على أساس أن الدولة الفاطمية كانت تستخدم الثقافة باستمرار لتحقيق أغراض سياسية وعسكرية ومذهبية؛ تلك الأغراض التي حرصت الدولة الفاطمية على ترسيخها وتمتين أسسها؛ لكي تحقق سيطرة وهيمنة مذهبها الشيعي في كامل أقطار المغرب.

ويتضح هذا التوجه من خلال ما استحدث وأنجز من منشآت عمرانية في هذه الربوع؛ إذ كل ما أنجز في ظل الدولة الفاطمية ببلاد المغرب؛ يخدم بالأساس أهدافا عسكرية وسياسية قبل كل شيء؛ فالمدن ــ مثلا ــ التي بنيت في تلك الفترة كـ: المهدية والمحمدية والمنصورية؛ كلها تدخل في هذا المعنى. وما أستحدِث أيضاَ من أعمال ثقافية؛ كانت كلها تخدم المذهب الشيعي فقط؛ بل كان القائمون على هذه الدولة يقمعون كل إنجاز ثقافي يخالف تعاليم مذهبهم. إذ وصل بهم الحد إلى إتلاف كل الأعمال التي كانت قائمة قبل دولتهم، تلك الأعمال التي تتعارض مع معتقداتهم المذهبية؛ من ذلك مثلا ما قاموا به تجاه مكتبة المعصومة

بتيهرت؛ التي يقال ــ إن صح الخبر ــ أن أبا عبد الله ــ الداعية الشيعي ــ أتلف معظم مجلداتها؛ التي تبلغ نحو الثلاثمائة ألف من المجلدات؛ ولم يترك منها سوى الكتب التي وجد انه سيستفيد منها؛ وهي الكتب ذات الطابع العلمي والتقني؛ ويقال أن ما حدث للمعصومة حدث أيضا لمكتبة الأغالبة بالقيروان. ومع ذلك فقد استفادت الدولة الفاطمية واستعانت بما ورثته عن الدول التي تغلبت عليها في بلاد المغرب؛ مثل: الدولة الأغلبية والدولة الرستمية والدولة المدرارية والدولة الإدريسية وغيرها؛ من إنجازات عمرانية، وتراث علمي وثقافي؛ إذ استولى الفاطميون على خزائن الكتب التي وجدت في تلك الدول المنهارة. كما أن جل علماء الدولة وأدبائها وشعرائها؛ ورثتهم عن دولة القيروان؛ وحتى كبار موظفيها وفقهائها كانوا من أتباع الدولة الأغلبية قبل ذلك؛ وإن كان بعضهم ينتمي ــ في السابق ــ إلى مذاهب غير المذهب المالكي؛ مثل: الفقيه إسحاق بن أبي المنهال؛ المتمذهب بالحنفية قبل ظهور الشيعة. والفقيه علي ابن منصور الصفار؛ الذي كان من أتباع سعيد ابن الحداد، والفقيه عبد الملك بن محمد الضبي المعروف بابن البردون؛ الذي كان مالكيا من قبل، والفقيه أبي بكر بن سليمان؛ الحنفي المذهب كذلك؛ وغيرهم.

وجملة القول إنه كان لهذه الدولة ببلاد المغرب نشاط ثقافي معين؛ في حدود ما يسمح به المذهب الشيعي؛ حيث عمل أصحاب الدولة على نشر مذهبهم الشيعي بواسطة الدعاة والخطباء؛ وبواسطة المدارس التي أنشئت في ربوع الدولة؛ بغرض تعليم الصغار والكبار مبادئ المذهب الإسماعيلي؛ وهي المدارس التي عرفت بمدارس الدعوة. كما كان للآداب والشعر حظوة لدى ملوك الدولة وأمرائها. حيث كان أئمة الدولة يقرضون الشعر ويتذوقونه؛ بدءا بعبيد الله المهدي؛ الذي يعتبر هو نفسه من علماء الشيعة الباطنية؛ ويقال أنه ألف بعض الكتب؛ منها كتاب الأسرار. كما كان يقرض الشعر أحيانا. ومن الشعر المنسوب إليه هذه الأبيات التي بعث بها لسعيد بن صالح صاحب نكور يتوعده:

فإنْ تَستقيموا أستقمْ لِصَلاَحكمْ
وَإنْ تعدِلوا عنِّي أرَى قتلكم عدْلاَ
وَأعلو بسيفِي قاهراً لسيوفكم
وَأدْخلها عفواً وَأملؤُها قتلاَ

ثـم إن الداعيـة أبـا عبـد اللـه الشيـعي ـ أيضـا ـ كـان مـن العلمـاء المتفقهيـن في المذهـب الإسماعيـلي؛ وقـد عـرف بالقـدرة عـلى الإقنـاع؛ والتمكـن مـن فنـون الخطابـة؛ وحـب الآداب. وكـان ولـده أبـو القاسـم يقـرض الشعـر أيضـا. كمـا اشتهـر كذلـك إسماعيـل المنصـور بالفصاحـة والبيـان، وبالتفنـن في الخطابـة، والقـدرة عـلى اختـراع الخطبـة ارتجـالا في حينهـا. أمـا المعـز لديـن اللـه فقـد كـان يحسـن عـدة لغـات؛ منهـا: العربيـة والأمازيغيـة واللاتينيـة والصقلبيـة والإسبانيـة والسودانيـة؛ وكـان يقـول: ((**واللـه مـا تلـذذت بـشيء تلـذذي بالعلـم والحكمـة**)). ويقـول فيـه القـاضي النعمـان: ((**نظـر في كـل فـن وبـرع في كـل علـم**)). وهـو إلى جانـب كـل ذلـك يقـرض الشعـر؛ ومـن شعـره:

أطلـعَ الحسنُ مِنْ جبينـكَ شمسـا
فـوقَ وَرْدٍ فِي وَجنتيـك أظـلاًّ
وَكأنَّ الجمـالَ خـافَ عَلَى الـوَرْ
دِ جفافـاً فمـدَّ بالشعـرِ ظـلاًّ

وتنسـب إليـه هـذه الأبيـات أيضـا:

لِلـهِ مَـا صَنعـتْ بنـا
تلكَ المحاجرِ فِي المعاجـرْ

أمضَى وَأقــضَى فِي النفــو
س مِنَ الخناجرِ فِي الحناجرْ
وَلَقــدْ تعبـــــتُ ببينكـــــمْ
تعب المهاجرِ فِي الهوَاجــرْ

هــذا ويحتــل عصــر المعــز ــ في بــلاد المغــرب ــ الــذروة في مجــال نشــر العلــم والأدب والفنــون. ومــع هــذا يبــدو أن الشعــر كــان هــو الفــن الأكثــر حظــوة واستحسانــا لديــه، ولــدى حكــام الدولــة الفاطميــة ببــلاد المغــرب؛ لأنــه ــ في نظرهــم ــ كــان بمثابــة الســلاح الــذي يستخــدم في الدعايــة للدولــة ومذهبهــا؛ كمــا يستخــدم لتشويــه صــور الأعــداء في أذهــان النــاس. وكمــا كــان المعــز شغوفــا بالعلــوم وحفــظ اللغــات، ومحبــا للآداب والشعــر؛ فقــد ســار عــلى نهجــه جــل أبنائــه؛ فهــذا ولي عهــده العزيــز باللــه؛ الــذي ولــد في المهديــة سنــة 344هــ(955م)؛ كــان يجيــد ــ كوالــده ــ لغــات عديــدة؛ ويتمتــع أيضــاً بــذوق فــني رفيــع؛ وقــد أبــدا تسامحــا جليــلا في قضايــا الديــن والمذهــب؛ واعتــنى بنشــر العلــوم؛ إذ يعتبــر هــو صاحــب المبــادرة في جعــل الأزهــر منــارة للعلــم بمصــر.

وكــان أيضــاً يجيــد قــول الشعــر؛ ومــن شعــره هــذه الأبيــات الــتي نظمهــا في يــوم عيــد؛ جلــس فيــه للعــزاء بسبــب مــوت ولــد لــه:

نحــنُ بنو المصطفَى ذَوُو إحــنٍ
جرِّعهــا فِي الحيــاةِ كاظِمنــــا
عجيبـــة فِي الأنــامِ محنتنـــا
أوَّلنـــا مبتــــلى وَآخرُنـــا
يفــرَحَ هــذَا الــورَى بعيدِهــمْ
طـــــراً وَأفرَاحنــــا مآتمــــا

واشتهــر أيضــا ــ مــن بيــن أبنــاء المعــز ــ ولــده تميــم الــذي بــرع في الآداب وتفنــن في قــرض الشعــر؛ وهــو مــن مواليــد المنصوريــة سنــة 337هــ(948م). ولكنــه انغمــس في اللهــو والمجــون؛ وقــد تعــددت الأغــراض الــتي تناولهــا في شعــره؛ ومــن شعــره:

مَا بانَ عذْرِي فيــهِ حــتَّى عــذِّرَا
وَمــشَى الــدُّجَى فِي خدِّهِ فتحيَــرا
همــتْ تقبلــهُ عقــاربُ صُدْغِــهِ
فاسْتَــلَّ ناظِــرُهُ عليهــا خِنجــرا
وَاللــهِ لــوْلاَ أنْ يقــالَ تغيــرَا
وَصَبا وَإنْ كانَ التصَــابِي أجــدَرَا

لأعــدْتُ تفــاحَ الخـــدُودِ بنفسَجـــاً

لثمـــاً وكافـــورَ الترَائـــبِ عنبـــرَا

ومـــن شعـــره أيضـــا:

أما وَالذِي لاَ يملـــكُ الأمـــرَ غيـــرُهُ

وَمَنْ هـــوَ بالســـرِّ المكتـــمِ أعلـــمُ

لئـــنْ كانَ كتمَانُ المَصَائبِ مُؤلِمـــاً

لإعلاَنهـــا عنـــدِي أشـــدُّ وَآلـــــمَ

وَبي كلُّ مَا يبـــكِي العيـــونَ أقلـــهُ

وَإنْ كنـــتُ منـــهُ دَائمـــاً أتبســـــمُ

ولـــه كذلـــك:

وَمَا أمُّ خشفٍ ظـــلَّ يوْمـــاً وَليلـــةٍ

ببلقعـــةٍ بيـــدَاءَ ظمـــآنَ صادِيـــا

تَهيـــمُ فلاَ تـــدرِي إلَى أينَ تنتـــهِي

مُولَهـــة حيـــرَى تجوبُ الفيافيـــا

أضَّـــرَّ بها حرُّ الهجيـــرِ فلمْ تجـــدْ

لغلتهـــا مِـــنْ بـــاردِ المـــاءِ شافيـــا

فلَمَّا دَنتْ مِنْ خِشْفِهَا انعَطفـــتْ لـــهُ

فَألفتـــهُ ملهـــوفَ الجوَانـــحِ طاوِيـــا

بأوْجَـــعَ منِّي يوْمَ شـــدَّتْ حمولهـــمْ
وَنـــادَى منادِي الحيِّ أنْ لاَ تلاَقيـــا

ومـــن شعـــره أيضـــا هـــذه الأبيـــات:
يـــومٌ لنا فِي النيـــلِ مختصـــرٌ
وَلِكـــلِّ يـــوْم مســـرَّةٍ قصـــرُ
وَالسفـــنُ تصْعدُ كَالخيولِ بنـــا
فيـــهِ وَجيـــشُ المـــاءِ ينحـــدِرُ
فكأنمـــــا أموَاجـــهُ عكـــــنٌ
وَكأنمـــــا دَارَاتـــــهُ ســـــرَرُ

وممـــا قـــال أيضـــا:
اشرَبْ عَلَى غيمٍ كصبِغِ الـــدُّجَى
أضحكَ وَجهَ الأرْضِ لما بـــكَى
وَانظـــرْ لماءِ النيـــلِ فِي مـــدِّهِ
كأنمـــا صنـــدل أوْ مسكـــــا

ومـــن شعـــره الـــذي يفتخـــر فيـــه:
أنا ابنُ المعـــزِّ سليـــل العـــلا
وَصِنـــوُ العزِيـــزِ إمام الهـــدَى

سمـــا بي معـــدٌ إِلَى غايـــةٍ
مِنَ المَجــدِ مَا فوقهـــا مرتـــقَى
فرُحـــتُ بها فاطِـــمِيٌّ النجـــارِ
حسينيـــهُ علـــــوِيٌّ الجـــنى
وَمَا احتجتُ يوْمـــاً إِلَى ناصِـــرٍ
وَلاَ رُحتُ يوْماً ضَعِيف القـــوَى

وقـــد بـــرز في هـــذه الدولـــة كذلـــك شعـــراء محترفـــون، وآخـــرون جعلـــوا مـــن الشعـــر وسيلـــة للترويـــح عـــن النفـــس، والتعبيـــر عمـــا تنطـــوي عليـــه صـــدورهـــم مـــن مشاعـــر وأفكـــار. وضمـــت أيضـــا إليهـــا عـــددا كبيـــرا مـــن العلمـــاء في الديـــن واللغـــة، وقـــادة عسكرييـــن وأمـــراء يهتمـــون بالعلـــم والثقافـــة. وفي هـــذا السيـــاق نذكـــر أهـــم علمـــاء الدولـــة الفاطمييـــن في الفتـــرة المغربيـــة؛ وأولهـــم بالطبـــع هـــو:

ــ أبـــو عبـــد اللـــه الحسيـــن بن أحمـــد بن محمد بن زكريـــاء؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم والداعية الشيـــعي: ويعتبـــر هـــذا الداعيـــة المتميـــز هـــو المؤســـس الحقيـــقي للدولـــة الفاطميـــة. وكـــان أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي ــ كمـــا لا يخـــفى ــ مـــن العلمـــاء البارزيـــن في المذهـــب الشيـــعي؛ كمـــا كـــان خطيبـــا قـــوي الحجـــة. وقـــد وصفـــه ابـــن الأثيـــر بقولـــه: ((**وكـــان لـــه علـــم وفهـــم ودهـــاء**

ومكــر)).[1] ويقــول المقريــزي أن أصلــه مــن رَامَ هُرْمُــزْ بخراســان؛ وولــد بالكوفــة؛ غيــر أن بعضهــم كابــن الأثيــر ينسبــه إلى اليمــن؛ إذ يسميــه الصنعــاني نسبــة إلى صنعــاء. وثمــة مــن يقــول أنــه اشتغــل ــ في بدايــة الأمــر ــ في التعليــم؛ حيــث كــان مــن العلمــاء المعلميــن في مذهــب الإماميــة الباطنيــة. بينمــا يقــول آخــرون أنــه كــان محتسبــا في ســوق الغــزل بالبصــرة.[2] ويقــول عنــه القــاضي النعمــان بــن محمــد: **((كــان أبــو عبــد اللــه هــذا مــن الكوفــة؛ واسمــه الحسيــن بــن أحمــد بــن محمــد بــن زكريــا؛ وكــان ذا علــم وعقــل وديــن وورع وأمانــة ونزاهــة؛ وكــان أكثــر علمــه الباطــن؛ ونظــر في علــم الظاهــر نظــراً لــم يبالــغ فيــه))**.[3] ويقــال أنــه اتصــل بالإمــام محمــد بــن جعفــر؛ فأعجــب بــه، وبعثــه إلى أبي القاســم بــن حوشــب داعيــة الشيعــة في اليمــن؛ حيــث أكمــل أعــداده هنــاك للقيــام بالمهمــة الــتي تنتظــره؛ وذلــك مــا تجــلى مــن خــلال تكليفــه بأمــر الدعــوة في بــلاد المغــرب.

---

[1] **الكامــل في التاريــخ، ج: 6، ص: 127.**

[2] **اتعــاظ الحنفــا، ص: 68.**

[3] **رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص: 59.**

وبعد أن اكتمل تكوينه خرج إلى مكة لأداء فريضة الحج؛ أين تعرف على بعض الحجيج من قبيلة كتامة؛[1] فرافقهم إلى المغرب؛ دون أن يفصح عن الغرض الحقيقي لهجرته معهم. ولما حلت الفرصة المناسبة صرح بما تنطوي عليه نفسه، وما ينوي عمله. فلقي استجابة لدى مضيفيه، ونهضوا معه ضد الدولة الأغلبية؛ ودام الصراع مدة طويلة بين الدولة والقبائل المؤيدة لأبي عبد

---

[1] يقول ابن عذاري في هذا: ((فلما وصل للموسم ـ لا للحج؛ لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد؛ بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده ـ فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب؛ فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيل كتامة؛ ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم؛ فأخبروه بصفتها؛ وسألهم عن مذهبهم؛ فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي عن المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة؛ فدخل عليه من هذه الثُّلْمة؛ ولم يزل يستدرجهم، ويَخْلُبهم بما أوتيَ من فضل اللسان والعلم والجدل؛ إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم؛ سألوه عن أمره وشأنه؛ فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق؛ وكنت أخدم السلطان؛ ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البِرّ؛ فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال؛ فلم أرَ لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان؛ فسألت: أين يتأتى لي ذلك تأتيا حسنا؛ فذكر لي بلاد مصر". فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر؛ وهي طريقنا؛ فكن في صحبتنا إليها". ورغبوا منه في ذلك؛ فصحبهم في الطريق؛ فكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء؛ إلى أن أشربت قلوبهم محبته؛ فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم؛ فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي، أقمت بها؛ وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان". فلما وصلوا مصر، غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم اجتمعوا به وسألوه؛ فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد". فرغبوه أن يصحبهم؛ فأنعم لهم بذلك)). البيان المغرب، ج: **1**، ص ص: **124 ـ 125**.

الله؛ حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الأغلبية السنية وإعلان قيام الدولة الفاطمية الشيعية.

ــ **ثم أبو جعفر محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المَرْوَرُذي أو مرُّوذي**: وهو منسوب إلى مَرْو الروذ في خراسان. وقد اختلفت المصادر في رسم اسمه وفي تسلسل آبائه؛ ويقال أنه كان من جند خراسان. وقد كان من علماء المذهب الحنفي في القيروان[1] قبل ظهور الفاطميين؛ إلا أنه أصبح من المتعصبين للمذهب الشيعي؛ عندما تغلب الفاطميون على القيروان؛ خاصة وأن له ــ من قبل ــ ميلا للشيعة. ولما دخل أبو عبد الله الشيعي للقيروان مسقطا بذلك دولة الأغالبة؛ ولاه ــ مؤقتا ــ قضاء القيروان؛ ثم أقره في منصبه عبيد الله المهدي؛ ولكنه انقلب عليه فيما بعد؛ خاصة بعد مقتل عبيد الله الشيعي؛ وذلك بعد اتهامه بانتقاد الدولة ومعارضة المهدي؛ لذا فقد قبض عليه ورمي في إسطبل مقيد الأيدي والأرجل؛ فقتلته الدواب بحوافرها. وهكذا مات تحت العذاب في محبسه برقادة سنة 303هـ(919م) على الرغم من ولائه وإخلاصه وتفانيه في نشر المذهب الشيعي. ويقول فيه ابن عذاري: ((**ولَّى أبو عبد الله على قضاء مدينة القيروان محمد بن عمر بن يحيى بن عبد**

---

[1] تراجم أغلبية، ص: **516**.

الأعلى المروذي؛ من جند خراسان؛ يوم الخميس لاثني عشر ليلة بقيت من شعبان؛ فقعد في الجامع، وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان؛ واحتج في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الإقتداء بفعل عمر بن الخطاب في القيام، وتركهم الإقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة "حي على خير العمل" في الآذان؛ وقال لهم: "اعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول". فلما كان في أول يوم من شهر رمضان؛ أقبل المروذي إلى المسجد الجامع؛ فوجد في حائط المسجد في القبلة، في موضع جلوسه مكتوبا: "وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها" إلى آخر الآية. فلما رآه سأل القَوَمَة؛ هل رأوا من جلس في ذلك الموضع؛ فقالوا: "لا" فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوما على المرُّوذي رجُلٌ مُحمَقٌ خليعٌ، والناس حوله؛ فقال له: "قد لطفتَ لنا ــ أصلحك الله ــ في قطع قيام شهر رمضان؛ فلو احْتَلتَ في ترك صيامه؛ لَكفيتنا مَؤُونتهُ كلّها". فقال له المروذي "اذهب عنِّي يا ملعون"، وأمر بدفعه)).[1] وكان المروذي شديد التعصب ضد الفقهاء المالكية؛ إذ تسبب في قتل عدد منهم والتنكيل بآخرين.

---

[1] **البيان المغرب،، ج: 1، ص ص: 151 ــ 152.**

ـ **ثم إسحاق بن أبي المنهال**: وهو من أسرة معروفة بالعلم والجاه في القيروان، ومن العاملين في خدمة الدولة الأغلبية؛ وكان من قبل حنفي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي؛ مثله مثل المروذي وبعض فقهاء الحنفية الآخرين. ويقال أنه ولي قضاء صقلية أيام بني الأغلب؛ قبل أن يلتحق بخدمة الدولة الفاطمية؛ في المنصب نفسه بصقلية عند قيام الدولة؛ ثم ولاه عبيد الله المهدي خطة القضاء ـ بعد المروذي ـ في فترتين: الأولى من 307هـ(919م) إلى 311هـ(923م)؛ والثانية من 312هـ(924م) إلى أن مات في عهد ولده أبي القاسم. وذكر ابن عذاري السبب في عزله من منصبه وعودته إليه؛ فقال: **((وفي سنة 311هـ عزل عبيد الله إسحاق بن المنهال عن قضاء مدينة القيروان؛ يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة؛ وأخرج إليه عبيد الله من قال له: "لم نعزلك عن حرجة؛ وإنما عزلناك للينك ومهانتك". وولى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمران النفطي؛ وكان قبل ذلك في قضاء مدينة إطرابلس؛ فجمع بها أموالا كثيرة من الرِّشى والأحباس، ورفعها إلى عبيد الله؛ فكانت له وسيلة إليه))**.[1]

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص: 188.

أما عودته إلى منصبه فيقول ابن عذاري عنه: **((وفي هذه السنة [سنة 312هـ] مات بالقيروان القاضي محمد بن عمران النفطي؛ في شهر ربيع الأول؛ وكان يرتشي على الأحكام، ويستهتر في ضروب المنكر. فولى عبيد الله القضاء مكانه إسحاق ابن أبي المنهال مرة ثانية؛ وكتب في عهده: "وإنما كنا عزلناك للينك ومهانتك؛ ورددناك لدينك وأمانتك"))**.[1] وتجمع جل المصادر على أن إسحاق ابن أبي المنهال هذا قد سار على نهج المروذي في اضطهاد فقهاء المالكية والتنكيل بهم.

ـ ثم أبو حنيفة القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي: ولد هذا الفقيه بالقيروان سنة 302هـ(914م) ضمن أسرة تنتهج المذهب المالكي؛ ولنكه اختار ـ عندما كبر ـ المذهب الإسماعيلي؛ حيث أصبح أبرز فقيه إسماعيلي بالمغرب؛ بل أهم منظر في أصوله؛ إذ كان المجتهد الأول في الفقه الإسماعيلي أيام الدولة الفاطمية؛ حيث يعتبر هو الواضع الحقيقي لأسس الفقه الإسماعيلي؛ وذلك ضمن كتابه دعائم الإسلام. هذا وقد شغل في الدولة الفاطمية وظيفة قاضي القضاة في عهد الخليفة المعز لدين الله؛ علما بأنه عمل في ميادين علمية عديدة خلال الفترة المغربية من حكم آباء

---

[1] **البيان المغرب،، ج: 1، ص: 189.**

المعز. ومن مؤلفاته: رسالة افتتاح الدعوة، وكتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وشرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، وتأويل دعائم الإسلام، وتأويل الشريعة، وكتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة، وكتاب المجالس والمسايرات. هذا وكانت وفاته بمصر سنة 363هـ(973م).

ـ **ثم أبو اليَسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المعروف بالرياضي**: وهو من الأدباء البارزين في القيروان. ويرجع في أصوله إلى بغداد. وكان مكلفا ـ في زمن الأغالبة ـ بديوان الرسائل؛ ثم وأسندت إليه مهمة الإشراف على بيت الحكمة؛ وذلك إلى جانب ديوان الإنشاء. وذكر ابن عذاري حكاية طريفة وقعت له عندما ذهب إلى الأندلس؛ قال فيها: ((**وكان** [أي أبو اليسر] **ظريفا، أديبا، مُرَسلاً، شاعرا، حسن التأليف؛ وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن** [الأموي] **ـ رحمه الله ـ بكتاب اخترقه إليه على ألسِنةِ أهل الشام؛ فتقبله الإمام محمد، وأنزله، ووسع عليه، ووصله؛ وأطلع على أن الكتاب مخترَقٌ مصنوع؛ فلما أراد أبو اليسر الانصراف؛ دُفع إليه كتابٌ مختومٌ؛ جواباً عن كتاب أهل الشام فيما أرى.**

فلما جاز البحر؛ فك أبو اليسر الكتاب ليقرأه؛ فإذا هو بياضٌ؛ وليس فيه إلاَّ: "بسم الله الرحمن الرحيم". فعلم أنَّ تمويهه لم يَجزْ؛ وأن الذي أعطِيَ وحبي عن تكرم وفضل؛ وعظم في عينه ملوك الأندلس ورجاله؛ وحدث بما عرض له، وعجب الناس منه. وكتب أبو اليسر لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم؛ ثم كتب لعبيد الله حتى مات. وله مؤلفات حسان في فنون من العلم، ومسند في الحديث، وكتاب في القرآن سماه "سراج الهدى"، وله كتاب "لقيط المرجان" ورسالة "الوحيدة المؤنسة"، و"قطب الأدب"؛ وغير ذلك من الأوضاع)).[1] هذا وتوفي أبو اليسر في سنة 298هـ(910م)

ـ ثم أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي: كان هذا الرجل بمثابة وزير في دولة عبيد الله المهدي؛ وقد لعب دورا أساسيا في الإيقاع بأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. ويقال أنه كان ـ من قبل ـ يشتغل في ديون بني العباس ببغداد؛ ثم فر إلى عبيد الله المهدي؛ حيث انضم إليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ فكلفه بمهمة القيام بنشر الدعوة في بلاد الأندلس؛ ولما نشأت الدولة الفاطمية برقادة التحق بها. وقد تولى ـ في

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 162 ـ 163.

البداية ـــ المهام التي كانت مسندة إلى أبي اليسر بعد وفاته سنة 298هــ(910م)؛ منها الكتابة وديوان البريد؛ ثم كلفه ـــ بعد قتل أبي عبد الله الشيعي ـــ بتسيير شئون الدولة؛ الأمر الذي جعله بمثابة الوزير. وكان أبو جعفر البغدادي هذا شديد الذكاء والدهاء؛ كما عرف بالعلم والتمكن من فنون الأدب؛ ولقد تمكن ـــ بدهائه ـــ من تصفية كثير من المقربين من المهدي كـ: أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس؛ والقاضي أبي جعفر المروذي وغيرهم.

وظهر ـــ إلى جانب هؤلاء الفقهاء والعلماء ـــ في الفترة المغربية للدولة الفاطمية أدباء وشعراء عديدون نذكر عينة من شعرهم الذي قيل بدءا بعهد عبيد الله المهدي وانتهاء بعهد المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر:

ـــ أبو عثمان سعدون بن سعيد الورجيني: وهو من موالي بني الأغلب، ومن شعرائهم المعدودين. ولما تغلب الفاطميون على الأغالبة التحق بشراء البلاط الفاطمي. ومما قاله فيه القاضي النعمان: **((وكان أول من مدحه** [أي عبيد الله] **منهم** [أي الشعراء] **وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني؛ وكان شاعرا يمدح بني الأغلب، ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي؛ واستؤذن له في الدخول عليه** [أي عبيد الله]

وإنشـــاده مـــا قـــال فيـــه؛ وكـــان ذلـــك بعقـــب وصـــول الحـــرم وقـــد جلـــس وهنـــأه الأوليـــاء بسلامتهـــم؛ فدخـــل إليـــه وأنشـــده الشعـــر الـــذي يقـــول فيـــه:

قـــفْ بِالمـــطِيِّ عَلَى مرَابـــعِ دُورِ
لبِسَـــتْ مَعالمِهـــنَّ ثـــوبَ دُثُـــورِ
لَعِبـــتْ بِهـــا حتَّى مَحَـــتْ آثارَهـــا
رِيحانُ: رِيـــحِ صَبا وَرِيـــحِ دُبـــورِ

فلمـــا انتـــهى إلى قولـــه:

وَسَفِيهـــةٍ هبتْ تَصُـــدُّ عَنِ النـــوَى
وَيـــدُ النوَى مَلكتْ عَنانَ مَسِيـــرِي
خافـــتْ عَليَّ مِنَ الخطـــوبِ لأنـــني
مِنْ قبلُ غِبـــتُ فأبتُ بَعـــدَ دُهـــورِ
ثـــمَّ اجتمَعنـــا بَعـــدَ ذَاكَ فيَالهـــا
مأســـورَة جمعـــتْ عَلَى مَأسُـــورِ

فلمـــا قـــال هـــذا استعبـــر المهـــدي عليـــه السـلام وتلـــقى دموعـــه بكمـــه؛ فسكـــت سعـــدون، وأومـــأ إليـــه أن قـــل؛ فمـــر فيهـــا حـــتى انتـــهى إلى قولـــه:

أعَنِ ابْنِ فاطِمَـــةٍ تَصُدِّيـــنَ امـــرءاً
بنِـــتِ النـــبِيِّ وَعِتـــرَةِ التطهيـــرِ

كـــفِّي عَــنِ التثبيـــطِ إنِّـيَ زَائـــرٌ

مِنْ أهلِ بَيـــتِ الوَحْيِ خيرَ مُـــزُورِ

فقـــال لـــه أبـــو عبـــد اللـــه ــ وكـــان بيـــن يـــدي المهـــدي ــ صدقـــت هـــو افضـــل العالميـــن؛ فقبـــل سعـــدون الأرض بيـــن يـــدي المهـــدي عليـــه الســـلام، ومـــرّ فيهـــا حـــتى انتـــهى إلى قولـــه:

هذَا أميـــرُ المُؤمنيـــنَ تَضَعْضَعــتْ

لقدُومِـــهِ أركـــانُ كـــلّ أميـــــرِ

هذَا الإمـــامُ الفاطـــميُّ وَمـــنْ بـــهِ

أمنـــتْ مغارِبهـــا مِـــنَ المَحـــذُورِ

وَالشـــرقُ ليسَ لشَامِـــهِ وَعِرَاقـــهِ

مِنْ مَهرَبٍ مِنْ جَيشِـــهِ المَنصُـــورِ

حَتَّى يَفـــوزَ مِنَ الخِلاَفـــةِ بالمـــنَى

وَيفـــازَ مِنـــهُ بعدلـــهِ المَنشـــورِ

فقـــال أميـــر المؤمنيـــن: "مـــا شـــاء اللـــه"؛ ومـــرّ فيهـــا إلى أن ذكـــر أبـــا عبـــد اللـــه فقـــال:

يا مَنْ تَخيـــرَ مِنْ خِيارِ دُعَاتـــهِ

أرْجاهـــمُ لِلعسْـــرِ وَالميســـــورِ

حَتَّى استمـــالَ إليـــهِ كـــلَّ قَبيلـــةٍ

ورَمَى إليـــهِ قيـــادَ كـــلِّ عشـــورِ

أشْبَهـــتَ مُوسَى وَهوَ حَيتكَ الـــتِّي

تلـــقَى فتلقـــفُ كلَّ إفـــكِ سُحـــورِ

فنظـــر المهـــدي إلى أبي عبـــد اللـــه وتبســـم؛ فقبـــل أبـــو عبـــد اللـــه الأرض؛ قـــال للورجيـــني: "أنـــا دون ذلـــك بعـــد مـــا بيـــن السمـــاء والأرض". فأمـــر لـــه [أي للشاعـــر] **أميـــر المؤمنيـــن بصلـــة جزيلـــة، وبـــأن يجـــرى عليـــه لكـــل عـــام؛ ووصلـــه أبـــو عبـــد اللـــه أيضـــا)).**[1]

وكـــان سعـــدون الورجيـــني هـــذا قـــد تعـــرض ــ أيـــام الأغالبـــة ــ للأســـر مـــن طـــرف النصـــارى؛ ثـــم وجـــد مـــن افتـــداه. فلمـــا وصـــل إلى صقليـــة مـــن القسطنطينيـــة؛ وهـــو في حـــال يـــرثى لهـــا؛ تمكـــن مـــن الدخـــول عـــلى والي صقليـــة أبي الحسيـــن محمـــد بـــن الفضـــل؛ وكـــان هـــذا الـــوالي مـــن أفاضـــل القـــوم ومـــن أدبائهـــم وشعرائهـــم المجيديـــن؛ فواتتـــه فرصـــة ذهبيـــة حيـــن عـــرض كاتـــب ابـــن الفضـــل بيتيـــن قالهمـــا سيـــده عـــلى الشعـــراء الجالسيـــن؛ طالبـــا منهـــم الزيـــادة عليهمـــا بأبيـــات تناسبهمـــا. والبيتـــان همـــا:

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 254 ــ 256.

تَثــنَى فَقلتُ: الغُصْن مِنـــهُ تعلمـــا

وَأَزْرَى بِحُسنِ البـــدْرِ حينَ تبَسَّمـــا

هـــلاَلٌ كأنَّ اللـــه نـــاجَى جمالـــهُ

بتصوِيـــرِهِ إيـــاهُ لمـــا تجسمـــا

فبـــادر سعـــدون الورجيـــني فـــورا قائـــلا:

تناثـــرَ مِنـــهُ الـــدُّرُّ لمـــا تكلمـــا

وَأبصـــرَهُ بـــدْرُ السمـــاءِ فأظلمـــا

هـــلاَلٌ كستـــهُ الشَّمسُ حلة وَجْهـــهِ

وَأهـــدَى إليهِ الغصـْــنُ قداً منعمـــا

سقـَانِي بكفِّ الحُسنِ كأسَ صبُابـــةٍ

وَوَكـــلَ بِي قلبـــاً عليـــلاً متيمـــا

فما زِلـــتُ أشْكوهُ إلَى حُسنِ وَجْهـــهِ

بخطِّ يدِي حتَّى بـــكَى قلـــبِي دَمـــا

وَمسمعـــة لمـــا رَأتْ ذُلَّ موقـــفِي

لدَيـــهِ تغنـــتْ كَيْ يـــرَقَّ وَيرْحمـــا

((تثـــنَى فقلتُ: الغُصْن مِنهُ تعَلَّمـــا

وَأزْرَى بِحسنِ البـــدْرِ حينَ تبسمـــا))

فقلتُ لها مَنْ ذَاكَ؟ قالـتْ مُجيبـة
وَأَوْميـت بعينيهـا إلي ليفهمـا
((هلَالٌ كأنَّ اللـه نـاجَى جمالـهُ
بتصوِيـرِهِ إيـاهُ لمـا تجسمـا))

فأعجب كاتب محمد بن الفضل ببديهته وحسن طريقته؛ فكافأه بصرة من الدنانير؛ أصلحت حاله، وفكت حاجته.

ويبدو أن سعدون الورجيني هذا كان من الشعراء المعروفين في الدولة الأغلبية؛ وقد ورد ذكره في رياض النفوس للمالكي، وفي مدارك القاضي عياض؛ حيث نشرت فيهما قصيدة له رثا بها العالم الصالح الزاهد يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي؛ جاء فيها:

عيـنُ ألـمَّ بهـا وَجـدٌ فلـمْ تنـمِ
تبكِي بدَمْـعٍ كنظمِ الـدرِّ منسَجـمِ
مدَامع الصَّـبِّ أقـلَامٌ تخـطُّ بهـا
أيدِي الصَّبَابةِ مَا بِالقلـبِ مِنْ سَـدَمِ
لفـظُ الضَّمِيرِ لِسَانُ الدَّمعِ ترْجمَـهُ
حَتَّى بَـدَا كلُّ سِـرٍّ فِيـهِ مُنكتِـمِ

لوْلاَ المَدَامِـــعُ لـــمْ يعْلـــمْ بلوْعتـــهِ
يُخفِي تباريِحَ وَجدٍ غيـــر مُنْصـــرمِ
وَهلْ تلـــذُّ بطعمِ النوْمِ مُقلـــة مَـــنْ
كستـــهُ كـــفُّ الرَّزَايـــا حلة السَّقـــمِ
وَكلُّ جَارِحَـــةٍ مِنْ جسْمِـــهِ قدَحـــتْ
فِيها يـــدُ البـــثِّ نيرَانـــاً مِنَ الألـــمِ
لمْ يعـــدَمِ الحـــزْنَ إلاَّ أنَّ مهجتـــهُ
قدْ أبدِلتْ مِنْ سُرُورِ العَيْشِ بِالعَـــدَمِ
تأبَى الليالِي عَلينا أنْ تـــدُومَ عَـــلَى
جَمعٍ مِنَ الشمْلِ أوْ سَـــدٍّ مِنَ الثلـــمِ
لاَ لوْمَ إنْ كنتُ بَعدَ الثكـــلِ لمْ أنـــمِ
لوْ ذَاقَ مَنْ لاَمنِي مَا ذُقـــتُ لمْ ينـــمِ
أنَّى يجيبُ إلَى جَنبِ الكرَى رَجُـــلٌ
قدْ أفرَدَتهُ المَنايا مِـــنْ ذَوِي الرَّحِـــمِ
عَجبتُ أنْ لمْ أمُتْ حُزناً وَقدْ دَفنـــتْ
كفَايَ فِي التربِ أتقَى العُربِ وَالعَجَمِ
يا مَـــوْتُ أثكلتِنـــا يَحيَى وَكانَ لنـــا
فِي بَلدَةِ الغربِ مِثل البَدرِ فِي الظلمِ

يَنجابُ عَنا بهِ غيــمُ الخنـــا وَمَــتَى

نقِــسْ بهِ الناسَ فَضلاً كانَ كَالْعَلَــمِ

مَا كانَ إلاَّ سرَاجاً يُستضـــاءُ بـــهِ

فِي العِلمِ يُسْمَعُ مِنهُ العِلمُ فِي الحُلــمِ

وَكانَ يَحْيَى ــ إذَا خفنا ــ لنا حَرَماً

نلجَأ إليهِ، فقــدْ صرِنا بـــلاَ حَــرَمِ

وَكانَ يَحيَى لنا سَيفـاً يُعــزُّ بهِ الــ

ــدِّينُ الحَنِيفُ وَيُحمَى كلُّ مُهتضــمِ

وَكانَ يَحــيَى لنا فِي الزَّائغيــنَ إذَا

ضَلَوا لِسانـــاً يُبينُ الحــقَّ عَنْ أمَــمٍ

وَكانَ يَحيَى لنا حِــرْزاً، وَكانَ لنـــا

كنـــزاً، وَكانَ لنا كالغيــثِ فِي الأزَمِ

لتبكِ يَحــيَى عيــونٌ بِالدَّمــعِ فــإنْ

غاضـــتْ مَدَامِعهـــا فلتبكـــهِ بـــدَمِ

أبكِي عَلى العِلمِ وَالتقوَى بِهِ اجْتمَعـَا

وَمَنْ مَضَى وَهوَ أوفَى الناسِ بالذِّممِ

أبكِي عَلَى الحِلمِ ثــوْبٌ كانَ يَلبَسُـــهُ

أبكِي عَلَى طاهِرِ الأخـــلاَقِ وَالشيــمِ

أبكِي فتى الدَّهرِ، أبكِي شَيْخَ كلِّ حجَى

أبْكِي أخَا الفَضْلِ، أبكِي مَعدَنَ الكرَمِ

مَنْ كانَ مِنْ بَعدِ سَحْنُــون لنا خلفــاً

مَنْ كانَ فِي الحَقِّ مِثْلُ الصَّارِمِ الخذِمِ

إلى أن يقــول:

مَا كانَ أشجعــهُ، مَا كانَ أوْرَعــهُ

مَا كان أفصَحهُ فِي مَحفــلِ الكلــمِ

مَا كانَ أرْغبهُ فِي سنـــةِ درَســتْ

يُشيِدُهــا ببنــاءِ الحــاذِقِ الفهــمِ

مَا كانَ أفقهــهُ، مَــا كــانَ أعلمــهُ

مَا كانَ أحماهُ عِندَ الخــوْفِ لِلحــرَمِ

مَا كانَ أطهرَ تِلكَ النفس مِنْ رِيَــبٍ

مَا كانَ أكتــبَ تِلكَ الكــفّ بِالقلــمِ

سَقاكَ يَا قبرَ يَحيَى عَــارِضٌ لجــبٌ

سمحُ الـــرَّذَاذِ كريمُ الوَبــلِ وَالدِّيــم

مُبارَكُ الظلِّ يكسو الأرْضَ أرْدِيــةٍ

كالوَشْيِ يُلقَى علَى القِيعَانِ وَالأكــمِ

يا رَبّ! صَاحِبُ هذَا القبــرِ خادِمــ

ــكَ المَعْرُوفِ بالنُّصْحِ وَالإحْسَانِ وَالخدَمِ

أتاكَ ضيفاً فلاَ تجعــلْ قــرَاهُ سِــوَ

ى الرِّضْوانِ، إنّكَ ذُو فَضْلٍ وَذُو كرَمِ

ـ **ثــم محمــد بــن رمضــان النفــطي**: كــان يعتنــق المذهــب الشيــعي قبــل ظهــور أبي عبــد اللــه داعيــة الفاطميــين بالمغــرب. ويبــدو أنــه كــان مــن المتأثريــن بالدعــوة الــتي بثهــا أبــو سفيــان؛ الــذي استقــر في تالــة أو **(تــالا)** جنــوب الكــاف. وتقــول المصــادر أن أهــل نفطــة تشيعــوا بتأثيــر منــه.[1] وكــان محمــد بــن رمضــان شاعــراً؛ فاتخــذ مــن شعــره وسيلــة للدعــوة ونشــر مــا يتناقلــه أهــل الحدثــان عــن المهــدي المنتظــر. ومــن شعــره في هــذا البــاب قولــه:

ســلاَ ظبيــة القنــاصِ أينَ احتلاَلهــا

فقــدْ هاجــنِي تفتِيرُهــا وَامذِلاَلهــا

لعــلَّ الــتِي عنهــا تفــرّقَ أهلهــا

فبــادَتْ مَغانيهــا وَطــالَ احتيَالهــا

أرَقــتُ لها مِــنْ بعدِ أنْ نــامَ إنسهــا

خناطِيــلُ آرَامِ الظبــــاءِ جمالهــــا

---

[1] **رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 54 ــ 55.**

فعـــدِّ عنِ الـــدَّارِ الـــتِي بـــانَ أهلهـــا
وَعَنْ كَيفَ مِنْ بَعْدِ البلَى صَارَ حَالُهَـــا
فهـــذَا أوَانُ الحــقِّ قــدْ حـــانَ حِينـــهُ
وَدَوْلـــة أهـــلِ البـــغْيِ آنَ زَوَالـهـــــا
كأنِّي بشَمْسِ الأرْضِ قدْ طلعــتْ لنـــا
مِنَ الغــرْبِ مقرُونـــاً إليهـــا هِلاَلُهـــا
فيمـــلأ أرْضَ اللـــهِ قسطـــاً بعدْلـــهِ
بمــا ضـــمَّ مِنهـــا سَهلهـــا وَجبالـهـــا
وَآمـــنُ فيهـــا مـــا أخـــافُ وَأتـــقِي
وَأظفـــرُ بالزُّلــــفَى بـــه وَأنالـهـــــا

ويقـــول القـــاضي النعمـــان أن محمـــد بـــن رمضـــان هـــذا أدرك أيـــام عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ بعـــد أن وصـــل مـــن العمـــر عتيـــا؛ وبعـــد أن خـــرف؛ ومـــع هـــذا فقـــد ولاه المهـــدي قضـــاء ميلـــة؛ وبـــقي في منصبـــه حـــتى مـــات. كمـــا أورد القـــاضي النعمـــان ــ أيضـــا ــ حكايتـــه مـــع الأميـــر الأغلـــبي إبراهيـــم بـــن أحمـــد؛ حيـــث هجـــاه محمـــد بـــن رمضـــان؛ بعـــد المجـــزرة الـــتي قـــام بهـــا في حـــق أهـــل بلزمـــة؛ إذ غـــدر بهـــم وقتـــل منهـــم ألـــف رجـــل ببـــرودة وبشاعـــة؛ وكـــان محمـــد بـــن رمضـــان في تلـــك الأثنـــاء ببلزمـــة في جـــوار أهلهـــا وفي ضيافتهـــم؛ فقـــال:[1]

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة ، ص ص: **88 ــ 90.**

جلَّ المصَابُ لئِنْ كانَ الذِي ذَكــرُوا

مِمــا أتتنــا بــهِ الأنبــاءُ وَالخبــرُ

عَنْ ألفِ أرْوعٍ كالآســادِ قدْ قتلــوا

لِساعَــةٍ مِنْ سوَادِ الليلِ إذْ غــدِرُوا

لوْ كانَ مَنْ بيــتَ الآســادَ أيقظهــمْ

حلــتْ بــهِ منهمُ الأحدَاثُ وَالغيــرُ

قلْ لابــنِ أحمــدَ ابرَاهِيــم مألكــة

عَنِ الخبيــرِ بما يــأتِي وَما يــذَرُ

عَنِ المشرَّدِ فِي حبِّ الأئمــةِ مِــنْ

آلِ النبيِّ وَخيــرِ الناسِ إنْ ذُكِــرُوا

اعلمْ بأنَّ شِــرَارَ النــاسِ أطوَلهــمْ

يداً بمكرُوههــمْ يوْمــاً إذَا قــدِرُوا

لاَ سِيمَا الضيْفُ وَالجَارُ الغرِيبُ وَمَنْ

أعطــوْهُ ذِمتهمْ مِنْ قبلِ مَا خفــرُوا

فما اعْتــذَارُكَ مِنْ عارٍ وَمنقصــةٍ

أتيتهــا عامِــداً إنْ قــامَ مُعتــذِرُ

جرَّعتَ ضَيفكَ كأساً أنتَ شارِبهــا

عمــا قليــلٍ وَأمــرُ اللــهِ ينتظِــرُ

فدَوْلة القائمِ المهــدِيِّ قــدْ أزِفــتْ
أيامُهــا وَالــذِي أنبــا بـــهِ الأثـــرُ
عنِ النـــبيِّ، وَفيهــا قطـــعُ مدَّتكـــمْ
يا آلَ أغلبَ أهلَ الغدْرِ فاقتصِـــرُوا
وَقطـــعُ أمرِ بنِي العَبـــاسِ بعدَكـــمُ
وَقطعُ آلِ بنِي مَـــرْوَانَ إذْ بطـــرُوا

ولمـــا علـــم إبراهيـــم بـــن أحمـــد بالقصيـــدة؛ أراد خداعـــه واستدراجـــه؛ إذ قـــال: ((**لعـــن اللـــه مـــن طلبـــه وشـــرده؛ فمـــا مثـــل هـــذا يـــؤذى؛ ولـــو أتانـــا لصفحنـــا عنـــه وأحسنـــا إليـــه؛ ولقـــد أحســـن في الوفـــاء لمـــن أجـــاره، وصنـــع المعـــروف إليـــه؛ ومثـــل هـــذا تزكـــو عنـــده الصنائـــع، ومـــا ينتقـــم عليـــه تشيعـــه؛ بـــل ذلـــك مـــا يقربـــه منـــا ويدنيـــه عندنـــا؛ فأبلغـــوه عنـــا ذلـــك؛ فـــإن أحـــبَّ القـــدوم إلينـــا فهـــو آمـــن، ولـــه عندنـــا ــ مـــع ذلـــك ــ الحبـــاء والإكـــرام**)). ولمـــا وصـــل قولـــه إلى محمـــد بـــن رمضـــان؛ لـــم تنطـــل عليـــه الخدعـــة؛ وعلـــم بالفـــخ الـــذي نصبـــه لـــه إبراهيـــم؛ فقـــال:

لوْ لمْ أعاينهُ يَصِيــدُ بِحبـــهِ للقطتُ حبـــهْ
مَنْ ذَا يغـــرٌّ بغـــادرٍ ما إنْ يخافُ اللهَ رَبهْ

ـ **ثـم عـلي بـن محمـد الإيـادي**: كـان مـن شعـراء بـني الأغلـب قبـل أن يتغلـب عليهـم الفاطميـون؛ ثـم أصبـح مـن شعـراء البـلاط الفاطـمي بعـد ذلـك. ولـه قصائـد في مـدح عبيـد اللـه المهـدي وابنـه أبي القاسـم، ثـم إسماعيـل المنصـور بـن أبي القاسـم. وتـوفي الإيـادي في سنـة 365هـ(975م). ومـن شعـره في وصـف قصـر صبـرة:

وَلَما استطالَ المَجدُ وَاسْتَوْلتِ العـلاَ
عَلَى النّجمِ وَامتـدَّ الرِّوَاقُ المـرَوّقُ

بنَى قبـة للمُلـكِ فِي وَسـطِ جنـةٍ
لَها مَنظرٌ يزْهَى بهِ الطرْفُ مونـقُ

وَإنْ صَافَحتهـا لاَحـتْ كأنهـا
فرنـدٌ عَلَى تـاجِ المعـزِّ وَرَونـقُ

كـأنَّ شرُفاتِ المقاصـرِ حوْلهـا
عـذَارَى عَليهـنَّ مِلاء الممنطـق

ومـن شعـره في وصـف الأسطـول الفاطـمي في عهـد إسماعيـل المنصـور:

أعجب لأسطـولِ الإمـامِ محمـدٍ
ولَحسنـهِ وزَمانـهِ المستغـربِ

لبسَــتْ بهِ الأموَاجُ أحسَــنَ مَنظــرٍ
يبــدُو لعيــنِ الناظِــرِ المتعجــبِ
مِنْ كــلِّ مُشرفِــةٍ عَلَى مَا قابلــتْ
اشرَافُ صَدْرِ الأجــدَلِ المنتصِــبِ
دَهمــاء قدْ لبســتْ ثيــابَ تصَنــعٍ
تســبِي العقولَ عَلَى ثيــابٍ ترْهــبِ

ــ **ثــم أيــوب بــن إبراهيــم**: يبــدو أنــه كــان مــن أعــوان الدولــة الفاطميــة وأتباعهــا المخلصيــن. ولــم نعثــر عــلى مــا يفيــد عنــه؛ أكثــر مــن هــذه الأبيــات الشعريــة الــتي مــدح بهــا أبــا طاهــر إسماعيــل المنصــور؛ وهي:

يا ابْنَ الإمَامِ المُرتضَى وَابنِ الوَصِيِّ
المُصْطــفَى وَابنِ النــبيِّ المرْســلِ
اللــهُ أعطــاكَ الخلاَفــة وَاهبــاً
وَرَآكَ للإســلاَمِ أمنــعَ معقــــلِ
نلتَ الخِلاَفــة وَهْيَ أعظــمُ رُتبــةٍ
نِيلتْ، وَليسَــتْ مِنْ علاَكَ بِأفضَــلِ
فمَنَعتَ حوْزتَهَــا وَحطــتَ حَرِيمَهَــا
بالمَشرَفيــةِ وَالوَشِيــــجِ الذُبــــلِ

ـ ثم أبو العباس خليل بن إسحاق: وهو من القادة العسكريين والأمراء الذين يتكل عليهم إمام الدولة الفاطمية؛ وقد ولاه الخليفة أبو القاسم صقلية فظل بها أربع سنوات تقريبا؛ حيث أظهر فيها سوء سيرة، إذ ارتكب جرائم شنيعة في حق الرعية. ومما جاء في مجموع المكتبة العربية الصقلية: **((وفي سنة 325هـ قدَّم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي على صقلية خليل بن إسحاق؛ فعمل بها ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين؛ أهلكهم قتلا وجوعا حتى فروا إلى بلاد الروم، وتنصر كثير منهم؛ وبقي بصقلية أربعة أعوام؛ ولما قدم منها سنة 329هـ؛ قال يوما مفتخرا بظلمه في مجلس حـَضَرَهُ جماعة من وجوه الناس؛ تكلموا فيه معه في أمور شتَّى؛ ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية؛ فقال: "إنِّي قتلت ألف ألف ـ يقول المُكثرُ؛ والمُقللُ يقول مائة ألف ـ في تلك السفرة"؛ ثم قال: "لا والله الآ أكثر". فقال له أبو عبد الله المؤَدِّب: "يا أبا العباس لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك".**

وكــان خليــل هــذا يكــنى أبــا العبــاس؛ وكــان عبيــد اللــه الشيــعي يصرفــه في الأعمــال وجبايــات الأمــوال ومحاسبــة الدواويــن والعمــال؛ ثــم وقعــت فيــه أقــوال فكرهــه عبيــد اللــه وأبغضــه؛ ولــولا ابنــه أبــو القاســم لأهلكــه)).[1] ومــن شعــره الــذي قالــه في عبيــد اللــه المهــدي:

إنَّ الإمــامَ أقــامَ سنــة جــدِّهِ

للمسلمينَ كما حــذَوْتَ نِعالهــا

أحيَى شرَائعــهُ وَقــوَّمَ كتبهــا

وَفرُوضها وَحرَامهــا وَحلاَلهــا

وقــال أيضــا هــذه الأبيــات الشعريــة عندمــا بعثــه إسماعيــل المنصــور لقتــال أبي يزيــد؛ وهي:

وَمَا وَدَّعــتُ خيــرَ الخلــقِ طــراً

وَلاَ فارَقتــهُ عَــنْ طِيــبِ نفــسِ

وَلَكِــنِّي طلبــتُ بــهِ رِضَــاهُ

وَعَفــوَ اللــهِ يوْمَ حُلــولِ رَمــسِ

فعــاشَ مُلكــاً مَــا لاَحَ نجــمٌ

عَــلَى الثقليــنِ مِــنْ جــنٍّ وَإنــسِ

---

[1] البيــان المغــرب، ج:1، ص: 215. والمكتبــة العربيــة الصقليــة (نصــوص في التاريــخ والبلــدان والتراجــم والمراجــع)، جمــع: المستشــرق الإيطــالي ميخائيــل أمــاري، ص ص: 368 ـ 369.

ـ ثـم أبـو جعفـر بـن أحمـد بـن محمـد المـروذي:
على الرغم من توافق اسم هذا الرجل مع اسم سابقه قاضي القيروان محمد بن عمر المروذي؛ الذي توفي سنة 303هـ من شدة العذاب الذي سلطه عليه عبيد الله المهدي؛ إلا أن العلاقة الأسرية بين الرجلين ليست واضحة ـ بالضبط ـ إذ يبدو أن هذا الشاعر الزجال المدعو أحمد بن محمد المروذي ربما كانت له صلة قرابة مع ذلك القاضي. المهم إن المصادر التاريخية ترسم اسمه ـ كسابقه ـ أحيانا بالمروذي، وأحيانا أخرى بالمروزي، وفي بعض الحالات الموزي. وعليه تشدنا فكرة أنه ربما كان من أبناء القاضي المذكور؛ تبعا لتوافق الأسماء ولحظوة المروذي الشاعر في بلاط الفاطميين. وجملة القول لم يصل إلينا عنه سوى بعض الأبيات المتواضعة المتناثرة هنا وهناك؛ وهي لا تدل على شاعرية كبيرة أو على تمكن من علوم اللغة؛ لذا لم نر له قدرة كبيرة في ابتكار وابتداع الصور الشعرية الجميلة؛ إذ كان شعره ـ في الحقيقة ـ عبارة عن تسجيل للأحداث بواسطة النظم الشعري. ومما قاله في أرجوزة عن

وصـــول إسماعيـــل المنصـــور بجيشـــه إلى مدينـــة المحمديـــة أثنـــاء مطـــاردة أبي يزيـــد؛ قولـــه:

ثمَّ إلَى مَدِينـــةٍ مرْضِيـــهْ

أسَّتْ علَى التقوَى محَمدِيهْ

أقبل حتّى حلَهـــا عَشِيـــهْ

بِالنورِ مِنْ طلعَتِهِ المُضيهْ

فَحلَّ فِي عَسْكرِهِ المَسِيلـــهْ

فِي هيـــأةٍ كامِلةٍ جَمِيلـــهْ

وقـــال أيضـــا في أخـــرى عـــن حركـــة إسماعيـــل ومطاردتـــه لأبي يزيـــد:

لقدْ تَاهـــتْ بِطلعتِـــكَ الغـــرُوبُ

كما ابتهجتْ بدَوْلتِـــكَ القلـــوبُ

لقدْ زَهتِ الخِلاَفـــة إذْ حدَاهـــا

نَجيـــبٌ رَاحَ بِحملِـــهِ النَّجيـــبُ

وقـــال عنـــد الوصـــول إلى طبنـــة أثنـــاء مطـــاردة أبي يزيـــد أيضـــا:

سِرنـــا وَقدْ حلَّ بقـــرْبِ طبنـــهْ
وَصَـــارَ مِنها أهلها فِي مِحنـــهْ
فأعظـــمَ اللـــهُ العزِيـــزُ المنـــهْ
وَبدَّلـــوا مِنْ بعـــدِ نـــارٍ جنـــهْ

ــ ثـــم محمـــد بـــن المنيـــب: كـــان في جيـــش إسماعيـــل المنصـــور؛ عندمـــا طـــارد أبـــا يزيـــد في المغـــرب الأوســـط؛ ولـــم نعثـــر في المصـــادر أكثـــر مـــن اسمـــه وقصيدتـــه هـــذه:

حَـــلَّ البَـــلاَءُ بمخلــــــدٍ
وَجَمِيعِ شِيعتِـــهِ النوَاكِـــرْ
أمـــسَى بـــأرْضِ كيانـــةٍ
قدْ بانَ مِنـــهُ كلُّ ناظِـــرْ
يرنـــو بطـــرفٍ خاشِـــعٍ
نَظرَ المُحَاصَرِ للمُحَاصِرْ
يرنو إلَى عـــدَدِ الحَـــصَى
وَالرَّمْلِ مِنْ تِلكَ العَسَاكِـــرْ

يـــا مُخلـــدُ بـــنِ سَبيكـــةٍ
يا شَرَّ بيتٍ فِي العشائِـــرْ
ذُقْ مَا جَنتـــهُ يَدَاكَ قـــبـــ
ـــلُ مِنَ الكَبَائِرِ وَالصَّغائِرْ
ذُقْ هَـــولَ شقـــكَ لِلبطـــو
نِ وَمَا ارتَكَبْتَ مِنَ الجَرَائِرْ
يـــا شـــرَّ مَـــنْ بكيانـــةٍ
وَكيَانـــة شـــرُّ البرَابـــرْ
أنظرْ إلَى القفـــصِ الـــذِي
لاَ بدَّ فِيـــهِ أنتَ صَائِـــرْ
أنظـــرْ إلَى يَدَيـــكَ فيـــ
ـــهِ وَمؤنِسِيكَ وَمَنْ تجَاوِرْ
قدْ طـــالَ شوقِهمَـــا إليْـــ
ـــكَ فزُرْهمَا يَا شرَّ زَائر

ــ ثـــم أبـــو القاســـم محمـــد بـــن هـــاني بـــن سعـــدون الأندلـــسي: ولـــد بإشبيليـــة ــ في عهـــد الخليفـــة الأمـــوي الناصـــر لديـــن اللـــه بيـــن سنـــتي: 322هـــ و 326هـــ ــ مـــن أســـرة كانـــت تسكـــن المهديـــة بإفريقيـــة. وينســـب ابـــن هـــاني في أصولـــه الأولى إلى قبيلـــة الأزد اليمنيـــة

العربيـــة. ويقـــال أنـــه منحـــدر مـــن أســـرة يزيـــد بـــن حاتـــم بـــن قبيصـــة. كمـــا تذكـــر المصـــادر أنـــه تأثـــر بالمذهـــب الشيـــعي منـــذ صبـــاه في الأندلـــس؛ إذ تشبـــع بالأفكـــار الفلسيـــة ذات المنطلـــق العقـــلاني المعتـــزلي.

ويكـــون ابـــن هـــاني قـــد تـــرك الأندلـــس، وانتقـــل إلى الضفـــة المغربيـــة سنـــة 347هــ(958م)؛ حيـــث التحـــق ببـــني بـــني عـــلي بـــن حمـــدون: جعفـــر ويحـــيى؛ أمـــراء المسيلـــة؛ فلمـــا علـــم بـــه المعـــز لديـــن اللـــه الفاطـــمي بعـــث يطلبـــه؛ جاعـــلا منـــه شاعـــر البـــلاط الفاطـــمي الأول. فقـــدم غليـــه حيـــث حـــلاه بأفضـــل مـــا قيـــل في مـــدح الملـــوك؛ مـــن غـــرر الأشعـــار؛ لـــولا بعـــض الغلـــو الـــذي نســـب إليـــه، والـــذي يدخـــل في سيـــاق الكفـــر وكبائـــر القـــول. أمـــا خبـــر وفاتـــه فقـــد اكتنفـــه غمـــوض كبيـــر؛ ســـواء مـــن حيـــث المضمـــون والتفاصيـــل أو في تحديـــد تاريـــخ وقوعهـــا. وكـــل مـــا يمكـــن قولـــه هنـــا أنـــه قتـــل، أو مـــات في برقـــة بينمـــا كـــان متوجهـــا إلى مصـــر ليلحـــق بالمعـــز هنـــاك. وقـــال عنـــه ابـــن خلكـــان: **((ولمـــا بلـــغ المعـــز وفاتـــه وهـــو بمصـــر تأســـف عليـــه كثيـــرا وقـــال: "هـــذا الرجـــل كنـــا نرجـــو أن نفاخـــر بـــه شعـــراء المشـــرق؛ فلـــم يقـــدر لنـــا ذلـــك". ولـــه في المعـــز المذكـــور غـــرر المدائـــح ونخـــب الشعـــر... وفي هـــذا الأنمـــوذج دلالـــة عـــلى علـــو درجتـــه وحســـن طريقتـــه. وديوانـــه كبيـــر؛ ولـــولا مـــا فيـــه مـــن الغلـــو في المـــدح المفـــضي إلى الكفـــر لكـــان مـــن أحســـن الدواويـــن؛ وليـــس في المغاربـــة مـــن هـــو في طبقتـــه: لا مـــن متقدميهـــم ولا**

مـــن متأخريهـــم؛ بـــل هـــو أشعرهـــم عـــلى الإطـــلاق؛ وهـــو عندهـــم كالمتنـــبي عنـــد المشارقـــة؛ وكانـــا متعاصريـــن؛ وإن كـــان في المتنـــبي مـــع أبي تمـــام مـــن الاختـــلاف مـــا فيـــه...

ويقـــال أن أبـــا العـــلا المعـــري كـــان إذا سمـــع شعـــر ابـــن هـــانيء يقـــول: "مـــا أشبهـــه إلاّ بـــرَحَى تطحـــن قرونـــا"؛ لأجـــل القعقعـــة الـــتي في ألفاظـــه؛ ويزعـــم أنـــه لا طائـــل تحـــت تلـــك الألفـــاظ؛ ولعمـــري مـــا أنصفـــه في هـــذا القـــول؛ ومـــا حملـــه عـــلى هـــذا إلاّ فـــرط تعصبـــه للمتنـــبي؛ وبالجملـــة فمـــا كـــان إلاّ مـــن المحسنيـــن في النظـــم)).[1]

ومـــن شعـــر ابـــن هـــاني هـــذه القصيـــدة؛ وهي أولى القصائـــد الـــتي مـــدح بهـــا المعـــز؛ فـــور قدومـــه مـــن المحمديـــة. ويقـــال أنـــه كافـــأه عليهـــا بدســـت ثمنـــه ستـــة آلاف دينـــار؛ فقـــال ابـــن هـــاني: "يـــا أميـــر المؤمنيـــن مـــا لي موضـــع يســـع الدســـت إذا بســـط"؛ فأمـــر لـــه ببنـــاء قصـــر؛ فغـــرم عليـــه ستـــة آلاف دينـــار، وحمـــل إليـــه آلـــة تشاكـــل القصـــر والدســـت قيمتهـــا ثلاثـــة آلاف دينـــار. وقـــد رأيـــت أنـــه مـــن الأفضـــل أن أثبـــت معظـــم أبياتهـــا هنـــا؛ نظـــرا لمـــا تشتمـــل عليـــه مـــن أفكـــار ومعـــان توضـــح مـــا يتضمنـــه المعتقـــد الشيـــعي الفاطـــمي آنئـــذ؛ وقـــد بدأهـــا بهـــذا المطلـــع:

---

[1] **وفيـــات الأعيـــان، ج: 4، ص ص: 423 ــ 424.**

هــلْ مِــنْ أعِقــةِ عالــجٍ يبرِيــنُ

أمْ مِنهمَــا بقــرُ الحــدُوجِ العِيــنُ[1]

وَلمــنْ ليــالٍ مَــا ذَممنــا عَهدَهــا

مــذْ كــنَّ إلاّ أنهــنَّ شجــونُ[2]

المشرِقــاتُ كأنهــنَّ كوَاكـــبٌ

وَالناعمــاتُ كأنهــنَّ غصـــونُ

بيــضٌ وَمَا ضَحِكَ الصَّباحُ وَإنهَــا

بِالمِسْكِ مِنْ طرَرِ الحِسَــانِ لَجُــونُ[3]

أدْمَى لَها المَرْجــانُ صَفحَــة خــدِّهِ

وَبَــكَى عليْهــا اللؤْلــؤُ المَكنــُونُ

أعْدَى الحَمَــامَ تــأوُّهِي مِنْ بعدِهــا

فكأنــهُ فيمــا سَجعــنَ رَنيـــنُ

بَانــوا سرَاعــاً لِلهــوَادِجِ زَفــرَة

ممــا رَأيــنَ وَلِلمــطِيِّ حَنيـــنُ

---

[1] الأعقــة: جمــع عقيــق؛ أي الــوادي. وعالــج: موضــع مــا في الباديــة. يبريــن: مكــان في البحريــن بــه رمــال كثيــرة. بقــر العيــن: تشبيــه للنســوة ذات العيــون الجميلــة. الحــدوج: جمــع حــدج وهــو عبــارة عــن مركــب تركبــه النســاء.

[2] الشجــون: الهمــوم.

[3] جــون: شديــد الســواد.

فَكأنَّمَــا صَبَغــُوا الضُّحَى بِقبَابِهــمْ
أوْ عَصْفَــرَتْ فِيها الخدُودَ جُفُــونُ[1]
مَاذَا عَلى حُلَــلِ الشَّقِيقِ لــَوْ انَّهــا
عَــنْ لابِسِيهــا فِي الخــدُودِ تبيــنُ[2]

وهنـــا يشـــرع في مـــدح المعـــز بطريقتـــه المستفـــزة؛ المليئـــة بالمبالغـــة الغريبـــة، والغلـــو الفاضـــح؛ وهـــو مـــا رفضـــه معظـــم المسلميـــن مـــن أهـــل السنـــة ونـــددوا بـــه؛ وفي ذلـــك يقـــول:

هـــذَا معـــدٌ وَالخلاَئــقُ كلهـــــا
هـــذَا المعِـــزٌّ متوَّجـــاً وَالدِّيــــنُ
هذا ضَمِيـــرُ النشـــأةِ الأولَى الـــتِي
بـــدَأَ الإلـــهُ وَغيبهـــا المكنـــونُ
مِنْ أجـــلِ هذَا قـــدِّرَ المقـــدُورُ فِي
أمِّ الكتـــابِ وَكـــوِّنَ التكوِيــــنُ

---

[1] أي احمـــر الضـــحى مـــن احمـــرار قبابهـــم. وصبغـــت دموعهـــم الداميـــة خدودهـــم.
[2] حلـــل الشقيـــق: الثيـــاب الحمـــر الـــتي تشبـــه شقائـــق النعمـــان.

وَبَــذَا تلـــــقى آدَمٌ مِـــنْ رَبِـــــهِ

عفـــواً وَفَـــاءَ لِيونـــسَ اليقطِيـــنُ

يَا أرْضُ كَيفَ حَمَلتِ ثِـــنْيَ نِجَـــادِهِ

وَالنَّصْـــرُ أعظـــمُ مِنـــكِ وَالتمْكِيـــنُ[1]

حَاشــــا لِمَا حُمِّلـــتِ تَحمِـــلُ مِثلـــهُ

أرْضٌ وَلَكـــنَّ السمـــاءَ تعيـــــنُ

وَلوْ يَلتـــقِي الطُّوفانُ قَبْـــلُ وَجُـــودُهُ

لمْ يُنـــجِ نوحـــاً فلكـــهُ المَشحُـــونُ

لوْ أنَّ هَذَا الدَّهـــرَ يَبْطـــشُ بَطشَـــهُ

لمْ يَعْقُـــبِ الحَركـــاتِ مِنهُ سُكـــونُ

الـــرَّوْضُ ما قـــدْ قيـــلَ فِي أيامـــهِ

لاَ أنـــــهُ   وَرْدٌ   وَلاَ نسْرِيــــــنُ

وَالمِسْكُ مَا لَثمَ الثرَى مِـــنْ ذِكـــرِهِ

لاَ أنَّ كـــلَّ   قـــــرَارَةٍ دَارَيـــــنِ[2]

---

[1] الثـــني: الطـــي. تقـــول: "أرسلتـــه ثـــني كتـــابي" أي طي كتـــابي. النجـــاد: حمائـــل السيـــف؛ لأنـــه يعلـــو العاتـــق. يقـــال: "هـــو طويـــل النجـــاد" كنايـــة عـــن انـــه طويـــل القامـــة.

[2] داريـــن: موضـــع بالبحريـــن؛ وهـــو همـــزة وصـــل لجلـــب المســـك مـــن الهنـــد.

مَلِــكٌ كمـــا حُدِّثْـــتَ عنـــهُ رَأفــة

فالخمــرُ مــاءٌ وَالشرَاســة ليــنُ

شِيِــمٌ لوْ أنَّ اليــمَّ أعــطِيَ رِفقهــا

لمْ يَلْتقــمْ ذَا النــونِ فِيــهِ النــونُ[1]

تاللــهِ لاَ ظلــلُ الغمــامِ معاقِــلٌ

تــأبَى عليهِ وَلاَ النُّجــومُ حُصُــونُ

وَوَرَاء حَقِّ ابْنِ الرَّسولِ ضَرَاغــمٌ

أسْـدٌ وَشَهبــاءُ السِّــلاَحِ منــونُ

الطالبـــانِ: المِشرَفيــــة وَالقنــــا

المدْرِكـــانِ: النصْــرُ وَالتمكِيــــنُ

ثـــم يضيـــف قائــلا:

أنظــرْ إلى الدُّنيــا بإشفــاقِ فقــــدْ

أرْخَصْــتَ هذَا العِلــقَ وَهوَ ثمِيــنُ

لوْ يَسْتَطِيعُ البَحْرَ لاستَعْــدَى عَــلى

جــدْوَى يَدَيــكَ وَإنــهُ لقميــــنُ

[1] ذا النــون: النــبي يونــس عليــه الســلام. والنــون الحــوت الــذي التهمــه.

أمـــددهُ أوْ فاصْفــحْ لـــهُ عنْ نيلِـــهِ

فلقــدْ تَخــوَّفَ أنْ يقــالَ ضَنِيـــنُ

وَأذَنْ لـــهُ يغــرِقْ أميـــة معلِنـــــاً

مــا كــلُّ مـــأذُونٍ لـــهُ مـــأذُونُ

وَاعـــذِرْ أميـــة أنْ تغــصَّ برِيقهـــا

فالمهـــلُ مَـــا سُقِيتـــهُ وَالغِسْلِيـــنُ[1]

ألقـــتْ بِأيْدِي الذُّلِّ مُلـــقَى عَمْرِهَـــا

بِالثـــوْبِ إذْ فغــرَتْ لـــهُ صِفِيـــنُ[2]

قـــدْ قـــادَ أمْرَهـــمُ وَقلـــدَ ثغرَهـــمُ

مِنهـــمْ مهيـــنٌ لاَ يكـــــادُ يبيـــــنُ

ويقـــول أيضـــا:

وَرَمَى إلَى البلـــدِ الأمِيـــنِ بِطرفـــهِ

ملـــكٌ عَـــلَى ســـرِّ الإلـــهِ أمِيـــنُ

لمْ يَـــدْرِ مَا رَجـــمُ الظنـــونِ وَإنمَـــا

دُفـــعَ القضَـــاءُ إليـــهِ وَهـــوَ يقيـــنُ

---

[1] المهــل: الصديــد والقيــح. الغسليــن: مــا يسيــل مــن جلــود أهــل جهنــم.

[2] عمرهــا: المقصــود هنــا عمــرو بــن العــاص؛ وأراد بعبــارة ملــقى: مــا جــرى لــه حيــن طعنــه عــلي بــن أبي طالــب فألقــاه أرضــا في موقعــة صفيــن.

كذِبتْ رجَالٌ مَا ادَّعَــتْ مِنْ حَقكُــمْ

وَمِـــنَ المقـــالِ كأهلـــهِ مأفـــونُ

أبـــنِي لـــؤَيٍّ أينَ فضـــلُ قدِيمكـــمْ

بلْ أيـــنَ حِلـــمٌ كَالجبـــالِ رَصِيـــنُ[1]

نازَعتـــمُ حـــقَّ الـــوَصِيِّ وَدُونـــهُ

حـــرَمٌ وَحِجـــرٌ مانـــعٌ وَحجـــــونُ[2]

نَاضَلتمُـــوهُ عَـــلَى الخِلاَفـــةِ بِالـــتِي

رُدَّتْ وَفِيكـــمْ حَدُّهـــا المسْنـــونُ

حَرَّفتُمُوهَا عَنْ أبِي السِّبْطَيْـــنِ عَـــنْ

زَمَـــعٍ ولَيـــسَ مِنَ الهجـــانِ هجيـــنُ[3]

لـــوْ تتقـــونَ اللهَ لـــمْ يَطمـــحْ لَهـــا

طـــرَفٌ وَلمْ يَشمـــخْ لَهـــا عرنِيـــنُ[4]

---

[1] بنـــو لـــؤي: قريـــش.

[2] الـــوصي: عـــلي بـــن أبي طالـــب.

[3] السبطيـــن: الحســـن والحسيـــن. عـــن زمـــع: أي عـــن إصـــرار ومضـــاء في الأمـــر. الهجـــان مـــن كـــل شـــيء: خيـــاره. والهجيـــن: مـــن كـــان أبـــوه عـــربي وأمـــه أمـــة.

[4] العرنيـــن: الأنـــف كلـــه؛ جمعـــه عرانيـــن.

لكِنكـــمْ كنتــمْ كَأهــلِ العِجْــلِ لــمْ
يُحفــظْ لمــوسَى فِيهــمُ هــارُونُ[1]
لوْ تَسْألــونَ القبــرَ يَــومَ فرِحتــمُ
لأجــابَ أنَّ محمــداً محـــــزُونُ
مَاذَا ترِيــدُ مِنَ الكِتــابِ نوَاصِــبٌ
ولَــهُ ظهــورٌ دُونهــا وَبطــونُ[2]
هِيَ بُغيَــة أضْللتمُوهَــا فَارْجِعُــوا
فِي آلِ يَاسيــنٍ ثــوَتْ ياسِيــــنُ
رُدُّوا عليْهــمْ حكمَهــمْ فَعَليهـــمُ
نــزَلَ البيــانُ وَفِيهــمُ التبييـــنُ
البَيْــتُ بَيْــتُ اللـــهِ وَهــوَ معَظــمٌ
وَالنــورُ نــورُ اللـــهِ وَهــوَ مبيــنُ
وَالسِّترُ سِترُ الغيْــبِ وَهْوَ مُحَجَّــبٌ
وَالسِّــرُّ سِرُّ الوَحْيِ وَهْوَ مصُــونُ
النــورُ أنــتَ وَكــلٌّ نــورٍ ظلمــةٌ
وَالفــوقُ أنــتَ وَكــلٌّ فــوقٍ دُونُ

---

[1] أهــل العجــل: بنــو إسرائيــل.

[2] النواصــب: الذيــن ينصبــون لعــلي بــن أبي طالــب العــداء.

لــــوْ كانَ رَأيــكَ شَائِعــاً فِي أمـــةٍ

عَلِمُـــوا بما سَيَكـــونُ قبْــلَ يَكـــونُ

أوْ كَانَ بِشْرُكَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ لــمْ

يُكْسَفْ لَهَا عِنــدَ الشُّــرُوقِ جَبيــنُ

أوْ كَانَ سُخطكَ عدْوَةً فِي السُّمِّ لــمْ

يَحْمِلــهُ دُونَ لَهاتـــهِ التنِيــــنُ

لــمْ تسْكــنِ الدُّنيَــا فــوَاقَ بَكِيــةٍ

إلاَّ وَأنــتَ لِخوفهــــا تأميـــــنُ

اللـــهُ يَقبَــلُ نُسكنــا عنــا بمــا

يُرْضِيــكَ مِنْ هــدْيٍ وَأنتَ مُعِيــنُ

فَرْضَانِ مِنْ صَوْمٍ وَشُكــرِ خلِيفــةٍ

هــذَا بهــذَا عِندَنـــا مَقــــرُونُ

فَارزُقْ عِبَــادَكَ مِنكَ فَضْلَ شَفَاعَـــةٍ

وَاقــرُبْ بهمْ زُلــفَى فأنــت مَكِيــنُ

لـــكَ حمْدُنـــا لاَ أنــهُ لـــكَ مَفخــرٌ

مَــا قــدْرُكَ المَنثــورُ وَالمَــوزُونُ

قَدْ قالَ فِيــكَ اللـــهُ مَــا أنــا قائــلٌ

فكــأنَّ كــلَّ قصيــدَةٍ تَضْمِيــــنُ

اللـــهُ يَعْلَمُ أَنَّ رَأيــكَ فِي الـــوَرَى
مَأمـــونُ حـــزْمٍ عِنـــدَهُ وَأمِيـــــنُ
وَلأنتَ أفضَـــلُ مَنْ تشِيـــرُ بِجَاهِـــهِ
تحْـــتَ المِظلـــةِ بِالســـلاَمِ يَمِيـــنُ

ومـــع مـــرور الوقـــت، وتفـــاوت الزمـــن؛ بـــدأت أعـــراض الشيخوخـــة تـــدب في كيـــان الدولـــة الفاطميـــة؛ وذلـــك بعدمـــا فســـدت عصبيتهـــا، وتلاشـــت قوتهـــا؛ بافتـــراق الأنصـــار، وزوال الدعـــوة الصادقـــة، وانعـــدام الدعـــاة الأكفـــاء. وتلـــك هي سنـــة اللـــه في الحيـــاة، وذلـــك مـــا تقتضيـــه طبيعـــة الـــدول. وعليـــه فقـــد انتـــهى الأمـــر بالدولـــة الفاطميـــة ــ كمـــا انتـــهى بـــدول أخـــرى في ذلـــك العصـــرــ إلى السقـــوط والاندثـــار في القاهـــرة سنـــة 567هــ(1171م)؛ بواسطـــة صـــلاح الديـــن الأيـــوبي.

وعنـــد المقابلـــة بيـــن الدولتيـــن: الإدريسيـــة والفاطميـــة؛ ضمـــن منظـــور يبـــرز إنجازاتهمـــا الحضاريـــة والثقافيـــة. سرعـــان مـــا يتضـــح قصـــور الأدارســـة، وعجزهـــم، وضيـــق إمكاناتهـــم أمـــام الفاطمييـــن. لأنهـــم لـــم يتمكنـــوا مـــن إنجـــاز معالـــم حضاريـــة ذات قيمـــة كبيـــرة؛ تضـــاهي المعالـــم الحضاريـــة الفاطميـــة. وقـــد يعـــود السبـــب ــ عـــلى مـــا يبـــدو ــ إلى الوســـط القبـــلي الكثيـــف الـــذي يكتنـــف الدولـــة الإدريسيـــة، وإلى عجزهـــا عـــن التخلـــص منـــه. أمـــا الدولـــة الفاطميـــة؛ فقـــد شـــرع حكامهـــا في بعـــث بـــوادر حضاريـــة وثقافيـــة منـــذ البدايـــة.

ولكن في حدود ضيقة؛ لأن شدة الفتن القبلية وتلاحقها الواحدة بعد الأخرى في بداية عهدهم خلال المرحلة المغربية عطلت حركتها التنموية. ولم تتمكن هذه الدولة من تشييد حضارتها الممتازة إلا بعد التخلص من الوسط القبلي؛ الذي نشأت فيه ببلاد المغرب، أي بعد انتقالها إلى وسط آخر؛ يختلف عن الأول؛ في كونه انتقال من طور القبلية؛ إلى طور المؤسسات المتمدنة.

****

وهكذا نكتفي بهذا القدر من المعلومات التي تخص دول: الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. على أنه من الواجب التنبيه هنا إلى أن اهتمام هذا البحث كان محصورا ضمن فترة زمنية محددة؛ وعليه فقد تكون بعض الدول والإمارات التي ظهرت في فترات زمنية متأخرة لم يرد ذكرها في هذا البحث؛ وذلك تبعا لأسباب منهجية لا غير. على أن ذلك متروك للذين يرغبون في استكمال الموضوع حسب وجهة نظرهم.

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

ـ **آراء الخوارج الكلامية**: (تحقيق وتقديم عمار طالبي لكتاب الموجز لأبي عبد الله الكافي التناوتي الإباضي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.

ـ **الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى**: صالح باجية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1976م.

ـ **الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية: الإباضية في ليبيا)**: علي يحيى معمر، مكتبة وهبه، القاهرة.

ـ **ابن هاني**: أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

ـ **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، أحمد بن عمر بن أبي الضياف، (ت: 1291هـ/1845م): الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، والدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.

ــ **إتعــاظ الحنفــا بأخبــار الأئمــة الفاطمييــن الخلفــاء**: أحمــد ابــن عــلي المقريــزي، (ت: 845هــ/1441م)؛ تحقيــق جمــال الديــن الشيــال، دار الفكــر العــربي، القاهــرة، 1948م.
ــ **الإحاطــة في أخبــار غرناطــة**: لســان الديــن ابــن الخطيــب، (ت: 776هــ/1374م)؛ تحقيــق: محمــد عبــد اللــه عنــان، مكتبــة الخانــجي بمصــر، القاهــرة، ج: 1، ط: 2، 1973م، ج: 2، ط: 1، 1974م، ج: 3، ط: 1، 1975م، ج: 4، ط: 1، 1977م.
ــ **أحــزاب المعارضــة السياسيــة والدينيــة في صــدر الإســلام (الخــوارج والشيعــة)**: فلهــوزن؛ بوليــوس: ترجمــة عبــد الرحمــن بــدوي، مكتبــة النهضــة المصريــة، القاهــرة، 1958م.
ــ **أخبــار مجموعــة في فتــح الأندلس وذكــر أمرائهــا يرحمهــم اللــه والحــروب الواقعــة بهــا بينهــم**: لمجهــول، مكتبــة المثــني، بغــداد، طبــع بمطبعــة رِبَــدَنَــيِــرَ Rivadeneyra بمدريــد 1867م.
ــ **أخبــار ملــوك بــني عبيــد**: محمــد بــن عــلي بــن حمــاد الصنهــاجي، (ت: 626هــ/1230م)؛ تحقيــق جلــول البــدوي، المؤسســة الوطنيــة للكتــاب، الجزائــر، 1984م.
ــ **أخبــار وتراجــم أندلسيــة (مستخرجــة مــن معجــم السِّــفــر للسِّــلــفِي)**: أحمــد بــن محمــد **ال**سِّــلــفِي (ت: 576هــ/1180م)؛ تحقيــق إحســان عبــاس، دار الثقافــة، بيــروت، 1963م.

ــ **الأدب المغــربي**: محمــد بــن تاويــت، و محمــد عفيــفي، دار الكتــاب اللبنــاني، بيــروت، 1969م.
أزهــار الريــاض في أخبــار عيــاض: أحمــد بــن محمــد التلمســاني المقــري (ت:1041هــ/1631م)؛ تحقيــق مصطــفى السقــا، وإبراهيــم الأبيــاري، وعبــد الحفيــظ شلــبي، مطبعــة التأليــف والترجمــة والنشــر، القاهــرة، 1892م ــ 1942م.
ــ **الإستقصــاء لأخبــار دول المغــرب الأقــصى**: أحمــد بــن خالــد الناصــري الســلاوي، (ت: 1315هــ/1897م)؛ تحقيــق جعفــر الناصــري، ومحمــد الناصــري، دار الكتــاب بالمغــرب، الــدار البيضــاء، 1954 ــ 1956م.
ــ **الإســلام في إسبانيــا**: لطــفي عبــد البديــع، مكتبــة النهضــة المصريــة، القاهــرة، ط: 1، 1958م.
ــ **الأعــلام (قامــوس تراجــم لأشهــر الرجــال والنســاء مــن العــب والمستعربيــن والمستشرقيــن)**: خيــر الديــن الزركــلي، مطبعــة كوستــا تسومــاس وشركــاه، 1954م ــ 1959م).
ــ **أعمــال الأعــلام في مــن بويــع قبــل الاحتلام مــن ملــوك الإســلام**: لســان الديــن محمــد بــن الخطيــب السلمــاني (ت: 776هــ/1374م)، (القســم المخصــص لتاريــخ إسبانيــا الإسلاميــة)؛ تحقيــق ليــفي بروفنســال، دار المكشــوف، بيــروت، 1956م.

ــ **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي**)؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

ــ **الأغالبة، نظامهم الاداري والسياسي**: محمد المسعود الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، (سلسلة اعلم)، 1970م.

ــ **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**: حسن بن رشيق القيرواني (قد تكون وفاته في سنة 456هـ/1063م)؛ تحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

ــ **الأنيس المطرب بروض القرطاس**: علي بن عبد الله بن أبي زرع، أو عبد الحليم بن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ثم نسخة مطبوعة حجريا؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال، السويد، 1943م.

ــ **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**: يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م)؛ تحقيق ألفرد بل،

والغوثي أبو علي، مطبعة فنطانة الشرقية، الجزائر، ج: 1، 1903م، وج: 2، 1910م، والنسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

ـ **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**: أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت: 599هـ/1202م)؛ مكتبة المثنى، بغداد، وطبع بمطبعة روخس، مدريد، 1884م.

ـ **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي**: إبراهيم العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: محمد بن عذاري المراكشي (ت: 669هـ/1272م)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

ـ **تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)**: إحسان عباس؛ دار الثقافة، بيروت، 1978م.

ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج: 1 ـ 2، ط: 7، 1964، ج: 3، ط: 7، 1965م، ج: 4، ط: 1، 1968م.

ـ **تاريـــخ افريقيـــة والمغــرب**: إبراهيــم بــن القاســم المعــروف بالرقيــق القيــرواني (ت: بعــد 417هــ/1026م)؛ تحقيــق المنــجي الكعــبي، نشــر رفيــق السقــطي، تونــس، 1968م.
ـ **تاريـــخ الأمـــم والملـــوك**: محمــد بــن جريــر الطبــري (ت: 310هــ/923م)، مكتبــة خيــاط، بيــروت.
ـ **تاريـــخ الجزائـــر العـــام**: عبــد الرحمــن الجيــلالي، دار الثقافــة، بيــروت، 1980م.
ـ **تاريـــخ الجزائـــر في القديـــم والحديـــث**: مبــارك بــن محــمد الميــلي، الشركــة الوطنيــة للنشــر والتوزيــع، الجزائــر، 1976م.
ـ **تاريـــخ الدولـــة الفاطميـــة في المغــرب ومصــر وسوريـــة وبـــلاد العـــرب**: حســن إبراهيــم حســن، مكتبــة النهضــة المصريـــة، القاهــرة، ط: 3، 1964م.
ـ **تاريـــخ صقليـــة الإسلاميـــة**: عزيــز أحمــد، الــدار العربيــة للكتــاب، طرابلــس، ليبيــا، 1980م.
ـ **تاريـــخ علمـــاء الأندلـــس**: عبــد اللــه بــن محمــد الأزدي بــن الفــرضي (ت: 403هــ/1012م)، الــدار المصريــة للتأليــف والترجمـــة، 1966م.
ـ **تاريـــخ الفـــرق الإسلاميـــة ونشـــأة علـــم الكـــلام عنـــد المسلميـــن**: عـــلي مصطـــفى الغـــزالي، مكتبـــة ومطبعـــة محمـــد عـــلي صبيـــح وأولاده، القاهـــرة، 1959م.

ـ **تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)**: علي بن عبد الله النُّباهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا (ج: 1، الحروب الأهلية)**: دوزي؛ رينهارت؛ ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.

ـ **تاريخ المغرب الكبير**: محمد علي دبوز، طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م ــ 1974م.

ـ **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**: محمد بن عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.

ـ **تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض)**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: 544هـ/1149م)؛ تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، 1968م.

ـ **التكملة لكتاب الصلة**: محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956م.

ـ **تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)**: محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحواله السياسية)**: خليل إبراهيم صالح السامرائي، جامعة بغداد، 1976م.

ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**: محمد ابن أبي نصر الحميدي الأزدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

ـ **جمهرة أنساب العرب**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

ـ **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول**: شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.

ـ **حضارة العرب في الأندلس**: خير الله طلفاح، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.

ـ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**: محمد بن محمد السراج الأندلسي (ت: 1149هـ/1736م)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 ـ 1973م.

ـ **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس)**: محمد بن محمد الأصفهاني (ت:

597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971ـ 1972ـ 1973م.

ـ **الخوارج في المغرب الإسلامي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا)**: محمود إسماعيل.

ـ **دائرة المعارف الإسلامية**: محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.

ـ **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.

ـ **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي**: جمع وتعليق: محمد رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966م.

ـ **دليل المؤرخ في المغرب الأقصى**: عبد السلام بن سودة؛ دار الكتاب، المغرب، الدار البيضاء، 1960م.

ـ **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**: محمد بن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

ــ **دولـــة الأدارســـة ملـــوك تلمســـان وفـــاس وقرطبـــة**: إسماعيـــل العـــربي، ديـــوان المطبوعـــات الجامعيـــة، الجزائـــر، 1983م.

ــ **دولـــة الإســـلام في الأندلـــس (العصـــور: الأول، والثـــاني، والثالـــث، والرابـــع)**: محمـــد عبـــد اللـــه عنـــان، لجنـــة التأليـــف والترجمـــة والنشـــر، القاهـــرة، 1960م ــ 1969م.

ــ **الدولـــة الأغلبيـــة (التاريـــخ السيـــاسي)**: محمـــد الطالـــبي؛ ترجمـــة المنـــجي الصيـــادي، دار الغـــرب الإســـلامي، بيـــروت، 1985م.

ــ **الدولـــة العربيـــة في إسبانيـــا**: إبراهيـــم بيضـــون، دار النهضـــة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر، بيـــروت، 1980م.

ــ **ديـــوان ابـــن هـــاني الأندلـــسي**: دار بيـــروت للطباعـــة والنشـــر، بيـــروت، 1980م.

ــ **الذخيـــرة في محاســـن أهـــل الجزيـــرة**: عـــلي بـــن بســـام الشنتريـــني الأندلـــسي (ت: 542هــ/1147م)؛ تحيـــق إحســـان عبـــاس، الـــدار العربيـــة للكتـــاب، ليبيـــا، وتونـــس، 1975م ــ 1979م.

ــ **رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة**: القـــاضي أبـــو حنيفـــة النعمـــان بـــن محمـــد بـــن حيـــون (ت: 363هــ/973م)؛ تحقيـــق وداد القـــاضي، دار الثقافـــة، بيـــروت، 1970م.

ـ **رسائل بن حزم الأندلسي**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م.

ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام)**: محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

ـ **السجلات المستنصرية**: تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.

ـ **السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي**: محمد الصالح مرمول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **شذرات الذهب في من أخبار من ذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء**: أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

ـ **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**: عبد العزيز المجدوب، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.

ـ **صلة الصلة**: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت: 708هـ/1308م)، مكتبة خياط، بيروت.

ـ **ضحى الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10.

ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس**: أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني (ت: 333هـ/944م)؛ تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن الباني، الدار التونسية للنشر، 1968م.

ـ **طبقات المشائخ بالمغرب**: أحمد بن سعيد الدرجيني (ت: 670هـ/1271م)؛ تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.

ـ **ظهر الإسلام**: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952 ـ 1959م

ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**: عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

ـ **عصر هشام بن عبد الملك**: عبد المجيد محمد صالح الكبيسي، جامعة بغداد، بغداد، 1975م.
ـ **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**: عبد الكريم جودت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**: عبد العزيز فيلالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
ـ **فتوح مصر والمغرب**: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت:257هـ/871م)؛ تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961م.
ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10، 1969م.
ـ **فجر الأندلس**: حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.
ـ **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**: ألفرد، بل؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1181م.
ـ **فوات الوفيات والذيل عليها**: محمد بن أحمد بن شاكر الكتبي (ت: 764هـ/1362م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973 ـ 1974م.

ـ **في التاريخ العباسي والفاطمي**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971م.
ـ **في تاريخ المغرب والأندلس**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
ـ **القبائل الأمازيغية**: بوزياني الدراجي؛ دار الكتاب العربي، الجزائر، (ج: 1: 1999م ـ وج: 2: 2000م).
ـ **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**: الفتح بن محمد بن خاقان الإشبيلي (ت: 529هـ/1134م)؛ تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
ـ **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي**: الحبيب الجنحاني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **الكامل في التاريخ**: علي بن أبي المكارم الجزري المعروف بابن الأثير (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.
ـ **كتاب الجغرافيا**: علي بن موسى بن سعيد (ت: 685هـ/1274م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
ـ **كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**: عبد الله بن محمد المالكي (قد تكون وفاته في سنة 474هـ/1081م)؛ تحقيق بشير البكوش، ومحمد

العــروسي المطــوي، دار الغــرب الإســلامي للطباعــة والنشــر، بيــروت، 1981م ــ 1983م.

ــ **كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم**: أبــو زكريــاء يــحي بــن أبي بكــر الورجــلاني (ت: 471هــ/1078م)؛ تحقيــق إسماعيــل العــربي، ديــوان المطبوعــات الجامعيــة، الجزائــر، 1984م.

ــ **كتــاب الصلــة**: خلــف بــن عبــد الملــك بــن بشكــوال (ت: 578هــ/1182م)، الــدار المصريــة للتأليــف والترجمــة.

ــ **كتــاب فتــوح البلــدان**: أحمــد بــن يــحي البــلاذري (ت: 279هــ/892م)؛ تحقيــق صــلاح الديــن المنجــد، مكتبــة النهضــة المصريــة، القاهــرة.

ــ **كتــاب المفصــل في الملــل والأهــواء والنحــل**: عــلي بــن أحمــد بــن حــزم الأندلــسي (ت: 456هــ/1063م)؛ ج:1، 1317هــ، ج: 2 ــ 3، 1320هــ، المطبعــة الأدبيــة بمصــر، ج: 4، 1321هــ، مطبعــة التمــدن بمصــر، ج: 5، 1321هــ، مطبعــة الموسوعــات بمصــر.

ــ **المجتمعــات الإسلاميــة في القــرن الأول (نشأتهــا، مقوماتهــا، تطورهــا اللغــوي والأدبي)**: شكــري فيصــل، دار العلــم للملاييــن، بيــروت، 1966م.

ــ **مجموعــة الوثائــق الفاطميــة**: جمــال الديــن الشيــال، دار المعــارف بمصــر، القاهــرة، ط: 2، 1965م.

ـ **مختصر تاريخ الإباضية**: سليمان الباروني (ت: 1359هـ/1940م).
ـ **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.
ـ **مصر في عصر الدولة الفاطمية**: محمد جمال الدين سرور؛ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة؛ (سلسلة 1000 كتاب)، 1960م.
ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**: عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.
ـ **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.
ـ **معجم البلدان**: أبو عبد الله الرومي البغدادي المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.
ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

ـ **المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)**: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
ـ **المغرب في حلى المغرب**: أبو محمد الحجاري، وعبد الملك بن سعيد، وآخرون؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964م.
ـ **المغرب عبر التاريخ**: إبراهيم حركات، مطبعة دار السلمي بالمغرب، الدار البيضاء 1965م
ـ **المغرب العربي تاريخه وثقافته**: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.
ـ **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك)**: عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيق ماك قوكين دي سلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبة أمريكا والشرق، بباريس، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris، 1965م.
ـ **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**: حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ القطعة التي حققها عبد الرحمن علي حجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**: حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ وهي القطعة التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.
ـ **مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)**: محمد بن عبد الله الحمودي الإدريسي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/ 1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
ـ **مقدمة ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1965م، وج: 2، 1966م، وج: 3، 1967م، وج: 4، 1968م.
ـ **المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)**: أماري؛ ميخائيل: مكتبة المثنى، بغداد و PRESSO F. A. BROCKHAUS Libraio .Della Societa LIPSIA. 1857.
ـ **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري**: إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

ـ **الملـل والنحـل**: محمـد بـن عبـد الكريـم الشهرستـاني (ت: 548هـ/1153م)، دار المعرفـة للطباعـة والنشـر، بيـروت، 1975م.

ـ **المهـدي المنتظـر بيـن العقيـدة الدينيـة والمضمـون السيـاسي**: حجـاب؛ محمـد فريـد؛ المؤسسة الوطنية للكتـاب بالجزائـر 1984م.

ـ **نبـذ تاريخيـة في أخبـار البربـر في القـرون الوسـطى (منتخبـة مـن المجمـوع المسـمى بكتـاب مفاخـر البربـر**: لمجهـول عـاش في سنـة 712هـ (وربمـا كـان لأبي عـلي صالـح بـن عبـد الحليـم؛ حسـب تحقيـق مـوسى لقبـال)؛ تحقيـق ليـفي بروفنسـال 1934م.

ـ **النجـوم الزاهـرة في ملـوك مصـر والقاهـرة**: أبـو المحاسـن يوسـف الأتابـكي ابـن تـَغـرِي بَـرْدِي (ت: 874هـ/1469م)، المؤسسـة المصريـة العامـة للتأليـف والترجمـة والطباعـة والنشـر، 1963م.

ـ **نظـم الحكـم والرسـوم في دولـة بـني عبـد الـواد الزيانيـة**: بوزيـاني؛ الـدراجي، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائـر، 1993م.

ـ **نظـم الـدر والعقيـان في بيـان شـرف بـني زيـان وذكـر ملوكهـم الأعيـان ومـن ملـك مـن أسلافهـم ممـا مـضى**

مـــن الزمـــان: محمــد بــن عبــد اللــه التلمســـاني التنــسي (ت: 899هــ/1493م)، مخطــوط الخزانـــة العامـــة بالربـــاط.
ــ **نظــم الفاطميــين ورسومهــم في مصــر**: عبــد المنعــم ماجــد، مكتبــة الأنجلــو المصريـــة، القاهــرة، 1953م.
ــ **نفــح الطيــب مــن غصــن الأندلــس الرطيــب وذكــر وزيرهــا لســان الديــن بــن الخطيــب**: أحمــد بــن محمــد التلمســـاني المقــري (ت: 1041هــ/1631م)؛ تحقيــق إحســـان عبـــاس، دار صـــادر، بيـــروت، 1968م،
ــ **نهايـــة الأرب في فنـــون الأدب**: أحمــد بــن عبــد الوهـــاب النويـــري (ت: 733هــ/1332م)، المؤسســـة المصريـــة العامـــة للتأليـــف والترجمـــة والطباعـــة والنشـــر بمصـــر، 1954م.
ــ **نهايـــة الأرب في معرفـــة أنســـاب العـــرب**؛ أحمــد بــن عــلي القلقشنــدي (821هــ/1418م)؛ تحقيـــق إبراهيـــم الأبيـــاري، الشركـــة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر، القاهـــرة، 1959م.
ــ **الوثائـــق السياسيـــة والإداريـــة العائـــدة للعصـــر الأمـــوي**: محمــد ماهـــر حمادة، مؤسســـة الرسالـــة، بيـــروت، ط: 1، 1974م.
ــ **ورقـــات عـــن الحضـــارة العربيـــة بإفريقيـــة التونسيـــة**: حســـن حســـني عبـد الوهـــاب، مكتبـــة المنـــار، تونـــس، 1966 ــ 1972م.

ـ **الـوزارة والـوزراء في العصـر الفاطـمي**: محمـد حمـدي المنـاوي، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، 1970م.
ـ **وصـف إفريقيـا**: الحسـن بـن محمـد الـوزان الفـاسي الشهيـر بليـون الأفريـقي (ت: بعـد 957هـ/1550م)؛ ترجمـه عـن الفرنسيـة: محمـد حـجي، و محمـد الأخضـر، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت 1983م.
ـ **وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان**: أحمـد بـن محمـد بـن خلكـان (ت: 681هـ/1282م)؛ تحقيـق إحسـان عبـاس، دار صـادر ببيـروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 7،1971م، ج: 8، 1972م.

<u>المـراجـع بالـلـغـة الأجـنـبـيـة:</u>

- ABOU OBEID EL-BEHRI: - **Description de l'afrique septenrionale**. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.
- BEL - ALFRED: - **La religion musulmanes en Berbérie** (Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.
- BOURDIEU. PIERRE: - **Sociologie de L'Algérie**. Presses Universitaires de Paris, 1970.
- BOUSQUET (G.H.): - **Les Berberes**. Presses Universitaires de france 1967.
- BREMOND. C.R (Général): - **Berbères et Arabes**, Payot, Paris, 1950.

- FARHAT. DACHRAOUI: - **LE CALIFAT FATIMIDE au MAGHREB.** S. T. D. TUNIS. 1981.
- GAUTIER. (EMILE .F.): - **Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)** Payot , Paris, 1952.
- IDRIS. Hady Roger: - **La Berbérie Orientale .Sous les Zirides (Xème - XIIème Siècles).** Librairie D'Amérique et D'Orient Adrien - Maisonneuve , Paris, 1981.
- JEAN LEON LAFRICAIN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- MARCAIS GEORGES: - **La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,** Editions Montaigne , Paris. 1946. et
-MARCAIS GEORGES: **Les Arabes en Berbérie**

فهرس المحتويات